
التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ
ويليه تتمة عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

التأويلات النجمية

في التفسير الإشاري الصوفي

تأليف

الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد

نجم الدين الكبرى

المتوفى ٦١٨ هـ

ويليه تتمته

عين الحياة

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى ٧٣٦ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الخامس

المحتوى:

من أول سورة الروم - إلى آخر سورة الطور



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH
Followed by: ʿAYN AL-ḤAYĀT

Classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Najmuddīn al-Kubrā
and: ʿAlāʾuddawlah al-Simnāni
Editor : Ahmad Farid al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiayh
Pages : 2464 (6 volumes)
Size : 17*24
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

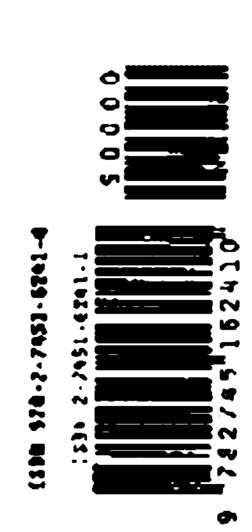
الكتاب : التأويلات النجمية
ويليه تتمته : عين الحياة

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : نجم الدين الكبرى
وعلاء الدولة السمناني
المحقق : أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميــة - بيروت
عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
قياس الصفحات: 17*24
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soleh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +961 5 804810/11/12
فاكس: +961 5 804813
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت 11072290



سورة الروم

مكية وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: 1 – 7].

﴿الـم﴾ [الروم:1] يشير بالألف إلى ألفة طبع الموضع بعضهم لبعض، وباللام يشير إلى أن ألفة المؤمنين لما كان من كرم الله وفضله بالله ألف بين قلوبهم انتهت إلى غاية حصلت ألفة ما بينهم وبين أهل الكتاب إذا كانوا يومًا من أهل الإيمان وإن كان اليوم خاليًا عن ذلك، وإنه لو عم الكافرين لما كان جليًا غلب عليهم حتى من لزم طبعهم أنهم يعادون بعضهم بعضًا، وأن مغفرة رب العالمين لما كانت من كرمه العميم وإحسانه القديم انتهت إلى غاية شملت الفريقين ليتوب على العاصي من الحزبين ويعم الطائفتين خطاب: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر:53].

وبقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:2، 3] يشير إلى إعجاز القرآن وصحة نبوة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه؛ إذ أخبر عن حال غيبي، وأنه جاء كما أخبر بعد سبع سنين، وفيه إشارة إلى أن حال أهل الطلب يتغير بحسب الأوقات، ففي بعض الأحوال يغلب فارس النفس على روم القلب للطالب الصادق فينبغي ألا يزل هذا قدمه عن صراط الطلب ويكون له قدم صدق عند الله بالثبات.

وأما قوله: ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] أي: سيغلب روم القلب على فارس النفس بتأييد الله ونصرته ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:4] من أيام الطلب ﴿لله

الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] يعني: غلبة فارس النفس على روم القلب كان أولاً بحكم الله وتقديره، وله في ذلك حكمة بالغة في صلاح الحال والمآل ألا ترى أن فارس نفس جميع الأنبياء والأولياء في البداية غلبت على روم قلبهم ثم غلبت روم قلبهم على فارس نفسهم ومن بعد غلبة روم القلب على فارس النفس أيضًا بحكم الله فإنه يحكم فلا معقب لحكمه.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ [الروم:4] يعني: يوم غلبت الروم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:4] يعني: الروح والسر والعقل﴿بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:5] المؤمنين على الكافرين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ [الروم:5] فبعزته يعز أولياءه ويذل أعداءه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5] برحمته ينصر أهل محبته وهم أرباب القلوب ﴿وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [الروم: 6] من نسي ألطافهم معهم.

﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:6] صدق وعده ووفاء عهده لأنهم، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم:7] يجدون ذوق حلاوة شهوات الدنيا بالحواس الظاهرة ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ [الروم:7] كمالاتها ووجدان دون شهواتها بحواس الباطلة أنها موجبة للبقاء الأبدي وأن عسل شهوات الدنيا مسموم يُهلك ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:7] لاستقرائهم في بحر البشرية وتراكم أمواج أوصافها الذميمة.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم: 8 - 11].

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الروم:8] بالعقل السليم ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:8] أي: في خلق أنفسهم وكمالية استعدادها أنه ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ﴾ [الروم:8] سماوات الروحانية والأرض أرض النفسانية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الروم: 8] أي: مظهر لصفات الحق

فإنها مخصوصة من الموجودات بمرآة صفات جماله وجلاله.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: 8] يعني: بالصبر والثبات في تصفية مرآة القلب عن صدأ الأوصاف الذميمة النفسانية، والأجل المسمى هو صفاء القلب وتوجهه إلى الحق تعالى شوقًا إلى لقائه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [الروم: 8] من الناسين أي لا من المؤمنين الذاكرين، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم:8] أي: مع أنهم عن الشهود لمعزولون بالإيمان بلقائه أيضًا، لكافرون جاحدون منكرون كالمعتزلة وتابعيهم.

ثم أخبر أن بالسير يحصل اعتبار الأخيار بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [الروم:9] يشير إلى طلبة العلم الذين يشرعون في علوم غير نافعة بل مضرة مثل الكلام والمنطق والمعقولات فتؤثر عليهم عقيدتهم على مذهب أهل السنة والجماعة، وإن وقعوا في أدنى شك في الكفر فيقول لهم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض البشرية والسير فيها إنما يكون بالعبور عليها والخروج عنها وتبديلها بالأخلاق الحميدة الروحانية لتزكي النفس عن لوث هذه الصفات مثل الكبر والغضب والحقد والحرص والشهوات والشره والحسد، وأمثالها من المذمومات وتصفي القلب عن ظلمته ورينه وتخلص الروح عن حجبها وتتجلى بحلية نور الإيمان ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بعد ذلك بنور الإيمان الحقيقي.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:9] من الفلاسفة أنهم كانوا أشد منهم قوة في علم المقال، ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ [الروم:9] أرض البشرية بالرياضة والمجاهدة ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بتبديل الأخلاق والاستدلال بالدلائل العقلية والبراهين المنطقية ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:9] المتأخرون؛ لأنهم كانوا أطول أعمارًا منهم فوسوس لهم الشيطان وغرهم بعلومهم العقلية واستبدت نفوسهم بها وظنوا أنهم غير محتاجين إلى الشرائع ومتابعة الأنبياء.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم:9] بالمعجزات الظاهرة فلم يؤمنوا بها ونسبوها إلى السحر والنيرنج[1] واعتمدوا على سؤالات نفوسهم من الشبهات بحسبان

---

(1) قيل هو معرب «نيرنك» هو التمويه والتخييل قالوا ذلك تمزيج قوى جواهر الأرض ليحدث منها أمر عجيب.

أنها من البراهين القاطعة فأهلكهم الله في أودية الشكوك والخيال، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بالابتلاء بهذه الآفات بأن يكلهم إلى وساوس الشيطان وهواجس نفوسهم ولا يرسل إليهم الرسل ولا ينزل معهم الكتب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:9] بتكذيب الأنبياء ومتابعة الشيطان وعبادة الهوى.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى﴾ [الروم:10] أي: عاقبة أمر الفلاسفة الذين هم مكذبوا الأنبياء لما أساءوا بتكذيب الأنبياء بأن صاروا أئمة الكفرة وصنعوا الكتب في الكفر وأوردوا فيها الشبهات على بطلان ما جاء به الأنبياء من الشرائع والتوحيد وسمو الحكمة وسمو أنفسهم الحكماء فالآن بعض المتعلمين من الفقهاء، إما لوفور حرصهم على العلم والحكمة، وإما لخباثة الجوهر، وليتخلصوا من تكاليف الشرع، يطالعون تلك الكتب ويتعلمونها، وبتلك الشبهات التي درسوا بها كتبهم يهلكون في أودية الشكوك ويقعون في الكفر.

وهذه الآفة وقعت في الإسلام من المتقدمين والمتأخرين منهم، فكم من مؤمن عالم فسدت عقيدتهم بهذه الآفة وأخرجوا ربقة الإسلام من عنقهم فصاروا من جملتهم، ودخلوا في زمرتهم داخل هذه الآفة يبقى في هذه الأمة إلى قيام الساعة فإن كل يوم يزدادون ويقل طلبة علوم الدين من التفسير والأحاديث والمذهب، ويكثر طلبة علوم الفلسفة والزندقة ويسمونها الأصول والكلام.

وقد قال الشافعي ﷺ: «من تكلم تزندق» ثم وبال هذه الجملة إلى قيام الساعة يكتب في ديوان من سن هذه السنة السيئة ومن أوزار من عمل من غير أن ينقص من أوزارهم شيء على أن كذبوا بآيات الله بالقرآن واستهزءوا بها وسموا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصحاب النواميس وسموا الشرائع الناموس الأكبر عليهم لعائن الله تترى.

ويقول: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم:11] يشير إلى أنه تعالى كما بدأ روح الإنشاء ورده إلى أسفل سافلين القالب، ثم يعيده بطريق السير والسلوك على المعاملات والمنازل التي أنزل عليها إلى عالم الأرواح ثم بجذبة ارجعي إليه ترجعون.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ

بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: 12 – 17].

ثم أخبر عن حال المجرمين في يوم الدين قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم:12] يشير إلى أن من مات بالإرادة قبل أن يموت بالطبيعة فقد قامت قيامته أنهم يندمون بما أجرموا بالإعراض عن الله وطلبه وأشركوا في طلب ما سوى الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم:13]، ليقربوهم إلى الله بل أبعدوهم عن الحضرة ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: صاروا كافرين بطلب غير الله ومحبتهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم:14] أي: إذا قامت قيامة العشق على المحبين ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[1] [الروم:14] المحبون فرق: فريق هم أهل القربة، وفريق هم أهل الوصلة، وفريق هم أهل المعرفة، وفريق هم الملوك على أسرة الوجود متوجون بتيجان العزة، منعمون تحت قباب الغَيرة كما أشار إلى أحوالهم بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الروم:15] بالمحبة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الروم:15] في طلب الوصلة، ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ من رياض الأنس ﴿يُحْبَرُونَ﴾ ويسرون بسماع ملاطفات المحبوب ويتنعمون عن إمساكه وأما الذين كفروا بالإعراض عن الله والإقبال على غير الله، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ [الروم: 16] أي: بمشاهدة شواهدنا ﴿فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ﴾ [الروم:16] عذاب البعد وألم حرقة

---

(1) من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعًا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعاد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة.

قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلٌّ إلى ما قُدِّر له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محل السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يألف الحق أبدًا فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين. [عرائس البيان].

الفراق والنيران المشتعلة على أنفسهم بالشهوات ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:16] إلى أبد الآباد ويقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ [الروم: 17] بفاء التعقيب عقيب الآيتين يشير إلى تنزيه حضرة جلاله من نقص أو شين يعود إليه ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم:17] أي: حين تقبلون على ليل نيل شهوات الدنيا بالإعراض عن الله يا كافري النعم من أرباب النفوس ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:17] أي: وحين تقبلون على صباح نهار تجلي شموس الوصال بالإعراض عن غير الله.

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) ﴾ [الروم: 18 - 22].

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ في الحالتين إن كنتم ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الروم:18] سموات القربات والوصلات.

﴿وَالأَرْضِ﴾ [الروم:18]، وإن كنتم في أرض البعد والقربات ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم: 18] أي: عشاء غشاوة القلوب بالقساوة والاستغراق في بحر الغفلات ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:18] عند استواء شمس العرفان وسعة سماء القلوب واستهلاك وجود العارف في عين الشمس باقيًا بعين الشمس، فإن الربح والخسران في تلك الحالتين راجع إلى الطائفتين ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:6].

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ﴾ [الروم:19] بنور الله ﴿مِنَ المَيِّتِ﴾ [الروم:19] أي: من النفس الميتة عن صفاتها وأخلاقها الذميمة إظهارًا للطفه ورحمته ﴿وَيُخْرِجُ المَيِّتَ﴾ أي: القلب الميت عن الأخلاق الحميدة الروحانية ﴿مِنَ الحَيِّ﴾ [الروم:19].

﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:19] من النفس الحية بالصفات الحيوانية الشهوانية إظهارًا لقهره وعزته.

ثم أخبر عن الآيات البينات الدالة على خلقه المخلوقات بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم:20] يشير إلى أن التراب أبعد الموجودات عن الحضرة؛ لأنا إذا نظرنا على الحقيقة وجدنا أقرب الموجودات إلى الحضرة عالم الأرواح؛ لأنه أول ما خلق الله الأرواح ثم العرش؛ لأنه محل صفة رحمانية، ثم الكرسي، ثم السماء السابعة، ثم السموات كلها، ثم فلك الأثير، ثم فلك الزمهرير الهواء، ثم الماء ثم التراب وهو جماد لا حس فيه ولا حركة وليس له قدرة على تغيير ذاته وتبديل صفاته، فلما وجدنا ذاته متغيرة عن وصف الترابية صورة ومعنى وصفاته متبدلة كتغير صورته بصورة البشر وتبدل صفته بصفة البشرية؛ علم أنه محتاج إلى مغير ومبدل وهو الله سبحانه وتعالى.

وأشار بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:20] يعني: كنتم ترابًا جمادًا ميتًا أبعد الموجودات عن الحضرة جعلتكم بشرًا بنفخ الروح فإنه آية أظهر وأبين من الجمع بين أبعد الأبعدين والأقربين بكمال القدرة والحكمة، وجعلتكم مسجود الملائكة المقربين وجعلتكم مرآة مظهرة بجميع صفات جمالي وجلالي ولهذا السر جعلتكم خلائف الأرض.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم:21] يعني: ازدواج الروح والنفس فإنه تعالى خلق النفس من الروح وجعلها زوجه كما خلق حواء من آدم وجعلها زوجة ليسكن إليها يعني: الأرواح إلى النفوس كما سكن آدم إلى حواء، ولو لم تكن حواء لاستوحش آدم في الجنة كذلك الروح، ولو لم تكن النفس خلقت منه لسكن إليها واستوحش من القالب ولم يسكن فيه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ [الروم:21] أي: بين الروح والنفس ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:21] ألفة واستئناسًا ليسكن في القالب.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21] بالفكر السلبي في الإنسان كيف أودع الله فيه سرًا من المعرفة التي كل المخلوقات كانت في الخلقة تبعاً لها، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ﴾ [الروم: 22] سموات القلوب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: 22] أرض النفوس، ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ [الروم: 22] أي: اختلاف ألسنة القلوب في ألسنة النفوس فإن لسان القلوب يتحرك بالميل إلى العلويات وفي طلبها يتكلم ولسان النفوس يتحرك بالميل إلى السفليات وفي طلبها يتكلم.

﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:22] أي: وطبائعكم المختلفة منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:22] العارفين الذين عرفوا حقيقة أنفسهم وكمالياتها فعرفوا الله ورأوا آياته إراءة إياهم لقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: 23 - 27].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الروم:23] ليل البشرية ﴿وَالنَّهَارِ﴾ [الروم:23] نهار الروحانية، ﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ [الروم:23] في الواقعات ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: من المواهب الربانية التي هي مشتملة على أنواع المكاشفات والمشاهدات والمكالمات وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:23] كلام الله ومخاطباته وإشارة من شجرة الموجودات كما سمع من الشجرة ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم:24] أي: برق شواهد الحق عند انخراق سحاب حجب البشرية وظهور تلألؤ أنوار الروحانية أولها برق، ثم اللوامع ثم الطوالع ثم الإشراق ثم التجلي فينور البرق فيرى شهوات الدنيا أنها نيران فيخاف منها ويتركها ويرى مكروهات تكاليف الشرع على النفس أنها جنان فيطمع فيها ويطلبها.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الروم:24] أي: من سماء الروح ماء الرحمة ﴿فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ﴾ أرض القلوب ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمعاصي والذنوب واستغراقها ببحر الدنيا وتموج شهواتها برياح الخذلان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:24] لا يبيعون الآخرة بالأولى ولا قربات المولى بنعيم جنة المأوى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ﴾ [الروم:25] سماء

القلب ﴿وَالأَرْضُ﴾ [الروم:25] أرض النفس ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بالروح لأن الروح من أمره، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى الحق بجذبة خطاب ارجعي، ﴿دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ [الروم: 25] ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:25] يعني: النفس والقلب والروح من أنانية وجودكم إلى هوية جوده، ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الروم:26] الروحانية، ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الروم: 26] أرض البشرية وأرباب القلوب وأصحاب النفوس، ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:26] مطيعون بأن يكونوا مظهر صفات لطفه يعني: له باب القلوب ومظهر صفات نهرهم يعني: أصحاب النفوس ولذلك خلقهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ﴾ [الروم:27] بإشارة ﴿كُن﴾، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بنفخ صور إسرافيل ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: البداءة من الإعادة لأنه في البداءة كان بنفسه مباشرًا بنفسه للخليقة وفي الإعادة كان المباشر إسرافيل بنفخه، والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق وعنده سواء؛ لأن أفعال الأغيار أيضًا مخلوقة وفيه إشارة في غاية الدقة واللطافة أن الخلق أهون عند الله عند الإعادة منهم عند البدأة؛ لأنه في البداية لم يكونوا ملوثين بلوث الحدوث ولا متدنسين بدنس الشرك في الوجود بأن يكونوا شركاء في الوجود مع الله فلعزتهم في البداية باشر بنفسه خلقتهم وفي الإعادة لهوانهم باشر بنفس غيره.

﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم:27] فيما أودع من الآيات في السموات في سموات الأرواح والقلوب والأرض وأرض النفوس والأبدان، بالحكمة البالغة والقدرة الكاملة ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ [الروم:27] أي: أعز من أن تعرفه العقول وتدركه الأبصار ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:27] بأن يعرف من يشاء كمالية ذاته وصفاته بقدر ما يشاء، ويضرهم بمشاهدة جماله وجلاله كما يشاء.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٢٨ - ٣٠].

ثم أخبر عن ضرب الأمثال بالفضل والأفضال بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ [الروم:28] يشير إلى الروح والقلب والسر والعقل ﴿مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ معكم ﴿هَل لَّكُم﴾ [الروم:28] يا روح وأتباعه.

﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ [الروم:28] أي: الأعضاء والجوارح والحواس والقوى التي نسبتها إليكم نسبة العبد مع المولى إلى ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:28] كم من العلوم والكشوف والشواهد والمواهب الربانية يشاركونكم فيها، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ﴾ [الروم:28] وهم في المواهب.

﴿سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ﴾ [الروم:28] ألا تضيعوا شيئًا من المواهب بالتصرفات الفاسدة فيها ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:28] يعني: تصفية الروح عن القلب ألا يضيع شيئًا مما أفاض إليه من الفيض الإلهي والمواهب الربانية بأن يصرفها في غير موضعها رياءً وسمعة، وطلب مراد هواه عند إظهار شيء منها وتصفية القلب عن السر والعقل بأن تصرفها فيها بنوع من التصرفات الفاسدة التي تفسد العقائد، وتوقع في الشكوك والظنون الفاسدة والشبهات العقلية وغيرها من الآفات فكما لا يصلح هؤلاء لشركهم؛ لأنكم معهم بمثابة الملوك مع العبد، كذلك هم مع حسن استعدادكم في قبول الفيض الإلهي يا روح وأتباعه لا تصلحون أن تكونوا شركاء في كمالية ذاتي وصفاتي إذا تجليت عليكم، فبسطوات أنوار جمالي وجلالي تنمحي آثار ظلمات أوصافكم وبأنوار صفاتي تشاهدون صفاتي فتسبحوني أن أكون صرت حالاً فيكم، أو صرتم بعضًا مني أو تصيرون أنا، أو أصير أنتم، فإن «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[1] ومن كبريائي ألا أكون جزءًا لأحد أو مثلاً ومن عظمتي أن لا يكون أحد جزئي ولا مثلي، وأنا الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 414، رقم 9348)، وهناد في الزهد (2/ 421، رقم 825)، وأبو داود (4/ 59، رقم 4090)، وابن ماجه (2/ 1397، رقم 4174). وأخرجه أيضا: ابن حبان (12/ 486، رقم 5671)، حديث ابن عباس: أخرجه ابن ماجه (2/ 1397، رقم 4175).

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الروم:28] نبينها ونشرحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:28] يفهمون رموزنا وإشاراتنا في تنزيه ذاتنا وصفاتنا عن مشابهته في دعاوى الخلق ومشاكلهم، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الروم:29] بوضع الشبهات والحسبانات من الدعاوى بالاتصال والاتحاد والحلول في غير موضعها، ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ حتى قالوا ما قالوا بالهوى، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:29] حقيقي فضلوا بمتابعة الهوى، ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ بالخذلان واتباع الهوى.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم:29] في خلاصهم من خذلان الحق وبقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم:30] يشير إلى أهل الطلب من المحب الصادق أي: أخلص قصدك إلى الله واحفظ عهدك مع الله، أقم عملك في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله حنيفًا مستقيمًا في دينه ثابتًا في التوجه إليه، معرضًا عما سواه والزم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30] إذ كنت مع الله بلا غفلة مع غيره مستمعًا لخطابه مصيبًا لجوابه، مشاهدًا لوحدانية مخلصًا في توحيده، مفردًا لفردانيته، مفتخرًا بعبوديته مستسلمًا لأحكام ربوبيته، مستأنسًا بشهود جماله، مستنيرًا بأنوار جلاله.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:30] أي: لا تحويل لما خلقهم، فطر الناس كلهم على التوحيد فأقام قلب من خلقه للتوحيد والسعادة وأزاغ قلب من خلقه للإلحاد والشقاوة ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:30] القائم بالحق لا يغيره البلاء ولا تعتريه الأهواء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [الروم:30] أي: الناسين الله غير الذاكرين الله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:30] قدر التوجه إلى الله بالإعراض عما سواه.

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم: 31 - 35].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:31] راجعين إلى إلهيته بالخروج عن حبس أنانيته ﴿وَاتَّقُوهُ﴾

أي: واتقوا به من غيره ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [الروم:31] أي: أديموها بالحضور مع الله.

﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:31] الملتفتين إلى غير الله، ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ [الروم:32] الذين كانوا عليها في الفطرة التي فطر الناس عليها من التجريد والتفريد والتوحيد والمراقبة في مجلس الأنس والملازمة للمكالمة مع الحق، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم:32] أي: وصاروا فرقًا: فريقًا: منهم مالوا إلى نعيم الجنان، وفريقًا: منهم رغبوا في نعيم الدنيا بالخذلان، وفريقًا: منهم وقعوا في شبكة الشيطان فساقهم إلى حب الشهوات وإلى درك النيران.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ [الروم:32] من هؤلاء الفرق ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [الروم:32] من مشتهى نفوسهم ومقتضى طباعهم، ﴿فَرِحُونَ﴾ [الروم:32] فجالوا في ميدان الغفلات واستغرقوا في بحار الشهوات وظنوا بالظنون الكاذبة أن جذبتهم إلى ما هم فيه السعادة الحادثة، فإذا انكشفت ضباب فهمهم، وانقشع سحاب جهدهم، انقلب فرحهم ترحًا واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة ولم يفرحوا إلا في أوطان الجهالة، وسوف ترى إذا تجلى الغبار أفرسٌ تحتك أم حِمار.

ثم أخبر عن خصائص الإنسان الغالب عليه نسيان الإحسان بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:33] يشير إلى طبيعة الإنسان أنها ممزوجة من هداية الروح وطاعته، ومن ضلالة النفس وعصيانها وتمردها، فإن الناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية انكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها ورجعت على وفق طبعها المجبولة عليه إلى الحضرة، ورجعت النفوس أيضًا بموافقة الأرواح على خلاف طباعها مفطورة في دفع البلية إلى الله مستغيثين بلطفه مستجيرين عن محنتهم، مستكشفين الضر، فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:33] وهم النفوس المتمردة يعودون إلى عادتهم المذمومة وطبيعتهم الدنيئة في كفران النعمة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم:34] من النعمة والرحمة، ثم هددهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:34] ما جزاء ما تعملون على وفق طباعكم واتباع هواكم.

وبقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:35] يشير إلى أن أعمال العباد إذا كانت مقرونة بالحجة المنزلة تكون حجة لهم، وإذا كانت من نتائج طباع نفوسهم الخبيثة يكون عليهم.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: 36 – 40].

ثم أخبر عن الإنسان الناسي ذكر الله الموكول إلى طبعه بقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ [الروم:36] في صورة نعمة الدنيا أو شهوة النفس والهوى ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: 36] وغرتهم الحياة الدنيا وأعرضوا عن عبودية المولى.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الروم:36] شدة وضيق في حظوظ النفوس وفوات ملائم الطبع والهوى بشؤم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من مخالفات أمر المولى، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من رحمة المولى ولا يرجعون عن متابعة الهوى، وليس هذا من دأب المحبوبين وليس هذا من دأب المحبين ولا من دأب المريدين، قال الله تعالى في وصفهم ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:23].

ثم قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:37] والإشارة فيه أن لا يعلق العبد قلبه إلا بالله؛ لأن ما يسوءه ليس زواله إلا من الله، وما يسره ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي سَرَّه ويؤنسه من وجوده، والقبض الذي يسوءه ويوحشه منه حصوله، فالواجب لزوم حقوقه بالأسرار وقطع الأفكار من الأغيار.

وبقوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الروم:38] يشير إلى أن القرابة على قسمين: قرابة النسب، وقرابة الدِّين.

فقرابة الدين: أمس بالمواساة والمراعاة أحق وهم الإخوان في الله والأولاد من طلب الولاية من أهل الإرادة الذين تمسكوا بأذيال الأكابر منقطعين إلى الله مشتغلين بطلب الله متجردين عن الدنيا غير مستفرغين للمعيشة، فالواجب على الأغنياء بالله القيام بأداء حقوقهم فيما يكون لهم عرف على الاشتغال بموجب الطلب بفراغ القلب.

﴿وَالْـمِسْكِينَ﴾ من يكون محرومًا عن صدق الطلب وهو من أهل الطاعة والعبادة أو طالب العلم فمعاونته بقدر الإمكان وحسب الحال واجبة.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر فحقه القيام بشأنه بحكم الوقت فمن تكون همته الطلب أعلى فهو من أقارب ذوي القربى وبإيثار الوقت عليه أولى فحقه آكد وتفقده أوجب، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:5] بسعادة الدارين وسيادتها.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ [الروم:39] أي بغير واجب عليكم من الإنفاق على الأغنياء لاستمالة قلوبهم واصطيادها، ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ [الروم:39] بأن يستجلب منهم بالاستعطاف ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ﴾ إن لم يكن لوجه الله، وبقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ [الروم:39] يشير إلى إنفاق المال في سبيل الله تزكية للنفس عن لوث حب الدنيا كما كان حال أبي بكر ﷺ تجرد عن ماله تزكية لنفسه.

كما أخبر الله تعالى عن حاله بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل:17-20] أي: شوقًا إلى لقاء ربه، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:39] أي: تعطون أضعاف ما يرجون ويتمنون لأنه بقدر همتهم وحسب نظرهم المحدث يرجون الله تعالى بحسب إحسانه وكرمه القديم يعطي عطاء غير منقطع بقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الروم:40] يشير خلقكم من العدم بإخراجكم إلى عالم الأرواح.

﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم:40] أبصاركم بمشاهدة شواهد ربوبيته ورزق قلوبكم فهم خطابه ودرك مراده ورزق ألسنتكم إجابة سؤال والشهادة بتوحيده ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم:40] عن مشاهدة الأرواح بالإهباط إلى قبول الأشباح، كما قال في ذلك ﴿وَمَا أَنتَ

بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:22] ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم:40] بقوة الإيمان والإيقان والعرفان، ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ [الروم:40] من الأصنام والأنام ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ [الروم:40] منزه بذاته وصفاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:40] أعداؤه بطريق عبادة الأصنام وأولياؤه بطريق عبادة الهوى.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم: 41 - 45].

ثم أخبر عن أسباب فساد الاستعداد بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1] [الروم:41] يشير إلى بر النفس وبحر القلب، وفساد النفس بأكل الحرام وارتكاب المحظورات وتتبع الشهوات وفساد القلب بالعقائد السوء ولزوم الشبهات والتمسك بالأهواء والبدع والاتصاف بالأوصاف الذميمة وحب الدنيا وزينتها وطلب شهواتها ومتابعتها ومن أعظم فساد القلب عقد الإصرار على المخالفات كما أن من أعظم الخيرات صحة العزم على التوبة إلى الحق والإعراض عن الباطل، ومن جملة فساد القلب التأويلات بغير الحق والانحطاط إلى الرخص من غير قيام حجة والعلو في الدعاوى من غير استحياء من الله وإظهار المعالي رياءً وسمعةً.

---

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإن رزق الإنسان الطاعة صلحت الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هذا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإن فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية.
قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلقٌ بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكر والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه. وقيل في البر والبحر: أنها السرائر والظواهر. قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وصلاح هذين بالهيبة والحياء، فهيبة الرب تزيل فساد الظاهر، والحياء منه يميت فساد الباطن.

وبقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:41] يشير إلى أن الناس خلقوا على فطرة الإسلام مستعدين لكسب الخير والشر، إلا أن لله القدر وخلق الأفعال، وللعبد الكسب دون الخلق قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم:41] أي: ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا من الذنوب والإعراض بالبأساء والضراء والمصائب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:41] من الغفلات وتتبع الشهوات وتتبع الأوقات إلى الله وطلبه، والجهد في عبوديته وتعظيم الشرع والتأسف على ما فاتهم من الحق.

ثم دلهم على إصلاح ما أفسدوه بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الروم:42] يشير إلى السير في أرض البشرية على قدمي الشريعة والطريقة بقطع المنازل وسلوك المقامات ﴿فَانظُرُوا﴾ [الروم:42] بنظر الاعتبار وطلبوا الحق بنعت الأفكار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:42] مدعي الطلب وأصحاب الرياضات، فتعرفوا أموالهم قياسًا على أموالكم فيما يعتريكم من العثرات والوقعات والساكنات والركون إلى الإيمان ليتحقق عندكم بأن ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:42]، إذا استجلى بعضكم بعض الأحوال فسكنوا إليها واستحسن بعضهم بعض المقامات فركنوا إليها، فأشركوا بالالتفات إلى ما سوى الحق تعالى فيعتبروا عن حالهم وتمسكوا بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم:43] بصدق التوجه إلى الله والثبات عليه من غير السكون من شيء من المنازل والركون إلى شيء من الدارين، ومن عرف التوجه أن يكون بالموافقة والاتباع دون الاستبداد برأيه على وجه الاتباع، ومن لم يتأدب بشيخ كامل، ولم يتلقف كلمة التوحيد ممن هو لسان وقته كان خسرانه أتم، ونقصانه أعم في نفسه.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ [الروم:43] يعني: يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:43] أي: فرقًا وأحزابا يشير به إلى العزل عن الارتقاء لعدم استعداد الترقي من مقام إلى مقام آخر، فيكون فريق فيه أهل الدركات وفريق فيه أهل الدرجات، وفريق أهل الفرقات، وفريق أهل القربات، وفريق أهل الوصلات.

﴿مَن كَفَرَ﴾ [الروم:44] أنكر على أهل الحق ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [الروم:44] أي ما حرمانه عن هذا الحديث بموجبه إنكاره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ [الروم:44] للترقي أي:

يصلح للترقي في المقامات وكشف الأحوال ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:44] قاعدة نيل المقاصد والمطالب.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ [الروم:45] أي: من المواهب التي زيادة على جزاء الإيمان والعمل الصالح الذي من المكاسب، وجزاء المكاسب من المخلوقات والزيادة وهي الرؤية التي هي من المواهب ما يتعلق بالفضل الرباني وهي غير مخلوقة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] وهي الرؤية وهي من الفضل لا من الكسب كقوله: ﴿ويزيدهم مِن فَضْلِهِ﴾ [الروم:45].

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [الروم:45] إذ لم يرزقهم الإيمان ليقعوا في الكفر بالخذلان يشير إلى منكري أهل الحق أنه ما أحبهم إذ لم يرزقهم الصدق والطلب، فوقعوا بالخذلان في الإنكار والكفران.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: 46 – 50].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم:46] أي: من أمارات فضله وكرمه ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:46] يرسل رياح الرجاء على قلوب العوام فتكنس قلوبهم عن عبادة المعاصي، وغناء اليأس وتبشرها بدخول نور الإيمان، ثم يرسل رياح البسط على أرواح الخواص فتطهرها من وحشة القبض ودنس الملاحظات، وتبشرها بدوام الوصال والارتياح به ولكن بعد احتياج لكن ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم:46] أي: من رحمة الخاصة وهي تجلي صفاته فتستغرقون في بحر ألطافه.

﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ [الروم:46] فلك القلوب فيه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بكرمه وحسن

رعايته، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [الروم:46] وهو الاتصاف بصفاته والانتفاء هو انتفاء الصفات في صفاته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:46] ببذل الوجود لنيل المقصود فإن الشكر يقتضي المزيد والمزيد في هذا المقام إفناء الذات في ذاته تعالى ليبقى بإبقائه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ [الروم:47] يشير به إلى المتقدمين من المشايخ المتصوفين لتربية قومهم من المريدين ودلالتهم بالتسليك إلى حضرة رب العالمين.

﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم:47] على لسان التحقيق في بيان الطريق لأهل التصديق فمن قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، ومن عارضهم بالإنكار والجحود فابتلاهم بعذاب الخلود في الإبعاد والجحود وذلك تحقيق قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم:47] أي: أنكروا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:47] المتقربين إلينا أن ننصرهم بتقربنا إليهم.

ثم شرح معنى تقربه إلى العباد بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم:48] رياح عطف وجوده ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم:48] من ألطافه ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم:48] سماء قلوبهم ﴿كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ [الروم:48] قطعًا، **قطعة**: تمطر غيث القربة على النفوس فتطهرها من الذنوب، **وقطعة**: تمطر على الأسرار بغيث الأنوار فتطهرها عن النظر إلى الأغيار، **وقطعة**: تمطر على الأرواح بغيث الكشف على الأسرار فتطوى ببساط الحشمة على ساحات قربه وتضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أنهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه ويسقيهم بكأس التجلي شراب طهور محبته، وبعدما محاهم عن أوصافهم أصحاهم لا بهم ولكن بنفسه والعبارات عن ذلك خرس والإشارات دونها طمس، هذه حقائق قوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:48] بألطاف الربوبية.

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ [الروم:49] مطر العناية، ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ [الروم:49] أي من قبل مطر العناية ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:49] آيسين من نزول المطر آيسين أيضًا من كمالية مطر العناية أن يكون كما استبشروا به؛ لأن حقائق تلك العناية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم أخبر عن آثارها التي هي قريبة من فهم الإنسان لا عن حقيقتها، فإنه من لم يذق لا يدري فقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم:50] أي رحمتها الخاصة ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ [الروم:50] أرض القلوب بالفيض الإلهي ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:50] بكبائر الذنوب، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [الروم:50] أي أن الآثار التي تراها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:50] فهو الله المحيي يحيي الموتى من القلب بتجلي صفة المحيي للقلوب الميتة فيحيها، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] [الروم:50] من أحيا قالب الإنسان بعد موته في الحشر ومن أحيا قلب بعد موته في الدنيا.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 51 - 53].

ثم أخبر عن أموات الأحياء من غير الأحياء بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم:51] يشير إلى ريح الشقاوة الأزلية إذا هبت عن مهب القهر والعزة على زرع معاملة الأشقياء، وإن كانت مخضرة أي على وفق الشرع نجعلها مصفرة يابسة تذروها الرياح كأعمال المنافق وخلوا بعد الإيمان التقليدي بالنفاق يكفرون بالله وبنعمه.

ويقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:52] يشير إلى أن الكفر موت القلب كما

(1) اعلم أن وجه الإنسان عند مسّ الهمّ، ووقت الغمّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاً منهم يتغيّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقّبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبّرة في الأنفس والآفاق المؤثّرة في الظاهر والباطن، ولمّا كان ذلك موقوفًا على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتين عند أهل الباطن، فإن للأرض روحًا نباتيًا، كما أن للإنسان روحًا حيوانيًا بل للإنسان روح نباتي أيضًا به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسّ الحركة.

أن العصيان مرض فمن مات قلبه بالكفر بطل سمعه فلا تنفعه لصممه وهو معنى قوله: ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم:52] يعني إذا كان في السريرة صم عن سماع الحقيقة فسماع الظاهر لا يفيده إلا تأكيد الحجة، ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [الروم:52] معرضين عن الحق، وكما لم يسمع الصم الدعاء فلم يمكنه أن يهدي العمي ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ [الروم:53] عن ضلالتهم لأنهم موتى عن الحياة الحقيقية فالميت لا يبصر شيئا كما ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ لأن الإيمان حياة القلب، فإذا كان القلب حيًا يكون له السمع والبصر واللسان.

ثم فسر المؤمن الحقيقي بقوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم:53] أي: مستسلمون لأحكام الشريعة وآداب الطريقة في التوجه إلى عالم الحقيقة ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم:53] في البداية ضعف العقل.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم: 54 - 56].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:54] في العقل بالبراهين والحجج.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:54] في الإيمان لمن كان العقل عقيلته فكما تعقل بعلاقة المعقولات، فينظر فيها بداعية الهوى بنظر مشوب بآفة الوهم والخيال، فيقع في ظلمات الشبهات فتزل قدمه عن الصراط المستقيم والدين القويم فيهلك كما هلك فمن شرع في تعلم المعقولات بلا نور المتابعة ونور الشريعة وسعوا في إبطال الشريعة بظلمة الطبيعة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:8] وأيضًا خلقكم من ضعف أي ضعف التردد والتحير في الطلب، ثم جعل من بعد ضعف قوة في صدق الطلب، ثم جعل من بعد قوة في الطلب ضعفًا في حمل القول الثقيل وهو حقيقة قوله: لا إله إلا الله فإنها توجب الفناء الحقيقي في المعنى ويوجب الضعف الحقيقي

في الصورة بحمل المعاتبات والمعاشقات التي تجري بين المحبين فإنها تورث الضعف أو الشيب، كما قال النبي ﷺ: «شيبتني سورة هود وأخواتها»[1] فإن فيها كانت إشارة من المعاشقات بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم:54] من القوة والضعف في السعيد والشقي، فيخلق في السعيد قوة الإيمان وضعف البشرية وفي الشقي قوة البشرية لقبول الكفر وضعف الروحانية لقبول الإيمان ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأهل السعادة، ﴿الْقَدِيرُ﴾ بخلق أسباب الشقاوة فيه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:55] يشير إلى يوم تطلع شمس العناية عن شرق قلب أهل السعادة.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:48] إذا أشرقت الأرض بنور ربها تقوم قيامتهم وتبعث القلوب الميتة عن قبور تواليها بنفخ صور الجذبة الإلهية، فيقسم المجرمون الذين كانوا إلى يوم البعث مقبلين على الدنيا معرضين عن الحق تعالى ما لبثوا في قبور القوالب غير ساعة فقط استقبلوا أيام غفلتهم وهم مقبورون في قبر القوالب الدنيوية في مقابل صباح تجلت فيه شمس جذبة العناية وهو صباح إشراق بنور أزلي أبدي فرأوا الأيام المعدودة الدنيوية المتناهية الفانية بالنسبة إلى صباح يوم أزلي أبدي كساعة ولا تستغرب أن عدد أيامهم المعدودة في هذا العرض ساعة، فإن النبي ﷺ لما صبح ليلة المعراج بهذا الصباح كأن الدنيا ساعة فجعلها طاعة فقد رأى مدة عمر الدنيا بالنسبة إلى ذلك الصباح كساعة.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا﴾ [الروم:55] يعني في أيام جاهليتهم وأوان غفلتهم ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:55] يكذبون أو يحسبون بزعم نفوسهم لا يموتون بهذا الموت الإرادي ولا يبعثون بهذا البعث الجذباتي الرباني.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ العياني وهم القلوب والأرواح

---

(1) تقدم تخريجه.

والأسرار الذين أحيوا بنور جذبة الحق فرأوا بدار الحقيقة حقيقة الأمر قالوا: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الروم:56] وهو التقدير الأزلي في أم الكتاب ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فهذا يوم البعث الحقيقي، ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:56] أن تستحقوا لهذه السعادة العظمى.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: 57 - 60].

ثم أخبر عن المحرومين عن نيل هذه السعادة الذين ظلموا أنفسهم بوضع صرف استعدادها طلب الحق في موضع طلب الأغيار بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم:57] أن يقولوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا.

﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:57] يسترجعون لتحصيل هذه السعادة لإبطال استعداد الطلب ويقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:58] يشير أن أكثر القرآن أمثال ضربها الله في صورة القصص والأخبار والأحكام، وذكر الدنيا وما فيها وذكر الآخرة وما فيها وأمور أهل السعادة وأمور أهل الشقاوة، ولها معانٍ وأسرار وحقائق وأنوار وتشتمل على إرشاد أرباب الطلب وأصحاب السلوك في السير إلى الله وبيان معاملاتهم وشرح أحوالهم ومنازلهم، ومقاماتهم وإظهار منافعهم ومضارهم، وإثبات مقاصد عوامهم وخواصهم وتنبيه نائمهم، وتشويق سامعهم، وإنذار مغفلهم، وتبشير مرشدهم، وضرب مثل القرآن بالحبل الذي يكون أحد طرفيه في الحضرة وأحد طرفيه في يد العبد فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ [آل عمران:103] فمن اعتصم به حق الاعتصام يبلغهم إلى مرتبة يخاطبون بخطاب واعتصموا بالله.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ [الروم:58] يا محمد؛ يعني: من لم يهتد بالقرآن أنه معجزة ظاهرة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الروم:58] بالقرآن وكل منه معجزة، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ [الروم:58] ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:59]

أسرار القرآن ولا يفهمون حقائق أمثال إلى قيام الساعة بإنكارهم على حقائق القرآن وأهلها، كما طبع على قلوب الذين كفروا بالقرآن بكفرهم، وبقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾[1] [الروم: 60] يشير إلى الطالب الصادق؛ فاصبر على مقاساة شدائد فطام النفس عن مألوفاتها تزكية لها وعلى مراقبة القلب عن التدنس بصفاء النفس تصفية له، وعلى معاونة الروح على بذل الوجود لنيل الجود تحلية له.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [الروم:60] فيما قال: «ألا من طلبني وجدني»[2] ﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ [الروم:60] يشير به إلى استخفاف أهل البطالة واستجهالهم أهل الحق وطالبيه وهم ليسوا أهل الإيمان وإن كانوا أهل الإيمان التقليدي يعني: لا يقطعون عليك الطريق بطريق الاستهزاء أو الإنكار كما هو عادة أهل الزمان يستخفون طالبي الحق وينظرون إليهم بنظر الحقارة ويعيرونهم وينكرون عليهم فيما يفعلون من ترك الدنيا وتجردهم عن الأهالي والأولاد والأقارب؛ وذلك لأنهم لا يوقنون بوجود طلب الحق تعالى وبالوجود على طالبي الحق أولاً التجريد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:14] وبعد تجريد الظاهر يجب عليهم التفريد وهو قطع القلب عن سعادة الدارين، وبهذين القدمين وصل من وصل إلى مقام التوحيد، كما قال بعضهم: خطوتان وقد وصلت، والله أعلم وهو المستعان.

---

(1) في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، وبا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العربدة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين. وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

(2) تقدم تخريجه.

سورة لقمان

مكية وهي أربع وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: 1 - 12].

﴿الٓمٓ﴾ [لقمان:1] يشير بالألف إلى آلائه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبآلائه رفع الجحد من قلوب الأولياء، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:2] أي: المحكم المحروس عن التغيير والتبديل وهو ﴿هُدًى﴾ [لقمان:3] يهدي بهداه إلى الحق تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ [لقمان:3] لمن اعتصم به بوصاله بجذبات مودعة فيه إلى الله تعالى.

كما أشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:3] والمحسن من يعتصم بحبل القرآن متوجهًا إلى الله، ولهذا فسَّر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل عن

الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1] فمن يكون بهذا الوصف يكون لا بدَّ متوجهًا إليه حتى يراه، ولا بدَّ للمتوجه إليه أن يعتصم بحبله وإلا هو منزه عن الجهات، فلا يتوجه إليه بجهة من الجهات.

ثم شرح حال المحسنين وقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان:4] أي: يدعونها بصدق التوجه وحضور القلب والإعراض عما سواه، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [لقمان:4] تزكية للنفس، فزكاة العوام من كل عشرين دينار لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة:103]، فبإيتاء الزكاة على وجه الشرع ورعاية حقوق الأركان الأخرى نجاة العوام من النار، وزكاة الخواص من المال كلية قال ﷺ: «من كان لله كان الله له»[2].

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:3] بخروجهم عن الدنيا وتوجههم إلى المولى والآخرة من المنزل الثاني لمن يسير إلى الله بقدم الخروج عن منزل الدنيا فمن خرج عن الدنيا لا بدَّ له أن يكون في الآخرة فيكون موقنًا بها بعد أن كان مؤمنًا بها.

﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان:5] أي: أولئك اهتدوا بالله إليه بجذبات العناية ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:5] يعني: هم الذين أفلحوا بالجذبات إذ خلصوا من حبس الوجود، فلما أخبر عن حال المعتصمين بحبل الله الواصلين إليه أخبر عن المعرضين عن القرآن متوجهين إلى لهو الحديث فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:6] فما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه فهو لهو الحديث، وأما الغناء فمنه محرم وهو ما صرح تحريمه الشرع مثل المزامير وطبل المخنثين، ومنه ما لم يتعرض له الشرع أنه حلال أم حرام فهي كسائر المباحات، ومن جملتها مثل الدف والغناء بالكف في ظاهر الشرع كما حكم به الشافعي رحمه الله.

وأما على مذهب أهل الحقيقة فالحكم في المباح منها ما أفتى به الجنيد -قدس الله روحه- فقال: السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباح

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

لوقوف علومهم وصفاء قلوبهم، واجب على أصحابنا لفناء حظوظهم.

وقال أبو بكر الكتاني: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام، فلا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:18]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 83] فكل سماع يفيد هذه المعاني لصاحبه من الهداية والرشد والمعرفة فهو السماع الذي أسمعه الله تعالى فمن القوم من يسمع في الله ولله وبالله ومن الله، ولا يسمع بالسمع الإنساني بل بالسمع الرباني كما قال تعالى: «كنت له سمعًا فبي يسمع»[1] فالحاصل أن من فسر قوله تعالى: ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:6] بالغناء وحرمها إنما حرمها لأنها لهو وقد جاء في الحديث: «كل لهو حرام»[2] وقد حلت ربقة هذه الطائفة عن أن يسمعوا بلهو ويجتمعوا بسهو فإنهم يسمعون من حيث صفاء التوحيد بحق لا بحظ فهم بين استتار يوجب التلهب أو تجل يورث الترويح، أو خطاب يقتضي الاشتياق أو عتاب يزيد في الإحراق، فتارة يخاطبهم الحق بإشعارهم فيخطفهم عن ولهٍ، كأن البشرية مستورة، وتارة يتضرعون بين يدي الحق بأقوالهم وأبياتهم فيملأ في قلوبهم سرورًا وحبورًا وعلى الحقيقة إن السماع مهما كان لجماعة من المريدين الصادقين أرباب الرياضات والمجاهدات بحضور شيخ كامل تحميهم ولايته عن تصرفات الشياطين، وتبدر همته لئلا تهيج في أنفسهم الآفات والفتن النائمة، وإلا فالاحتراز سنة أقرب إلى الصواب وأبعد من موجبات العقاب.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان:6] يعني: من يشتري لهو الحديث مما يشغل عن الله ذكره يكون حاصله أن يضل عن سبيل الله بغير علم عن تلك الضلالة ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان:6] إهانة الطرد والإبعاد، وما في

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه البخاري بلفظ: «كل لهو باطل» (21/ 73).

الآيات قد تقدم تفسيرها وتحقيقها إلى قوله تعالى: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: 11].

ثم أخبر عن إعطاء النعمة في إيتاء الحكمة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ [لقمان:12] يشير إلى لقمان القلب وإتيانه الحكمة والحكمة عدل الوحي، قال ﷺ: «أوتيت القرآن وما يعدله»[1] وهو الحكمة بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2] فالحكمة موهبة الأولياء كما أن الوحي موهبة الأنبياء، وكما أن النبوة ليست كسبية بل هو ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة:4] فكذلك الحكمة ليست كسبية تحصل بمجرد كسب العبد دون تعليم الأنبياء إياها طريق تحصيلها بقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2] فكما أن القلب مهبط الوحي من إيحاء الحق تعالى فكذلك مهبط الحكمة بإيتاء الحق تعالى.

كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ [لقمان:12]، وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:269]، فثبت أن الحكمة من المواهب لا من المكاسب؛ لأنها من الأحوال لا من المقامات والمعقولات التي سمتها الفلاسفة حكمة ليست بحكمة فإنها من نتائج الفكر السليم من شوب آفة الوهم والخيال وذلك يكون للمؤمن والكافر، وقلما يسلم من الشوائب ولهذا وقع الاختلاف في أدلتهم وعقائدهم ومن يحفظ الحكمة التي أوتيت بعض الحكماء الحقيقة لم تكن حكمة بالنسبة إليه؛ لأنه لم يؤت الحكمة ولم يكن هو حكيمًا ولما كانت الحكمة من إنعام الله على لقمان ونعمة من نعمه طالبه بشكرها بقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ للهِ﴾ [لقمان:12]، إذ أتاك هذه النعمة وأنت نائم غافل عنها جاهل بها.

ثم قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان:12] لأن الشكر موجب لمزيد النعمة، وأيضًا لأن الكفر من الوصف اللازم للإنسان بأنه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34] والشكر من صفة الحق فإن الله شاكر عليم، فمن شكر فإنما شكر لنفسه بإزالة الصفة

---

(1) رواه احمد بلفظ: «ومثله معه» (4/ 130).

(2) رواه الشهاب في مسنده (1/ 285)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 224).

الكفارية عنها واتصافها بصفة شاكرية الحق تعالى، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ﴾ [لقمان:12] أزلي الغنى وأبديتها لا يحتاج إلى شكر الشاكرين وهم يحتاجون في تحصيل الشكر إليه، ولو أنعم عليهم بمزيد النعمة لشكرهم إياه ما ينقص من غناه شيء، ﴿حَمِيدٌ﴾ [لقمان:12] في ذاته وصفاته أن يحمده العباد ويشكروه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)﴾ [لقمان: 13 - 16].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ﴾ [لقمان:13] الروح لابنه وهو السر المتولد من ازدواج الروح والقلب ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان:13] أي: لا يتصف بصفات النفس وأن من صفاتها الشرك فإنها تعبد الهوى والشيطان والدنيا فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ﴾[1] [لقمان:13] بالالتفات إلى الدارين وما فيهما، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13] على نفس المشرك لا على الله تعالى؛ لأنه وضع شيئًا من المخلوقات بتعبده موضع تعبد الحق تعالى فأعرض عن الحق بالتوجه إلى ذلك الشيء وفوت على نفسه الوصول إلى التوحيد عند طلب الوصول إلى ما أشرك به، فأي ظلم أعظم على النفس من فواتها الوصول إلى التوحيد

---

(1) رؤية ما دون الله شركٌ في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظُّها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظُّها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظُّها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذُّ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بها دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

واتصالها بالشرك.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ [لقمان:14] يشير به إلى السر بوالديه وهما الروح والقلب ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ [لقمان:14] وهي القلب، ﴿وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان:14] تعبًا على تعب وجهادًا على جهاد، يعني: على النفس عند حمل ولد السر لئلا يوصل إلى مشام القلب رائحة مشتهياتها فيسقط جنين السر وجهاد آخر عند وضع حمل السر لئلا يذبحه فإنها كفرعون لموسى السر؛ لأن هلاكها يكون على يده وبقوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14] يشير إلى فطامه من مألوفات الدارين فإنه هو معدن الإخلاص الذي هو سر بينه وبين الله لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ [لقمان:14] إذ أنعمت عليك بأن أجعلك مخزن أسراري ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:14] إذ أنعما عليك بحسن ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:14] أي: ليكون مرجعكم إليَّ في جميع الحالات لا إلى غيري.

وبقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: 15] يشير إلى أن الروح طبيعة روحانية لو خلي إلى طبيعة يتعلق بمستحسنات طبعه من الروحانيات الأخرويات وأن القلب وإن لم يكن له طبيعة خاصة يتعلق بها؛ ولكنه قابل لطبيعة الروح وطبيعة النفس، فتارة يميل إلى الآخرة بتبعية الروح وتارة يميل إلى الدنيا بتبعية النفس، وكلتاهما الطاغوت وللسر طبيعة الإخلاص لو خلي إلى طبعه فيقول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ والد الروح ووالدة القلب على أن يتعلق بشيء من الدارين لا على طبيعتك وهي الإخلاص في التوحيد ﴿فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ فتكون مشركًا وفي هذا المعنى إشارة لطيفة وهي أن للروح والقلب تكون فترات وأحوال مختلفة بحسب الأوقات تزل قدمها عن صراط التوحيد فعلاً وصفةً، فإذا كان السر محفوظًا على طبعه من الإخلاص في التوحيد فيرجعان سريعًا إلى طبع السر في التوحيد، وإن تغير السر عن طبيعته من الإخلاص في التوحيد فذلك المصيبة العظمى وفي التدارك وإصلاح حاله إمكان بعيد وإن كان الروح والقلب والنفس والبدن كل واحد منهم يقوم بأداء ما يجب عليه من الشرع والعقل لا ينفعهم من فساد حال السر فافهم جدًّا.

وهذا حال بعض المتعلمين لعلم الأصول والمعقولات عند تطرف الشكوك في

أسرارهم ويتغير بها إخلاص التوحيد في أسرارهم بحسبان تحصيل التوحيد بطريق الاستدلال بالشبهات المعقولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف:104] وكذلك حال بعض الفقراء الذين لا يتمسكون بذيل إرادة شيخ واصل ويلازمون صحبته ويستسلمون إليه ليربيهم على قاعدة الطريقة، وقانون الشريعة بل يدورون في العالم متابعي الهوى ويتلقون بعضهم في بعض كلمات من الطامات والخيالات الفاسدة، ويتوهمون من أسرار الشيوخ وكلماتهم في التوحيد في المعرفة معانٍ توقعهم في الكفر والإلحاد لأن أكثرهم يتركون ما أوجب عليهم الشرع من التكاليف على حسبان أنهم أهل عرفان في مقام الوحدة.

ثم قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان:15] وذلك أن في الدنيا للروح والقلب ليس بد من القيام بالوحدة ثم بمصالح دنيوية لقوام البدن وتحصيل أسباب التعيش في بعض الأوقات ولا يمكنها ذلك إلا بموافقة السر فهو مأمورها بالمعروف أي: بحيث ألا يخل بحاله من الإخلاص ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان:15] وهي الخفاء الذي هو واسطة بين الروح والحق تعالى ومن طبعه الإنابة إلى الحضرة، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ [لقمان:15] بطريق مجازاة كل واحد منكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:15] من الخير والشر.

ثم أخبر عن دقائق الحكمة وحقائقها بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ [لقمان:16] يشير إلى المقسومات الأزلية من الأرزاق والأخلاق الإنسانية والمواهب الإلهية، ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [لقمان:16] في الصورة والمعنى، ﴿أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان:16] في الصورة والمعنى ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾[1] [لقمان:16] لمن قدر له وقسم

(1) قال الورتجبيي: كيف يخفى على موجد الأشياء شيءٌ وهو منشئه؛ فهذا تنبيهٌ منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نوادر الخطرات وبطون الحركات، فإن كان خاطره بادرًا من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر.

من أسباب السعادة والشقاوة إن شاء بطريق كسب العبد وإن شاء ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق:2] في حصولها ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2]، ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ [لقمان: 16] بعباده ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان:16] بإتيان ما قسم لهم بلطف ربوبيته فالواجب على العبد أن يثق بوعده ويتكل على كرمه فيما قدر له ويسعى إلى القيام بعبوديته.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان: 17 - 21].

كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ [لقمان:17] أي: أدمها، وأدامتها في أن ينتهي من الفحشاء والمنكر فإنه تعالى وصف الصلاة بأن ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:45] فإنه في الصلاة وإن لم يكن على هيئاتها، ومن لم يكن منتهيًا عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، وإن كان مؤديًا هيئاتها، ولهذا المعنى ذكر عقيب قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْـمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان:17] يشير به إلى أن تأمر قلبك بالمعروف والمعروف ما يوصل العبد إلى الله وتنهي نفسك عن المنكر والمنكر ما يشغل العبد عن الله.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:17] يشير إلى أن البلاء والمحنة فلابد للمريد الصادق أن يصبر على ما أصابه في أثناء الطلب مما ابتلاه الله به من الخوف من الأعداء في الظاهر أو من الأعداء في الباطن والجوع من الجوع الظاهر عند قلة الغذاء للنفس أو مفارقة الأولاد والأهالي والإخوان والأخدان والثمرات يعني: ثمرات المجاهدات.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155] على هذه الأحوال بأن ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] إلى الحضرة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ [لقمان:17]

المقدمات ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:17] الموصلة للعبد إلى الرب ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان:18] تكبرًا وتجبرًا معجبًا بما فتح الله عليك فتكون بهذا مفسدًا في لحظة ما أصلحته في مدة.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ [لقمان:18] كمشية الجبارين وأيضًا ولا تمش مرحًا في طلب الحق تعالى بالتوالي والسكون كمشية المختال الفخور ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:18] في السير إليه فخور بما مال من الحق على الناس بطريق العجب والنظر إليهم بالحقارة ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان:19] بين مشي المتكاسل الجبان المتعلل وبين مشي المتسارع المستعجل المقدام ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان:19] في إظهار الدعاوى وكتمان المعاني كن فانيًا عن شواهدك مصطلمًا عن قولك مأخوذًا عن حولك وقوتك بما استولى عليك من كشوفات سرك وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك بل من سكر إعجابك وحسبانك، ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:19] فيه إشارة إلى أن الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق وقالوا: هو صوفي يتكلم قبل أوانه.

ثم أخبر عن كمال عنايته في أهل ولايته بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان:20] يشير إلى ما في سماوات القلوب من الصدق والإخلاص والتوكل واليقين والصبر والشكر وسائر المقامات القلبية والروحانية والمواهب الربانية وتسخيرها بأن يستر العورة عليها بالسير والسلوك المتداركة بالجذبة والانتفاع بمنافعها والاجتناب عن مضارها وإلى ما في أرض النفوس من الأوصاف الذميمة مثل الكبر والحسد والحقد والبخل والحرص والشره والشهوة وغيرها تبديلها بالأخلاق الحميدة والعبور عليها والتمتع بخواصها محترزًا عن عواقبها.

ثم منَّ على العباد بما أنعم عليهم في تسخيرها في الروح لهم وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20] فالنعمة الظاهرة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الظاهرة من الكواكب السيارة والملائكة المقربين فتسخير الكواكب تيسيرها في البروج على الأفلاك التي دبرها لكل واحدة منها فلكًا، وقدر لهن القربات والاتصالات

وجعلهن مدبرات العالم السفلي متصرفات بالخواص والطبائع في العناصر الأربعة ولقراباتهن واتصالاتهن مقتضيات في إظهار الأمور المقدرة بتقدير العزيز العليم في عالم السفلي من الزماني مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع.

ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان فظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وأعوانًا لها كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر أن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر، والموكلين على الرياح والبحور والمخلوقات، والملائكة الكُتَّاب للناس الموكلين عليهم، ومنهم المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله حتى جعل على الأرحام ملائكة، فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم يأخذ الملك بيده اليمنى وإذا وقعت نطفة المرأة يأخذها الملك بيده اليسرى، فإذا أمر مشجها بمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: 2].

وأما الملائكة الموكلين على الجنة والنار كلهم مسخرون لصالح الإنسان ومنافعهم حتى الجنة والنار مسخرات لهم تطميعًا وتخويفًا لأنهم يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، والنعمة الباطنة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الباطنة وهي القلب والنفس وقد تقدم ذكر ما فيهما وبقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: 3] يُشير إلى أهل الجدل من الأصوليين والفلاسفة، فإنهم يجادلون في ذات الله وصفاته بغير علم في معرفة ذاته وصفاته؛ لأنهم ما سلكوا طريق المعرفة في متابعة الأنبياء بدلالة صاحب ولاية عالم رباني واقف على أسرار الطريقة عارف بأسرار عالم الحقيقة ليخرجهم من ظلمات الإنسانية إلى نور الربانية ليعرفوا الحق تعالى بنوره فهو يهديهم إلى معرفة ذاته وصفاته بإفناء ذاتهم وصفاتهم عند تجلي ذاته وصفاته، فلما كان أهل الجدال بمعزل هذا العلم وعن هذا الهدى قال تعالى: ﴿يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى﴾ [الحج: 8] ولا هدى.

وأما قوله: ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: 8] يشير إلى أنهم إذا كانوا معطلين عن هذا

الهدى لو تمسكوا بالقرآن واستمسكوا به في معرفة ذات الله وصفاته لاهتدوا ولكنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان:21] بهذا يشير إلى الجدال إذا قال لهم أهل الحق: اتبعوا في معرفة ذات الله وصفاته ما أنزل الله من كتابه من الدلائل في التوحيد، يقولون: بل نتبع الدلائل العقلية تقليدًا لما وجدنا عليه أستاذنا والحكماء الأوائل، فلا يقبلون دلائل القرآن العظيم والكلام على التوحيد ويقبلون دلائل العقول المشوبة بالوهم والخيال وشبهات أهل الأهواء والبدع على الكفر والضلالة قال الله تعالى فيهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:21] أي: بموجبات اتباعهم الدلائل والشبهات العقلية.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان: 22 - 26].

ثم أخبر عن أهل الحق وطالبيه بالصدق بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان:22]، يشير إلى أن من يسلم نفسه ويخلص في ذلك قصده ويعرض عما سوى الله ويقبل وجهه على الله وهو محسن، يعني: من نعت المحسن أن يعبد الله كأنه يراه، فينبغي ألا يرى في الوجود مع الله شيئًا ومن هذا حاله، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] [لقمان:22]، وسلك المحبة المثلى ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ أي: عاقبة أمر التوجه يكون إلى الله بالوصول ﴿وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان:23] وإعراضه فإنه

---

(1) قال الورتجيبي: أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالألوهية.

قال سهل: من يخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة. وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ. وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

بالإعراض عن الله من يدعي الطلب ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان:23] بلا اختيارهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [لقمان:23] أي: بحسب أعمالهم يخبرهم عما عملوا من الحسنات والسيئات.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان:23] أي: عليم بما حوته الصدور من الصفات النفسانية والأخلاق الروحانية وما يتولد منها من الأعمال والأحوال قبل تولده منها، فمن كانت همته مصروفة على التمتعات الدنيوية الفانية تمتعهم من متاع الدنيا قليلاً أيام حياته القليلة.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ [لقمان:24] لفساد استعدادهم بالتمتعات الذميمة من شهوات النفس ﴿إِلَى عَذَابٍ﴾ [لقمان:24] أي: معاملات موجبة للعذاب ﴿غَلِيظٍ﴾ [لقمان:24] وغلظة العذاب عبارة عن دوامه إلى الأبد ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ [لقمان:25] يعني كافر النفس وصفاتها ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان:25] للاحتياج به ولبقية آثار الإيمان الفطري معها.

﴿قُلِ الحَمْدُ للهِ﴾ [لقمان:25] على ما أبقى على النفوس أثر التوحيد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:25] قدر بقاء أثر التوحيد بل أكثرهم لا يعلمون ﴿للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الظاهرة والباطنة فإنها خزائنه كما قال: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [المنافقون:7] ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ﴾ بذاته وصفاته قبل خلق السموات والأرض وبعده وكلمة هو تكون للحصر أي: هو الغني وحده وليس معه غني آخر، ودليله قوله تعالى: ﴿واللهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ﴾ [محمد:38] ﴿الحَمِيدُ﴾ في ذاته وصفاته وإن لم يكن له حامد فهو الحامد لنفسه.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ

ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: 27 - 32].

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:27] أي: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار يصير مدادًا، وبمقدار ما يقبله ينفق القرطاس ويتكلف الكتاب حتى تنكسر الأقلام وتفنى البحار وتستوفى القراطيس ويفنى عمر الكتاب ما نفدت معاني كلام الله؛ لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية ومعاني كلامه لا تتناهى لأنها قديمة والمحصور لا يفى بما لا حصر له.

والإشارة فيه أن الله سبحانه إذا تجلى عبد بصفة المتكلم ينفتح الباب على قلبه من عالم غير متناه فيشار إليه: ما نفدت معاني ما لنا معك من الكلام، والذي يسمعك مما يخاطبك به بحسب الوقت ومقتضى الحال، وما بيننا من المعاتبات والمعاشقات سرًّا بسر وإضمارًا بإضمار لا يطويه الزمان ولا يحويه المكان، فإنه منطق المحبة من الحبيب الأزلي إلى الحبيب الأبدي فما لنا معك أزلي أبدي غير متناه وما لك معنا فهو أبدي بغير أزلي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:96] إن الله عزيز لعزته لا يتكلم إلا مع الأعزة حكيم لحكمته.

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ [لقمان:29] شمس الروح ﴿وَالْقَمَرَ﴾ [لقمان:29] قمر القلب ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ بتسخير الحق تعالى ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان:29] للوصال والوصول وللفراق والقطيعة.

﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:29] من الدواعي الروحية والقلبية ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان:29] أنه يصلح لأسباب الوصال ولأسباب الفراق ذلك الإشارات لتعلموا ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [لقمان:30] وبالطلب أحق فتبادروا في طلبه قبل فوات الفرصة ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ [لقمان:30] يطلبون ﴿مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان:30] فتتركوه بالاختيار قبل فواته بالاضطرار ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ [لقمان:30] أي: ولتعلموا أن الله ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

[لقمان:30] أعلى رتبة وأكبر مطلوبًا ومحبوبًا مما سواه.

ثم أخبر عن أحكام الملك بإجراء الفلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:31] في الظاهر سلامتهم في السفينة وفي الباطن سلامتهم في حدثان الكون ونجاتهم في سفن العصمة في بحار القدرة وفي الحقيقة سلامة السالكين في سفينة الشريعة بملاحية الطريقة في بحر الحقيقة وإراءتهم آيات شواهد الحق.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ [لقمان:31] ثابت القدم على صراط مستقيم الطلب لا ينهزم من صورة البلايا ولا يفر من مقاساة الشدائد ولا يزل قدمه عن صراط الطلب عند ملاقاة التعب والنصب ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان:31] على ما يصيبه من تصاريف التقدير من البلايا والعطايا نعمة يجب عليها الشكر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: 33 - 34].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [لقمان:33] مرة يخوفكم بأفعاله فيقول: اتقوا فتنة، ومرة بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:14] ومرة بذاته يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28] ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [لقمان:33] بالحشر والنشر والجنة والنار والثواب والعقاب والقربة والرؤية حق ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: 33] بسلامتكم في الحال فعن قريب ستندمون في المآل ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ الشيطان ﴿الْغَرُورُ﴾ [لقمان:33] ولا ينسينكم الرجوع إلى القبول ولا تغفلوا عن أحوال القيامة وأهوالها ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:34] وأحوالها وأهوالها وهو منفرد بعلمها.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:34] ذكورها وإناثها وسعيدها وشقيها وحسنها وقبيحها، ويعلم متى ينزل الغيث وكم قطرة ينزلها وبأي بقعة يمطرها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ [لقمان: 34] من خير وشر ووفاق ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] [لقمان:34] أيدرك مراده أم يفوت أن الله عليم بحالات الخلائق أجمعين خبير بمكافأتهم بحسب معاملاتهم .

(1) أي: أين تموت، فربما أقامت بأرض، وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحُها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها. البحر المديد (5 / 45).

سورة السجدة

مكية

قال عطاء: إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً﴾ [السجدة: 18].

وهي تسع وعشرون، وقيل: ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: 1 - 5].

﴿الـم﴾ [السجدة: 1] يشير بالألف إلى أنه ألف المحبون بقربتي فلا يصبرون عني، وألف العارفون بتمجيدي فلا يستأنسون بغيري، والإشارة في اللام إلى قصد أحبائي مدخر لقاءي فلا أبالي أقاموا على صفاتي أم قصروا في وفائي، والإشارة في الميم إلى ترك أوليائي مرادهم لمرادي فلذلك آثرتهم على جميع عبادي.

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [السجدة: 2] إذا تعذر لقاء الأحباب فأعز الأشياء على الأحباب كتاب الأحباب أنزل رب العالمين إلى أهل العالمين كتابًا في الظاهر ليقرأ على أهل الظاهر فينذر به أهل الغفلة ويبشر أهل الخدمة، وكتابًا في الباطن على أهل الباطن لتتنور بأنواره بواطنهم وتتزين بأسراره سرائرهم فينذر له أهل القربة لئلا يلتفتوا إلى غيره ولا يستأنسوا بغيره، فتسقطهم الغيرة عن القربة ويبشر به أهل المحبة بالوفاء بوعد الرؤية وباللقاء على بساط الوصلة وبالبقاء بعد الفناء في الوحدة فيتكلموا بالحق عن الحق للحق، فإذا سمع أهل الباطل كلامهم في الحقائق من ربهم وأنكر عليهم

أهل الغفلة أنه من الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة:3] يا قلب من تكلم بالحق ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً﴾ [السجدة:3] من النفس وصفاتها ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:3] إلى الله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ [السجدة:4] سموات الأرواح ﴿وَالأَرْضَ﴾ أرض الأشباح ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [السجدة:4] من النفس والقلب والسر ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة:4] أي: خلقهم في ستة أجناس من الجماد والمعدن والنبات والحيوان والشيطان والملك ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: عرش الخفاء وهو لطيفة ربانية قابلة للفيض الرباني بلا واسطة.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ﴾ [السجدة:4] يبلغكم إلى عالم الربوبية ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:4] كيف خلقكم في أطوار مختلفة هو الذي ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [السجدة:5] أي بأمر كن خلق سماء الروح والقلب ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ [السجدة: 5] أرض النفس بتدبير الأمر ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ النفس المخاطبة بخطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28] ﴿فِي يَوْمٍ﴾ طلعت فيه شمس صدق الطلب وأشرقت الأرض بنور جذبات الحق تعالى ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ [السجدة:5] في العروج بالجذبة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيامكم في السير من غير جذبة كما قال ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»[1].

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: 6 - 11].

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [السجدة:6] أي: عالم الروح وخاصية صفاته ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ [السجدة:6] أي: عالم النفس والبدن ﴿الْعَزِيزُ﴾ [السجدة:6] بأن لا يصل إليه أصحاب

(1) تقدم تخريجه.

النفوس ﴿الرَّحِيمُ﴾ [السجدة:6] بأن يرحم على أرباب القلوب بجذبة العناية؛ليوصلهم إلى مقام الوحدة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [السجدة:7] به يشير إلى أنه تعالى من نتائج إحسانه القديم لما أراد أن يخلق مرآة تجلي صفات جماله وجلاله خلق لحديد المرآة معدنًا، وهو عالم الشهادة بجميع أجناسه وأنواعه، وأحسن خلقه بمعدنية ذلك الحديد، وأحسن خلق الحديد مستعدًا للمرآتية وهو شخص آدم وصورته فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:7] فخمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا فأودع كل صباح خواص نوع من أجناس عالم الشهادة بالتخمير في طينته وصفاته.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ﴾ [السجدة:8] سلها من أجناس عالم الشهادة ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:8] ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ [السجدة:9] شخص إنسان هو حديد المرآة، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[1] [السجدة:9] فصار مرآة كاملة قابلة لإراءة صفات جماله وجلاله، ثم تجلى فيها كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى ربه فيه»[2] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ بتجلي صفة السمعية ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ بتجلي صفة البصر به ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ التي هي مرآة العلوم بتجلي عالميته ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:9] يشير به إلى أن قليلاً منكم يعرف نفسه بالمأمورية والذلة ليعرف ربه بالآمرية والعزة فيها، فإنه أحسن خلق كل شيء من هذه الأشياء لما خلق له ولمعرفة ذاته وصفاته.

كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] أي: ليعرفون وقالوا خواص أنواع عالم الشهادة ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ [السجدة:10] أرض البشرية، ولم يبق لنا أثر ظاهر في عالم الشهادة ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:10] ونعاد إلى كماليتنا بعد أن فنينا في قالب آدم عن طبائعنا قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:10] من نتائج تلك الضلالة التي أخبروا عنها بقوله: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ [السجدة:10] ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:11]

---

(1) أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية؛ ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. البحر المديد (5/ 51).

(2) تقدم تخريجه.

وهو المحبة الإلهية فإنها تقبض الأرواح عن الصفات الإنسانية وتميتها عن محبوباتها بقطع تعلق الروح الإنساني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:11] بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: 12 - 15].

ثم أخبر عن وصف المجرمين المحرومين بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:12] يشير إلى أهل الدنيا من المجرمين، وكان جرمهم أنهم نكسوا رءوسهم في أهل الدنيا وشهواتها بعد أن خلقوا رافعي رءوسهم عند ربهم يوم الميثاق عند سماع خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] رفعوا رءوسهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] ابتلوا بالدنيا وشهواتها وزينتها من الشيطان نكسوا رءوسهم بالطبع فيها، فصاروا كالبهائم والأنعام في طلب شهوات الدنيا.

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179] لأن للأنعام ضلالة طبيعية جبلية في طلب شهوات الدنيا، وما كانوا مأمورين بعبودية الله ومنهيين عن الشهوات لكي تحصل لهم ضلالة مخالفة الأمر والنهي، وللإنسان شركة مع الأنعام في الضلالة الطبيعية بميل النفس إلى الدنيا وشهواتها ولاختصاص بضلالة المخالفة فلهذا صار أضل من الأنعام كما عاشوا ناكسوا رءوسهم إلى شهوات الدنيا ماتوا فيها عاشوا فيه، ثم حشروا على ما ماتوا عليه ناكسوا رءوسهم عند ربهم، وقد ملكتهم الدهشة وغلبتهم الحجة فاعتذروا حين لا عذر واعترفوا ولا حين اعتراف.

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ [السجدة:12] ما لم نكن نبصر، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة:12] ما لم نكن نسمع ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:12] إنك قادر على توفيقنا للعمل الصالح، ولو شئنا في الأزل هدايتكم وهداية أهل الضلالة ﴿لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ

هُدَاهَا﴾ [السجدة:13] بإصابة رشاشة النور على الأرواح التي طفت في ظلمة ثم رش عليهم بنوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ قبل وجود آدم وإبليس، ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:13] ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم كما تعلقت بإدناء قوم، وإدناء أن يكون للنار قطان كما أردنا أن يكون للجنة سكان إظهارًا لصفات لطفنا وصفات قهرنا؛ لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني لفعال لما أريد.

وبقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة:14] يشير إلى أنكم كنتم في نار البعد وعذاب الهجر في الدنيا بما نسيتم لقاءنا ولقاء يومكم هذا، ولكن كنتم في نوم الغفلة والنائم لا يذوق ألم ما عليه من العذاب مادام كان نائمًا، ولكنه إذا انتبه نومه يذوق ألم ما به من العذاب والناس نيام ليس لهم ذوق ما فيهم من العذاب، فإذا ماتوا انتبهوا، فقيل لهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:14] من الرحمة كما نسيتمونا من الخدمة ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:14] الغلو في العصيان والنسيان.

ثم أخبر عن أمان أهل الإيمان بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً﴾ [السجدة:15] يشير إلى أن أهل الإيمان الحقيقي شعارهم الخضوع ودثارهم الخشوع بين يدي مولاهم، فإذا ذكروا بآيات الله ودعوا بها إلى الله ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾[1] [السجدة:15] في سرائرهم على تراب التذلل بنعت الذبول وحكم الخمود شاكرين الله بأنهم ذكروا بنعمة ذكروا بآيات الله، وسبحوا بحمد ربهم أي: نزهوا حضرة جلاله عن ألا يحمدوا غيره؛ لأنهم رأوه ولي نعم جميع الموجودات فالحمد لا يليق بأحد إلا به فالواجب على جميع الموجودات حمده على نعمه وثناؤه على كرمه وتحقيق قوله: ﴿وَإِن مِّن

---

(1) قال الورتجبيي: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًّا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الوالهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته. قال القاسم: إذا وعظوا بها خرُّوا سجَّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبي ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا وسمه.

شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44] ولكنه تعالى أعز وأعلى قدرًا من أن يخرج عن حقيقة حمده وثناء غيره، فلهذا قال تعالى ليلة المعراج للنبي ﷺ: «اثن عليَّ» قال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك»، ثم أثنى عليه فقال: «أنت كما أثنيت على نفسك»[1] يعني: قولك ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] هو ثناء على نفسك ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:49] في سجودك، كما استكبر إبليس أن يسجد لك إلى قبلة آدم، ولو سجد له بأمرك لكان سجوده في الحقيقة لك، وكان آدم قبلة للسجود كما أن الكعبة قبلة لنا في سجودنا لك.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: 16 - 20].

ثم وصف الساجدين لأنهم بأي خصوصية سجدوا له ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:16] جنوب هممهم عن مضاجع الدارين وتتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال فلا يسلكون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم ويفارقون مألوفهم، ويهجرون في الله معارفهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ بربهم ﴿خَوْفاً﴾ عن القطيعة والإبعاد ﴿وَطَمَعاً﴾ في القربات والموصلات ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:16] من نعمة الوجود ينفقون ببذل المجهود في طلب المفقود ليرد إليهم بالجود ما أخفى لهم من النقود.

كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:17] وفي الحقيقة أن ما أخفى لهم إنما هو جمالهم فقد أخفى عنهم لعينهم، فإن العين حق فاعلم أنه مادام أن تكون عينكم الفانية باقية يكون جمالكم الباقي مخفيًا عنكم لئلا تصيبه عينكم فلو

(1) رواه الدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (5/ 440، رقم 5986). وأبو داود (1/ 232، رقم 879)، والترمذي (5/ 524، رقم 3493) وقال: حسن. والنسائي (2/ 222، رقم 1130).

طلع صبح سعادة التلاقي، ويذهب بظلمة الشين من البين، وتبدلت العين بالعين فذهب الجفاء وظهر الخفاء ودام اللقاء، كما أقول:

قـد جّـاء هـواكمُ وذهـبَ بالبـينِ   لم يـبق سـوى وصـالكمُ في البـينِ

مـا جـاء بغـير عيـنكم في عينـي   والآن تحـت عيـنكم لي عينـي

وبقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:17] يشير إلى عدم علم كل نفس بما أخفى لهم وحصول جهلهم به إنما كان جزاء بما كانوا يعملون بالإعراض عن الحق؛ لإقبالهم على طلب غير الله وعبادة ما سواه ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً﴾ [السجدة:18] بطلب الحق ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقاً﴾ بطلب ما سوى الحق ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ الطالبون لله والبطالون عن الله.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [السجدة:19] بطلب الحق تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالإقبال على الله والإعراض عما سواه ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: أن جنات هي مأوى الأبرار ومنزلهم تكون لهم نزلاً للمقربين السائرين إلى الله وأما مأواهم ومنزلهم ففي ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ [السجدة:20] خرجوا عن سبيل الرشاد ووقعوا في بين البعد والإبعاد ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة:20] لأنهم في هذه الصفة عاشوا وفيها ماتوا فعليها حشروا وذلك أن دعاة الحق كانوا في الدنيا ينصحون لهم أن يخرجوا من أسفل الطبيعة بحبل الشريعة ورعاية أدب الطريقة حملهم الشوق الروحاني على التوجه إلى الوطن الأصلي العلوي، فلما عزموا على الخروج من الدركات الشهوية أدركتهم الطبيعة النفسانية الحيوانية السفلية وأمادتهم إلى أسفل الطبيعة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ [السجدة:20] يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:20] لأنكم وإن كنتم معذبين في الدنيا، ولكن ما كان لكم الشعور بالعذاب لخلل حواسكم الأخروية ولو كنتم تدون ذوق العذاب لانتهيتم من الأعمال الموجبة لعذاب النار، كما أنكم لما ذقتم ألم عذاب النار في الدنيا احترزتم عنها غاية الاحتراز.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: 21 - 25].

ثم أخبر عن عذاب الدنيا أنه الأدنى بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ [السجدة:21] يشير إلى أرباب الطلب وأصحاب السلوك إذا وقعت لأحدهم في إنشاء السلوك وقفة لعجب بداخله ولملالة وسآمة للنفس، أو لحسبان وغرور في قبول أو رفعت له فترة بالتفاته إلى شيء من الدنيا وزينتها وشهواتها فابتلاه الله ابتلاء في نفسه أو ماله أو مصيبة في أهاليه وأقربائه وأحبائه لعلهم بإذاقة عذاب البلاء والمحن انتبهوا من نوم الغفلة وتداركوا أيام العطلة قبل أن يذيقهم العذاب الأكبر بالخذلان والهجران وقسوة القلب، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110] إلى صدق طلبهم وشرح إرادتهم وعلو محبتهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:57] إذا نبذ العبد بأنواع الزجر وحرك في الترك حدود الوفاق مصون من التأديب ثم لم يردع عن فعله واغتر بطول سلامته وأمن هواجم مكره وخفايا سره أخذه بغتة بحيث لا يجد خرجة من أخذته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [السجدة:22] المصرين على جرمهم ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:22] بخسارة الدارين.

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة:23] يشير إلى أن موسى عليه السلام لما أوتي الكتاب اليوم وهو حق سمعه، فلا شك يا محمد أنه يحظى غدًا حظ بصره بالرؤية، ولكن بشفاعتك وبركة متابعتك واختصاصه في دعائه بقوله: اللهم اجعلني من أمة أحمد، فإن الرؤية مخصوصة بك وبتبعيتك لأمتك، وفيه إشارة أخرى، وهي أن لموسى القلب ينفتح في البداية إذنه لاستماع الكلام، فلما تأثر فيه شراب السماع وغلب عليه السكر هاج له شوق اللقاء فاستغاث إلى ربه: ﴿انظر إليك﴾ ثم ينفتح بصره فنودي مبشرًا له فلا تكن في مرية من لقاءه ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ [السجدة:23] الهاء

كناية عن موسى القلب هدى لبني إسرائيل صفات القلب ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ [السجدة: 24] وهم السر والخفاء ﴿يَهْدُونَ﴾ [السجدة:24] بأمرنا إلينا لما صبروا على مجادلي أحكامنا الأزلية وصبروا على مقاساة شدائد التزكية والتصفية إلى أوان استحقاق التجلية يتجلي صفات الربوبية ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24] أي: بشواهد آثار التجلي منا ﴿يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24] أنه بلا ريب.

ثم أخبر عن أصل الفصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [السجدة:25] يشير إلى أنه تبارك وتعالى يحكم بين عباده لوجوه:

أولها: لعزتهم لأنهم عنده أعز من أن يجعل حكمهم إلى أحد من المخلوقين بل هو بفضله وكرمه يكون حاكما عليهم.

وثانيها: غيرة عليهم لئلا يطلع على أحوالهم أحد غيره.

وثالثها: رحمةً وكرمًا فإنه ستار لا يفشي عيوبهم ويستر عن الأغيار ذنوبهم.

ورابعها: لأنه كريم ومن سنة الكرام أنهم ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان: 72].

وخامسها: فضلاً وعدلاً فإنه الخالق الحكيم الذي خلقهم وما يعلمون على مقتضى حكمته ووفق مشيئته، فإن رأى منهم حسنا فلذلك من نتائج إحسانه وفضله، وأن منهم قبيحًا فذلك من موجبات حكمته وعدله وأنه ﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:40].

وسادسها: عناية وشفقة فإنه تعالى خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فلا يجوز عن كرمه أن يخسروا عليه.

وسابعها: رحمة ومحبة فإنه تعالى بالمحبة خلقهم لقوله: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[1] وللمحبة خلقهم لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] فينظر في شأنهم

(1) تقدم تخريجه.

بنظر المحبة والرضا وعين الرضا عن كل عيب كليلة.

وثامنها: لطفًا وتكريمًا فإنه نادى عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] فلا يهين من كرَّمه.

وتاسعها: عفوًا وجودًا فإنه تعالى عفو يحب العفو، فإن رأى جريمة في جريدة العبد يجب عفوها، وأنه جواد يجب أن يجود عليهم بالمغفرة والرضوان.

وعاشرها: أنه تعالى جعلهم خزائن أسراره فهو أعلم بحالهم وأعرف بقدرهم، فإنه خمر طينتهم بيده أربعين صباحًا وجعلهم مرآة يظهر لها جميع صفاته عليهم لا على غيرهم، ولو كانت الملائكة المقربون ألا ترى أنه تعالى لما قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] فما عرفوهم حق معرفتهم حتى قال تعالى فيهم عزة وكرامة لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] أي: من فضائلهم وشمائلهم، فإنهم خزائن أسراري ومرآة جمالي وجلالي، فأنتم تنظرون إليهم بنظر الغيرة وأنا أنظر إليهم الرحمة والمحبة، فلا ترون منهم إلا كل قبيح ولا أرى منهم إلا كل جميل، فلا أرضى أن أجعلكم حاكمًا بينهم بل بفضلي وكرمي أنا أفضل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فأحسن مع محسنهم وأتجاوز عن سيئهم، فلا يكبر على اختلافهم لعلمي بحالهم أنهم لا يزالون مختلفين ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] ولذلك خلقهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: 26 - 30].

وبقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [السجدة:26] يشير إلى عذر الهالكين بأنه ما هلك أحد بنفسه إلا بإهلاكنا إياهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة:26] التي أسكناهم فيها على أقدام الهلاك فمن المهلكين من يهده الله إلى أن الله الذي هو أهلك فهو المهتدي، ومن أمارة علم من يعلم أن الله أهلكه أن يعلم ويهتدي إلى

أن الله هو يحييه فيرجع إلى الله بالتوبة والاستغفار ليحييه كما أهلكه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [السجدة:26] الإهلاك ﴿لَآيَاتٍ﴾ [السجدة:26] بأن الله هو المهلك والمحيي ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:26] هذا المعنى من لسان الإهلاك؛ ليرجعوا إليه في طلب الإحياء والنجاة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ [السجدة:27] ماء الهداية ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾[1] [السجدة:27] الجرز: القلوب الميتة فيسقي حدائق وصلهم بعد جفاف عودها وزوال المأنوس من معهودها فيعود عودها مُورقًا بعد ذبوله حاكيًا لحاله حال حصوله ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [السجدة:27] من الواردات التي تصلح لتربية النفوس، ومن المشاهدات التي تصلح لتغذية القلوب ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:27].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ [السجدة:28] بالإنكار والاستهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ [السجدة:28] والفتوح التي تدعونها ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:28] في دعواها، وهذا منكري هذه الطائفة يستدعون منهم إظهارًا الكرامات وعرض الفتوحات ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [السجدة:29] وأنكروا وجحدوا إيمانهم بما فتح الله على قلوب أوليائه إذ لم يعتدوا بهم ولم يهتدوا بهداهم، فما لهم إلا الخسران والزفرات ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:29] بنظر العناية ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [السجدة:30] يا طالب الصادق بالإقبال علينا وانظر لفتوحات ألطافنا ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة:30] هول مقتنا وخفايا مكرنا.

(1) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جدب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (3 / 386).

سورة الأحزاب

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾ [الأحزاب: 1 – 5].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ كلام قديم وخطاب أزلي، وهو ﷺ الأبد في كتم العدم بلا هو، وكان الأمر أمر التكوين فأسمعه الله تعالى في العدم كما أسمع السموات والأرض، وهما في العدم ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] ولما كان الأمر إليهما أمر التكوين فأجاباه بلسان الكينونة، فكذلك النبي ﷺ لما خوطب بأمر التكوين أتق الله أجاب الله بلسان الكينونية: اتقيت الله، فكان في الأزل إلى الأبد كما كان متقيًا، ولما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْـمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:1] لم يكن مطيعًا لهم من الأزل إلى الأبد كما كان نبيًا من الأزل إلى الأبد لقوله: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[1] ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً﴾ [الأحزاب:1] بحالك ﴿حَكِيماً﴾ [الأحزاب:1] فيما قدر لك ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب:2] وهذا أيضًا من التكوين يعني اتبع إلى الأبد ما يوحى إليك بالخطاب الأزلي من ربك ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأحزاب:2– 3] توكلاً أزليًا أبديًا ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:3] لك

---

(١) تقدم تخريجه.

فيما أنعم عليك بنعمة النبوة وهذه النعمة التي لا يمكنك تحصيلها بالأصالة، فهو حصلها لك بالوكالة وبقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1] [الأحزاب:4] يشير إلى أن القلب صدق درة المحبة، والمحبة أمانتي التي عرضتها ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] وأمرتكم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، فأهلها أمانة المحبة حضرة جلالي فلا تخوني في أمانتي أي: فلا تحبوا غيري، ولا تكونوا ممن يتخذون الله أندادًا يحبونهم كحب الله أي يصرفون محبة الله في الأنداد وكونوا كالذين آمنوا وهم ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165] يعني أهل الإيمان ما خانوا في أمانة المحبة وردوها إلى أهلها.

فمعنى الآية أن القلب واحد والمحبة واحدة فلا تصلح إلا لمحبوب واحد من غير شريك فإنه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل محبة بالشركة وبقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب:4] يشير إلى أن في القرابة النسبية خواص لا توجد في القرابة السببية وهي مما أودع الله فيها بالحكمة البالغة وعليها أحكام مبنية من الشريعة والطريقة والحقيقة ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23] فلا سبيل لأحد أن يضع في الأزواج بالظهار ما وضع الله في الأمهات، ولا أن تضع الإجابة بالمني ما وضع الله في الأبناء، فإن الولد سر أبيه كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب:4] فما لم يجعل الله ليس مقدور أحد أن يجعله ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب:4] لا حقيقة له ﴿واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

---

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله.
قال الصادق: قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًّا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4] أي: اسم كل شيء مناسب لمعناه كما هدى آدم بتعليم الأسماء كلها وخصه بهذا العلم دون الملائكة المقربين ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:5] فيما اختصهم به بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:5] يشير إلى أن آباءهم الحقيقة الذين ولدوهم من أرحام قلوبهم في عالم الملكوت وهي النشأة الثانية من الأنبياء ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب:5] في معرفة الإنسان، فإن النسب الحقيقي ما ينسب إلى النبي ﷺ فإنه النسبة الباقية كما قال ﷺ: «كل حسب ونسب تنقطع إلا حسبي ونسبي»[1] فحسبه الفقر، ونسبه النبوة ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:5] بقطع الرحم عن النبوة بترك سنته وسيرته، وأنتم تعلمون أن يكون مخالفته قطع رحم الأبوة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:5] فيما صدر عنكم بغير قصدكم في قطع الرحم الحقيقي.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: 6 – 11].

ثم أخبر عن صلة رحم الأبوة بالنبوة بقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2] [الأحزاب:6] أي أحق بهم في توليتهم من صلب النبوة من أنفسهم؛ لأنهم لا

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال سيدي محمد البيطار: قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فالمؤمنون هم لا هم بل هم هو؛ لأن الإيمان نقلهم منهم إليه، فقرارهم لا منهم بل إليه فيهم؛ لأنه

يقدرون على توليد أنفسهم في النشأة الثانية، كما لم يقدروا على توليد أنفسهم في النشأة الأولى، وكان أبوهم أحق بهم من أنفسهم في توليدهم من صلبه، فالنبي بمنزلة أبيهم ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6] يشير إلى أن أمهاتهم قلوبهم، وهنَّ أزواجه ليتصرف في قلوبهم تصرف الذكور في الإناث بشرط كمال التسليم؛ لتأخذوا من صلب النبي نطفة الولاية في أرحام القلوب، وإذا حملوا النطفة صانوها من الآفات؛ لئلا تسقطوا بأدنى رائحة من روائح حب الدنيا وشهواتها فإنها تسقط الجنين فيرتدوا على أعقابهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.

ثم قال ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب:6] يعني بعد أولوية النبي ﷺ بالمؤمنين أولوا الأرحام في الدين بعضهم أولى ببعض للتربية بعد النبي ﷺ

عينهم التي يشربون بها منها فهم ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ بهذا الإيمان من أنفسهم ﴿تَفْجِيرًا﴾، فلولا هذا الإيمان بهذا النص القرآني لم تتفجر منهم الحقيقة المحمدية، فقد استحقوا حينئذ أن يصلي عليهم هو وملائكته كما صلى هو وملائكته على نبيهم؛ لأنه عينهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فلهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:24]، فاستجبنا لله إذ دعانا بقوله:﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:50]، واستجبنا للرسول إذ قال: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:50] فلما سلَّمنا إليه نفوسنا تسليمًا، وأجبنا الداعي الذي من كونه مؤمنًا أحبَّ لنا ما يحب لنفسه. أخبرنا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:43]، فعاد الأمر من الله إلى محمد ﷺ ومن محمد ﷺ إلينا، فقلنا أولاً : «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» ثم عدنا إليه ﷺ فقلنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فلما تكاثر الأمر وخفنا أن يلهينا التكاثر عن التوحيد قلنا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده» أي: مجلي هوية ذاته ورسول جميع أسمائه وصفاته، فلما استجبنا لله ولرسول الله وعرفنا الأحدية المطلقة قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:61] فعادت التحيات التي هي لله لنا لما أجبنا الداعي.

ومن هذا المقام قال ﷺ : «لو كنت بدل يوسف لأجبت الداعي» لأنه يراه الداعي في كل داعي، وفي الحديث: «من دعي فليجب»، وقد دعانا الرسول إليه، وأخبرنا أننا له لا لنا، فكان اسمه منطبقًا علينا فقلنا: «اللهم صلي على محمد» لما قال لنا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:128]، فعدنا إليه منّا فقال: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:65] فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أكابرهم من المؤمنين الكاملين أولى بأصاغرهم من الطالبين ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: في سنة الله وتقديره للتوليد في النشأة الثانية عن النبي ﷺ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنشأة الأخرى ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ عما سوى الله ﴿إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم﴾ [الأحزاب:6] يشير إلى النفس إذا تزكت عن الأخلاق الذميمة وتبدلت عداوتها، فصارت من الأولياء بعد أن كانت من الأعداء فيواسها ويعمل ﴿مَّعْرُوفاً﴾ برفق من الأفارق ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ المعروف في حق النفس مقدارًا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ عند الله ﴿مَسْطُوراً﴾ في أم الكتاب.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب:7] في الأزل وهم في كتم العدم مختفون ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد أولا بالحبيبة، ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ بالدعوة، ﴿وَ﴾ من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بالخلة، ﴿وَ﴾ من ﴿مُوسَى﴾ بالمكالمة، ﴿وَ﴾ من ﴿عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بالعبدية ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب:7] بالوفاء وبغلظة الميثاق يشير إلى أن غلظنا ميثاقهم بالتأييد والتوفيق للوفاء به.

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحزاب:8] في العهد والوفاء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: 8] لما صدقوا إظهارًا لصدقهم كما أثنى عليهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:23] وكان سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب، والصدق أن لا يكون في أحوالكم شوب، ولا في أعمالكم عيب، ولا في اعتقادكم ريب ومن أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق، وفي الأحوال تصفيتها من غير مداخلة إعجاب، وفي القول سلامته من المعارض، وفيما بينك وبين الناس التباعد من التلبيس والتدليس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرؤ عن الحول والقوة بل الخروج عن الجود المجازي شوقًا إلى الوجود الحقيقي ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: 8] المنكرين على هذه المقامات، المعرضين عن هذه الكرامات ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الأحزاب: 8] من الحسرات والغرامات.

ثم أخبر عن كرمه مع العباد بإعطاء نعمه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:9] يشير إلى أنواع نعمه الظاهرة والباطنة.

أولها: نعمة الإيجاد من كتم العدم.

وثانيها: إذ أخرجكم من العدم جعلكم أرواحًا مطهرة إنسانية ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] لا حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا.

وثالثها: يوم الميثاق شرفكم بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ثم وفقكم لاستماع خطابه ثم دلكم إلى إصابة جوابه.

ورابعها: أنعم عليكم بالنفخة الخامسة عند بعثك إلى القالب الإنساني؛ لئلا ينزلوا المنزل من المنازل السماوية والكوكبية والجنية والشيطانية والنارية والهوائية والمائية والأرضية والنباتية والحيوانية وغيرها من المنازل إلى أن أنزلكم في المقام الإنسانية.

وخامسها: عجن طينة قالبكم بيده أربعين صباحًا ثم صوركم في الأرحام وسواكم ثم نفخ فيه من روحه.

وسادسها: شرف روحكم بتشريف إضافته إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [ص: 72] وما أعطى هذا التشريف لروح من أرواح الملائكة المقربين.

وسابعها: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل:78] ثم بالإلهامات الربانية علمكم ما يحتاجون إليه من أسباب المعاش.

وثامنها: ألهمكم فجوركم وتقواكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد للرجوع إلى المعاد.

وتاسعها: أرسل إليكم الأنبياء والرسل ليخرجوكم من الظلمات الخلقية إلى نور الخالقية.

وعاشرها: أنعم عليكم بالإيمان ثم بالإيقان ثم بالإحسان ثم بالعرفان ثم بالعيان ثم بالعين ثم أتاكم من كل ما سألتموه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] وذكر نعمة استعمالها في عبودية إذا شكر نعمة، وشكر النعمة رؤية النعمة أن يرى نعمة توفيقه لأداء شكره إلى أن نعجز عن أداء شكره، فإن نعمه غير متناهية وشكرك متناه، فرؤية العجز عن أداء الشكر حقيقة الشكر، ومن الشكر بذكر ما سلف من الذي دفع عنده وأنت بصدده من أنواع البلاء والمحن والمصائب والمكائد.

فمن جملة ذلك قوله: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:9] به يشير إلى جنود الشياطين وجنود وصفات النفس وجنود الدنيا وزينتها

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ [الأحزاب:9] من نكبات قهرها ﴿وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:9] من حفظنا وعصمتها ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأحزاب:9] من الميل إلى الدنيا وشهواتها بصيرًا بدفعها وعلاجها كم من بلاء صرفه عن العبد وهو لم يشعر، وكم من شغل كان بصدده فصده عنه وهو لم يعلم، وكم أمر عوقه والعبد يصبح وهو يعلم أن في تيسيره هلاكه فيمنعه منه رحمة عليه، والعبد يتهمه ويضيق به صدره وبقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب:10] يشير إلى الآفات السماوية أو ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:10] من متولدات البشرية إذا أحاط بكم سرادق البلاء وأحدق بكم أحكام القضاء ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:10] من تراكم البلاء وترادف النكبات، وقد ضاق نطاق طاقة البشرية من ضعف الإنسانية لولا أن تداركتكم العناية لأهلكتكم تعاقب النكابة ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:10] وداخلكم كوامن الارتياب وبدا في سويدائكم جولان الشكوك؛ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدًا، ثم أنال عنهم جملتها وهون عليهم شدتها حتى تفرقت عن قلوبهم همومها فجرت ينابيع السكينة عنها.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب: 12 - 16].

ومن قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب:12] إلى قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾ [الأحزاب:14]، وتمام الآية: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾ [الأحزاب:

12-14] يشير إلى مرض القلوب وصحة النفوس وجأشهما إذا وكلتا إلى حالتيهما من فساد الاعتقاد وسوء الظن بالله ورسوله ونقض العهود والاغترار بتسويلات الشياطين والفرار من معادن الصدق والتمسك بالحيل والمكائد والكذب والتعلل بالأعذار الواهية، فغلبات الخوف البشرية والجبانة وقلة اليقين والصبر وكثرة الريب والجزع، وعند احتمال خطر الأذية لو سئلوا الارتداد عن الإسلام والإشراك بعد الإقرار بالتوحيد أجابوهم وجاءوا به ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ [الأحزاب:14] يعني في الاحتراز عن الوقوع في الفتنة ﴿إِلاَّ يَسِيراً﴾ [الأحزاب:14] بل أسرعوا في إجابتها لاستيلاء أوصاف النفوس وغلباتها وبصدأ القلوب وهجوم غفلاتها.

ثم أخبر عن نقض العهود لوهن العقول بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب:15] يشير إلى مدعي الطلب، فإنهم يعاهدون الله من قبل الشروع في الطلب أنهم ﴿لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب:15] عن المحاربة مع الشيطان وعند الجهاد مع النفس، فلما شرعوا في الحرب والجهاد مع أحزاب النفس والشيطان، وقد حمل كل حزب منهم أسلحتهم وأخذوا خدعات الحرب ومكائده، وهم الشجعان والأقوياء والأبطال المجربون وعساكر طلاب القلوب المرضى، وهم بعد إغمار غير مجربي الحروب والقتال وإن كان لهم الأسلحة ولكنهم بمعزل عن استعمالهم لضعفهم وعدم العلم بكيفية الاستعمال، فإذا قام الحرب ودام الضرب، غلب الأقوياء على الضعفاء وانهزم المرضى عن الأصحاء، فلم يشد أزرهم الصدق ولم يعاونهم العشق ولم يذكروا حقيقة قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب:15]، ولا يتفكروا في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ﴾ [الأحزاب:16] أيها الطالبون: إن فررتم وإن نفروا إلى الله لينفعكم، فإن الفرار من الموت أو القتل أو موت النفس وقتلها بالمجاهدة لا ينفع عند نزول الآجال، وإن لم تأتهم الآجال فهي من غاية الشقاوة، وإذا لا تمتعون كالبهائم والأنعام في رياض الدنيا إلا قليلاً ولا نهاية لتلك الشقاوة.

﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب: 17 - 20].

ثم قال ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ [الأحزاب:17] ومن الذي تحقق لكم من دونه مرجوا أو يمنعه منكم إن أراد بكم رحمة ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً﴾ [الأحزاب:17] لو عرفوه حق المعرفة ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:18] عن قتال النفس وجهادها وهم الهوى والشيطان والدنيا وشهواتها، ﴿وَ﴾ هم ﴿الْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ وهم الحواس الظاهرة والباطنة والجوارح والأعضاء ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي كونوا أتباعًا لنا لتنتفعوا ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:18] القتال والجهاد مع النفس وأعوانها الملازمة أحكام الشريعة على وفق الطريقة ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ من الأركان الظاهرة دفعًا للطعان والجدود.

ثم وصف المعوقين عن الطلب والمانعين عن الجهاد، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:19] بخلاء فيما يصل إليكم يا أرباب الطلب من ثمرات المجاهدات، فإن المجاهدات تورث المشاهدات ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من عذاب الآخرة عند تذكرها ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: رأيت النفس وصفاتها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الأحزاب:19] بالحسرة والندامة، وقد طاشت من الرعب قلوبهم وطاحت بصائرهم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا﴾ [الأحزاب:19] جاءت الغفلة و﴿ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ أيها الطلاب ﴿سَلَقُوكُم﴾ [الأحزاب:19] إخوان السوء وإخوان الشياطين ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ بأنواع التعريفات وأصناف الفترات ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ بأن يصيبكم من فضل الله وكرمه ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأحزاب:19] يُشير به إلى مدعي الطلب إذا ارتد عن الطلب، فإن المشايخ قد قالوا: إن مرتد الطريقة شر من مرتد الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:19] لأنها لم تكن في إيمان حقيقي بل كان بالتقليد والرياء والسمعة،

وكان ذلك الرد والإبطال على الله يسيرًا.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب: 21 - 25].

ثم أخبر عن حسن الأسوة وسر القدوة وبقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:21] يشير إلى ما سبقت به العناية لهذه الأمة في متابعة الرسول ﷺ كما أخبر بلفظ ﴿كَانَ﴾ أي: كان لكم مقدر في الأزل أن يكون لكم عند الخروج من العدم إلى الوجود ﴿فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ﴾ أي: فقد أحسنته، وذلك بأن أول شيء تعلقت به القدرة للإيجاد كان روح رسول الله ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي»[1] والأسوة الحسنة عبارة عن تعلق القدرة بأرواح هذه الأمة لإخراجهم من العدم إلى الوجود عقيب إخراج روح رسول الله ﷺ من العدم إلى الوجود، فمن أكرم بهذه الكرامة يكون لها أثر في عالم الأرواح قبل تعلقه بعالم الأشباح، فأما أثره في عالم الأرواح فتقدمه على الأرواح بالخروج إلى عالم الأرواح وترجيعه في الصف الأول بقرب روح رسول الله ﷺ أو في الصف الذي يليه، وبتقدمه في قبول الفيض الإلهي وبتقدمه عند استخراج ذرات الذريات من صلب آدم في استخراج ذريته بإحضارها في الحضرة وبتقدمه في استماع خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في إجابة الرب تعالى بقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في المعاهدة مع الله وبتأخره في الرجوع إلى صلب آدم وبتأخره في الخروج عن أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وفي الخروج عن الرحم ويتأخر تعلق روحه بجسمه، فإن لله الذي هو المقدم والمؤخر في هذه التقدمات والتأخرات حكم بالغة،

(1) تقدم تخريجه.

ولها تأثيرات عجيبة يطول شرحها، وأما أثره في عالم الأشباح فاعلم أنه بحسب هذه المراتب في ظهور أثر الأسوة يظهر أثرها في عالم الأشباح عند تعلق نظر الروح بالنطفة في الرحم أولاً إلى أن تربى النطفة بنظره في الأطوار المختلفة، وتصير قالبًا مستوي الروح مستعدًا للقبول تعلق الروح به فمثل القالب المستوي مع الروح كمثل الشمعة مع نقش الخاتم إذا وضع عليها تقبل جميع نقوش الخاتم.

فالروح المكرم إذا تعلق بالقالب المستوي يودع فيه جميع خواصه التي استفاد من تلك التقدمات والتأخرات الأسوية، فكل ما يجري على الإنسان من بداية ولادته إلى نهاية عمره من الأفعال والأقوال والأحوال كلها من آثار خواص أودعها الله في الروح فبحسب قرب كل روح الرسول ﷺ وبعده عنه له أعمال ونيات تناسب حاله في الأسوة، فأما حال أهل القرب منهم بأن يكون علمهم على وفق السنة خالصًا لوجه الله.

كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ [الأحزاب:21] وأما من هو دونهم في القرب والإخلاص فبأن يكون لليوم الآخر أي للفوز بنعم الجنان كما قال تعالى: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:21] ثم جعل نيل هذه المقامات مشروطًا بقول: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب:21] لأن في الذكر وهو كلمة «لا إله إلا الله» نفيًا أو إثباتًا وهما قدمان للسائرين إلى الله وجناحان للطائرين بالله بهما يخرجان من ظلمات الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي عند رؤية الأحزاب.

وبقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب:22] يشير إلى أهل نور الوجود المجتمعين على إضلالهم وإهلاكهم من النفس وصفاتها والدنيا وزينتها والشيطان وأتباعه ﴿قَالُوا﴾ متوكلين على الله مفوضين أمورهم إلى الله ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب:22] فإن البلاء موكل بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل وصدق الله ورسوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً﴾ [الأحزاب:22] بصدق وعد الله ﴿وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:22] لأحكامه الأزلية.

وبقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب:23] يشير إلى أن فهم من هو بمنزلة الرجال بأن يكون هو متصرفًا في الموجودات وألا تصرف لشيء من الموجودات

رأت فيه، كما قال بعضهم: «أنا سيد لا يدخلني شيء»، وأمارة رجوليتهم أنهم ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ ألا يعبدوا غيره من الدنيا والعقبى والدرجات العليا إلى أن يصلوا إلى الحضرة العلي الأعلى ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب:23] أي: بلغ مقصده وهذا حال المنتهين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب:23] البلوغ والوصال وهو في السير وهذا حال المتوسطين ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:23] بالإعراض عن الطلب والإقبال على غير الله.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:24] في الطلب وبقدم الصدق ينزلون عند ربهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ [الأحزاب:24] وهم مدعو الطلب بغير قدم صدق بل بقدم كذب ورياء ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:24] أن يكونوا في زي أهل الحرفة ولباس التقوى وفي سيرة أهل الرياء والنفاق، كما قال بعضهم:

أمـــا الخـــيام فإنهـــا كخـــيامهم ... وأرى نـــساء الحـــي غـــير نـــسائها[1]

إن الله كان من الأزل إلى الأبد غفورًا لمن يشاء رحيمًا لمن يشاء.

وبقوله: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ [الأحزاب:25] يشير إلى كفار النفس والشيطان والدنيا وردهم عن القلوب المنورة بنور الإيمان ومنهم غيظهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ [الأحزاب:25] أي مرادًا ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:25] بريح القهر إذ هبت على النفوس فأبطلت شهواتها وعلى الشيطان فردت كيده على الدنيا فأزالت زينتها ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِياً﴾ [الأحزاب:25] في إبطال الباطل وتحقيق الحق ﴿عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: 25] لا مانع له عما يشاء.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ

(1) البيت لأبي بكر الشبلي، وهو من بحر «الكامل»، وقاله أيضا سيدي أحمد بن علوان.

لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: 26 - 30].

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ [الأحزاب:26] أي: أعانوا للنفس والشيطان والدنيا على القلوب ﴿مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ [الأحزاب:26] وهم العلماء المداهنون بفنون الرخص لا عزائم الطلب ويغرونهم التجريد والمجاهدة وترك الدنيا والعزلة والانقطاع، ويقولون: هذه رهبانية وليست ومن ديننا ويتمسكون بآيات وأخبار لها ظاهر وباطن، فيأخذون بظاهرها ويبطلون ويضيعون باطنها، ولا يعلمون أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فيؤمنون ببعض هو على وفق طباعهم ويكفرون ببعض هو على خلاف طباعهم، أولئك أعوان النفوس والشياطين.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ وانزالهم بأن الله تعالى ينور قلوب أرباب الطلب بنور الإيقان والعرفان؛ ليتحقق عندهم جهل هؤلاء العلماء السوء وينزل وقعهم ووقارهم في نظر أهل التحقيق ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصون تكبرهم وتجبرهم وغرورهم وحسبانهم عند أهل النظر، وأيضا أنزل وقعهم من حصون اعتقاد أرباب الطلب؛ لئلا يفتنون بهم ويغتروا عن صدق طلبهم ﴿وَقَذَفَ﴾ [الأحزاب:26] بنور قلبهم ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ [الأحزاب:26] النفوس والشياطين ﴿الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب:26] ليتفرقوا عن تسويلات أرباب الطلب ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [الأحزاب:26] وهم النفس وصفاتها والشيطان وأتباعه ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ [الأحزاب:26] وهم الدنيا وجاهها ومالها.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ [الأحزاب:27] يا أرباب الحق ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:27] لتنفقوا في سبيل الله وتجعلوها بذر مزرعة الآخرة وبقوله: ﴿وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾ [الأحزاب:27] يشير إلى مقامات وكمالات لم يبلغوها باستعمال الدنيا، وما فيها أمر استعمالها فيه وكان الله على توفيق استعمال كل شيء من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها في طلب الحق قديرًا.

ثم أخبر عن طالب الدنيا أنه تارك العقبى والمولى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾

[الأحزاب:28] موجب للمفارقة عن صحبة النبي ﷺ لأزواجه مع أنهن محال النطفة الإنسانية في عالم الصورة ليعلم أن حب الدنيا وزينتها آكد في إيجاب المفارقة عن صحبة النبي ﷺ لأمته؛ لأن أرحام قلوبهم محل النطفة الروحانية الربانية، فينبغي أن يكون أطيب وأزكى لاستحقاق تلك النطفة الشريفة، فإن الطيبات للطيبين وبقوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:29] يشير إلى أن محبة الله ورسوله والدار الآخرة موجبة الاتصال إلى النبي ﷺ والوصلة إلى الله ﷻ إن كانت خالصة من دون الله، فإن كانت مشوبة بنعيم الجنة فله نعيم الجنة بقدر شوب محبة الله محبة النعيم، وله من الأجر العظيم بحسب محبة الله، فإن قال قائل: فلما تحقق أن محبة الله إذا كانت مشوبة بمحبة غير الله يوجب النقص من الأجر العظيم فمحبة النبي ﷺ توجب النقص من الأجر العظيم، قلنا: لا يوجب النقص من الأجر العظيم بل تزيد فيه لأن من أحب النبي ﷺ فقد أحب الله كما أن من يطع الرسول فقد أطاع الله والفرق بين محبة النبي ﷺ ومحبة الجنة أن محبته بالحق دون الحظ ومحبة الجنة بالحظ دون الحق، فإن الجنة حظ النفس كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت:31] ومحبة النبي ﷺ ومتابعته مؤدية إلى محبة الله للعبد لقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31].

وبقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:30] يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها تزيد وتنقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة كحد الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص وذلك لأن أهل السعادة صنفين: صنف منهم السعيد والآخر الأسعد، فالسعيد: من أهل الجنة، والأسعد: من أهل الله، فإذا صدر من السعيد طاعة فأعطي أجرًا واحدًا من الجنة، وإن صدر معصية فأعطى بها عذابا واحدًا من الجحيم، وإذا صدر من أهل الأسعد طاعة فأعطى أجره مرتين وذلك بأن له درجة في الجنة ومرتين في القربة، وإن صدر منه معصية يضاعف له العذاب ضعفين نقص في درجته من الجنة ونقص في مرتبته من القربة أو عذاب من ألم مس النار، وعذاب من ألم مس بعد ذلك الحجاب ومن هنا كان

دعاء السَّري السَّقطي- قدس سره-: اللهم إن كنت معذبي بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ [الأحزاب:30] أن يضاعف لهم العذاب ضعفين بخلاف الخلق لأن تضعيفه العذاب في جهنم ليس بيسير، فإنهم يبعثون به ويعسر عليهم ذلك.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: 31 - 34].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ [الأحزاب:31] أي: تعمل لله خالصًا غير مشرب بطمع الجنة؛ ولهذا قال الله ورسوله: ولم يعمل للدار الآخرة ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب:31] يشير إلى أن الطاعة والعمل الصالح من غير شوب يوجب أجر المزيد في القرب وبتبعيتها يوجب أجرًا آخر في درجات الجنة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ [الأحزاب:31] بمزيد العناية ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ [الأحزاب:31] والكريم هو الله أي: يرزقه من المشاهدات الربانية والمكاشفات والمكالمات مزيدًا على القربة، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:40].

وقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب:32] يشير إلى أرباب قلوب أسرار أرحام قلوبهم لتصرفات ولاية المشايخ ليست أحوالهم كأحوال غيرهم من الحق ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ بالله من غيره ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لشيء من الدارين على أن تخضع له بالقول لا بالقلب والعمل بزعمك، فإن كثيرا من الصادقين يخضعون لأرباب الدنيا والأعمال الدنيوية لصلاح الآخرة ومصالح الدين بزعمهم، فبالتدريج وقعوا في ورطة الهلاك ورجعوا القهقرى إلى الدنيا واستغرقوا في بحر الغفلات لضعف الحالات، وهذا

معنى قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:32].

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ [الأحزاب:32] يشير إلى أن لا يشرعوا في شيء من أحوال الدنيا وأعمالها إلا بحسب القوة والقدرة التي يغلبون عليها بالمعروف، ولا يغلب عليكم بالنكرات ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33] يخاطب به القلوب أن يقروا في أوطانهم من عالم الملكوت من الأرواح متوجهين إلى الحضرة ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:33] أي: لا تخرجوا إلى عالم الحواس راغبين في زينة الدنيا وشهواتها كما هو من عادات الجهلة.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ﴾ [الأحزاب:33] بدوام الحضور والمراقبة والعروج إلى الله بالسير، فإن الصلاة معراج المؤمن بأن يرفع يديه من الدنيا ويكبر عليها، ويقبل على الله بالإعراض عما سواه ويرجع من مقام تكبر الإنساني إلى خضوع ركوع الحيواني، ومنه إلى خضوع سجود النباتي، ثم إلى قعود الجمادي، فإنه بهذا الطريق أهبط إلى أسفل القالب، فيكون رجوعه بهذا الطريق إلى أن يصل إلى مقام الشهود الذي كان فيه في البداية الروحانية يتشهد بالتحية والثناء على الحضرة، ثم يسلم عن يمينه على الآخرة وما فيها ويسلم عن شماله على الدنيا وما فيها مستغرقًا في بحر الألوهية بإقامة الصلاة وإدامتها.

﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ [الأحزاب:33] فالزكاة ما زاد على الوجود الحقيقي من الوجود المجازي فإيتاؤها صرفها وإفناؤها في الوجود الحقيقي بطريق ﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[1] [الأحزاب:33] وهو لوث الحدوث بشراب طهر تجلي صفات جماله وجلاله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:33] لا يكون عن تلوثًا ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الأحزاب:34] يشير به إلى تذكر عظيم النعمة التي تصل من مواهب الحق، وجليل الحالة التي تجري في بيوت القلوب من الواردات والإشارات والشواهد والكشوف وحقائق القرآن وأسراره وأنواره ومواعظه

(1) الرجس: هاهنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصوصات بالصديقية من الله سبحانه، وهن مقدمات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن. قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات.

والحكمة التي فيه ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ [الأحزاب:34] بعباده بأن جعل قلوبهم مرآة صفات لطفه ومظهرها ﴿خَبِيراً﴾ [الأحزاب:34] فيما صنع ولما صنع.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: 35 - 37].

ثم أخبر عن المسلمين والمسلمات من أهل البدايات والنهايات بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْـمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب:35] المسلم هو المستسلم للأحكام الأزلية بالطوع والرغبة مسلما نفسه إلى المجاهدة والمكابدة ومخالفة الهوى، وقد سلم المسلمون من لسانه ويده ﴿وَالْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:35] والمؤمن من آمنه الناس وقد أحيا الله قلبه أولا بالفعل، ثم بالعلم ثم بالفهم ثم بنور الله ثم بالتوحيد ثم بالمعرفة ثم أحياه بالله ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الأحزاب:35] القنوت استغراق الوجود في الطاعة والعبودية ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب:35] في عقودهم وعهودهم ورعاية حدودهم والصدق نور الهدى لقلوب الصديقين بحسب قربهم من ربهم ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب:35] على الخصال الحميدة وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجأة القضية في الابتداء ونزول البلاء ﴿وَالْـخَاشِعِينَ وَالْـخَاشِعَاتِ﴾ [الأحزاب:35] الخشوع إطراق السريرة عند توارد الحقيقة ﴿وَالْـمُتَصَدِّقِينَ وَالْـمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: 35] بأموالهم وأعراضهم حتى لا يكون لهم مع أحد خصمه، فيما نالوا منهم وحقيقة

الصدقة ما يكون بالأحوال على أرباب الطلب ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ [الأحزاب: 35] الممسكين عما لا يجوز في الشريعة والطريقة بالقلب والقالب فصوم القالب بالإمساك عن الشهوات وصوم القلب بالإمساك عن رؤية الدرجات والقربات ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب:35] في الظاهر عن الحرام وفي الحقيقة عن تصورات المكونات ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1] [الأحزاب:35] بجميع أجزاء وجودهم الجسمانية والروحانية بجميع ذرات المكونات بل بالله وجميع صفاته ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُم﴾ [الأحزاب:35] في الأزل وهم في العدم ﴿مَّغْفِرَةً﴾ [الأحزاب:35] وهي نور من أنوار جماله، فلما خرجوا من العدم جعل نور المغفرة مغفرًا لرأس روحهم يغطيهم عما يقطعه عن الله ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:35] والعظيم هو الله يعني أجرًا من مواهب ألطافه بتجلي

---

(1) الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فنوا استغاثوا منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهممهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكاشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة.

و اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:142] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

ذاته وصفاته[1].

---

(1) قال الشيخ البيطار: وارد عجيب بنبأ محمدي غريب: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالوجود وهو زيد بن حارثة ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾، أي: بالشهود ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:37]، وذلك أنه كان يطلبها من خارج عنه وهي تنفر منه، وقد بُلي بحبها وعشقها والوصلة بها، فأرشده النبي ﷺ بإمساكها عليه بأن يردها إلى نفسها شهورًا فيشهدها من ذاته، فإذا تحقق أنها عين ذاته يبرد عشقه وغرامه ويسكن شوقه وهيامه، كمجنون ليلى لما قيل له: أتريد ليلى ؟ قال: لا، فقيل له: لم ذلك ؟ فقال: لأني أنا ليلى، ثم تعرضت له من خارج وقالت: أنا محبوبتك: فقال: حبك أغناني عنك.

ومن المعلوم أن الشهود في النفس أعظم من الشهود في الحس؛ لأن شهود الذات غير مفارق وشهود الحس غير دائم ثم قال له: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي اجعله وقايتك فيما تريد بأن تجعل الإرادة له إذ أرادته لا تتخلف وإرادة العبد بين بين ثم قال تعالى يثني على محمد ﷺ ويمدحه في المقام الأحدي الذاتي: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب:37] أي: كل ما يبديه الله تعالى من مظاهر وجودية، أنت ترده إلى باطن حقيقتك وتخفيه بأن تجعله غيبًا في نفسك فيبديه الله منك؛ لأنك الأصل، وهيولي العالم على الإطلاق، فلا يبدي الله شيئًا إلا هو موجود في خزانة حقيقتك الجامعة عن شهود منك وتحقيق؛ فأنت باطن الحق من هذا الوجه والله ظاهرك في المظاهر الشهادية، وهذا مشهد انقلاب الأمر، فإن الله باطن محمد، ومحمد ظاهره، فانقلب الظاهر باطنًا والباطن ظاهرًا بحكم الأحدية التي لا تقبل التجزؤ بوجه من الوجوه.

فأثنى الله على محمد ﷺ بالأحدية المطلقة بأنه لا يبدو مظهر من مظاهر الحق إلا ويرده إلى ذاته بحكم تلك الأحدية ثم قال: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:37] أي: تُجِلُّ وتُعظم الناس الذين هم مظاهر الحق إجلالاً نفسيًا أحديًا بدون أن يظهر لهم ذلك، فإن الخشية يراد بها الهيبة .. فكان إجلاله للناس وهو يشهدهم من شهود حقيقة نفسه إجلالاً للحق، ولذلك وصف الحق بالخشية للعلماء في بعض القراءات قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾ [فاطر:28]، برفع لفظة الجلالة ونصب العلماء، فيكون الله هو الذي يخشى العلماء، أي: يعظمهم ويجلّهم؛ لأنهم مظاهر علمه، وعلمه عينه، فإجلاله لهم إجلال لنفسه واحترام لعظمة ذاته.

ثم إن الحق عامل المصطفى ﷺ بحسب مشهده الإحدى الذاتي فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:37]، أي: حيث كنت يا محمد ترى الناس عين الظاهر فيهم ـ وهو الله ـ فهو أحق أن تخشاه فيهم؛ لأن تسميتهم بالله أحق من تسميتهم بالناس، فكان ﷺ بقوله لزيد بن حارثة: «أمسك عليك زوجك» بحثه على المشهد الأحدي المحمدي بدليل قوله: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:37]؛ لأن زيد لم يكن يعامل زينب بنت جحش بخلاف تقوى الله، فإنه كان يطلبها ويعشقها العشق الشديد، وهي تنفر منه ولا تريده، فكان يشكو للنبي ﷺ ودموعه تجري كأنها ميزاب فداواه ﷺ بالدواء الإلهي المتقدم، وأمره بأن يجعل الله وقاية له فيكون الله في مظهره عوضًا عنه، فلا يفوته شيء، ثم لمّا تحقق زيد بالمعنى المحمدي وقضى منها وطرًا بالشهود الذاتي الأحدي أحب الله تعالى أن يريه هذا المشهد في أستاذه خاتم

-

النبيين ﷺ فقال: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾؛ ليرد زيد وجود نفسه إلى وجود محمد ﷺ فعند ذلك يظهر بالوجود المحمدي في نفسه فيرى الله في مرآة محمد ﷺ ثم يرى ما في المرآة المحمدية في نفسه، ولكن بالبصر المحمدي لا ببصره الذي هو على قدر استعداده ثم قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:37] أي: إنما جرى ذلك في الأصل، وهو محمد ﷺ ليظهر في الفرع من الورثة المؤمنين بهذا الشهود إيمان التحقق، والمؤمن في الحقيقة هو الله، وقد قال ﷺ: «المؤمن كثير بأخيه» أي: المؤمن من الخلق - وهو المظهر - كثير بأخيه الظاهر؛ لأنه مرآته يجمع ما جمعته المرآة؛ لأنه يشهد نفسه في تلك المرآة فيراها عين كل شيء، وذلك هو الفتح المبين.

ولذا قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره: الفتح المبين أن يُكشف لك عنك فترى كل شيء منك، ومن هنا تعلم أن السيد الأعظم لما كان هيولي العالم قام مقامهم بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]. ألا ترى قوله: نحن الأولون الآخرون، فما يشير إلا إلى حقيقته الجامعة التي قال عنها سيدي أحمد بن إدريس ﷺ: اللهم صل على طامة الحقائق الكبرى سر الخلوة الإلهية ليلة الأسرى، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:37] أي: جاريًا في حضرة الجمع جملة واحدة، وإن كان في حضرة الفرقية ليجري تفصيلاً فهذا التفصيل إنما هو مراعاة لسلوك المحجوبين عن مشهد الجمع الأكبر، إذ لا يطيقونه دفعة واحدة، وعلى ذلك نبَّه الله تعالى من كان محجوبًا عن ذلك بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:1].

فمن كشف له الحجاب أبصر ما تقدم وما تأخر، ثم قال تعالى بلا ثم: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب:38] أي: فيما قسم الله له، وما قسم له إلا الذات الجامعة والأحدية المطلقة، فهو عين الوجود الجامع لمظاهر الشهود، فكل مشهود فهو إليه، بدأ منه وهو عائد عليه، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:38] أي: من الأنبياء والرسل الذي هم مظاهر حقيقته الجامعة، فالجميع صوره، واسمه منطبق عليهم باطنًا، ولذلك قال في معراجه: «فإذا أنا بآدم»، «فإذا أنا بموسى» أي: أشهد نفسي وحقيقتي الجامعة في صورهم، فما أسري به إلا منه وإليه، فصورته المسجد الحرام، وحقيقته المسجد الأقصى؛ لأنها باطنه وغيب ذاتي أحدي، ولا يشهد هذا المسجد الأقصى إلا من جاوز شهود الصور، فمن دخل كعبة الذات كان آمنًا أن تحكم عليه الأسماء والصفات، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا﴾ [الأحزاب:38] أي: قضاء ﴿مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:38]، أي: جاريًا في الحضرة الجامعة ومشهودًا في الحقيقة الواسعة، وأمر الله عين ما يتجلى فيه من المظاهر تفصيلاً وفرقًا، وهو كائن في الذات إجمالاً وجمعًا، ولما كان ﷺ هو نقطة الوجود والمتحقق بحقيقة كل موجود، كان هو منبع القرآن ومعدنه، وهو الملقى إلى جبريل باطنًا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:8]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:9]، كل ذلك وصفه ثم قال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ [النجم:10]، أي: الذي دنا

ثم أخبر عن نفي الخيرة عن البرية بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: 36] يشير إلى أن العبد ينبغي أن لا يكون له اختيار ما بغير ما اختاره الله له بل تكون خيرته فيما اختاره الله له، ولا يعترض على أحكامه الأزلية عند ظهورها بل له الاحتراز عن شيء شر ما قضى الله قبل وقوعه، فإذا وقع الأمر فلا يخلو، إما أن يكون موافقًا للشرع أو مخالفًا للشرع، فإن يكن موافقًا للشرع فلا يخلو إما أن يكون موافقًا لطبعه أو مخالفًا لطبعه، فإن يكن موافقًا لطبعه فهو نعمة من الله يجب عليه شكرها، وإن يكن مخالفًا لطبعه فيستقبله بالصبر والتسليم والرضا، وإن يكن مخالفًا للشرع يجب عليه التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله تعالى من غير اعتراض على الله فيما قدر وقضى وحكم به، فإنه حكيم يفعل ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد لعزته ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ﴾ [الأحزاب: 36] عن الصراط المستقيم ﴿ضَلالاً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب: 36] بيان الشرع ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 37] بأن أوقعه في معرض هذه الفتنة العظيمة والبلية الجسيمة وقواه على احتمالها وأعانه على التسليم والرضا، فيما يجري الله عليه وفيما يحكم به عليه من مفارقة الزوجة وتسليمها إلى رسول الله ﷺ، وبأن ذكر اسمه في القرآن من بين الصحابة وأفرده به وأنعمت عليه بقبول زينب بعد أن أنعمت عليه بإيثارها عليه بقولك ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: 37] وبإقبالك عليه وبتثبيتك له، وأما بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ [الأحزاب: 37] يشير إلى أنني أتقي الله في طلبها فأنت اتق الله في طلاقها وإمساكها وبقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾

وتدلى هو الموحي، ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النجم: 10]، وهو المظهر الآخذ منه كجبريل، ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: 10]، أي: ما أوحاه جبريل إليه من جهة الفرق، والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114] أي: تفصيلاً؛ ليظهر ذلك لمن يقتدي به حسب استعداده؛ لأنه لا يطبق ما أطبق، فالوحي الأول: وحي القدرة، والوحي الثاني: وحي الحكمة، ولذلك قال له جبريل: «منك وإليك» فجبريل أستاذه ظاهرًا مريدًا له باطنًا. ألا ترى تأدبه معه حين جاء يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ليتنبَّه الصحابة إلى أنه هو معدن العلم والحكمة في حقيقة الأمر ﷺ.

[الأحزاب:37] يشير إلى أنك تعلم ما أعلمك أنها ستكون زوجك وأنت تخفي في نفسك هذا المعنى والله يريد أن ينجز لك وعده ويبدي أنها زوجك بقوله ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:37] ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي: تخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة أن يخطر ببالهم نوع إنكار أو اعتراض عليه أو شك في نبوته، فإن النبي من تنزه عن مثل هذا الميل ويتبع الهوى فيخرجهم من الإيمان إلى الكفر، فكانت تلك الخشية إشفاقًا عليهم ورحمة بهم أنهم لا يطيقون سماع هذه الحالة ولا يقدرون على تحمله وبقوله: ﴿واللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[1] [الأحزاب:37] يشير إلى أن رعاية جانب الحق أحق من رعاية جانب الخلق؛ لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر وإجراء هذا القضاء حكمًا كثيرة فأقصى ما يكون في رعاية جانب الخلق أن لا يضل بعض الضعفاء، فلعل الحكمة في إجراء هذا الحكم فتنة لبعض الناس المستحقين للضلالة والإنكار؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:60] قالوا: وجب على النبي ﷺ إذا عرض له أمران في أحدهما رعاية جانب الحق وفي الآخر رعاية جانب الخلق أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق، فإن للحق تعالى في إجراء حكم من أحكامه وإمضاء أمر من أوامره حكمًا كثيرة، كما قال تعالى في إجراء تزويج النبي ﷺ لزينب قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أي: فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، أما وطر زيد في الصورة استيفاء حظه منها بالنكاح ووطره في المعنى شهرته في الخلق إلى قيام الساعة بأن الله ذكره في القرآن باسمه دون جميع الصحابة، وبأنه آثر النبي ﷺ على نفسه بإيثار زينب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ أي: ما قدر ﴿مَفْعُولاً﴾ لا يمكن لأحد دفعه ولو كان نبيًا.

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ

(1) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر ، قالت عائشة رضي الله عنها : لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية، نظم الدرر (6/ 430).

قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب: 38 - 43].

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ [الأحزاب:38] يشير إلى أن الله تعالى إذا قضى أمر النبي أو الولي لم يجعل عليه في ذلك من حرج ولا سبب نقصان، وإن كان في الظاهر سبب نقصان ما عند الخلق ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب:38] من الأنبياء والأولياء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ يعني: الذي يجري على الأنبياء والأولياء ﴿قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب:38] قضاء مبرمًا مبنيًا على حكم كثيرة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ﴾ [الأحزاب:39] في أداء الرسالة ورعاية حقوق الأمم وحفظ مصالح الدين ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب:39] حافظًا لمصالحهم ومحاسبًا لهم بكرمهم وبقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:40] يشير إلى قطع نسبه إلى الخلق وتصحيحه إلى النبوة والرسالة بقوله: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] [الأحزاب:40] ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «كل حسب ونسب منقطع إلا حسبي ونسبي»[2] ويقول: «لست كأحدكم»[3]

---

(1) أخرجه أحمد (6/ 462، رقم 27663)، والترمذي (4/ 262، رقم 1810).

(2) تقدم تخريجه.

(3) أورد سيدي البيطار وارده الفتحي بقوله: اعلم - رحمك الله تعالى - أن مبدأ النبوة روح خاتم النبيين كما قال ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين». فتلك نبوة الروح وختام النبوة ظهور جسم تلك الروح التي لها البداية في النبوة، فالنبوة دائرة مبدأها عين غايتها، وكذلك الولاية كالنبوة لها مبدأ ولها ختام، فمبدأها خاتم الأولياء، وختامها ظهور جسم خاتمها، والذي نحن بصدده ولاية محمد ﷺ فختمها خاص لا عام، وبين كتفي هذا الختم الخاص خاتم الولاية الذي كان وليًا وآدم بين الماء والطين، وهذا الخاتم هو خاتم الأولياء المحمديين فما حصَّله محمد ﷺ من طريق النبوة يحصله خاتم الأولياء من طريق الولاية، والسر في ذلك قوله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه» فيكون خاتم الأنبياء في ظهور ولايته ويكون خاتم

وبقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: 40] يشير إلى إحاطة علمه من الأزل إلى الأبد بما كان ويكون فيما بينهما كما هو مع تغير أحوال المعلومات بلا تغير العلم بها من غير أن يشغله شأن من شأن علم معلوم له على صفة معينة عن شأن علمه بذلك المعلوم له

الأنبياء مرآة لخاتم الأولياء، فيما انطوى عليه ظاهره من الأمور المشروعية من أوامر ونواهي، فالنسبة بين الخاتمين أن باطن كل منهما هو ظاهر الآخر، ولا يخفى أن المرآة ينطبع فيها الصورة الظاهرة، فمحمد ﷺ مرآة ولاية خاتم الأولياء نبوة، كما أن خاتم الأولياء مرآة نبوة خاتم الأنبياء ولاية، فالولاية كانت مكتومة في زمنه ﷺ ولكن هي فيه ظاهرة إلا أنها خاصة فيه ولم تكن عامة، فالحاصل أن خاتم الأنبياء مرآة خاتم الأولياء في الشرائع، وخاتم الأولياء مرآة له في الحقائق.

فصح أن كلاً من الختمين مرآة الآخر، وحيث كان كذلك فكل للآخر هوهو حقيقة، وليس هو هو حكمًا واعتبارًا، وهذا الحكم والاعتبار هو المسمى بالوراثة؛ لأن الوارث ظاهرًا غير الموروث، ومن جهة أن ما عند الموروث هو عند الوارث هوهو، ولاسيما الولد الروحي أو الجسمي فإنه سر أبيه، فالوالد سبب في وجود الولد، فهو حسنة من حسناته، والولد مجلى لوالده ومشهد له؛ إذ لولا الولد ما سمي الوالد والدًا، ولا نال ثواب التربية، ولولا فضل الولد ما قال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 5، 6].

ألا ترى النبي ﷺ ورثنا ثواب رسالته في أمره لنا حيث قال: «ليبلغ الشاهد الغائب» فنحن مرآة له في تبليغ أحكام رسالته، فصح قول: «العلماء ورثة الأنبياء» فالوارث الكامل هو خاتم ولايته، كما قيل في المثل: وافق شن طبقة، وهذا معنى قول الشيخ الأكبر في الفص الشيثي من كتابه «فصوص الحكم»: فخاتم الرسل من حيث ولاية نسبته مع الختم للأولياء نسبة الأنبياء والرسل معه، كذلك الحق جلّ وعلا، لولا الخلق من أين يسمى خلاّقًا، والعليم لولا معلوماته من أين يسمى عليمًا، فكل منهما يمد الآخر كإمداد الزوجين، في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ﴾ [البقرة: 187]. ولا يخفى أن اللباس سترًا للابس وصون له كما أن القشر الظاهر صون حافظ إلى اللب، فلولا القشر ما كان لب، ولولا اللب لم يكن القشر القشر ... فالولاية لباس النبوة ومرآتها، وكذلك الخلق لباس الحق؛ أي: مجلس ظهوره بالصور، والحق لباس الخلق بالوجود؛ لأن الخلق من جهة نفسه عدم، فما لبس حلية الوجود إلا بالحق الظاهر فيه.

واعلم أن الكامل المطلق هو الذي يُستمَد من كل شيء؛ لأن كل شيء وجه الله.

ألا ترى أنه ﷺ بعد استوائه على عرش منبره نزل واعتنق الحسين - قُدِّس سره - وصعد به المنبر، فإن نزوله إليه فهو شبيه بتنزول الحق من عرشه إلى سماء الدنيا لأجل حاجتنا فيقول: «هل من داع ..» الحديث، وصعوده بالحسين إشارة إلى جذبه لمنزلته العليا، وكذا مصّه لسان عائشة إشارة إلى أنه يسقيها شراب باطنه السري وتسقيه شراب الحق من جهة القابلية لا من جهة الفاعلية، وكذلك كشف رأسه للمطر إشارة للتلقيات الإلهية وتنزل الكمالات عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

اليوم على غير الصفة المعينة بالأمس.

ثم أخبر عن كثرة الذكر وترجيحه على الفكر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب:41] يشير إلى أن أحبوا الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ شيئًا أكثر ذكره»[1] فأوجب الله تعالى محبته بالإشارة في الذكر الكثير، وإنما أوجبها بالإشارة دون العبارة الصريحة؛ لأن أهل المحبة هم الأحرار عن رق الكونين والحر يكفيه الإشارة، وإنما لم يصرح بوجوب المحبة؛ لأنها مخصوصة بقوله دون سائر الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] فعلى هذا بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152] يشير إلى أن أحبوني أحببكم.

ثم يقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب:43] يشير إلى أنكم إن تذكرون بذكر محدث، فإني قد صليت عليكم لما وفقتم لذكري كما أن محبتي لو لم تكن سابقة على محبتكم لما هديتم إلى محبتي، وأما صلاة الملائكة فإنما هي دعاء لكم على أنهم وجدوا رتبة الموافقة مع الله في الصلاة عليكم ببركتكم، ولولا استحقاقكم لصلاة الله عليكم لما وجدوا هذه الرتبة الشريفة.

ثم قال: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ [الأحزاب:43] وما قال: لتخرجكم لمعنيين:

أحدهما: لئلا يكون للملائكة منة عليكم بإخراجكم من الظلمات إلى النور.

والثاني: لأنهم لا يقدرون على ذلك لأن الله هو الهادي من الضلالة إلى الإيمان؛ بل هو الذي يخرجكم من ظلمات البشرية وصفاتها إلى نور الروحانية وصفاتها ومن ظلمات الخلقية الروحانية إلى نور الربوبية بجذبات تجلي ذاته وصفاته، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:43] في الأزل قبل إيجاد الملائكة ﴿رَحِيماً﴾ [الأحزاب:43] بأن يرحم عليهم بإخراجهم من ظلمات الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي دون غيرهم من الملائكة المقربين، فافهم جدًا.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (534)، والبيهقي في الشعب (501).

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: 44 - 49].

وبقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:44] يشير إلى أن التحية إذا قرنت بالرؤية واللقاء إذا قرن بالتحية لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر والتحية خطاب يفاتح به الملوك، فبهذا أخبر عن علو شأنهم ورفعة درجتهم، وأنهم قد سلموا عن آفات القطيعة بدوام الوصلة.

وبقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ [الأحزاب:44] يشير إلى سبق العناية الأزلية في حقهم؛ لأن في الإعداد تعريفًا بالإحسان السابق والأجر الكريم ما يكون سابقًا على العمل؛ بل يكون العمل من نتائج ذلك الكرم.

ثم أخبر عن أفضاله بإرسال نبيه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾[1] [الأحزاب:45] يشير إلى محبوبيته أي: إنا أرسلناك من العدم إلى عالم الوجود ﴿شَاهِداً﴾ أي: شاهدًا لنا ببعث المحبوبية وشاهدًا البيان بعطف المحبة ﴿وَمُبَشِّراً﴾ [الأحزاب:45] لعبادنا المحبين الطالبين برؤية جمالنا ﴿وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب:45] للطالبين الغافلين عن كمال حسننا وحسن كمالنا ﴿وَدَاعِياً﴾ [الأحزاب:46] كلا الفريقين إلى الله إلى عالم ألوهيته بإذنه ﴿وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب:46] أي: بأمرنا لا بطبعك ورائك؛ لأنه لا يهتدي أحد

---

(1) قال الورتجيبي: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر صدق، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال. قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق. وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدله على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيها.

إلى عالمنا إلا بنا، وقد اختص نبينا ﷺ برتبة دعوة الخلق إلى الله من بين سائر الأنبياء والمرسلين فإنهم كانوا مأمورين بدعوة الخلق إلى الجنة واختصاصه ﷺ من العالم السفلي إلى العالم العلوي ومن الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى عالم الجبروت والعظموت لجذبة «أدن مني» وقرب إلى مقام قاب قوسين أو أدنى إلى أن نور سراج قلبه بنور الله بلا واسطة ملك أو نبي ومن هنا قال: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[1] لأنه كان في مقام الوحدة فلا يصل إليه أحد إلا على قدمي الفناء عن نفسه والبقاء بربه فناءً بالكلية وبقاء بالكلية بحيث لا يبقى نار نور الإلهية من حطب وجوده قدر ما يصعد منه دخان نفسي، وما بلغ كمال هذه الرتبة إلا نبينا ﷺ فإنه من بين سائر الأنبياء يقول: «أمتي أمتي»[2] وناهيك عن هذا حديث المعراج أنه ﷺ وجد في كل سماء نفرًا من الأنبياء إلى أن بلغ السماء السابعة ووجد هناك إبراهيم عليه السلام مستندًا إلى سدرة المنتهى فعبر عنها مع جبريل إلى أقصى السدرة وبقي جبريل في السدرة فأدنى إليه الرفوف فركب عليه فأداه إلى قاب قوسين أو أدنى فهو الذي جعل الله له نورًا فأرسله إلى الخلق.

وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة:15] فأذن له أن يدعو الخلق إلى الله بطريق متابعته فإنه ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ [النساء:80] حق طاعته ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80] والذين يبايعونه إنما يبايعون الله ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10] فإن يده فانية في يد الله باقية بها وكذلك جميع صفاته تفهم إن شاء الله وتنتفع به، وبقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب:47] يشير إلى ذكرنا أن لمتابعته اقتباس نور الإلهية بمصباح قلوبهم من سراج قلبه المنور بنور الله المنير سرج قلوب الأمة، فهذا هو حقيقة الدعوة إلى الله.

﴿وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْـمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:48] بتخلق خلق من أخلاقهم ولا توافق من أعرضنا عنه، وأغفلنا قلبه عن ذكرنا وأضللناه من أهل الكفر والنفاق وأهل البدع والشقاق وفيه إشارة إلى أرباب الطلب بالصدق وأن لا تطيعوا المنكرين الغافلين

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 173).

(2) أخرجه أبو يعلى (7/ 158، رقم 4130).

عن هذا الحديث فيما يدعونهم إلى ما يلائم هوى نفوسهم ويقطعون به الطريق عليهم ويزعمون أنهم ناصحوهم ومشفقون عليهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب:48] بالبحث والمناظرة على إبطال إنكارهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأحزاب:48] في طلب الحق وترك ما سواه، ﴿وَكَفَى بِاللهِ﴾ [الأحزاب:48] عن الدارين ﴿وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:48] لك في الاكتفاء بها يحتاج إليه.

ثم أخبر عن نكاح المؤمنين وسراحهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:49] يشير إلى كرم الأخلاق يعني: إذا نكحتم المؤمنات ومالت قلوبهن إليكم ثم آثرتم الفراق قبل الوصال فكسرتم قلوبهن فما لكم عليهن من علة تعتدونها فمتعوهن ليكون لهن عليكم تذكرة في أيام الفرقة وأوائلها إلى أن تتوطن نفوسهن على الفرقة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ بألا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ولا تستردوا منهن شيئًا تفضلتم به عليهن، فلا تجمعوا عليهن الفراق بالحال والإضرار من جهة المال.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب: 50 – 51].

وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ [الأحزاب:50] تمام الآيات إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ [الأحزاب:51] يشير إلى أن إعزاز النبي ﷺ وإجلاله وإظهار كمال قوته بالتوسعة في باب النكاح بكم شاء وبمن شاء وكيف شاء ورفع الحرج عنه فيما اقتضت نفسه وهواه وهذا يدل على أن نفسه تنورت بنور قلبه وقلبه منور بنور روحه أن

نفسه هي الطمأنينة التي بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:28- 29] غاصت في بحر الملكوت الأعلى بإشارة ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 30] عبرت إلى عالم الملكوت ودخلت في عالم الجبروت فما أبقت لها صفة من صفاتها إلا خرجت عن طبيعتها وتخلقت بأخلاق ربها.

كما أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4] هو الله تبارك وتعالى وأنه على خلقه وأنه ﷺ لما انسلخت نفسه عن صفاتها بالكلية لم يبق له أن يقول يوم القيامة نفسي نفسي ومن هنا قال ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي»[1] فلما اتصفت نفسه بصفات القلب وزال عنها الهوى لا ينطق بالهوى اتفقت دنياه بصفات الآخرة فحل له في الدنيا ما يحل لغيره في الآخرة من الجنة لأنه نزع من صدره الدنيا على ما ينزع من صور غيره في الآخرة، كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:43] وقال في حقه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] يعني: بنزع الغل عنه فقال الله ﷻ له في الدنيا ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:51] أي: غل يتعلق به إرادتك ويقع عليه اختيارك فلا حرج عليك ولا جناح كما يقول لأهل الجنة: لكم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً﴾ في الأزل بتأسيس بنيان وجودك على قاعدة محبوبيتك ومحبتك ﴿حَلِيماً﴾ فيما يصدر عنك ما لم يحلم من غيرك.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ

(1) تقدم تخريجه.

عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: 52 – 54].

ثم أخبر عن جبر قلوب أرباب الحجرات بتحريم المحللات بقوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب:52] الإشارة فيها ما يتعلق بتربية نفس النبي ﷺ وذلك أن الله تعالى وسع الأمر عليه في باب النكاح حظيت نفسه بشرب من مشاربها موجب لانحراف مزاجها كمن أكل طعامًا حلوًا حارًا صفراويًا فيحتاج إلى غذاء حامض بارد دافع للصفراء حفظا للصحة، فالله تعالى من كمال عنايته في حق حبيبه غذاه بحامض.

﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:52] لأن حلاوته تزيد في الحرارة التي يتولد منها عين القلوب لتسكين الحرارة ورفع الصفراء ولاعتدال المزاج القلبي والنفسي.

ومنها: ما يتعلق بتربية نفوس أزواجه، وذلك أن الله تعالى لما ضيق الأمر عليهن في باب الصبر على ما أحله للنبي ﷺ وتوسع أمر النكاح عليه وخيره في الإرجاء والإيواء إليه كان أحمض في مذاقهن وأبرد شيء لمزاج قلوبهن فغذاهن بحلاوة ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ من العدم وسكن بها برودة مزاج قلوبهن حفظًا لسلامة قلوبهن وجبرًا لانكسارها.

ومنها: ما يتعلق بمواعظ نفوس رجال الأمة ونسائها ليتعظوا بأحوال النبي ﷺ وأحوال أزواجه وأمته ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب: 52] يراقب مصالحهم.

وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب:53] يشير إلى حفظ الأدب في الاستئذان ومراعاة الوقت وإيجاب الاحترام، فإذا أذن لكم فادخلوا على وجه الأدب وحفظ أحكام تلك الحضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ولا يتغافلوا عنكم ولا يمنعكم حسن خلقه من حفظ الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على الإبرام عليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:53] وحسن خلقه ﷺ جرّهم على المباسطة الموجبة أن أنزل الله هذه الآية.

وبقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:53] يشير إلى أن البشر بشر وإن كانوا من الصحابة وأن النساء نساء، وإن كن أزواج النبي ﷺ فلا يأمن أحد على نفسه من الرجال والنساء ولهذا شدد الأمر في الشريعة بأن لا يخلو رجل بامرأة ليس بينهما محرمية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ [الأحزاب:53] هذا يعظم أمره ﷺ في قلوب المؤمنين ووقاره ليعظمونه ويوقرونه في جميع الأحوال وفي حال حياته وبعد وفاته بقدر ازدياد تعظيمه وتوقيره في القلوب يزداد نور الإيمان فيها ولكم للمريدين مع الشيوخ في رعاية هذه الآداب أسوة حسنة لأن الشيخ في قومه كالنبي في أمته ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ [الأحزاب:53] أي: ملاحظة شيء من هذا ﴿كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً﴾ [الأحزاب:53] أي: ذنبًا عظيما يشير بهذه العظمة إلى عظمته ﷺ عند الله وكمال عزته في تلك الحضرة ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً﴾ [الأحزاب:54] من ترك الأدب وحفظ الحرمة وتعظيم شأنه ﷺ: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [الأحزاب:54] في أنفسكم ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأحزاب:54] تعملونه في السر والعلانية وبمقدار جزائه من الحسنة والسيئة ﴿عَلِيماً﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 55 - 57].

وقوله: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [الأحزاب:55] يشير إلى تسكين قلوبهن بعد فطامهن عن مألوف العادة ونقلهن إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة فمنَّ عليهن وعلى إقرار بأنهن بإنزال هذه الرخصة لاندمال جرحهن ما على سبيل الاحتياط لهن مع ذلك فقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ﴾ [الأحزاب:55] فيهم وفي غيرهم بحفظ الخواطر وميل النفوس ومنها ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأحزاب:55] من أعمال النفوس وأحوال القلب ﴿شَهِيداً﴾ [الأحزاب:55] حاضرا وناظرا إلينا.

ثم أخبر عن كمال عزة النبي ﷺ وعظمته عنده تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1] [الأحزاب: 56] يشير بهذا الاختصاص إلى كمال العناية في حق النبي ﷺ وفي حق أمته، أما كمال عنايته في حق النبي ﷺ فإنه تعالى يصلي عليه صلاة تليق بتلك الحضرة القدسية عن التشبه فيه المثال مناسبا لحضرة نبوته بحيث يفهم معناها سواهما، وأما كمال عنايته في حق أمته فهو أنه تعالى أوجب على أمته الصلاة عليه، ثم جازاهم بكل صلاة عليه عشر صلوات من صلاته وبكل سلام عشرا وهذه عناية مخصصة بالنبي ﷺ وبأمته.

ولصلاة الله تعالى على عباده مراتب بحسب مراتب العباد ولها معان: منها الرحمة ومنها المغفرة ومنها البركة ومنها الوارد ومنها الشواهد ومنها الكشوف ومنها المشاهدة ومنها الجذبة ومنها التغذية ومنها الشرب ومنها الري ومنها السكر ومنها التجلي ومنها الفناء في الله ومنها البقاء بالله وهذا هو حقيقة صلوات الله على عباده ولكل واحد من أصحاب المقام الباقي بالله في هذا المقام إلى ما لا نهاية لها.

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 157] أي إلى الله والسير بالله في الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: 57] بأن لا يؤمنوا بالله ورسوله ويخالفون أمرهما ويتابعون هواهم بل يتخذون إلههم هواهم وكما قال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80] فكذلك من أذى رسوله فقد أذى الله وكما استحق المؤمنون بطاعة الرسول والصلاة عليه صلاة الله، فكذلك

---

(1) صلوات الله على النبي أن بلّغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل. قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني استفتحه. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقدارًا تظن أنك تقضي به من حقه شيئًا بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن تقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى.

الكافرون استحقوا بمخالفة الرسول وإيذائه لعنة الله، فقال تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:57] فلعنة الدنيا هي الطرد عن الحضرة والحرمان عن الإيمان ولعنة الآخرة الخلود في النيران والحرمان عن الجنان، وهذا حقيقة قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ [الأحزاب:57].

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 58 - 59].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب:58] يشير إلى أن إيذاء المؤمنين مقرون بإيذاء الرسول كما أن إيذاء الرسول مقرون بإيذاء الله فحقيقة معناه أن من أذى المؤمن، فكمن أذى الرسول فكمن أذى الله ومن أذى الله فهو مستحق الطرد واللعن في الدنيا والآخرة وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:59] تنبيه لهن على حفظ القسمين ورعاية حقه منهن بالتصاون والتعفف وفيه إثبات وقرهن وعزة قدرهن ﴿ذَلِكَ﴾ [الأحزاب:59] أي: ذلك التنبيه ﴿أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ﴾ [الأحزاب:59] أي: يعرفن أن لهن قدرا وعزةً في الحضرة ﴿فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: 59] بالأطماع الفاسدة والأقوال الكاذبة ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:59] لهن بامتثال الأوامر رحيمًا بهن بإعلاء درجتهن.

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ

﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب: 60 - 68].

ثم أخبر عن حال المنافقين بعد ذكر الموافقين ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب: 60] إلى قوله: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب:68] يشير إلى تهديد المنافقين ومن بصددهم من منافقي أهل الطلب من المتصوفة والمتعرفة الذين يلبسون في الظاهر ثيابهم ويلبسون في الباطن ما يخالف مقرهم وسرائرهم، وأنهم لو لم يمتنعوا عن أفعالهم ولم يتغيروا عن أحوالهم لأجرى معهم سنته في التدبير والتغيير على من سلف من نظرائهم ونزل بكبرائهم، ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك واستهزائهم بالمؤمنين بها، ثم استعجالهم إتيانها من غير استعداد لها، ثم أخبر عن صعوبة العقوبة التي علم أنه يعذبهم بها وما يقع عليهم من الندامة على ما فرطوا فلا تنفعهم الندامة، ولا يكون سوى الغرامة والملامة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ۝٧٣﴾ [الأحزاب: 69 - 73].

ثم أخبر عن إيذاء أهل الأهواء للأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب:69] يشير إلى هذه الأمة بكلام قديم أزلي أن لا تكونوا كأمة موسى في الدنيا الإيذاء فإنه من صفات السباع بل كونوا أشداء على الكفار رحماء بينكم ولهذا المعنى قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه»[1].

(1) تقدم تخريجه.

وقال ﷺ: «والمؤمن من أمنه الناس»[1] وقوله: ﴿لاَ تَكُونُوا﴾ نهي جزم عند تكوينهم بنفي هذه الصفة عنهم أي: كونوا ولا تكونوا بهذه الصفة فيه إشارة إلى أن كل موجود عند إيجاده بأمر كن مأمور بصفة مخصوصة به ومنهي عن صفة مخصوصة به فكان كل موجود كما أمر بأمر التكوين ولم يكن كما نهى بنهي التكوين.

كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] أي: كما أمرت بالاستقامة بأمر التكوين عند الإيجاد فكان كما أمر قال تعالى ناهيا له بنهي التكوين: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35] فلم يكن من الجاهلين كما نهى عن الجهل وبقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب:69] يشير إلى أن موسى عليه السلام كان في الأزل عند الله متصفا بالوجاهة، فلا يكون غير وجيه بتغير بني إسرائيل إياه كما قيل:

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاي مُطَّرَحًا فعند غيرك محمولٌ على الحَدَقِ

وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب:70] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب:71] يشير إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بالتقوى وهو التوحيد عقدًا وحفظ الحدود وجهدًا، ولا يحصل سداد أعمال التقوى إلا بالقول السديد وهو كلمة لا إله إلا الله، فبالمداومة على قول هذه الكلمة شرائطها ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: أعمال التقوى يقال سواد أقوالكم سداد أعمالكم وسداد الأقوال وسداد الأعمال يحصل سداد الأحوال وهو قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:71] وهو عبارة عن دفع الحجب الظلمانية بنور المغفرة الربانية ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ﴾ [الأحزاب:71] فيما أمره ونهاه ويطع رسوله فيما أرشده وهداه إلى صراط مستقيم متابعته ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:71] بالخروج عن الحجب الوجودية بالفناء في وجود الهوية والبقاء ببقاء الربوبية.

وبقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب:72] أي: عليها وعلى أهاليها يشير إلى أن حقيقة الأمانة وهي التي عبر عنها بالفوز العظيم، وقد

(1) رواه أحمد (6/ 21، رقم 24004)، والطبراني (18/ 309، رقم 796)، وابن المبارك (1/ 284، رقم 826)، والحاكم (1/ 54، رقم 24)، وابن حبان (11/ 203، رقم 4862).

فسرنا الفوز العظيم بالفناء في الله والبقاء بالله وهو عبارة عن قبول الفيض الإلهي بلا واسطة فالحاصل أن حقيقة الأمانة هي الفيض الإلهي بلا واسطة ولهذا سمي بالأمانة؛ لأنه من صفات الحق تعالى فلا يتملكه أحد وقد اختص الإنسان بقبول هذا الفيض وحمله من سائر المخلوقات لاختصاصه بإصابة رشاش النور الإلهي لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى»[1] فكل روح أصابه رشاش نور الله صار مستعدًا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة فكان عرض الفيض الإلهي على المخلوقات وحمل الفيض خاصًا للإنسان؛ لأن نسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص، فالعالم شخص وقلبه الإنسان فكما أن عرض فيض الروح عام على الشخص الإنساني وقبوله وحمله مخصوص بالقلب بلا واسطة.

ثم من القلب بواسطة العروق والشريانات وعروق ممتدة تصل عكس فيض الروح إلى جميع الأعضاء فيكون متحركًا به كذلك عرض الفيض الإلهي عام لاحتياج الموجودات به وقبوله وحمله خاص للإنسان ومنه يصل عكس الفيض إلى سائر المخلوقات ملكها وملكوتها.

فأما في ملكها: وهو ظاهر الكون أعني الدنيا فيصل الفيض إليه بواسطة صورة للإنسان من بصنائعه الشريفة وحرفه اللطيفة التي به العالم معمور ومزين.

وأما إلى ملكوتها: وهو باطن الكون أعني الآخرة فيصل الفيض إليها بواسطة روح الإنسان هو أول شيء تعلقت بالقدرة فيعلق الفيض الإلهي من أمر كن أولا بالروح الإنساني، ثم يفيض منه إلى عالم الملكوت فظاهر العالم وباطنه معمور بظاهر الإنسان وباطنه هذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان.

وبقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2] [الأحزاب:72] على صيغة المبالغة يشير إلى

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال الشيخ إسماعيل حقي: قال في الأسئلة المفحمة كيف عرض الأمانة عليه ما علمه بحاله من كونه ظلومًا جهولاً. والجواب: هذا سؤال طويل الذيل، فإنه تعالى قد بعث الرسل مبشرين ومنذرين إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الإيمان مع علمه السابق، بأن يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم والخطاب عم الكل مع علمه باختلاف أحوالهم في الإيمان والكفر، فهذا من قبيله وسبيله، فإنه مالك الأعيان والآثار -

أن الظالم هو الذي يظلم على غيره والظلوم من يظلم على نفسه والجاهل من يجهل غيره والجهول من جهل نفسه فأما ظلمه على نفسه فبحمل الأمانة لأنه وضع شيئا في غير موضعه فأفنى نفسه فيها وأما جهله بنفسه فبأنه يحسب أن هذه البهيمة التي تأكل وتشرب وتنكح وما علم أن هذه الصور الحيوانية هي قشره ولها لب هو روحه وروحه أيضا قشر وله لب هو محبوب الحق تعالى الذي قال: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة:54] وهو محب الحق تعالى بقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ فمن أحب غير الله جهل نفسه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130] يعني: أن إبراهيم كان على ملة الخلة وغيره جهل نفسه وأحب غير الله فقد رغب عن ملة إبراهيم فمن يحب قشر الجسمانية الظلمانية ووصل إلى لب الروحانية النورانية، ثم علم أن هذا اللب أيضا قشر فإن النبي ﷺ قال: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»[1] فعبر عن القشر الروحاني فيصل إلى لبه الذي هو محبوب الحق ومحبته فقد عرف نفسه، ولما عرف نفسه فقد عرف ربه بتوسله لا شرك فيه وأنه لما عرضت الأمانة عليه وعلى المخلوقات وهو الفيض الإلهي كما قررنا في الوجه المنور برشاش نور الله عرف شرف الأمانة وقصدها فكما لم يكن بهم ذا جبلة يحملها روح الملائكة وغيرهم منورًا برشاش نور الله ما عرفوها حق المعرفة وما كانوا مخصوصين بالمحبوبية، ولم يكن لهم راحلة يحملها بقوة الظلومية والجهولية فلما علموا خطر حملها، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:72] ويمحمل الجسدانية وقوة الظلومية والجهولية حملها الإنسان فصارت الظلومية والجهولية في حق حاملي الأمانة ومؤدي حقها مدحا وفي حق الخائنين فيها ذمًا وكل وجه ذكره المفسرون في معنى يدل على هذا قوله ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130] أي: من جهل نفسه في معنى الأمانة حق ولكن طرقها ودعاؤها فحقيقتها ما ذكرنا وما هو

على الإطلاق. وقد قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: كان ظلوما بحق الأمانة جهولا بما يفعل من الخيانة يعنى لم تكن الخيانة عن عند وقصد بل كانت عن جهل وسهو. تفسير حقي (11 / 155).

(1) تقدم تخريجه.

قريب بها، والله أعلم.

بقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:73] هذه اللام لأمر الصيرورة والعاقبة يشير إلى أن الحكمة في عرض الأمانة أن يكون الخليفة في أمرها على ثلاث طبقات:

طبقة منها: تكون للملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون في ذلك لهم ثواب ولا عذاب.

وطبقة منها: من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها، فهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلومية على أنفسهم وضيقوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها حاصل فهم أمرهم العذاب المؤبد.

وطبقة منها: من يحملها ويؤد حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسان يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع إلى الحضرة بالتضرع والابتهال مقربًا بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات ليتوب الله عليهم لقوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:73] والحكمة في ذلك فتكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال صفة من صفاتها.

فالطبقة الأولى: إذ لم تحمل الأمانة وتركوا نفعها لضرها فهم مرآة جمال صفة عدله.

والطبقة الثانية: إذا حملوها طمعًا في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعرض من الدنيا الفانية، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] فهم مرآة فيها جمال صفة قهره.

والطبقة الثالثة: إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوها حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبوة ووقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاء وابتلاء بغير اختيارهم، ثم اجتباهم ربهم فتاب عليهم، وهداهم بجذبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:73] للمؤمنين والمؤمنات بفضله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

سورة سبأ

وهي مكية

أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ: 1 – 5].

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: 1] يشير إلى الثناء على نفسه والمدح لذاته إخبارًا عن كمال جلاله واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامد لنفسه محمود وأحمد موجود وفي الآزال معبود وبالظلمات مقصود الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكًا وملكًا لا شركة لأحد فيهما فلا ملك ولا مالك إلا هو وإن جرى هذان الاسمان على مخلوقه، فإن ذلك المخلوق داخل في ملكه وملكه وأنه الزّنجي لا يتغير عن لونه، وإن سمي كافورًا.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ ذكر بلام التمليك، وذكر الحمد بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس يعني كل حمد حمد به الحامدون في السموات والأرض وفي الدنيا والآخرة، وكل حمد يحمد به أحد من خلقه راجع إليه؛ لأنه هو أصل الحمد والحمد ملك له لا شركة لأحد فيه وأنه حمد نفسه بقوله الحمد لله، وأنزل على خلقه ليحمدوه بحمد قديم فيه معنى يصلح لذاته القديم، فإن الحمد المحدث بمعنى محدث تدركه الأفهام المحدثة لا يصلح لذاته القديم ولهذا ليلة المعراج.

كما قال تعالى لنبيه ﷺ: «أثن علي، قال ﷺ: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] يعني: الثناء المحدث من محدث لا يصلح لذاتك القديم إلا ثناؤك القديم الصادر من ذاتك القديم من الأزل إلى الأبد بلا بداية له ولا نهاية يصلح لذاتك الذي لا أول له ولا آخر، بل أنت أول كل شيء وآخر كل آخر وظاهر كل ظاهر وباطن كل باطن.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ:1] فيما قدر ودبر ﴿الْخَبِيرُ﴾ [سبأ:1] بما خلق كيف خلق وبما خلق ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:2] أي: أرض البشرية بواسطة الحواس الخمس والأغذية الصالحة والفاسدة من الحلال والحرام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ:2] من الصفات المتولدة منها والأعمال المنجية ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ:2] سماء القلب من الفيض الروحاني والإلهامات الربانية ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من آثار الفجور والتقوى وظلمة الضلالة ونور الهدى ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ [سبأ:2] لمن تولاه ﴿الْغَفُورُ﴾ [سبأ:2] لذنوب أهل ولايته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ:3] أي: وقالت النفوس الكاذبة المكذبة لأهلها أن القيامة ليست آتية ولا نبعث، فبهذا التمني كفروا وكذبوا الرسل وما قبلوا دعوتهم وكلامهم، وتابعوا أهواءهم وهذا الكفر والتكذيب والتمني الفاسد طبيعة النفوس كلها، فمن وكله الله بالخذلان إلى طبيعة نفسه تكون هذه الخصال سجنه أبدًا.

وإذا أراد الله لعبد خيرًا ينظر إلى قلبه بنظر العناية ويسمعه قوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:3]، وينطبق بهذا الإقرار وتصديق الرسل وقول الشريعة والعمل بها وهو ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ:3] غيب القلوب والشهادة شهادة النفوس ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:3] مما يجري ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [سبأ:3] سموات القلوب ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:3] أرض النفوس ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:3]

---

(1) رواه أحمد (6/ 201 رقم 25696)، ومسلم (1/ 352، رقم 486)، وأبو داود (1/ 232، رقم 879)، والترمذي (5/ 524، رقم 3493)، وقال: حسن. والنسائي (2/ 222، رقم 1130)، وابن ماجه (2/ 1262، رقم 3841)، وإسحاق بن راهويه (2/ 75، رقم 544)، وابن خزيمة (1/ 335، رقم 671)، وابن حبان (5/ 258، رقم 1932)، والبيهقي (1/ 127، رقم 608).

مكتوب عنده في أم الكتاب وبتقديره يجري ما يجري على أهل النفوس وبتوفيقه يجري ما يجري على أهل القلوب كما اقتضت الحكمة الإلهية والمشيئة القديمة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سبأ:4] خير الجزاء ﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [سبأ:4] لذنوب النفوس ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ:4] من كرم الحق وفضله للأرواح والقلوب من المواهب السنية ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ [سبأ:5] أي: في إبطال القرآن أنه منا بهذا يشير إلى الفلاسفة الذين يقولون: إن محمدًا ﷺ كان حكيما من الحكماء وبالحكمة أخرج هذا الناموس الأكبر يعنون النبوة والشريعة، ويزعمون أن القرآن كلامه أنشأه من تلقاء نفسه يسعون في هذا المعنى ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ [سبأ:5] يجاهدون جهدًا تامًا في إبطال الحق وإثبات الباطل ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:5] الرجز سوء الطرد والإبعاد.

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: 6 - 10].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ:6] من عند الله موهبة منه لا من عند الناس بالتكرار والبحث ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سبأ:6] من النبوة والقرآن والحكمة ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ وإنما يرون هذه الحقيقة؛ لأنهم ينظرون بنور العلم الذي أريتهم من الحق تعالى، فإن الحق لا يُرى إلا بالحق كما أن النور لا يُرى إلا بالنور، ولما يرى الحق بالحق كان الحق هاديًا لأهل الحق وطالبيه إلى طريق الحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:6] لأنه لا يوجد إلا به وبهدايته الحميد؛ لأنه لا يرد الطالب بغير

وجدان كما قال: «ألا من طلبني وجدني»[1]

ثم أخبر عن منكري البعث من الكفار بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ:7] بالاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:7] يشير إلى أن تراكم الغفلة على القلوب وظلمات الشهوات النفسانية وغلبات الصفات الذميمة الحيوانية إذا استولى أرخيت حجبها بين الروح والقلب، فيحرم القلب من الاستفادة بنور الروح ويسود بظلمات صفات النفس ويقسو حتى ينسى الله وينسى عالم الأرواح الذي هو الآخرة كالطفل الصغير يسير إلى بعض البلاد فينسى وطنه الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه إن ذكر الآخرة، وهي وطنه الأصلي لم يتذكر ويكفر به.

ويقول مستهزئًا به: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:7] ويتعجب من هذا الكلام ولا يتفكر أن أجزاءه كانت ممزقة حين هو ذرة أخرجت من صلب آدم وكيف جمع الله ذرات شخصه المتفرقة، وجعلها خلقًا جديدًا كذلك يجمع الله أجزاءه الممزقة للبعث ويقول منكرًا متعجبًا: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: 8].

وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [سبأ:8] من الغفلة وكثرة الحجب ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ من العمى والصم ﴿وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ هو البعد عن الحضرة ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ:9] سماء القلب ﴿وَالأَرْضِ﴾ [سبأ:9] أرض النفس ما بين أيديهم من صفات القلب وما خلفهم من صفات النفس ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ [سبأ:9] أرض البشرية بغلبات صفاتهم ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ:9] أي: نقلب عليهم صفة من صفات القلب ونهلكهم بها؛ لأن كل صفة من صفات القلب وإن كانت حميدة، فإذا جاوزت حدها تؤول إلى الصفة فتصير ذميمة كالسخاوة، فإنها حميدة من صفات القلب فإذا جاوزت حدها يكون تبذيرا وهي

---

(1) تقدم تخريجه.

ذميمة ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:27].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ:9] راجع إلى الله يرى الآيات بنور الله عن فضله بعد أن أخبر عن عدله بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ [سبأ:10] يشير إلى داود الروح والفضل الذي أعطاه منه هو الفيض الإلهي بلا واسطة ولما ذكره بلفظ النكرة فضلاً يدل على أنه أعطاه شيئًا من الفضل وهو مما يتعلق به تعالى؛ إذ قال: ﴿مِنَّا﴾ وهو الفيض كما ذكرنا، والفرق بينه وبين نبينا ﷺ أنه ذكر فضله في حق داود عليه السلام على صيغة النكرة وهي تدل على نوع من الفضل، وقال في حق نبينا ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء:113] والفضل الموصوف بالعظمة يدل على كمال الفضل، وكذلك قوله ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ [النساء:113] لما أضاف الفضل إلى الله اشتمل على جميع الفضل كما لو قال: أخذ دار فلان اشتمل على جميع الدار.

وبقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[1] [سبأ:10] يشير إلى أن الذكر من اللسان يعبر إلى أن يصل إلى الروح ويصير الروح ذاكرًا لله، فعلى مقتضى كرم الله وسنته بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152] بذكر الله ولما تنور الروح بنور ذكر الله إياه ينعكس النور من داود الروح على جبال النفس وطير القلب فتصير ذاكرًا لله ومذكورًا له، ثم بالمداومة ينعكس نور الذكر من النفس على البدن فيستوعب جميع أجزاء البدن ظاهرها وباطنها، ثم ينعكس من أجزاء العنصرية على العناصر الأربعة مفردها ومركبها وينعكس من النفس على النفوس أعني النفس الإنسانية والنفس الحيوانية والنفس السماوية والنفس النجومية ينعكس نور الذكر من الروح الإنساني على عالم الأرواح إلى أن يستوعب جميع

---

(1) قوله: «أَوِّبِي» العامة على فتح الهمزة، وتشديد الواو، أمراً من التأويب وهو الترجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحبشة، وقال القُتَيْبِيُّ: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أدْأبِي النَّهار كُلَّهُ بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فسّروه برجع مع التسبيح، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابنُ عباس والحَسَنُ وقتادةُ وابنُ أبي إسحاق: أُوبِي بضم الهمزة أمرًا من آبَ يَؤُوبُ أي ارجع معه بالتسبيح.

العالم ملكه وملكوته، فيذكر العالم بما فيه موافقة للذاكر وإلى هذا المقام أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44].

ثم يعبر الذكر عن المخلوقات ويصعد إلى رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] فيذكره تعالى كما يذكره الذاكر، ففي هذا المقام يتصف العبد بصفة الرب ويتخلق بخلقه في الذاكر به والمذكور به، فكما أنه تعالى يكون الذاكر والمذكور يكون العبد أيضًا ذاكرًا ومذكورًا تفهم إن شاء الله وتؤمن به، فتحقيق هذا المقام يعلم حقيقته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ [سبأ:10] أنه هو مذكور به الحق تعالى، وينبع عن هذا المعنى قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:10] يشير بالجبال إلى عالم الملك وبالطير إلى عالم الملكوت، وبقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:10] يشير إلى إلانة قلبه.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 11 - 14].

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ:11] وهي الحِكم البالغة التي تظهر ينابيعها من قلبه على لسانه ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا﴾ [سبأ:11] أي: في سرد الحديث بأن يتكلم بالحكمة على قدر عقول الناس.

وأشار بقوله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ:11] أي: جميع أعماله الظاهرة أن يعمل في العبودية كل واحدة منها عملا يصلح لها ولذلك خلقت ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:11] كل واحدة منهن ﴿بَصِيرٌ﴾ [سبأ:11] واحدة فيها عملاً يصلح لها ولذلك وبالبصارة خلقتكم

وقيل: أوحى الله إلى داود وكانت تلك الزلة مباركا عليك، فقال: رب كيف تكون الزلة مباركة؟ فقال: كنت تجيء قبلها كما يجيء المطيعون فالآن يجيء كما تجيء أهل الذنوب وفيما أوحى الله للمخاطبين غيرة منه إليه: «يا داود أنين المذنبين أحب إلي من صراخ العابدين»[1] وصلاته في الدين، فلما وقع له ما وقع كان يقول: اللهم اغفر للمذنبين وقيل: لما تاب الله عليه واجتماع الجن والإنس والطير لمجلسه فلما رفع صوته وأدار لسانه في حنكه على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا: الصوت صوت داود والحال ليست تلك، فبكى داود عليه السلام وقال: ما هذا يا رب فأوحى الله إليه: يا داود هذا من وحشة الزلة وكانت أنس الطاعة.

وبقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:12] يشير إلى القلب وسيره إلى عالم الروح وسرعته في السير للطافته بالنسبة إلى كثافة النفس وإبطائها في السير، وذلك لأن مركب النفس في سير البدن وهو كبير بطيء السير ومركب القلب في السير هو الجذبة الإلهية وهي من صفات لطفه، كما قال ﷺ: «قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء»[2] ويقلبها إلى الحضرة برياح العناية اللطف كما قال ﷺ: «قلب المؤمن كريشة في فلاة يقلبها ظهرا عن بطن»[3] وهذا حقيقة قوله ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي: لسليمان القالب سخرنا ريح العناية ليسير به وهو ابن داود الروح وبساطه الذي كان يجلسه وتجري به الريح هو السر، ولهذا المعنى قيل: أن سليمان في مسيره لاحظ ملكه يومًا فمال الريح ببساطه، فقال سليمان للريح استو، فقالت الريح: استو أنت مادمت مستويًا بقلبك كنت مستويا فملت وملت كذلك حال السر مع القلب وريح العناية إذا زاغ القلب أزاغ الله بريح الخذلان بساط السر ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

وبقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ:12] يشير إلى عين الحقائق والمعاني ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ:12] أي: وسخرنا له صفات الشيطان ليعمل بين

(1) رواه البيهقي في الشعب (5/ 452).

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه أحمد (4/ 88)، والبيهقي في الشعب (2/ 316).

يديه بإذن الله أي على وفق أمره ونهيه بطبيعته الشيطانية ومن هنا قال ﷺ: «إن الله سلطني على شيطاني فأسلم على يدي فلا يأمرني إلا بخير»[1].

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ:12] أي: سعير المحبة وعذابها أن نار المحبة تحرق شوكها ونور المحبة يعني ظلمة خبثها وتمردها.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ [سبأ:13] أي: لسليمان القلب ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أي: يتصفون بصفات القلب ويكون أعمالهم على وفق مشيئته لا على وفق طبيعتهم ومشيئتهم ﴿مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ أي: مما يتوجه به إلى الله فإن الله تعالى اختص للشيطان بهذه الصفة من بين سائر المخلوقات أعني التوجه إلى الله والسجود له والإباء والاستكبار عن سجدة غيره، وهذا أخلص عبودية لله وأخص وصف وأشرفه في الموجودات إذا كان بإذن الله وأردى خصلة وأخس وصف وأخبثه إذا كان بالطبيعة وخلاف أمر الله وموجبًا للطرد واللعن.

كما كان حال إبليس إذ قال تعالى له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص:75] إذ أمرتك ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ والنار من شأنها طلب العلو والتوجه إلى الحضرة ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:76] ومن شأنه طلب السفلي والإعراض عن الحضرة فالله تبارك وتعالى لما خمر طينة آدم بيده عجن فيها كل خاصية وصفة ما اختص بها شيئا من المخلوقات ليكون آدم عالما بجميع الأشياء بتلك الخصائص ليقدر على التصرف فيها بخلافة الحق تعالى وليتوسل بها في الرجوع الذي هو مخصوص به إلى الحضرة والوصول إليه فبخاصية الإباء والاستكبار الشيطاني امتنع وأبى عن السجود لغير الله وبها يتوجه القلب إلى الله بإعراضه عن غيره ويقول ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79] يعني الذين أشركوا بتوجههم إلى الدنيا أو إلى الآخرة ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162].

(1) رواه أحمد (1/ 385، رقم 3648)، ومسلم (4/ 2167، رقم 2814)، وأبو يعلى (9/ 77، رقم 5143)، وابن خزيمة (1/ 330، رقم 658)، والبزار (5/ 254، رقم 1871)، وابن حبان (14/ 327، رقم 6417)، والطبراني (10/ 218، رقم 10522)، والشاشي (2/ 251، رقم 824) وقال: حسن.

ثم قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:163] بأن إعراضي عن المخلوقات وإبائي واستكباري بالأمر لا بالطبع، ولو وكل القلب في الروح الخاصية الروحانية التي جبل الروح عليها ما كانت رغبتها في العبور عن مقام الروحانيات كالملائكة عن المقام المعلوم الروحاني وقول بعضهم: لو دنوت أنملة لاحترقت، ولما كان الإنسان محمول العناية ويجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] رجع من أسفل سافلين الموجودات إلى الحضرة فلم يسجد لشيء منها بتمرد صفة الشيطانية وإبائها واستكبارها وعبر عن المقامات كلها إلى أن بلغ سدرة منتهاها فأراد أن يقف عندها كجبريل ويقول: «لو دنوت أنملة لاحترقت»[1] عملت له صفة الشيطنة النارية التي لا تبالي بالنار محراقًا من المحبة، فبتلك الصفة أفدى نفسه لنا نور الإلهي وعبر ببذل وجوده عن ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:6-7].

وبقوله: ﴿كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:13] يشير إلى المادية التي لا نهاية لها التي يأكل منها الأنبياء والأولياء؛ إذ يلبثون عنده، كما قال ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[2] ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:13] يشير به إلى شكر داود الروح وسليمان القلب، ومن آله السر والخفي والنفس والبدن، فإن هؤلاء كلهم من متولدات الروح، فشكر البدن: استعمال الشريعة لجميع أعضائه وجوارحه ومحال الحواس الخمس، ولهذا قال: ﴿وَاعْمَلُوا﴾.

وشكر النفس: بإقامة شرائط التقوى والورع وشكر القلب لمحبة الله وخلوه عن محبة ما سواه.

وشكر السر: مراقبة عن التفاته بغير الله، وشكر ببذل وجوده على نار المحبة كالفراش على شعلة الشمعة، وشكر الخفي قبول الفيض بلا واسطة في مقام الوحدة مختفيًا بنور الوحدة عن نفسه.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أبو داود (7/ 179)، والترمذي (3/ 321)، وأحمد (19/ 168)، والطبراني في الأوسط (4/ 310)، والبيهقي في الشعب (8/ 423).

وبقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:13] يشير إلى قلة من يصل إلى مقام الشكورية، وهو الذي يكون شكره، فللعوام شكرهم بالأقوال كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء:111] يريكم آياته وللخواص شكرهم بالأعمال كقوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:13] ولخواص الخواص شكرهم بالأحوال وهو الاتصاف بصفة الشكور، والشكور هو الله لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:34] بأن يعطي على عمل فان عشر ثواب باق.

ثم أخبر عن إخبار إمضاء قضائه على أنبيائه وأوليائه، وبقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ:14] يشير إلى كمال قدرته وحكمته أنه هو الذي سخر الجن والإنس لمخلوق واحد مثلهم، وهم الألوف الكثيرة والوحوش والطيور، ثم قضى عليه الموت وجعلهم مسخرين لجثة بلا روح، وبحكمته جعل دابة الأرض حيوانًا ضعيفًا مثلها دليلاً لهذه الألوف الكثيرة ومن الجن والإنس يدلهم على علم ما لم يعلموا بفعلها، وفيه أيضًا إشارة أنه تعالى جعل فعلها سببًا لإيمان أمة عظيمة وبيان حال الجن أنهم لا يعلمون الغيب لقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ [سبأ:14] أي: حال الجن ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:14] وفيه إشارة أخرى أن نبيين من الأنبياء اتكئا على عصوين وهما موسى وسليمان عليهما السلام، فلما قال موسى ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ [طه:18] قال ربه ﴿أَلْقِهَا﴾ [طه:19] فلما ألقاها جعلها ثعبانًا مبينًا يعني من اتكأ على غير فضل الله ورحمته يكون متكأه ثعبانه، ولما اتكأ سليمان على عصاه في قيام ملكه بها فاستمسك بعث الله أضعف دابة وأخسها لإبطال متكئه ومستمسكه ليعلم أن من قام بغيره زال بزواله، وإن كل متمسك غير الله طاغوت من الطواغيت ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:256].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ

﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: 15 - 19].

ثم أخبر عن سبأ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[سبأ:15] يشير إلى سبأ السر في مساكنهم آية من آيات الله والآية هي ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: جنة الروح عن يمين السر وجنة القلب عن شمال السر، وذلك لأن السر لطيفة خلقت من بين الروح والقلب فما يرد من فيض الروح وداود الحق تعالى يصل إلى السر، ومنه يرد إلى القلب وما يصدر من القلب من أنوار الذكر والطاعات أو ظلمة أوصاف النفوس في معاملاتها يصعد إلى السر، ومن السر يصعد إلى الروح فالسر بين هاتين الجنتين في رغد من العيش وسلامة من الحال، فأمر بالصبر على العاقبة والشكر على النعمة.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ:15] بلدة الإنسانية قابلة لبذر التوحيد وهو كلمة لا إله إلا الله ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:15] يستر عيوب عباده بنور معرفته ويغفر ذنوبهم لعزة معرفته ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ [سبأ:16] عن الوفاء وأقبلوا على الجفاء وكفروا النعمة وتعرضوا للنقمة وضيقوا الشكر فبدلوا وبُدل لهم الحال ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ:16] سيل سطوات قهرنا ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ [سبأ:16] الشجرتين بأشجار الإيمان والإيقان والتقوى والصدق والإخلاص والتوكل والأخلاق الحميدة ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ [سبأ:16] من الكفر ﴿خَمْطٍ﴾ [سبأ:16] من النفاق ﴿وَأَثْلٍ﴾ [سبأ: 16] من الشك.

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:16] من الأوصاف الذميمة ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ [سبأ:17] أي: بما غرسوا سرًا في بستاني القلب والروح أشجار هذه الأخلاق السوء ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ:17] أي: وهل تثمر الأشجار الخبيثة إلا الأثمار الخبيثة؟ فما غرسوا إلا بما استوجبوا وما حصدوا إلا ما زرعوا، وما وقعوا إلا في الحفرة

التي حفروا، كما قيل: «يداك أوكتا وفوك نفخ»(1).

وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: 18] يشير إلى مقامات القرب وجوار رب العزة والمنازل المتصلة بعضها ببعض إلى الحضرة من التوبة والزهد في الدنيا والتوكل وتزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا﴾ [سبأ:18] أي: في هذا المثال ﴿السَّيْرَ﴾ [سبأ:18] إلى الله وقلنا لهم ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ [سبأ:18] أي: السير في ليل البشرية ﴿وَأَيَّامًا﴾ [سبأ:18] أي: السير في أيام الروحانية آمنين في خفارة الشريعة ودراية المتابعة فما كان من شأنهم إلا التمادي في عصيانهم والإصرار على غيهم وطغيانهم ومن خشية النفس وركاكة العقل مالوا إلى الدنيا ورغبوا في شهواتها، وبجهلهم طلبوا البعد عن الحضرة في عبارة: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ:19] وتحقيق هذه الإشارة طلب الدنيا وشهواتها هو طلب البعد عن الله وعن حضرته ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [سبأ:19] بما مالوا إلى الدنيا.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ:19] عبرة للعالمين وتنبيهًا للراغبين؛ لئلا نقطع عليهم الدنيا بما فيها طريق الطلب وسبيل الرشاد إلى الله ﷻ ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:19] أي: مزقناهم في أودية الهلاك لكل فرقة دركة من دركات جهنم البعد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [سبأ:19] أي: في هذه القضية ﴿لَآيَاتٍ﴾ [سبأ:19] دلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ [سبأ:19] على ترك الدنيا وشهواتها ﴿شَكُورٍ﴾ [سبأ:19] لنعمة عصمة الحق تعالى إياه وتوفيقه للعبودية.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ

(1) هذا مثل مشهور يضرب لمن يتحسر ويتضجر مما يرد عليه منه يقال: أوكأ على سقائه اذا شده بالوكاء والوكاء للقربة وهو الخيط الذي يشد به فوها.

قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: 20 - 24].

ثم أخبر عن حال الشيطان مع الإنسان بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ [سبأ:20] حديثًا عليهم ﴿إِبْلِيسُ﴾ [سبأ:20] عليهم ظنه يشير إلى أن إبليس لم يكن متيقنًا أنه يقدر على الإغواء والإضلال بل كان ظانًا بنفسه أنه يقدر على إغواء من لم يطع الله ورسوله، ولما زين لهم الكفر والمعاصي على وفق هواهم، وتابعوه بذلك صدق عليهم ظنه غير مستقل في التسلط عليهم بل بتلسيط الله إياه عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ [سبأ:21] أي: ما سلطناه عليهم إلا لنميز ﴿مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ﴾ [سبأ:21] أي: نظهر ونبين من هو مؤمن ممن هو منها أي: من الآخرة ﴿فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:21] ولا يظنن ظان بالله ظن السوء إن الله جل جلاله لم يكن عالمًا بأهل الكفر وأهل الإيمان، وإنما سلط عليهم إبليس ليعلم به المؤمن من الكافر، فإن الله تعالى بكمال قدرته وحكمة خلق أهل الكفر مستعدًا للكفر وخلق أهل الإيمان مستعدًا للإيمان، كما قال ﷺ: «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً»[1].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:179] فالله تعالى كان عالمًا بحال الفريقين قبل خلقهم، وهو الذي خلقهم على ما هم به، ولهذا قال: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:21] أي: هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو به وقال ﷺ: «بعث الشيطان مزينًا وليس إليه في الضلالة شيء وإنما سلطه على بني آدم لاستخراج جواهرهم عن معادنهم الإنسانية»[2] كما تسلط النار على المعادن لتخليص جوهرها فإن كان الجوهر ذهبًا فيخرج من الخلاص الذهب وإن كان الجوهر نُحاسًا فيخرج النحاس، فلا تقدر النار أن يخرج من معدن النحاس الذهب ولا من معدن الذهب النحاس، وإنما سلط الشيطان

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه ابن عدي (3/ 39، ترجمة 597 خالد بن عبد الرحمن)، وابن عساكر (56/ 303)، والديلمي (2/ 11، رقم 2094)، والعقيلي (2/ 8، ترجمة 410)

على بني آدم؛ لأنهم معادن الذهب والفضة وهو ناري ليستخرج جواهرهم من معادنهم بنفخة الوسواس فلا يقدر أن يخرج من كل معدن إلا ما هو جوهره.

وبقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ﴾ [سبأ:22] يشير إلى الهوى والدنيا والشيطان فإن النفوس الحيوانية يعبدون هذه الأشياء ويتخذونها آلهة لاحتياجهم بها ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [سبأ:22] سموات القلوب ﴿وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: 22] أرض النفوس من سعادة ولا شقاوة، وما لهم فيهما من شرك أي: شركة في إصلاح القلوب والنفوس وإفسادها، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء وما له أي: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:22] أي: معاونة في الإصلاح والإفساد وإن كانوا وسائط لهذا المعنى؛ لأنهم كالمال للصانع، فالصانع واحد والآلات والأدوات كثيرة.

وبقوله: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:23] يشير إلى أنه تعالى منفرد بملكه متوحد في الهيئة متقدس عن الأضداد والأنداد، وإن الملائكة في السماء بوصف الهيبة فزعون لا يتجاسرون بشفاعة أحد إلا بإذنه، وإنهم مع رفعة قدرهم وعزة قوتهم إذ أوحى الله بشيء وسمعوا كلامه من سطوة كلامه يفزعون ومن عظمة كلامه لا يفهمون ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ:23] يعني: يسأل بعضهم عن بعض قالوا الحق يعني ما فهموا من الهيبة كلامه ولكن يعلمون أنه يقول الحق ولا يقول الباطل ﴿وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:23] أي: علي الشأن وكبير السلطان في ذاته وصفاته وأفعاله.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ [سبأ:24] سموات القلوب ﴿وَالأَرْضِ﴾ [سبأ: 24] أرض النفوس ﴿قُلِ اللهُ﴾ [سبأ:24] يشير إلى أن ماء الفيض إذا نزل من سماء القلب وضياء شمس الروح إذا سطع من سماء القلب على أرض النفس، وفيها بذر المعاملات الشرعية مزروع فمن الذي يرزق من ثمراتها إلا الله؛ لأن ماء الفيض وضياء شمس الروح على أرض النفس المزروعة ببذر أعمال الشريعة لا يثمر إلا بهبوب ريح العناية عليه ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى﴾ [سبأ:24] بالإيمان بهذه الحقيقة أو هاهنا بمعنى الواو يعني أنا وإياكم لعلى هدى إذ نؤمن بهذا ﴿أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:24] إن لم يؤمن بهذا.

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝٢٦ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠ ﴾ [سبأ: 25 - 30].

قوله: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:25] يشير إلى كل زارع يحصد زرعه لا زرع غيره ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ:26] يوم حصاد زرعنا، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ:26] بأن يختص كل واحد منا بحصاد زرعه ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ:26] أي: حاكم عليم فيما يحكم به ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ [سبأ:27] من الدنيا والهوى والشيطان ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ [غافر: 40] أرض النفس شيئًا أي شيئًا من الأعمال النافعة المنجية ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: لهم شرك مع سماوات القلوب بالواردات الروحانية والشواهد الربانية.

ثم قال: ﴿كَلاَّ﴾ أي: ليس شريك في الأفضال والرحمة لهم شركة في حكم من أحكامنا ﴿بَلْ هُوَ اللهُ﴾ [سبأ:27] أي: هذا كله من فضل الله ورحمته ﴿الْعَزِيزُ﴾ [سبأ: 27] الذي ليس له شريك في الإفضال والرحمة ولا مثل ولا نظير ﴿الْحَكِيمُ﴾ [سبأ:27] الذي أفعاله مبنية على الحكمة لا على العلة ثم أخبر عن رسالة المصطفى أنه إلى كافة الورى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:28] يشير إلى أن إرسال ماهية وجودك التي عبرت عنها مرة بنورك وتارة بروحي من كتم العدم إلى عالم الوجود لم يكن منا إلا ليكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة من أهل الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد لاحتياجهم بك من بدأ الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد.

كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»[1] فأما في بدأ وجودهم

(1) رواه بنحوه أحمد (5/ 127، رقم 21209)، ومسلم (1/ 561، رقم 820)، وأبو داود (2/ 76، رقم 1478)، والنسائي (2/ 152، رقم 939)، وابن حبان (3/ 14، رقم 740)، وابن أبي شيبة (6/

-

فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة كن، تابعين لروحك احتاجت إلى أن يكون لها بشيرًا ونذيرًا؛ لتعلقها بالأجسام لأنها علوية بالطبع لطيفة روحانية، والأجسام سفلية بالطبع كثيفة ظلمانية لا يتعلق بها، ولا يميل إليها لفسادة بينهما، فيحتاج إلى بشير يبشرها بحصول كمال لها عند الأثقال بها لترغب إليها وتحتاج إلى نذير ينذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام يحرم عن كمالها، وتبقى ناقصة غير كاملة مثل حبة فيها شجرة مركوزة بالقوة، وإن تزرع وتربي بالماء تخرج الشجرة من القول إلى الفعل إلى أن تبلغ كمالها بشجرة مثمرة، فالروح بمثابة البذر، والقالب بمثابة الأرض، والشخص الإنساني بمثابة الشجرة، والتوحيد والمعرفة ثمرتها الشريفة بمثابة الماء لتربيتها والبشير والنذير بمثابة المربي، فيعد تعلق الروح بالقالب واطمئنانه إليه واتصافه بصفة يحتاج إلى بشير بحسب مقامه يبشره بنعيم الجنة وملك لا يبلى، ثم يبشره بقرب الحق تعالى ويشوقه إلى جماله ويعده بوصاله وبنذير ينذره أولاً بنار جهنم يوعده بالبعد عن الحق، ثم بالقطيعة والهجران.

وإذا أمعنت النظر وجدت شجرة الموجودات منبتة من بذر روحه ﷺ وهو ثمرة هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضًا ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعية كماله لا من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد فيجد كل بشير ونذير فرعًا لأصل بشريته ونذيريته، والذي يدل على هذا التحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] دخلت شجرة الموجودات كلها تحت الخطاب وبقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:6] يشير إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة، وما وصلوا إلى رتبة الثمرية لا يعلمون حقيقة ما قدرنا؛ لأن أحوال الثمرة ليست معلومة للشجرة إلا لثمرة مثلها ووصفها ليكون واقفًا بحالها.

وبقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ:29] يشير إلى أرباب

319، رقم 31743)، وأبو نعيم في مستخرجه على مسلم (2/ 414، رقم 1855)، والبيهقي (2/ 383، رقم 3800).

الطلب واستعجالهم فيها وعدهم من رتبة الثمرة يعني متى نقل إلى الكمال الذي بشرتمونا به بقوله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:30] مجيئهم كما أن الثمرة لكل شجرة وقتًا معلومًا لإدراكها وبلوغها إلى كمالها كذلك لكل طالب وقت معلوم بلاغه إلى رتبة كماله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]؛ ولهذا السر قال تعالى مع حبيبه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35] بهذا يشير إلى أن لنيل كل مقام صبرًا مناسبًا لذلك المقام فكما أن النبي ﷺ لما كان من أولي العزم من الرسل أمر بصبر أولي العزم كذلك أمر صاحب المقام وطالبه بصبر أهله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: 31 - 34].

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشير إلى كفار النفس وصفاتها وكفرهم بحقائق القرآن والكتب المنزلة ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ وهم النفوس الكفرة والقلوب الظالمة صرفت استعدادها من غير موضعها ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ:31] بحجب صفاتهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ﴾ [سبأ:31] وهم النفوس المستكبرة ﴿إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ وهم القلوب المستضعفة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:31].

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [سبأ:32] من النفوس للقلوب ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ عن طريق الحق ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ يُشير إلى أن الله ﷻ هداكم

للإيمان، ولو كان هدى الله قد جاءكم كيف نقدر أن نصد عنكم هدى الله ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:32] في إفشاء استعداد قبول الإيمان وصرفه في غير موضعه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [سبأ:33] من القلوب مجيبين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [سبأ:33] من النفوس المتمردة ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ﴾ [سبأ:33] يعني مكرتم بالليل والنهار على الدوام مكرًا إذ كنتم تأمروننا بالهواجس النفسانية أن نتبع الهوى، ونتخذها إلهًا ونكفر بالله بترك أوامره ونواهيه ونجعل له أنداد من الشهوات الدنيوية، فبهذا المكر قطعتم علينا طريق الحق تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ [سبأ:33] الفريقان أي: أظهرها ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ:33] حين ما نفعهم الإيمان والندامة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:33] التي اتخذوها من الأعناق ما يفلح لغل الأعناق.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ:34] يشير إلى إرسال نذير إلهام رباني في قرية الشخص الإنساني ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: النفس وصفاتها الأغنياء والمتنعمون بالدنيا ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ [سبأ:34] من أعمال الخير والأخلاق الحميدة ﴿كَافِرُونَ﴾ [سبأ:34] جاحدون.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 35 - 39].

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ:35] منكم افتخروا بما هو فتنة لهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:15] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:35] من عذاب الفقر والفقر هو مفتخر نبينا ﷺ بقوله: «الفقر فخري»[1] وهم يعدون بجهلهم من

(1) ذكره حقي في تفسيره (11/ 262).

العذاب وهو عين الرحمة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سبأ:36] به فتنة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء به رحمة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [سبأ:36] من أهل الغفلة والخذلان ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:36] هذه الحقيقة بل يظنون أن الغنى هو الرحمة والفقر هو النقمة.

ثم أخبر عن فساد الأموال والأولاد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ:37] يشير إلى أن لا يستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد؛ لأن المال والأولاد مما زين للناس حبه، وحب غير الله يوجب البعد عن الله كما قال ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[1] يعني: يعميك عن رؤية غيره، وهذا أمارة كمال البعد، فإن كمال البعد يورد العمى والصم قال الشاعر:

وعارضته وصلا قصا إذ دعت وأجبت من ورقا

تدعوا فاسمع ولكن من موجبات القربة الأعمال الخالصة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية بل العناية السابقة والهداية اللاحقة والرعاية الصادقة لقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ [سبأ:37] يضاعف على ما كان لمن يقدمهم من الأمم ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ [سبأ:37] أي: درجات القربات ﴿آمِنُونَ﴾ [سبأ:37] من الهجران والقطيعة.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ:38] هم الذين لا يحرسون الأولياء ولا يراعون حق الله في السر فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله في عذاب السقوط من عين الله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [سبأ:39] فكما أن رزق النفس هو الطعام والشراب كذلك، رزق القلب: هو اليقين والاطمئنان بذكر الله تعالى، ورزق السر: أسرار القرآن والذكر، ورزق الروح: حقائق القرآن وحكمه، ورزق الخفي: وهو ستر السر للمشاهدات والمعاينات والكشوف، فيبسط ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ [سبأ:39] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: 39] لمن يشاء ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [سبأ:39] من الموجودات والوجود فهو يخلفه من

(1) تقدم تخريجه.

الموجود الفاني في الوجود الباقي، ومن الوجود المجازي إلى الوجود الحقيقي فمن الخلف في الدنيا الرضا بالعدم والفقر صورة ومعنى، وهو أتم من السرور بالموجود والوجود وبقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:39] فيشير إلى أنه خير المنفقين؛ لأن خيرية المنفق بقدر خيرية النفقة فما ينفق كل منفق من النفقة فهو فانٍ، وما ينفق الله من نفقة ليخلقه لها فهي باقية والباقيات خير من الفانيات.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: 40 - 44].

ثم أخبر عن حال النشر والحشر بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:40] يشير إلى أنه كما يعبد قوم الملائكة يقول الشيطان وإذا سأل الملائكة ﴿أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:40] يبشرون الملائكة منهم وينزهون الله ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن كذلك من يعبد الله بقول الوالدين والأستاذين أو أهل بلده أو بالتعصب والهوى كما يعبدون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس وأهل البدع والأهواء يتبرأ منه ويقول: أنا منزه من أن أعبد، يقول: من يعبدني بالهوى أو أعبد بالهوى فإن من عبدني بالهوى فقد عبد الهوى ومن عبدني بإعانة أهل الهوى إياه على تعبدي فقد عبد أهل الهوى لأنه ما عبدني مخلصًا كما أمرته ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] ولهذا المعنى أمرنا الله ﷻ أن نقول في عبادته في الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:5] أي: لم نعبد غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] على عبادتك لنعبدك بإعانتك لا بإعانة غيرك.

ويقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:41] يشير إلى أن أكثر مدعي الإسلام بأهل

الهوى يؤمنون أي: بتقليدهم وتصديقهم فيما يقيمون إليه من البدع والاعتقاد السوء وبقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا﴾ [سبأ:42] يشير إلى أن من علق قلبه بالأغيار وظن صلاح حاله من الاحتيال والاستعانة بالأمثال والأشكال نزع الله الرحمة من قلوبهم ويتركهم ويشوش أحوالهم، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار ولا إلى الله رجوع إلا في الدنيا، فإن رجعوا إليه في الآخرة لا يرحمهم ولا يجيبهم كما قال: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [سبأ:42] عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سبأ:42] نار البعد والقطيعة ﴿الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 42].

وبقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ [سبأ:43] يشير إلى أن صاحب نظر من أرباب الولاية إذا دل الناس على الله ودعاهم إليه قال إخوانهم السوء وإخوانهم الجهلة، والمهجرون من أهل الغفلة من الأقارب ومن أبناء الدنيا، وربما كان من العلماء السوء الذين أسكرتهم محبة الدنيا وقال ﷺ فيهم: «أولئك قطاع الطريق على عبادي»[1] هذا رجل يريد اصطيادكم واستتباعكم لتكونوا من أتباعه وأعوانه ومريديه، ويصدكم عن مذاهبكم ويطمع في أموالكم ومن ذا الذي يطيق أن يترك الدنيا بالكلية ويقطع عن أقاربه وأهاليه ويضيع أولاده ويعق والديه، وليس هذا طريق الحق وإنك لا تتم هذا الأمر ولابد لك من الدنيا مادمت تعيش وأمثال هذا حتى يميل ذلك المسكين من مدلول النصح في الإقبال على الله والإعراض عن الدنيا، وربما كان له هذا من خواطره الذميمة نية وهواجس نفسه الردية فيهلك ويضل ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ [سبأ:43] يعني نصح هذا الناصح ﴿إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ:43] لأغراض فاسدة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ:43] وجحدوا وأنكروا ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [سبأ: 43] على لسان أولياء الله وأهل الحق ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ:43].

وبقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ:44] يشير إلى أنهم يعني هؤلاء

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (8/ 282).

المنكرين ما قرءوا في كتب أنزلناها هذا الإنكار والاعتراض وصد الطالبين عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ:44] يعني: وما صحبوا شيخًا كاملاً قبل هذا ليميز بنور صحبته كذلك وافتراءك.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: 45 - 49].

ثم يقول تعالى في تكذيبهم أهل الحق ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [سبأ:45] يعني من المنكرين ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ [سبأ:45] يعني هؤلاء المنكرين ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ: 45] من الإنكار والجحود ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:45] أي: اعتبروا بمن كان قبلكم من منكري المشايخ ومكذبي الرسل ما كان عاقبة إنكارهم إلا بحرمان في الدنيا عن مراتب الدين وفي الآخرة عذاب نار القطيعة ﴿قُلْ﴾ [سبأ:46] يعني للمنكرين ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبأ:46] وهي ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ لا بالهوى لكشف أحوال أهل الحق ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي: إذ سولت لكم أنفسكم تكذيبهم فأمعنوا النظر هل ترون فيهم آثار ما رميتموهم به من الكذب والافتراء وطبع المال والجاه ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:46] جميعًا فتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:46] كما ظننتم به ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم﴾ [سبأ: 46] بلسان ينطق بالحق ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:46] في الدنيا والآخرة لينجيكم عنه فالعذاب الشديد في الدنيا الجهل والنكرة والجحود والإنكار والطرد واللعن من الله وفي الآخرة هي الحسرة والندامة والخجلة عند السؤال، وفي بعض الأخبار إن غدًا يسألهم الحق فيقع عليهم الخجلة يقولون عذبنا يا ربنا بما شئت من أنواع العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال.

ثم أخبر عن أمر الآخرة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: 47] يشير إلى أن من شرط دعوة الحق إلى الله أن تكون خالصة لوجه الله لا يشوبها طمع في

الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ [سبأ:47] وفي الآية دليل على أنه ﷺ قد سألهم شيئا من الأجر ثم رده إليهم بقوله: فهو لكم، وأما ما سأل منهم ما أمره الله تعالى بقوله: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:23] ثم أمره بردها إليهم بقوله: ما سألتكم عليه من أجر إلا المودة في القربى فهو رد إليكم ليكون مودتهم خالصة لله ويكون أداء رسالتي خالصًا لوجه الله ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سبأ:47] يصدر مني ومنكم ﴿شَهِيدٌ﴾ [سبأ:47] يجازينا بحسب نيتنا وصدق عقيدتنا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ [سبأ:48] على أفعال أهل الخلاف فيضمحل اجتراؤهم ويحيق بهم شؤم معاصيهم ويقذف بالحق إذا حضر أصحاب المعاني على ظلمات أصحاب الدعاوى فيحمل ما أنذرهم ويفتضحون في الحال ويفضح عوارهم، وذلك لأنه تعالى ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل واحد، وما في ضمير كل واحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علام بلفظ المبالغة ليتناول علمه معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغير في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال بحيث لا يشغله شأن حال عن حال ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:49] على مرور الأيام لا يزيد الباطل إلا زهوقًا والحق لا يزداد على ممر الأيام إلا قوة وظهورا.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ: 50 - 54].

وبقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ:50] يشير إلى أن الضلالة منشؤها نفس الإنسان، فإذا وكلت النفس إلى طبعها لا يتولد منها إلا الضلالة وبقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ:50] يشير إلى أن الهداية من مواهب الحق تعالى ليس نفسي منشؤها، ولذلك قال الله تعالى فيه ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ [الضحى:7] ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ [سبأ:50] من الأزل بمنطق كل ناطق وتسبيح كل مسبح من الناطقين

والجمادات إلى الأبد، وهم في كتم العدم وفي حال وجودهم بحيث لا يشغله شأن من الناطقين والجمادات إلى الأبد، وهم في كتم العدم وفي حال وجودهم بحيث لا يشغله شأن سمع مسموع عن شأن سمع مسموع آخر بلا تغير سمعه عند تغير المسموعات ﴿قَرِيبٌ﴾ [سبأ:50] بكل شيء وإن كان بعيدًا منه، وقرب من ليس يقربه قرب ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ﴾ [سبأ:51] أي: لو رأيت ذلك لرأيت منظرًا فظيعًا ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:51] إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاشتغال.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ [سبأ:52] إذا تابوا وقد أغلقت الأبواب وندموا وقد تقطعت الأسباب فليس إلا الخسران والندم، ولات حين ندامة، كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِهِ يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة؛ يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء، كم قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا فليس لأيامِ الصفاءِ رجوعُ

وبقوله ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:53] يشير إلى خواصه يتمنون معارف الأسرار ومراتب الأحرار وهم بعد في أيدي كفار الأوصاف مأسورون وبقيود الحواس مقيدون، ولا يرمون الظنون الكاذبة ويردفون المعاني الصادقة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:54] قال: «الدين ليس بالتمني»[1] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما فعل بطريق الحرمان باتكالهم من المتمنين المتقدمين الذين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ في حقيقة هذا الأمر ﴿مُّرِيبٍ﴾ لغير موقع في الريبة.

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 213).

سورة فاطر

وتسمى سورة (الملائكة)

مكية، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ③ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⑤﴾ [فاطر: 1 - 5].

﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر:1] يشير إلى أن ذاته تعالى مستحق للمدح والثناء والشكر من الأزل إلى الأبد بحمد أزلي أبدي وهو حمده لذاته تعالى فهو الحامد والمحمود، كما قال: المراد فاطر خالق مبدئ معناه أول شيء تعلقت به القدرة سموات الأرواح ﴿وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:1] أرض النفوس، ثم بقوله: ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ [فاطر:1] يشير إلى أنه تعالى خلق الملائكة وخلق أرواح الإنسان وبقوله: ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[1] [فاطر:1] يشير إلى كمالية استعداد بعضهم على بعض ﴿يَزِيدُ فِي

---

(1) قال البقلي: وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.

قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان. قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقربين،

الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:1] يشير إلى زيادة فيها خلق من الأرواح والملائكة وما يندرج تحت الخلقية، فإنه ذكر أشرف المخلوقات.

ثم قال ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:1] يعني: يزيد في الخلق ما ليس الخلق وهو الفيض الإلهي وهو حقيقة الأمانة التي اختص الإنسان بحمدها، وأنه تعالى زاد في استعداد الإنسان حسن تقويم لقبول الفيض الإلهي على استعداد الملك، ولهذا أبين أن يحملنها وأشفقن منها ومن أكرم هاهنا فهذه الزيادة في خليقته يكرم غدًا بتلك الزيادة التي قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالرؤية، وذلك لأن رؤية الله ليست من الخلق وليس للخلق استعداد رؤية الله.

كما قال تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:103] بل بنور فيضه وهي مخلوقة الحسنى أي: الجنة وهي مخلوقة وزيادة يعني على المخلوق وهي من المواهب الإلهية بإفاضة الفيض الإلهي بحسب استعداد الخلق في قبولها ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [فاطر:1] من الاستعدادات في قبول هذه الزيادة والإباء عنها ﴿قَدِيرٌ﴾ [فاطر:1].

﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:2] أي: من رحمة هذه الزيادة من الفيض ﴿فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:2] من المخلوقات شيء ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ [فاطر:2] من رحمة هذا الفيض من الملك ﴿فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر:2] يعني: من الفيض الإلهي ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:2] أي: بعد الله ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ [فاطر:2] فبعزته أمسك فيضه عمن أمسك ﴿الحَكِيمُ﴾ [فاطر:2] فبحكمته أرسل فيضه إلى من أرسل.

ويقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [فاطر:3] يشير إلى الناسين للأيام التي كانوا في جواره ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر:3] في ذلك الجوار فمن ذكر نعمته فصاحب عبادة وقابل زيادة ومن ذكر المنعم فصاحب إرادة ومحبة ونائل زيادة ولكن فرقًا بين زيادة وزيادة هذا زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته في الدارين لقاؤه اليوم سرًا بسر من حيث المشاهدة وغدًا جهرًا بجهر من حيث المعاينة والنعمة على قسمين: ما دفع من المحن، وما

وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

منح من المنن، فذكره عما دفع عنه يوجب دوام العصمة وذكره لما نفعه به يوجب تمام النعمة.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر:3] يشير إلى أن الرزاق هو الخالق فحسب ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [فاطر:3] أي: من سماء الأرواح ماء الفيض ﴿وَالأَرْضِ﴾ أرض النفوس نبات الأعمال الصالحة وفائدة من هذا التعريف أنه إذا عرف أنه لا رازق غيره لم يتعلق قلبه بأحد في طلب شيء ولا يتذلل للارتفاق بالمخلوق، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضًا فيتخلص عن ظلمات تدبيره واحتياله وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله ويستريح بشهود تقديره ولا محالة يخلص في توكله وتفويضه.

وقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:3] يشير إلى أنه لما تحقق أنه ليس متصرف غيره فمن أين يكذبون الرسل إلا بحكمه وتقديره وله حكمة في ذلك وبقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر:4] يشير إلى تسلية الرسول ﷺ ولأولياء أمته وتسهيل للصبر على الأذية إذا علم أن الأنبياء - عليهم السلام - استقبلهم مثل ما استقبله وإنهم لما صبروا والله كفاهم كذلك يسلك سبيلهم ويهتدي بهم وكما كفاهم علم أنه أيضًا يكفيه وليعلم أرباب القلوب أن حالهم مع الأجانب في هذه الطريقة كأحوال الأنبياء - عليهم السلام - مع السفهاء من أممهم فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل من أهل الإرادة، وقد كان أهل الحقائق أبدا منهم في مقاساة الأذية إلا بسر حالهم عنهم والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من العباد المتقشفين والعلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [فاطر:4] يشير إلى أمر إقرار المقرين وإنكار المنكرين أنه ليس إليهم وأنه يرجع إلى تقدير عليم حكيم أنه يعلم بحال جميعهم وبحكمته يدبر أمورهم على وفق معيشته وإرادته.

ثم أخبر عن غرور أهل الفتور لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [فاطر:5] يشير إلى كل ما وعد به الله من الثواب والعقاب والدرجات في الجنة والدركات في النار والقربات في أعلى عليين وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر والبعد إلى أسفل سافلين حق، فإذا علم ذلك استعد للموت قبل نزول الموت ولا يهتم للرزق ولا يتهم الرب في كفاية

الشغل ونشط في استكثار الطاعة ثقة بالمقسوم.

﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر:5] بزينتها وشهواتها فتقطع بها على الطالب الصادق طريق الطلب من الرياضات والمجاهدات وترك الأوطان ومفارقة الإخوان ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم﴾ الشيطان وهو الغرور بالله وكرمه وعفوه وسعة رحمته، فإنه أكرم الأكرمين مع أهل الكرم، وشديد العقاب مع أهل العقاب والعذاب.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: 6 - 9].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1] [فاطر:6] وعداوته بدوام مخالفته، فإن

(1) أي: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبدًا؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل بالعصمة وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدوًّا وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفكُّ من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزينة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائمٌ متبهٌ مستعدٌ لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضياء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساوس، كما أن بضياء النهار طرد الكلاب من المحابس .. وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم

من الناس من يعاديه بالقول والقلب؛ ولكن يوافقه بالفعل بل يعبده فإن عبادة الشيطان هي طاعته، وهذا مما أخذوا عليه العهد يوم الميثاق بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:60] أي: لا تطيعوه فإن في طاعته مخالفتنا وفي مخالفته طاعتنا، وفي عداوته محبتنا ولا يقوى إلا بملازمة الذكر ودوام الاستعانة بالرب وتلك الاستعانة صدق الاستغاثة والشيطان لا يفتر في عداوتك فلا تغفل عن كيده بذكر مولاك لحظة، فإنه يدعوك على التأييد لتكون من حزبه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ [فاطر:6] وحزبه المعرضون عن الله المشتغلون لغير الله ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر:7] بعذاب معجل وعذاب مؤجل فعجل تفرقة قلوبهم، وانسداد بصائرهم وخساسة أنفسهم حتى أنهم يرضون بأن يكون معبودهم الأصنام والهوى والدنيا والشيطان وعذاب الآخرة مما لا يخفى صعوبته ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:11] في المعجل يستر ذنوبهم ولولا ذلك لافتضحوا بكشف الحجب، وفي المؤجل تمحى الذنوب عن ديوانهم ولولا ذلك لهلكوا، والأجر الكبير اليوم سهولة العبادة ودوام المعرفة وما يناله في قلبه من زوائد اليقين وخصائص الإحسان وأنواع المواهب وفي الآخرة تحقيق السؤال ونيل ما فوق المأمول.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر:8] يشير به إلى دركات الشقاء في الكافر يتوهم أن عمله حسن كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف:104] ثم الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها ويحرس حطامها بمتابعة شهوة ساعة فلقد زين له سوء عمله والذي يؤثر على دينه شيئًا من المخلوقات فهو من جملتهم والذي يتوهم أنه إذا وجد نجاته ودرجاته في الجنة فقد اكتفى فقد زين له سوء عمله فرآه حسنًا، ومعنى الآية: فمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا كمن زينت له الدنيا

الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوه لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء. [عرائس البيان].

بحذافيرها والآخرة بنعيمها فرآها حسنًا إلى قربات الحق ومواهبه قبيحًا ولم يلتفت إليها أي: لا يستويان.

وبقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:8] يشير إلى أنه ليس للإنسان اختيار حقيقي ليرى الحسن حسنًا والقبيح قبيحًا أو حسنًا، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:8] يعني: إذا عرضت سر التقدير ومقتضى الحكمة وعلمت أنهم سقطوا من غير الله ودعوتهم جهرًا وبذلت لهم نصحًا فأجابتهم: ليس إليك ولا إليهم على الحقيقة فلا تضع على قلبك من ذلك مشقة وعناءً ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:8] وإنما يصنعون بحكمة منه واختيار في ذلك.

وبقوله: ﴿واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر:9] يشير إلى أنه تعالى من سنته إذا أراد إحياء أرض يرسل الرياح فتثير سحابًا ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد تخصيصًا له كيف يشاء ويمطر هناك كيف يشاء كذلك إذا أراد إحياء قلب ما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته فيرسل أولاً رياح الرجاء ويزعج بها كوامن الإرادة ثم ينشئ فيه سحاب الاحتياج ولوعة الانزعاج، ثم يأتي بمطر الجود فينبت به في القلب أزهار البسط وأنوار الروح ويطيب لصاحبه العيش إلى أن تتم لطائف الأنس وذلك قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ [فاطر:9] أرض القلب ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ باستيلاء صفات النفس عليها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يوم الحشر.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

﴿مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: 10 - 13].

وبقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ [فاطر:10] يشير إلى أن الإنسان خلق ذليلاً مهينًا محتاجًا إلى كل شيء ولا يحتاج شيء إلى شيء كاحتياج الإنسان إلى الأشياء كلها واحتياج كل شيء لشيء دون شيء إلا الإنسان والذلة قدر الحاجة، فمن ازدادت حاجته ازدادت مذلته ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ لعدم احتياجه وكل شيء ذليل لاحتياجه إليه فلما كان احتياج الإنسان كاملاً فكان ذله كاملاً.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر:10] أي: لا تطلب العزة من غير الله؛ لأنه ذليل أيضًا لله فبقدر قطع النظر عن الأشياء وطلب العزة منه ينقص ذلة العبد ويزيد عزته إلى أنه لا يبقى له الاحتياج إلى غير الله ولا يزيل الاحتياج والافتقار إلى غير الله من القلوب إلا بنفي لا إله، وإثبات إلا الله، فبالنفي يقطع تعلقاته عن الكونين، وبالإثبات يتوجه بالكلية إلى الحق تعالى، فإذا لم يبق له تعلق ترجع حقيقة الكلمة إلى الحضرة، كما أن النار تستنزل من الفلك الأثير باصطكاك الحجر والحديد، ثم يوقد بها شجرة فالنار تأكل الشجرة وتفنيها من الحطبية وتبقيها بالنارية إلى أن تفنى الشجرة بالكلية فلما لم يبق من وجود الحطب شيء ترجع النار إلى الأثير وهذا سر قول الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر آية:10].

والعمل الصالح هو أركان الشريعة فأول ركن منها كمال استنزال نار نور الله من أثير الحضرة باصطكاك حديد «لا إله إلا الله» وحجر القلب القاسي فلما وقعت النار في شجرة الوجود الإنساني عمل العبد بركن من الأركان الخمسة التي بني الإسلام عليها، والأركان الأربعة الباقية هي العمل الصالح الذي يقلع أصل الشجرة من أرض الدنيا ويقطعها قطعًا تستعد به لقبولها النار واشتعالها بالنار واحتراقها بها لتقع النار إلى أن تحترق الشجرة بالكلية، وترفع بالعبور عن الشجرة إلى أثير الحضرة ولما كانت الشجرة مشتعلة بتلك النار آنس موسى عليه السلام من جانب الطور نارًا ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص:30] على لسان الشعلة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:30] تأمله تفهم إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [فاطر:10] فيشير إلى الذين يظهرون الحسنات بالمكر ويخفون السيئات من العقائد الفاسدة؛ ليحسبوهم الخلق من العالمين الصادقين.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر:10] وشدة عذابهم في تضعيف عذابهم، فإنهم يعذبون بالسيئات التي يخفونها ويضاعف لهم العذاب بمكرهم في إظهار الحسنات دون حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:10] أي: مكرهم يهلكهم.

وبقوله: ﴿واللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[1] [فاطر:11] يشير إلى أنكم أبعد شيء من المخلوقات إلى الحضرة؛ لأن التراب أسفل المخلوقات وكثيفها فإن فوقها ماء وهو الطبيعة، وفوق الماء هواء وهو ألطف من الماء وفوق الهواء الأثير وهو ألطف من الهواء، وفوق الأثير السماء وهي ألطف من الأثير ولكن لا تشبه لطافة السماء بلطافة ما تحتها من العناصر؛ لأن لطافة العناصر من لطافة الأجسام ولطافة السماء من لطافة الأجرام فالفرق

---

(1) في قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذكورة والأنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمَّر مَن أطيل عمره، (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا. وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

بينهما أن لطافة الأجسام تقبل الخرق والالتئام ولطافة السموات لا تقبل الخرق والالتئام إلا أن يشاء الله وفوق كل سماء ما هو ألطف منه إلى الكرسي وهو ألطف من السموات وفوقه العرش وهو ألطف من الكرسي، وفوقه عالم الروح وهو ألطف من العرش ولكن لا تشبه لطافة الأرواح بلطافة العرش والسموات؛ لأنها لطافة الأجرام فالفرق بينهما أن لطافة الأجرام قابلة للجهات الست، ولطافة الأرواح غير قابلة للجهات وفوقه الله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:18] وهو ألطف من الأرواح ولكن لطافته لا تشبه لطافة الأرواح؛ لأن لطافة الأرواح نورانية علوية محيطة بها دونها إحاطة العلم بالمعلوم والله منزه عن هذه الأوصاف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فاطر:11] أي: ثم خلقكم من نطفة، يشير إلى أنه خلقكم من أسفل المخلوقات وهي النطفة؛ لأن التراب نزل دركة المركب ثم دركة النباتية ثم دركة الحيوانية ثم دركة الإنسانية، ثم دركة النطفة، فهي أسفل سافلين المخلوقات، وهي آخر خلق خلقه الله من أصناف المخلوقات كما أن أصناف آخر شيء على الشجرة آخر شيء يخلقه الله تعالى وهو البذر الذي يصلح أن يؤخذ من الشجرة، فالبذر آخر صنف خلق من أصناف أجزاء الشجرة.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ [فاطر:11] يشير إلى ازدواج الروح والقالب، فالروح على أعلى مراتب القهر والقالب من أسفل دركات البعد، فبكمال القدرة والحكمة جمع بين أقرب الأقربين؛ ليكونا بالروح والفناء وأبعد الأبعدين ورتب للقالب على ظاهره الحواس الخمس وفي باطنه قوى البشرية ورتب للروح المدركات الروحانية؛ ليكون بالروح والقالب مدركًا لعالم الغيب والشهادة.

وبقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر:11] يُشير إلى أن كل أنثى ووضع حملها إنما هو بتقديره وبعلمه بكيف وكيفية على وفق حكمته وإرادته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلا وله في تعميره إلى أجل بعمر بأمر حكمة بالغة ﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: من عمره التام ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:11] أي: الحكمة في تمام عمر من عمَّر عمرًا تامًا، وفي نقص عمر من عمَّر عمرًا ناقصًا في أيام أم الكتاب الذي عنده لا يزيد فيه

ولا ينقص ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [فاطر:11] أي: في رعاية تلك الحكمة وإمضائها ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ثم أخبر عن تلون الإنسان في تكونه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: 12] يشير إلى بحر الروح ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر:12] أي: صفاته حميدة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ [فاطر:12] أي: جائز عند الخلق والخالق يعني مشروبه مقبول محمود ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:12] أي: بحر النفس وصفاتها ذميمة ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر:12] أي: من البحرين، أما من بحر الروح فلحمه الطَّري هو الواردات الربانية، وأما بحر النفس فلحمها الطري هي شهوات ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ [فاطر:12] منه أي: من بحر الروح ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر:12] من شواهد الحق ومعارفه.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ [فاطر:12] يعني سفينتي الشريعة والطريقة ﴿مَوَاخِرَ﴾ [فاطر:12] تجري إحداهما وهي سفينة الشريعة من بحر الروح إلى بحر النفس فيها أعمال الأوامر والنواهي، وثانيهما وهي سفينة الطريقة تجري من بحر الروح إلى الحضرة فيها أعمال الأسرار والحقائق والمعاني ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:12] وهو الوصول إلى الحضرة على قدمي الشريعة والطريقة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في طلب الزيادة.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر:13] أي: يغلب نهار الروحانية على ليل البشرية وكذلك الفيض مرة يغلب على البسط على القبض وكذلك في الصحو والسكر وكذلك الفناء والبقاء وكذلك السر والتجلي وكذلك الأنس والهيبة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ [فاطر:13] شمس التوحيد ﴿وَالْقَمَرَ﴾ [فاطر:13] قمر المعرفة على ما يريد إظهارها على القلوب ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ في مقامات القلوب والأرواح ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر:13] لنهاية مقدرة.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر:13] ملك القدرة على الوصول ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ [فاطر:13] من العالمين ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13] من هذه المقامات والدرجات.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: 14 - 18].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:14] إن استغثتم بهم لم يعينوكم وإن دعوتموهم لم يسمعوا دعاءكم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على جهة ضرب المثل ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر:14] لأنهم لا يملكون نفع أنفسهم فكيف يملكون نفع غيرهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:14] ويؤمنون بحقيقة الإيمان حين لا ينفعهم الإيمان إذ صار الإيمان.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾ [فاطر:15] يشير أن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بين سائر المخلوقات وإن كانت المخلوقات محتاجة إلى الله بأجمعها ولكنه تعالى ما شرف شيئًا من المخلوقات بتشريف خطاب ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ والله خلق الملائكة المقربين لأن الفقر على ثلاثة أوجه: فقر خلقة: وهو للعوام، وفقر صفة: وهو للخواص، وفقر كرم: وهو لأخص الخواص.

ففقر الخلق: عام لكل أحد ولكن حادث فقر من محدثه فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في أول حاجة وجوده ليبديه وينشئه في الثاني من حال بقائه ليديمه ويقيمه ويحضر.

وأما فقر الصفة: فهو خاص وهو التجرد عن الدنيا وما فيها والتجرد عن الآخرة وما فيها متوجهًا إلى الله بكل وجوده فهو فقير عن صفاته المفتقرة إلى الكونين لفنائه بالله عن الكونين، وافتقاره إلى الله بدلاً عن الكونين لافتقاره إلى الكونين ولكن يمكر بهما.

وأما فقر الكرم: فهو للأخص وهو التفرد عن الوجود بالجود واجب الوجود والتوحد به فهو الفقر الحقيقي عن عينه والفناء الحقيقي بالله بعينه فكان افتقار المخلوقات إلى أفعال الله وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته كمثل سلطان يكون له رعية وهو صاحب الجمال فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه ويكون افتقار عشاقه إلى ذاته

وصفاته فيكون غني كل مفتقر بما يفتقر إليه فغنى الرعية يكون بالمال والملك وغنى العاشق يكون بمعشوقه.

وقوله: ﴿واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر:15] يشير إلى أنه تعالى غني عن كل مفتقر وأنه يغني كل مفتقر بما يفتقر إليه حتى يحمده عليه وتحقيقه أنه هو الغني المغني.

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:16] يشير إلى كمال غنائه واستغنائه عن غيره وتهديد لمدعي محبته وطلبه أي أنه لم يطلبوه حق الطلب يغنيكم ويأتي بخلق جديد في المحبة والطلب ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ [فاطر:17] أي: إفناؤكم ﴿عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:17] متعب ولا مستصعب.

ثم أخبر عن حمال الأثقال بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر:18] يشير إلى أن لله تعالى في كل واحد من الخلق سرًا مخصوصًا وله مع كل واحد شأن آخر وكل مطالب بما حمل أن كل بذر ينبت نبات قد أودع فيه فلا يطالب بنبات بذر آخر لأنه لا يحمل إلا ما يحمل عليه ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:18] من الطاعة والعصيان نورًا وظلمة، فإذا أثر واحد منهما في جوهر الإنسان واتصف الجوهر بصفة النور أو بصفة الظلمة لا ينقل تلك النطفة من جوهر إلى جوهر إنسان آخر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر:18] يشير إلى أن إنذارك إنما يؤثر في الذين لهم قلوب منورة بنور الإيمان وقلوبهم في الغيب يخشى من الله بذلك النور لعلمها بالله لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28] فمن لم يكن بهذه الصفة يكون قلبه ميتًا لا يؤثر فيه الإنذار.

كما قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً﴾ [يس:70] مع هذا جعل تأثير الإنذار مشروطا بشرط آخر وهو ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ في الشهادة ثم قال: ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:18] أي: من تزكيت نفسه عن الصفات الذميمة وفائدة تزكية نفسه عائدة إلى نفسه لأنها بالتزكية عن صفاتها يستحق لتحليه بصفات الله إلى هذا أشار بقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ [فاطر:18] يعني: إذا كان مصيره إلى الله لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة فقد زكي

عن صفاته التي تتعلق بالدنيا وهي صفات النفس وعن صفاته التي تتعلق بالآخرة وهي صفات الروح فيتحلى بصفات النفس وعن صفاته التي تتعلق بالآخرة وهي صفات الروح لله تعالى.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: 19 - 26].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: 19- 22] يشير إلى حقائق التخلية يعني قبل التزكية والتخلية كان أعمى فصار بصيرًا وكان في الظلمات فصار في النور وكان في حرقة جهنم البعد فصار في ظل جنات القرب وكان ميتًا فصار حيًّا ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ﴾ [فاطر:22] كلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:22] بعد إحيائه بنور صفاته.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:22] يعني ميتا لم يحييه الله بنور صفاته ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ [فاطر:23] ليس إليك الإحياء ولا الإسماع ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: 24- 26] وباقي الآيات تعزية للنبي ﷺ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر:26].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: 27 - 31].

ثم أخبر عن آثار رحمته من ماء السماء بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر:27] يشير إلى أنه تعالى أنزل من سماء القدرة ماء الروح فأخرج به من أشجار الأشخاص ثمرات الأخلاق المختلفة ألوانها من أهل السعادة والشقاوة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ [فاطر:27] أي: من جبال النفس أخرج الطريق وهي صفاتها ببعض صفة اطمئنانها ﴿وَحُمْرٌ﴾ [فاطر:27] صفة لوامتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:27] صفة أماريتها.

ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [فاطر:28] جمع فيه صفات الروح وصفات النفس المشترك بين الإنسان والحيوان مع اختلاف أوصافهم، ثم قال كذلك أي: كاختلاف ما ذكرنا من الإنسان وأخلاقه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28] بحسب اختلافهم في العلم فمنهم من هو عالم بأحكام الله من أوامره ونواهيه فيكون خوفه من فوت الجنان وعذاب النيران، ومنهم من هو عالم بصفات الله من صفات اللطف والقهر فيكون خوفه من الحرمان عن مقامات القرب والخذلان إلى دركات البعد، ومنهم من هو عالم بالله بنور الله فخوفه يكون هيبة من ذاته تعالى. كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28] فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف كما قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»[1] ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ [فاطر:28] أن يعرفوه حق معرفته ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر:28] يغفر عجز العباد وقصورهم في معرفته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [فاطر:29] أي: ائتمروا بها في كتاب الله من الصلاة وغيرها.

﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً﴾ [فاطر:29] أي: من علم الباطن ﴿وَعَلانِيَةً﴾ [فاطر: 29] أي: من علم الظاهر ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:29] يعني خالصة لله مع الله

(1) رواه البخاري (1/ 41).

بالله ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ [فاطر:30] بحسب أعمالهم وخلوص نياتهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:30] ما يستحقونه وإنما يستحق كرمه به ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ [فاطر:30] يغفر تقصيرهم في العبودية ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر:30] يشكر سعيهم مع التقصير بفضل الربوبية.

وقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يشير إلى هذه المعاني المختلفة التي ذكرها إنه ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:31] من الآيات التي تجيء بعده ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ﴾ [فاطر:31] من أهل السعادة وأهل الشقاوة ﴿لَخَبِيرٌ﴾ [فاطر:31] لأنه خلقهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [فاطر:31] بما يصدر منهم من الأخلاق والأعمال.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر: 32 - 35].

ثم أخبر عن أحوال أهل الشقاوة وأعمال أهل الشقاوة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32] يشير إلى إيراثهم الكتاب حيث علمهم القرآن بلا واسطة كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1- 2] وذلك قبل خلقهم؛ لأنه قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن:1-3] أي: علمهم القرآن وهم بلا هم وهذا علم القرآن لسان الطيور ثم خلقهم؛ لأنه قال وعلمهم البيان قال ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:3- 4] وهذا النوع من الإيراد مخصوص بهذه الأمة لأنه كما جاء في الخبر لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «أمتي ورب الكعبة ثلاث مرات»[1] وإنما ذكر بلفظ الميراث لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له ولا نسب ولا ميراث له فالسبب هاهنا طاعة العبد والنسب فضل الرب فأهل الطاعة هم أهل الجنة.

(1) ذكره حقي في تفسيره (11/ 283).

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:10-11] فهم ورثوا الجنة بسبب الطاعة وأصل ارثهم بالسببية المبايعة التي جرت بينهم وبين الله بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون وأهل الفضل هم أهل الله وفضله معهم بأن أورثهم المحبة والمعرفة والقربة.

كما قال ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] إلى قوله: ﴿ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:54] فمن لا سبب له ولا نسب فلا ميراث له ولما كانت الوراثة بالنسب والسبب، وكان السبب جنسًا واحدًا كالزوجية وهي صاحب الفرض وكان النسب من جنسين الأصول والفرع الأصول كالآباء والأمهات، والفرع كما يتولد من الأصول كالأولاد والإخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم وهم صاحب فرض وعصبة فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف صنف صاحب الفرض بالسبب وصنف صاحب الفرض بالنسب وصنف صاحب الباقي وهم العصبة كذلك الورثة هاهنا ثلاثة أصناف. كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:32] ثم نقول ولنا أن نجعل الأفضل منهم المقدم كما قدمه الله وهو الظالم لنفسه قدمه على السابق، ولنا أن نجعل الأفضل منهم الأخير وهو السابق فأما تقديم الظالم فبأنه قد ظلم على نفسه في البداية والوسط والنهاية لله وفي الله وبالله.

أما في البداية: فبأنه لما عرض الله تعالى الأمانة على السموات وأهلها والأرض وأهلها والجبال وأهلها ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب:72] لأنه ظلم على نفسه لما قصد وضع الأمانة القديمة بحملها في غير موضعها، وهو محمل الإنسان الذي خلق ضعيفًا ولهذا لما زلت قدم آدم عليه السلام من ثقل حمل الأمانة، قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] أي: بحمل الأمانة الثقيلة وإنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122] بعد زلة قدمه استحقاقًا؛ لأنه لو لم يحملها لبقيت الأمانة غير محمولة، ولما كانت الحكمة في عرضها حملها فلو لم تحمل لكان الغرض لحملها عبثًا وهل جناب القدس الإلهي أن يقع فعل من أفعاله عبثًا فآدم عليه السلام إنما ظلم

نفسه بحملها تاركًا لحظوظه راغبًا لحقوق الحق تعالى؛ لئلا يقع عرض الأمانة من الله عبثًا فأبت المخلوقات أن تحملنها رعاية لحظوظ أنفسهم.

وقد ظلم الإنسان على نفسه رعاية لحقوق ربه، فلا جرم قدسه الله على الملائكة المقربين وأمرهم بسجوده لظلمه على نفسه إيثارًا لربه، فثبت أن الظالم أولى بالتقديم، ولنا ظلمه في الوسط على نفسه، فبإعراضه عن الدنيا وترك زينتها على خلاف طبع نفسه ونهى نفسه عن هواها وفطامها عن شهواتها الحيوانية ومألوفاتها الإنسانية وتكليفها على الطاعات والعبادات، وتزكيتها عن أوصافها بالمجاهدات والرياضات وبتركها الأوطار والأوطان ومفارقتها عن الإخوان والأخدان ومهاجرتها عن الأهالي والبلدان ومقاساة الشدائد في الأسفار بالمشي على الأقدام وركوب الأهوال في البوادي والجبال والصبر في البلاء عند نزول القضاء وبذل الروح في محاربة الأعداء، وأمثال هذا مما يعالجون به أرباب الطلب وأهل الإرادة نفوسهم.

وأما ظلمه على نفسه في النهاية: فبالسعي في إنشاء صفاتها في صفات الروح ثم إفناء ذاتها في ذات الروح ثم إفناء ناسوتية الإنسانية في لاهوتية الربانية.

وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27-28] ولما فعل بابن منصور[1] سمع منه فلما أصغى إليه فهو يقول في مناجاته: إلهي أفنيت ناسوتيتي في لاهوتيتكم محوت نسوتيتي على لاهوتيتك إن ترحم على من سعى في قتلي وهذا غاية ظلم الظالم لنفسه ولهذا ذكر بلفظ المبالغة أنه كان ظلومًا جهولاً فثبت بهذه المعاني والحقائق أن الظالم لنفسه أحق وأولى بالتقديم، وأما الدليل على أفضلية السابق على الظالم لنفسه فبأن للسابق في سبقيته بداية ووسطًا ونهاية، وله في هذه المراتب الثلاثة فضل على الظالم لنفسه، أما في البداية: فبأن له سبق العناية الأزلية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:101] يعني: في الأزل قبل خلقهم، وأما في الوسط: فبأن له سبقة في الخروج من العدم إلى

(1) يقصد الحلاج قدس سره.

الوجود في اتباع روح النبي ﷺ فإنه أول روح خرج من العدم إلى الوجود وأهل سبقة العناية متتابعين لروحه، وأما في النهاية: فبأن له سبقة في الرجوع إلى الحضرة على أقدام الخيرات.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:32] وهذه الخيرات على قسمين: قسم مركب: من كسب العبد بتقديم الخيرات، وقسم: من فضل الرب بتواتر الجذبات إلى أن يسبق على الظالم لنفسه وعلى المقتصد بالسير بالله في الله، وإن كان مسبوقًا بالذكر في الأخبار كما كان حال النبي ﷺ مسبوقًا بالخروج في آخر الزمان للرسالة سابقًا بالرجوع إلى الحضرة ليلة المعراج على جميع الأنبياء والرسل.

كما أخبر عن حال نفسه وحال سابقي أمته لقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»[1] الآخرون خروجًا في عالم الصورة السابقون وصولا إلى عالم الحقيقة ولعل أنه يخطر ببال بعضهم أن الأفضلية إنما تكون في طرف واحد من طرفين طرف في الظالم والسابق، وقد أثبتها للطرفين فالجواب عنه أن التعدد إنما يكون في عالم الاثنينية وهو عالم القال، فمنهما يكون مصير كل واحد من الظالم لنفسه والسابق بالخيرات بإذن الله إلى عالم الوحدة قد ارتفعت الاثنينية قد بقيت الوحدة فلا فرق بين الظالم والسابق، فإن الظالم في حمل الأمانة قد سبقته العناية في حملها وللسابق في سبقه على غيره بالسير فالله قد أدركه الظلم على نفسه في حمل الأمانة فالظالم هاهنا هو السابق والسابق هو الظالم، كما قيل:

فـــإذا أبـــصرتني أبـــصرته وإذا أبـــصرته أبـــصرتني

ولهذا كرر الله تعالى اسم السابق والسابق هو الظالم فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:10- 11] وذلك لأن الإنسان على ضربين سابق ولد سابقًا وعاش سابقًا ومات سابقًا، وسابق ولد سابقًا وعاش ظالمًا ومات سابقًا فالمقدم من السابقين هم الذين عاشوا سابقين والمؤخر منهم هم الذين عاشوا ظالمين وماتوا سابقين،

(1) رواه أحمد (2/ 243 ، رقم 7308)، والبخاري (1/ 299 ، رقم 836)، ومسلم (2/ 586، رقم 855)، والنسائي (3/ 85، رقم 1367)، والشافعي (1/ 60)، وابن خزيمة (3/ 109، رقم 1720)، والبيهقي (3/ 170، رقم 5354).

فكان اسم الظلم عليهم عارية إذ ولدوا سابقين وماتوا سابقين، فأما من ولد ظالمًا وعاش ظالمًا ومات ظالمًا من هذه الأمة فهو من أهل الكبائر الذين قال النبي ﷺ فيهم «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1] فعلى هذا المقصد من مات على التوبة والسابق عاش في الطاعة ومات في الطاعة وهذا بلسان أهل الظاهر.

وأما بلسان القدم فالظالم السالك والمقتصد المجذوب والسابق المجذوب السالك فالسالك هو المتقرب والمجذوب هو المقرب والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب الفاني عن نفسه الباقي بربه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:32] الذي ذكر الظالم مع السابق في الإيراث والاصطفاء ودخول الجنة، ومن دقائق حكمته أنه تعالى ما قال في هذا المعرض ذلك هو الفضل العظيم؛ لأن الفضل العظيم الكبير جنات عدن، وهي أدنى الجنان إلى الحضرة يدخلونها بفضل الله، وذلك أنه تعالى لما ذكرهم أصنافًا ثلاثة رتبها ولما ذكر حديث الحسن والنعم والتزين فيها ذكرهم على الجميع ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:33] نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضل، وليس في الفضل تمييز فيما يتعلق بالنعمة دون ما يتعلق بالغم؛ لأن في الخيرات من أهل الجنة من يرى الله سبحانه في كل جمعة بمقدار أيام الدنيا مرة فهو مقام الظالم ومنهم يراه في كل يوم مرة وهو مقام المقتصد، ومنهم من هو غير محجوب عنه لحظة وهو مقام السابق وهذا المعنى معنى الجزء مع تفاوت الألفاظ.

﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾[2] والحزن سمي حزنًا لحزون الوقت

---

(1) حديث أنس: رواه أحمد (3/ 213، رقم 13245)، وأبو داود (4/ 236، رقم 4739)، والترمذي (4/ 625، رقم 2435) وقال: حسن صحيح غريب، وابن أبي عاصم (2/ 399، رقم: 831)، وأبو يعلى (6/ 40، رقم 3284)، وابن حبان (14/ 387، رقم 6468)، والطبراني (1/ 258، رقم 749)، والحاكم (1/ 139، رقم 228) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (1/ 287، رقم 310)، والضياء (4/ 382، رقم 1549).

(2) قال روزبهان: أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم،

-

على صاحبه وليس في الجنة وهي بالحق حزونه وإنما هو رضا واستبشار، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للظالم لنفسه ﴿شَكُورٌ﴾ للمقتصد والسابق، وإنما قدم ما للظالم رفقًا بهم لضعف أحوالهم وبقوله: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:35] كشف القناع عن وجه الأحوال كلها أن الظالم والمقتصد والسابق، فدخل كل واحد منهم في مقام أحله الله فيه عن فضله لا بجهده وعمله، وإن الذي أدخله الجنة جزاء بعمله فتوفيقه للعمل أيضًا من فضل الله، وهذا حقيقة قوله ﷺ: «قبل من قبل لا لعلة ورد من رد لا لعلة»[1].

﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:35] في نيل مرادنا وقضاء حوائجنا حتى إذا أرادوا أن يروا ربهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة وانتظام وقت؛ بل هم في غرفهم يلقون فيها تحية وسلامًا، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة في جهة يرونه كما هم بلا كيفية كل وقت صفت لهم إرادة الرؤية لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:71].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فاطر: 36 - 38].

ثم أخبر عن من لا نسب له ولا سبب بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر:36] يشير إلى من سر صفاء القلب ونور الروح الفطري بظلمات صفات البشرية يعذب بنار البعد والقطيعة، ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ [فاطر:36] بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: 36] بالأرواح والنفوس ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:36] عذاب البعد

والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان.

(1) ذكره حقي في تفسيره (11/ 292).

والقطيعة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:36] بستر نعمتنا بالكفران ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر:37] تستغيث أرواحهم في نار البعد يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [فاطر:37] من ظلمات البشرية ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [فاطر:37] تصفية للقلب وتحلية للروح ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:37] من متابعة الهوى والطبع ومخالفات الشرع يقول لهم منادي العزة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:37] أي: لم تبلغوا حد البلاغة التي تفتح بها نظر العقل فينظروا بنظر العقل إلى المصنوعات فيعرفوا صانعها.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:37] أي: وما جاءكم النذير فيدعوكم إلى الله ويخوفكم منه فإذا لم تستعملوا العقل ولم تسمعوا قول نذير الظاهر من الأنبياء وقول نذير الباطن من الإلهامات الربانية وما رجعتم بالقلوب إلى الحضرة المقدسة، ﴿فَذُوقُوا﴾ [فاطر:37] عذاب نار البعد الذي كنتم معذبين به ولكن كنتم نائمون فما ذقتم ذوق العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بصرف الاستعداد لعبودية الحق تعالى في غير موضعه من عبودية الدنيا والهوى والشيطان ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يغيثه منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر: 38] سموات القلوب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:38] أرض النفوس، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر:38] أي: عالم بإخلاص المخلصين وصدق الصادقين وهما من غيب سموات القلوب وعالم بنفاق المنافقين وجحد الجاحدين وهما من غيب أرض النفوس وبجمع الجميع الصدور.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي
مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا
مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ
مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ
الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ

تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر: 39 – 45].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر:39] يُشير إلى أن كل واحد من الأفاضل والأراذل خليفة من خلفائه في أرض الدنيا والأفاضل يظهرون جمال صفاته في مرآة أخلاقهم الربانية وهو سبحانه يتجلى بذاته وجميع صفاته بمرآة قلوب الصادقين منهم؛ لتكون مرآة قلوبهم لجمال صفاته وجلال ذاته مظهره، والأراذل يظهرون جمال صنائعه وكمال بدائعه في مرآة حرفهم وصنعة أيديهم ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان يغزله وينسج منه الثوب بالخلافة.

وبقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:45] يشير إلى أنه ما من إنسان إلا ويصدر منه ما يستوجبه المؤاخذة ولكن الله بفضله ورحمته ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر:45] فإذا جاء أجلهم ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ [فاطر:45] يؤاخذ به من يكون عنده من أهل المؤاخذة، ويعفو عمن هو أهل للعفو.

سورة يس

مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: 1 - 10].

﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس:1-4] يشير إلى سيادة النبي ﷺ وإلى أنه ما بلغ أحد من المرسلين إلى رتبته في السيادة، وذلك أنه تعالى أقسم بالقرآن الحكيم أنه لمن المرسلين على صراط مستقيم إلى قاب قوسين من القرب أو أدنى أي: بل أدنى من كمال القرب، كما قال ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[1] فإن لكل نبي مرسل كان يسير إلى مقام معين على صراطٍ مستقيم هو صراط الله.

كما أن النبي ﷺ أخبر أنه ليلة المعراج رأى في كل سماء بعض الأنبياء حتى قال: رأيت موسى عليه السلام في السماء السادسة، ورأى إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة، وقد عبر عنهم إلى كمال رتبته ما بلغ أحد من العالمين إليها وإنما قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾؛ لأنه منبع كل حكمة ومعدن كل عظة.

وقوله: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:5] يشير إلى أن القرآن تنزيل من عزيز غني لا يحتاج في تنزيله لعلة بل هو رحيم اقتضت حكمته تنزيل القرآن فإنه حبل الله ليعتصم به

---

(1) قال البقلي: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفاتٍ: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي. [العرائس].

الطالب الصادق ويصعد إلى سرادقات عزته وعظمته.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس:6] يُشير إلى أنا خصصناك بإنذار قوم ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس:6] مُنذ عيسى عليه السلام وقد حصلوا في أيام الفترة لتنذرهم بهذا القرآن فإنه هادي العباد إلى سبيل الرشاد.

وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:7] يشير إلى القول الذي صدر منه في الأزل لخلق الموجودات.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] كما أردناه فحق ذلك القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون على وفق إرادتنا، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [يس:8] بالتقدير في الأزل ﴿أَغْلالاً﴾ [يس:8] من الأحكام الأزلية في صورة الموانع من الإيمان ﴿فَهِيَ﴾ يعني: الموانع ﴿إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: 8] فيما قدرنا لهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:9] في الأزل ﴿سَداًّ﴾ من العزة بينهم وبين الإيمان ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إلى الأبد ﴿سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بظلمة البشرية ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يس:9] طريق السداد وسبيل الرشاد.

ويقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:10] يشير إلى أن أحاط بهم سرادقات الشقاء وتمادى بهم إلى تعاطي الجفاء وسد بين أيديهم وخلفهم سدًا أنواع البلاء كيف يصبح فيهم الإنذار وينجيهم النصح من عذاب النار.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) ﴾ [يس: 11 - 15].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس:11] بالمداومة عليه ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:11] يعني: بنور غيبي يشاهد وخاصة عاقبة الكفر والعصيان ويتحقق عنده بشواهد الحق كماليته حلاوة الإيمان ورفعة رتبة العرفان ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ [يس:11] أنهم

استوجبوا ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ [يس:11] منه خالصة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:11] يناسب كرمه.

ثم أخبر عن إنعامه العميم وأجره الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [يس:12] أي: نحيي قلوبًا ماتت بالقسوة بماء يمطر عليها من ضروب الإقبال والزلفة، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [يس:12] من الأنفاس المتصاعدة ندمًا على ما فرطوا فيه أو شوقًا إلى لقائنا ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:12] خطأ أقدام صدقهم على بساط التقرب إلينا وتزرف دموعهم على عرصات خدودهم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ [يس:12] مما يتقربون به إلينا ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:12] ثبتنا آثاره وأنواره في لوح محفوظ قلوب أحبابنا.

وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:13] إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:29] يشير إلى أصناف ألطافه مع أحبابه وأنواع قهره مع أعدائه منها ضرب مثلاً لأصحاب قرية القلوب ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:13] من ألطافه كرة بعد مرة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس:14] رسولين من الخواطر الروحانية والإلهامات الربانية بالتجافي عن دار الغرور وللإنابة إلى دار الخلود، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [يس: 14] النفس وصفاتها ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:14] من الجذبة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا﴾ [يس:14] أي: النفس وصفاتها ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:15] أي: ما أنتم إلا الخواطر البشرية ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ [يس:15] أي: من خاطر الإلهام والجذبة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ [يس:15] بالانتهاء إلى الحضرة.

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: 16 - 27].

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:16-18] وذلك أن الإلهام والجذبة يقويان القلب وصفاته ويذيبان النفس وصفاتها ويمنعان النفس عن استيفاء شهواتها والبلد بلدتنا الدنيا فلهذا أنشأ النفس وصفاتها بهؤلاء المرسلين ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي: جاء هذا الشؤم معكم لا من العدم.

كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:13] وهو بعد في العدم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ علمتم هذا التحقيق وتيقنتم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أيتها النفس وصفاتها في موافقة الطبع ومخالفة الحق تعالى، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس:20] يشير إلى صفة الروح المشتاق إلى جمال الحق تعالى.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ [يس:20- 21] أي: لا مشرب لكم من مشاربكم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:21] إلى الحق تعالى ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس:22] به يشير إلى كلام الروح وذلك لأنه أول خلق فطره الله تعالى بأمر كن لا من شيء أي: كيف بي ألا أعبد من خلقني قبل كل شيء فكتب لعبده في عالم الأرواح قبل خلق الأجسام بألفي عام ولم يكن لي شريك في العبودية كما لم يكن له شريك في الألوهية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:22] ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ﴾ [الفجر: 27] وصفاتها بقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] ومن كلام الروح، ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [يس:23] من الدنيا والهوى والشيطان.

﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ [يس:23] ﴿إِنِّي إِذاً﴾ [يس:24] بعبادة غير ربي ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: 24- 25] فأجيبوا لي وآمنوا بربكم، وإنما قال: آمنت بربكم وما قال آمنت بربي ليعلموا أن ربهم هو الذي يعبده فيعبدوا ربهم؛ ولذا قال: آمنت بربكم؛ لعلهم يقولون: أنت تعبد ربك ونحن نعبد ربنا وهو آلهتهم.

قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس:26] يشير إلى أن الروح بالجذبة الإلهية يجذب إلى

-الحضرة قبل النفس وصفاتها والنفس حين تتشرف بتشريف الجذبة قيل لها أولاً: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وهي عبارة عن عالم الأرواح، ثم قيل لها: ﴿وادخلي جنتي﴾، ومن كلام الروح ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ [يس:26] وهم النفس وصفاتها ﴿يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:26- 27] لم يرغبوا في نعيمها ويرغبوا عن الدنيا وشهواتها فإنها جحيمها.

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس: 28 – 35].

وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [يس:28] يشير إلى أنه فاتها بعد رجوع الروح إلى الحضرة وما أنزل إلى النفس وصفاتها ملائكة من السماء لأنهم لا يقعدون على إصلاح حالهم فإن صلاح النفس في موتها والمميت هو الله، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس:28] يعني: الملائكة في إماتتهم ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ من وارد الحق ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ [يس:29] يعني: النفس وصفاتها ﴿خَامِدُونَ﴾ ميتون عن أنانيتهم بهويته.

ثم أخبر عن حسرة أهل الغرامة يوم القيامة، وبقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:30] يشير إلى أن للعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم وذلك لانخراطهم كلهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل والاستهزاء بهم ومنافاة أولياء الله سبحانه، كما غلبت هذه الخصال الرديئة على أهل زماننا هذا الذين يسمعون القول من المحققين فيتبعون أقبحه ويقعون في أولياء الله ويستهزءون بهم وبكلماتهم المستحسنة إلا من شاء الله به خيرًا من أهل النظر وأدب بأدب الإرادة

وقليل ما هم فهددهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ [يس:31] يعني: هؤلاء الغفلة الجهلة. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس:31] الماضية وما عاملنا قبلهم من الأمم الخالية ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:31] كلهم في قبضة القدرة لم يعتنا أحد ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:32] ولم يكن لواحد منهم علينا عون ولا مدد ولا عن حكمنا ملتحد فيه إشارة أخرى وهي أن الله سبحانه جعل هذه الأمة آخر الأمم فضلاً منه وكرمًا ليعتبروا هؤلاء بأفاضلهم وأراذلهم وما جعلهم عبرة لأمة أخرى، وأنه تعالى قد شكا لهم كل أمة، وما شكا إلى أحد من غيرهم شكايتهم.

وقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ [يس:33] يشير إلى القلب الميت ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَباً﴾ [يس:33] وهو الطاعة والعبادة، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:33] فإنها غذاء الأرواح ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾ [يس:34] نخيل الأذكار، ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ [يس:34] من أعناب الأشواق ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس:34] عيون الحكمة، ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ [يس:35] وهي المكاشفات والمشاهدات فإن المجاهدات تورث المشاهدات ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:35] من الصدقات والخيرات ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يس:35] نعم الله الظاهرة والباطنة.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: 36 - 40].

﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:36] من الآباء العلوية والأمهات السفلية بازدواج الكاف والنون ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ [يس:36] أرض البشرية ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [يس: 36] بازدواج الروح والقالب، ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يس:36] من تأثير نظر العناية في قلوب عباده المخلصين لهم منا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾ [يس:37] ليل البشرية ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس:37]

الروحانية ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[1] [يس:37] بظلمة الخلقية فإن الله خلق الخلق في ظلمة

---

(1) قال العارف بالله البيطار فيما أمده الله من الأنوار: اعلم ـ رحمك الله ـ أنك إذا جعلت المعنى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نبرز منه النهار ونوجده ونظهره، لا يناسب حينئذ قوله: ﴿فَإِذَآ هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، بل المناسب: فإذا هم منيرون أو مضيئون أو مشرقون، وما شاكل ذلك، مع أن المقصود خلاف ذلك وهو أن الأمر بين الليل والنهار دوري ما بين الحقائق الأربع المنسحب معناها على كل شيء في الوجود، وهي الأمهات التي هي: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3].

فهذه الحقائق هي أم كتاب الوجود الإلهي والكوني وبيان كشف المعنى، حينئذ أن جميع المعاني المختلفة عين الحقيقة المؤتلفة فكل معنى من المعاني إن كان أولاً، فآخره ما يقابل معناه، وهذا الأخر هو عينه؛ لأن آخر الدائرة ليس إلا المبتدأ، فالأول عين الآخر، وهما مظهر وظاهر، فإن ظهر الشيء كان ضده هو باطنه، فهو مظهر له، فإن ظهر ما كان باطنًا بطن فيه ما كان ظاهرًا وهو هو، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] فهي تقرأ طردًا وعكسًا.

فعلى حسب ما قررناه أن النهار إذا تجلى، فالليل هو مظهره المتجلي فيه، فإذا انسلخ فيه النهار من جهة الاسم الظاهر بطن فيه، فكان الليل هو الظاهر والنهار هو الباطن، فلذا قال تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:37] أي: نقلب الأمر ونجعل الليل ظاهرًا والنهار باطنًا، ﴿فَإِذَآ هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: 37]، وبهذا التمهيد الذي بيناه اتضح المعنى غاية الوضوح كما لم يخف على كل نبيه منصف.

ويتفرع على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]، أفاد تعالى أن شمس الحقيقة الوجودية الذاتية العينية جريانها مستمر ظهورًا وباطنها هو المستقر الذي منه بدت نورًا، وهاهنا علم من وراء الأفهام اقتضاه الاسم: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ [يس:38]، الموصوف بأنه: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38].

فمن حقيقة العزة بدا هذا العلم إذ على ما قررناه أولاً أن الدور ما بين الأسماء المختلفة في الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية يفيدك حينئذ أنه إن ظهر الحق فالخلق باطنه، وإن ظهر الخلق فالحق باطنه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «مولى القوم من أنفسهم» وبقوله ﷺ : «سلمان منّا أهل البيت»؛ الإشارة بـ سلمان للوجود الإلهي السالم من العدم فهو منّا أهل البيت الإلهي، إذ ليس أهل الظاهر إلا المظاهر.

ألا ترى أن الظاهر لا يظهر منه إلا الصورة، والصورة هي عين الخلق، فالحق باطننا، إن ظهرنا ونحن باطنه إن ظهر، وعلى هذا يترتب حكم الأول والآخر، فنحن أهل البيت الإلهي الذي دائمًا يريد الله أن يذهب عنّا الرجس؛ رجس العدم؛ لأنا مظاهر أسمائه التي هي شئون ذاته ويطهرنا من السوى تطهيرًا، فقد عاد توحيدنا علينا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]، قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21].

وهذه الطهارة هي غاية الطهارة، إذ لا أطهر من الله جلّ وعلا، فاندفع رجس الشقاء وشره، ولذا نبّه

ثم رش عليه من نوره، ﴿وَالشَّمْسُ﴾ [يس:38] أي: شمس نور الله ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس:38] وهو قلب استقر فيه رشاش نور الله ذلك المستقر ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ [يس: 38] الذي لا يهتدي إليه أحد إلا به ﴿الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] الذي يعلم حيث

الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1] أي: يا طاهر من السوى، ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [طه: 2] أي: قرآن ذاتنا ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:2]، بل لتظهر بحقيقتك النورانية التي هي عين ذاتنا، ثم نبّه بقوله: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه:3] أي: يخشى رجس السوى من مظاهر حقيقتك، فبهذا التذكير نريد أن نذهب عنه الرجس وهو ذاهب في نفس الأمر، ولكن لمّا سافر إلى بلده الخلقية نسي المواطن الحقيّة، فذكرنا الله بهذا التذكير، وهذا التذكير هو عين التطهير.

ومما قررناه يبدو لك علم الانقلاب فكما أن محمد ﷺ يقول: «أنا من الله والعالم مني» كذلك الحق يقول: «أنا من محمد والعالم مني» فكل منهما لباس للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:187].

ولما انكشف لي هذا الأمر أجبت الحق بقوله: «الصوم لي» كما ورد في الحديث: «خلقت الفطر لي فأنا باطنك في صيامك، إذ لولا الاسم المفطر لم يكن الاسم الصائم بل أنا الصائم فأنت لي وصومك لي فبطن أنت وظهر أنا كما كنت أنت الظاهر وأنا الباطن». وبذلك يتحقق أني أنا معنى اسم رمضان فقد قال ﷺ: «إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى» والاسم الإلهي (رمضان) يندرج فيه الاسم (المفطر) و (الصائم)، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه» فعادل الإفطار لقاء الرب، وعادل الصيام تنزيه الرب، فمن أفطر فقد شبه من حقيقة: «جعت فلم تطعمني»، ومن صام فقد نزّه، ولذلك ورد في الحديث: «الصوم لا مثل له» فهو من حضرة: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:11]. وأما اسم رمضان فهو يجمع التنزيه والتشبيه، ولذلك كان نوم صائمه عبادة، فلمّا صُمت وكنت مظهر هذا الاسم الإلهي، وصدق عليّ اسم الله الصائم فتحت أبواب جنان ذاتي الجمالية، وغلقت أبواب نيران شهواتي الجلالية؛ لأن الصوم من المكاره ومظاهرها الجنان والشهوات الطبيعية من الجماليات الظاهرة، وهي في الحقيقة نيران.

ولمّا صُمت سلسلت وقيدت شياطين جوارحي وظهرت ملائكتها، فقيّد شيطان لساني عن الكذب والغيبة، وظهرت منه ملائكة ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله، فمن قرأ القرآن فقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقبل القراءة لا استعاذة إلا تلفظًا ودعاء، والدعاء إجابته على حسب ما يريد الله بخلاف من قرأ القرآن، أي: تحقق به، فإنه على بصيرة من أمره، ولذلك قال الله تعالى للسيد الأعظم ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:98]، فكذلك من صام فقد قيدت شياطينه بالنسبة لصومه، وإلا فالشياطين في رمضان متنشرون في سائر البلدان، فلا ينجو منهم إلا من قرأ القرآن، أي: إلا من كان مظهرًا له متمثلاً لأوامره مجتنبًا لزواجره، وهذا الوارد من بركات صوم رمضان المبارك، أقرّ الله به دائمًا عيون أمة محمد ﷺ ونفعهم به، آمين.

يجعل رسالته.

وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[1] [يس: 39] يشير إلى صفة قمر القلب فإن القلب كالقمر في استفادة النور من الشمس بالروح أولاً ثم من شمس شهود الحق تعالى وله ثمانية وعشرون منزلاً على حسب حروف القرآن، كما أن للقمر ثمانية وعشرون منزلاً فالقلب ينزل كل حين منها بمنزل وهذه أسماؤها: الألفة والبر والتوبة والثبات والجمعية والحلم والخلوص والديانة والذلة والرأفة والزلفة والسلامة والشوق والصدق والصبر والطلب والظمأ والعشق والغيرة والفتوة والقربة والكثرة والكرم واللين والمروءة والنور والولاية والهداية واليقين، فإذا صار إلى آخر منازله فقد تخلق بخلق القرآن واعتصم بحبل الله وله أوان أن يعتصم بالله، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ في قطع منازل العبودية: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

ويقال للمؤمنين في الجنة: «اقرأ وارتق»[2] يعني: اقرأ القرآن وارتق مقامات القرب وبقوله: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39] يشير إلى سير قمر القلب في منازله فإذا ألف الحق تعالى في أول منزل ثم بر بالإيمان والعمل الصالح، ثم تاب وتوجه إلى الحضرة، ثم ثبت على ذلك التوجه جعل له الجمعية مع الله فيستنير قلبه بنور ربه حتى يصير بدرًا كاملاً، ثم يتناقص بدنوه من شمس شهود الحق تعالى قليلاً قليلاً كلما ازداد

---

(1) الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنوًا ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرىَ، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروح من سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصغو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.

(2) رواه أبو داود (4/ 475)، والترمذي (5/ 177).

بدنوه من الشمس ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يرى لها أثرًا وهذا مقام الفقر الحقيقي الذي افتخر به النبي ﷺ في قوله: «الفقر فخري»[1] لأنه ﷺ كلما ازداد دنوه إلى الحضرة ليلة المعراج ازداد في فقره من الوجود.

كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 8، 9] ذكر هاهنا فقرة إلى الوجود فوجده الله عائلاً عن وجوده فأغناه بجوده وبقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس:40] يشير إلى أن القمر عند تلاشي وجوده وفقره عن الوجود وإن كانت الشمس تغنيه بجودها وتنور القمر شمسًا والشمس قمرًا فكذلك قمر القلب متوجه إلى شمس الحق تعالى يتنور بنورها.

لا تدرك القمر ليصير القمر، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:40]؛ ليكون نهارًا؛ يعني: لا يصير القمر شمسًا ولا الشمس قمرًا، فكذلك القلب بتوجهه إلى شهود الحق تعالى بتنورها، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69]، ولكنه لا يصير الرب تعالى عبدًا ولا العبد ربًا.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:40]، فالرب تعالى يسبح في فلك الربوبية، والعبد في فلك العبودية، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، من أصحاب الحلول وأرباب الفضول.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: 41 - 50].

---

(1) تقدم تخريجه.

ثم أخبر بعد السير في الفلك بقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:41]، يشير إلى حمل عباده في سفينة الشريعة خواصهم في بحر الحقيقة، دعواتهم في بحر الدنيا، فإن من نجا من تلاطم أمواج الهوى في بحر الدنيا، إنما نجا بحمله العناية في سفينة الشريعة، وكذلك من تلاطم أمواج الشبهات في بحر الحقيقة بحمله عواطف إحسان ربه في سفينة الشريعة، بملاحية أرباب الطريقة.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:42] وهو جناح من المشايخ الواصلين الكاملين، ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ [يس:43] يعني: العوام في بحر الدنيا، والخواص في بحر الحقيقة بكسر سفينة الشريعة كما ركب كثير من المتمنين بحر الحقيقة بلا سفينة الشريعة، أو كسروا الشريعة أُغرِقوا فأُدخلوا نارًا ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس:43 ـ 44]، وهم المشايخ، فإنهم صورة رحمة الحق تعالى، ﴿ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي: حين تدركهم العناية الربانية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ [يس:45]، احذروا ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ [يس:45] من الدنيا وما فيها من شهواتها ولذائذها، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ [يس:45] من الآخرة وما فيها من نعيمها وحورها وقصورها وأشجارها وأثمارها وأنهارها، وما تشتهي الأنفس وتَلَذ الأعين فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:45] بمشاهدة الجمال ومكاشفة الجلال وكمالات الوصال.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [يس:46]، وهم الرجال البالغون الكاملون في الدين من أرباب الحقيقة وأهل اليقين ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:46]، هذا حال المسيئين في أودية الخذلان الموسومين بسمة الحرمان، فلا يأتيهم منه آية من آيات الله؛ لينجيهم من بحر الغفلة ويريحهم من تيه الحيرة إلا قابلوه بإعراضهم ونازعوه باعتراضهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [يس:47]، من الأموال والأهالي في طلب الحق تعالى بالتجريد والتفريد، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يس:47] به: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ [يس:47]، من أموالنا ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:47] خيرًا من أموالنا، ﴿إِنْ أَنتُمْ

﴿إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:47] في طلب الحق وترك الدنيا، بل هذا قول الرجال البالغين لهؤلاء الذين لعب بهم الشيطان وأضلَّهم عن سبيل الرَّشاد، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:47]، في طلب الدنيا وترك لقاء المولى، ومن غاية ضلالتهم وفرط جهالتهم، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس:48]، يستعجلون تخوم الساعة ويستبطئون قيام القيامة، لا عن تصديق يزيحهم عن شكهم، أو خوف يمنعهم عن غيهم، ولكن تكذيبًا لدعوة الرسل، وإنكارًا على أوضح السبل، واستبعادًا للنشر والحشر.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:49]، بإنكار النشر والحشر أهل الإقرار به، ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس:50] أي: توصية بعضهم بعضًا في ترك الخصومة ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:50] للاستبصار.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: 51 - 59].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:51] يشير إلى نفخ إسرافيل المحبَّة في صور القلب، وإذا السر والروح والخفى من أحداث أوصاف البشرية إلى نفخ إسرافيل وهم يرجعون بعضهم بالسير وبعضهم بالطير، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ [يس:52] أي: من رقادنا في الغفلة ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:52] غير فضل الله وكرمه، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [يس:52] من كمال رحمته ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:52] فيما بلغوا من ألطاف الحق تعالى، ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:53] يشير إلى جذبة واحدة، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:53] بالخروج من لدنهم والغيبة عنهم.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [يس:54] من استحقاقها وما هي مستعدة لقبوله، ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:54]، فمن عمل للدنيا يُجزى من الدنيا، ومن عمل للآخرة يُجزى منها، ومن عمل لله يُجزى عواطف حسانه وشواهد سلطانه.

ثم أخبر عن أهل الجنان وأرباب الجنان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:55] وفيه إشارة:

منها: إنه لما كان الغالب عليهم طلب الجنة والأخذ بمجامع قلبهم أمْرُها: أضيفوا إليها، قيل لهم: إن أصحاب الجنة كما أنه من الغالب عليه طلب الدنيا، وهو في أسْرِها أضيف إليها، وقيل له: صاحب الدنيا.

ومنها: إنه لما كانت هممهم مقصورة على طلب الجنة شغلهم الله بالفاكهة مع أزواجهم عن طلب الله دون المعاشقة عند المشاهدة والمعاينة، وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:56] أي: يكونوا متكئين على هذه الحالة وهذه الأحوال، وإن جلت عنهم بالنسبة إلى أصحاب الجحيم، ولكنها بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر من الملوك والسلاطين، الذين هم أهل الله وخاصته يتقامرون.

وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «إن أكثر أهل الجنة البله»[1]، عن بعض أرباب النظر أنه كان واقفًا على باب الجامع يوم الجمعة، والخلق قد فرغوا من الصلاة وهم يخرجون عن الجامع، قال: «هؤلاء حشر الجنة»، وللمجالسة أقوام آخرون، ومن كان في الدنيا عن الدنيا حُرًا فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حرًا، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:15]، ولعل يكون هذا الخطاب لأقوام فارغين عن الالتفات إلى الكونين مراقبين للمشاهدات، الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ يعني: عن تعلقات الكونين ﴿فَانصَبْ﴾ [الشرح:7]؛ أي: اطلب الحق تعالى، ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:8]، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:55] ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس:56] أي: أشكالهم، فارغبوا أنتم إليَّ

---

(1) حديث أنس : أخرجه البزار كما في كشف الأستار (2/ 411 رقم 1983)، وابن عدى (3/ 313 ، ترجمة 773 سلامة بن روح)، والبيهقي في شعب الإيمان (2/ 126، رقم 1368)، والديلمي (1/ 362 ، رقم 1463).

واشتغلوا بي، وتنعموا بنعيم وصالي، وتلذذوا لمشاهدة جمالي، وتصدروا بطالعة جلالي.

وقيل: قرئ عند الشبلي قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ...﴾ [يس:55] الآية، فشهق شهقة وغاب فلما أفاق قال: فإنهم مساكين لو علموا أنهم عما شغلوا لهلكوا.

ومنها: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، يعني: في الدنيا ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ بأنواع الطاعات والعبادات عن طلب الحق والشوق إلى لقائه كانوا يطلبون منه، وما كانوا يطلبون كما روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رأيتُ ربَّ العزة في منامي، فقال لي: يا معاذ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد، فإنه يطلبني.

وروي عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي في المنام، فقال لي: يا أبا يزيد أنا بدك اللازم فالزم بدك.

فاعلم أن كل مطلوب يوجد في الآخرة أنه ثمرة بذر طلبه في الدنيا، كما قال ﷺ: «يموت الناس على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه»[1].

ومنها: يجود كمال كرمه أنه تعالى يخاطب بهذا الأقوام من عصاة الموحدين، وهم في العرصات بعد لم يدخلوا الجنة، فيقول الحق تعالى لهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:53] إن كان أهل النار لا يتفرغون إليكم لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغل عنكم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهاليهم وأشكالهم، فليس لكم اليوم إلا أنا من فرط كرمي و رحمتي، فيدعون منه السلامة عن النار برحمته، ودخول الجنة بكرمه، فيعطي سؤلهم ويبذل مأمولهم، وذلك تحقيق قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:57-58].

ومنها: إن لله عبادًا استخصَّهم للتخلق بأخلاقه في سر قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا فبي يسمع وبي يبصر»[2]، فلا يشغلهم شأن اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم عن شأن شهود

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

مولاهم في الجنة، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته بأي حال من حالاتهم، ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم من معارفهم، ويقول: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58]، يشير إلى أن سلامه تبارك وتعالى كان قولاً منه بلا واسطة وأكّده بقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس سلام على لسان سفيره، وقوله: «من رحيم» فالرحمة في تلك الحالة أنه يرزقهم الرؤية في حال ما تسلم عليهم؛ ليكمل لهم النعمة.

وإشارة أخرى أن السلام من الرب الرحيم لو لم يكن صادرًا عند تجليه ﷻ لأهل الجنة لتلاشت من سطوة جلاله الجنة وما فيها، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج على بساط قرب أو أدنى في خلوة «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[1]؛ بتجلي ذاته وصفاته سبحانه وتعالى على وجه لم يتخصص به أحد من العالمين قبله ولا بعده، ما أثبته إلا قوله تعالى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»[2]، ما سلم من تلك السطوة إلا في حفاوة سلامه كما سلم إبراهيم عليه السلام من البرد حين قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]، وبقوله:﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59] يشير إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر بابيضاض وجه المؤمن، واسوداد وجه الكافر، وبإيتاء كتاب المؤمن بيمينه، وبإيتاء كتاب الكافر بشماله، وبثقل الميزان بالنور وبخفّه بالظلمة، وثبات القدم على الصراط وزلة القدم.... وغير ذلك.

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يس: 60 - 66].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وبقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:60- 61]، يشير إلى كمال رأفته وغاية مكرمته في حق بني آدم؛ إذ يعاتبهم معاتبة الحبيب للحبيب، ومناصحة الصديق للصديق، وأنه تعالى يكرمهم ويبجلهم من أن يعبدوا الشيطان؛ لكمال رتبتهم واختصاص قربتهم للحضرة، وغاية ذلة الشيطان وطرده ولعنه عن الحضرة وسماه عدوًا لهم وله سمي بني آدم أولياء والأحباب، وخاطب المجرمين منهم كالمقتدي الناصح لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: 60]؟ ألم أنصحكم؟ ألم أخبركم عن خيانة الشيطان وعداوته لكم؟ وإنكم أعز من أن تعبدوا مثله ملعونًا مهينًا ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ إذ إن مثلكم يستحق لعبادة مثلي فإني أنا العزيز الغفور، وإني خلقتكم لنفسي وخلقت المخلوقات لأجلكم وعزتكم، وكم وصلت إليكم القول وذكرتكم فلم تقبلوا نصحي، ولم تتعظوا بوعظي، ولم تعملوا بأمري وعملتم بأمر الشيطان وقبلتم إغواءه إياكم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيرًا﴾ [يس:62]، عن صراط مستقيم عبوديتي، وأبعدكم عن جواري وقربتي، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:62]؛ لتعلموا أن الرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل، فلا تظلموا على أنفسكم وارجعوا إلى ربكم قبل أن يقول لكم خزنة جهنم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس:63- 64]؛ أي: استعدوا لجهنم الفراق إن كفرتم بنعمة الوصال، وذوقوا عذاب شديد الكفران إذ رضيتم عن الوصلة بالهجران.

ثم أخبر عن اعتراف الأركان وختم اللسان بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:65]، فيشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، والغالب على الأعضاء الصدق، ويوم القيامة يسأل الصادقون عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء فإنها كثيرة الصدق، تشهد بالحق، أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضًا لهم بالإحسان، فكما

قيل: بيني وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل الجواد المثقف، وفي بعض الأخبار المروية المسندة: أن عبدًا يشهد عليه أعضاؤه بالزلة فتطاير شعرة جفن عين عبدي واحتجي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له، وينادي منادٍ هذا عتيق الله بشعرة.

وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 66]، فيشير إلى طمس عين الظاهر بحيث لا يكون لها سبق، فكيف تبكي حتى تشهد بالبكاء على صاحبها؟! ويشير أيضًا إلى طمس عين الباطن، فإذا كانت مطموسة كيف يبصر بها الحق والباطل ليرجع من الباطل إلى الحق؟! وإذا لم يبصر بها الحق كيف يخاف من الباطل ليحرق قلبه بنار الخوف؟! فيسيل منه الدمع ليشهد له بالبكاء من الخوف.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس: 67- 72].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس:67]؛ أي: نحول صفاتهم الإنسانية بصفات السبعية والشيطانية، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًا وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:67]، لا يقدرون على إزالة هذه الصفات، ولا يقدرون على رجوعهم إلى صفاتهم الإنسانية، فمن مَسَخه الله في الدنيا بالصفات حشره الله تعالى في صورة صفته المسوخة بها، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن آذر يحشر على صورة ضبع»[1].

وقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يس:68]، يشير إلى أن الإنسان كما لو عَمَّر يرده الله إذا استوى شبابه وقوته إلى العكس، حتى يأخذ في النقصان من الزيادة كما كان يزداد في القوة إلى أن يبلغ أرذل العمر في السن، فيصير إلى حال مثل حال الطفولة في الضعف، ثم لا يبقى على النقصان شيء، فكذلك لو عَمَّر السالك لطريق

(1) لم أقف على من خرجه.

الحق تعالى إلى ألّا يبقى منه ما يسند الفعل في السير عن وجوده بعد السير في وجوده إلى أقصى مراتب الروحانية، ثم تفنى روحانيته في ربوبية الحق تعالى إلى ألّا يبقى منه ما يسند الفعل إليه، كما قال تعالى: «فبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي»[1].

وبقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:69]، يشير إلى أن كل أقوال وأعمال وأحوال تجري على العباد في الظاهر والباطن كلها تجري بتعليم الحق تعالى الحرف والصنائع، وذلك سر قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، وتعليمه الصنائع لعباده على ضربين بواسطة وبغير واسطة، أما بالواسطة فتعليم بعضهم بعضًا، وأما بغير الواسطة فكما علم داود عليه السلام صنعة لبوس، وكل حرفة وصنعة يعمل الإنسان من قريحته بغير تعليم أحد، فهو من هذا القبيل وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس:69]، إشارة إلى أنه تعالى ما علمه الشعر ولكن علمه الذكر والقرآن، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2]، وقوله:﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:70]، يشير إلى أن كل قلب يكون جوفه بنور الله ويروح منه بقبله الأقدار ويتأثر بها، وأمارة تأثيره: الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والمولى، ووجب القول الأزلي على الكافرين بموت قلوبهم وقساوتها فلا يتأثر بالإنذار.

ثم أخبر عن قدرته ومنَّ علينا بنعمته وبقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس:71]، يشير إلى أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما خلق بالوسائط وغير الوسائط، ومما خلق بغير الوسائط خلق لهم أنعامًا، ذَكَر عظيم منته عليهم وجميل نعمته لديهم بما خلق لهم المخلوقات، وبما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه من الانتفاع فهم لها مالكون؛ لينتفعوا بركوبها وأكل لحومها وشحومها وبشرب ألبانها، وما يحمل عليها بالتقرب بها في قطع المسافة البعيدة إلى الزيارات والمواضع الشريفة والمزارات المتبركة، ثم بأصوافها وأدبارها وشعورها.

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ

(1) تقدم تخريجه.

يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: 73 - 77].

ثم بعضها كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يس:73]، فطالبهم بالشكر عليها فوجدهم مقصرين في أدائها مبالغين في كفران النعمة، ثم شكا عنهم مع حبيبه ﷺ فقال مع كل هذه الوجوه عن الإحسان: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ [يس:74]، أكلوا نعمتي وانتفعوا بها وعبدوا غيري، ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ* لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ [يس:74-75]، ولا نصر أنفسهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:75] في العذاب؛ ليذوق بعضهم وبال بعضهم.

ثم عزى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس:76]، يشير إلى أن كلام الأعداء الصادر من العداوة والحسد جدير أن يحزن قلوب الأنبياء مع كمال قوتهم، وأنهم ومتابعيهم مأمورون بعدم الالتفات له، وتطييب القلوب في مقاساة الشدائد في الله بأن لها ثمرات كريمة عند الله، وللحساد مطالب بها عند الله كما قال ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [يس: 76] من الحسد والضغائن ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:76] من العداوة والطعن وأنواع الجفاء، وإذا علم العبد أن ألمه آتٍ من الحق هان عليه ما يقاسيه، لاسيما إذا كان في الله.

ثم أخبر عن عناية الرحمن وغواية الإنسان بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:77]، يشير إلى كمال عنايته في خلق الإنسان أنه أفرغ عليه سبحانه نعمه؛ إذ كان نطفة من ماء مهين فشدد أسره، وجمع نشره وسوى أعضاءه، وركب أجزاءه ونفخ فيه من روحه وأودعه العقل والتمييز، ثم أنه جاء ظلوما كفّارًا لأنعمه كما شكا عنه أنه خصيم مبين ينازعه في خطابه، ويعترض عليه في أحكامه بزعمه في استصواب رأيه، وكما قيل:

أَعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم

مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 78 - 83].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1] [يس:78] أولم يتفكروا في بدء خلقه، إنا أنشأناه من الذرة التي استخرجناها من صلب آدم، وهي أصغر من العظيم الرميم، ثم أودعناها في النطفة وهي في صلب أبيه مودعة، ثم أودعنا النطفة في رحم أمه والنطفة ميتة، ثم أنشأنا النطفة خلقًا آخر حيًا، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:79]، الذي علم أن يخلق آدم من تراب بلا أب وأم، وأنه يخلق حواء بلا أم ويخلق عيسى بلا أب.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:80]؛ أي: من شجر أخضر البشرية نار المحبة ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:80]، شجرة بشريتكم ومصباح قلوبكم.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [يس:81]، بهذه الإشارات مهد سبيل الرشاد إلى الاستدلال، وقال: إن الإعادة في الابتداء، فإذا أقررتم بالابتداء فأي إشكال بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ ثم قال: الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة من المرخ والعفار قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائها بكل وجه، وأنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة، كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلب بالعرفان لأهل الإيمان كما يحيي نفوس أهل الكفر

---

(1) قال شيخ المصنف روزبهان: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمله معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليقة مرآة الخليقة تجلت في الخليقة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلبٍ ميتٍ يحيا بجهاله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته. قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلامًا لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلاً من روائح نفحاته خيرٌ من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

بالهوى والطغيان.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82]، يشير إلى أن الإرادة الأزلية لما تعلقت بإيجاد المكونات تعلقت القدرة الأزلية على وفق الحكمة الأزلية بالمقدورات إلى الأبد على وفق الإرادة بإشارة أمر: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ إلى الأبد ما شاء في الأزل، ثم نزه ذاته تعالى عن وصمة العجز عما يريد كينونته، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] [يس:83]، أثبت لكل شيء ملكوتًا - ملكوت الشيء: ما هو الشيء به قائم - ولو لم يكن لشيء ملكوت يقوم به لما كان شيء، والملكوتيات قائمة بيد قدرته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فاختيار أهل القبول وما لاضطرار أهل الرد، عصمنا الله من الرد بفضله.

[والحمد لله رب العالمين]

---

(1) الملكوت هو الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة، والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا المراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلّت عليه النصوص.

سورة الصافات

مكية وهي مائة وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (11)﴾ [الصافات: 1 - 11].

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات:1] يشير إلى صفوف الأرواح، وما أنهم لما خلقوا قبل الأجساد كانوا في أربع صفوف كان الصف الأول: أرواح الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة - وكان الصف الثاني: أرواح الكفار والمنافقين.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات:2] في «الإلهامات الربانية»: الزاجرات العوام عن المناهي والخواص عن رؤية الطاعات، والأخص عن الالتفات إلى الكونين.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾[1] [الصافات:3]؛ هم ﴿الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:35].

والمقسوم عليه ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات:4] فلا تتخذوا من دونه آلهة من الدنيا والهوى والشيطان، ومعنى كونه واحدًا تفرده في صفة عن القسيم وتقدسه في وجوده عن الشبيه، وتنزهه في ملكه عن الشريك، واحد في جلاله أحد باستحقاق جماله،

---

(1) أقسم بطوائف الملائكة، الصافّين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقًا إلى ما أراد الله ، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرُّض لهم. البحر المديد (5/ 224).

واحد في أفعاله أحد في كبريائه بنعت علائه ووصف سنائه، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الصافات:5] أرض النفوس، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الصافات:5] من صفات النفوس وصفات القلوب، ﴿وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾ [الصافات:5] مشارق القلوب تطلع منها شموس الشواهد، وأقمار الطوالع، ونجوم اللوامع.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:6]، يشير به إلى الرأس فإنه بالنسبة إلى البدن كالسماء المزين ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ الحواس، وأيضًا زيَّن سماء الدنيا بالنجوم، وزيَّن قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، كما حفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجومًا، كذلك زين القلوب بأنوار التوحيد فإذا قرب منها الشياطين رجوهم بنجوم معارفهم.

كما قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:7]؛ يعني من شياطين الإنس ﴿لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلإِ الأَعْلَى﴾ [الصافات:8]، وهم أرباب الحقائق.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾ [الصافات:8] يرمون كلماتهم الشريفة من كل جانب من جوانب أصحاب الأنفاس المطهرة؛ فيلقونها إلى أوليائهم من مدعي هذا الحديث، فمن دعواهم أكثر من معناهم على غير وجهها؛ فيفهمون هؤلاء منها ما يقرب إلى طبعهم وهواهم، ويتوهمون أنها من الحقائق والأسرار، فإنهم بهذه الخيالات الفاسدة والتمويهات الكاسدة، ساروا من أهل الأسرار وأرباب الحقائق، وبهذا الحسبان والتمني يخالفون الشريعة وشموس ما الحقيقة، فضلُّوا وأضلُّوا كثيرًا فيستحقون بهذا الطرد والإبعاد.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 9-10]، كذلك إذا اغتمَّ الشيطان من الأولياء أن بلغ إليهم شيئًا من وساوسه فإذا هم مبصرون.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ [الصافات:11] عرفهم عجزهم عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم إلى الطين اللازب، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ [الصافات:11] يشير به إلى أنه تعالى أودع في طينة الإنسانية

خصوصية لزوب ولصوق، وبكل شيء صادفه؛ فصادف قوم الدنيا فلصقوا بها، وصادف قوم الآخرة فلصقوا بها، وصادف قوم نفحات ألطاف الحق فلصقوا بها؛ فأذابتهم وجذبتهم عن أنانيتهم بهويتها كما تذيب الشمس الثلج وتجذبه، بل عجبت إذا تحققت هذا المعنى، ويسخرون بهذا المحرومون عن هذه السعادة.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الصافات: ١٢ - ٢٥].

ثم أخبر عن خذلان أهل الحرمان بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات:13]، يشير إلى أنهم نسوا الله غاية النسيان بحيث لا يذكرونه، ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ يعني: الله ﴿لاَ يَذْكُرُونَ﴾ لا يتذكرون، ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ [الصافات:14]؛ أي: رجلاً يكون آية من آيات الله ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات:14]؛ يسخرون به ويعرضون عن الإيمان، ويقولون لما يأتي به: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الصافات:15-17] يبعثون.

قالوا: على وجهة الاستبعاد والمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات:18] على وجه الفقر تبعثون، وبزجرةٍ واحدةٍ تحشرون، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ﴾ [الصافات: 19] قيام ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الصافات:19]، حيارى كأنهم سكارى، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات:20] دعوا بالويل على أنفسهم حين لا ينفعهم الويل؛ فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ﴾ [الصافات:21] الذي كذبتم به، وقد عاينتم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ* احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:21-22]، يشير به إلى حشر

النفوس ولعبادها ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللهِ﴾ [الصافات:22 ـ23] من الهوى والدنيا والشيطان، ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:23]، فإنهم كانوا في الدنيا يهدون إلى هذا الصراط، وأنهم يحشرون على ما ماتوا عليه، وكذلك من أعان صاحب فترة في فترته أو صاحب زلة في زلته كان مشاركًا في عقوبته، واستحقاق طرده وإبعاده، كما أشركت النفوس والأجساد في الثواب والعقاب؛ لقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:24]، فيه إشارة إلى أن للسالك في كل مقام وقفة تناسب ذلك المقام، وهو مسئول عن أداء حقوق ذلك المقام، فإن خرج عن عهدة جوابه بالصواب أذن في العبور وإلا بقي موقوفًا رهينًا بأحواله إلى أن يؤدي حقوقه، فمن السؤال صعب وقوم يسألهم الملك، فالذين يسألهم الملائكة أقوام لهم أعمال صالحة تصلح للعرض والكشف، وأقوام لهم أعمال لا تصلح للكشف، وهم قسمان:

الخواص يسترهم الحق عن إطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة.

وأقوام هم أرباب الزلات يختصهم الله برحمته فلا يفضحهم.

ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بعين الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: إن أقوامًا يسترهم بكنفه، عن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدني المؤمنين يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس، فيقول: أي عبدي تعرف ذنبك كذا وكذا، فيقول: نعم أي رب، ثم يقول: أي عبدي تعرف ذنبك كذا وكذا، فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه قد هلك قال: فإني سترتها عليك في الدنيا، وقد غفرتها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقين فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»[1]، حديث متفق على صحته.

وأما الأغيار والأجانب فيقال لهم: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الأسراء: 13] فإذا قرءوا كتابهم يقال لهم ما جزاء من عمل هذا؟ فيقول: جزاؤه النار، فيقال لهم:

---

(1) رواه البخاري (2/ 862)، وأحمد في «مسنده» (2/ 74).

ادخلوها بحكمهم.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات: 26 - 36].

ثم يقال لهم في بعض أحواله استيلاء الفزع عليهم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات:26 _27] بالاضطرار.

وبقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:27]؛ أي: يتخاصمون، يشير إلى أن دأب أهل الدنيا أنهم يلقون ذنب بعضهم على بعض، ويدفعون عن أنفسهم البلاء، ويرضون لإخوانهم ما لا يرضون لأنفسهم، وهمة أهل الدين أنهم يضعون ذنب الإخوان على أنفسهم، ويبرءون أعراض الإخوان عن تهمة الذنوب، ويتهمون أنفسهم بها، كما أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً قد سرق شيئًا فقال له: أسرقت؟ قال: لا والذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: صدقت وكذبت عيناي.

وبقوله: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات:28]؛ أي: أضللتمونا عن الدين، يشير إلى أن من كان مؤمنًا حقيقيًا لا يقدر أحد على إضلاله، ولكن الذين اتخذوا الإيمان بالتقليد لا بالتحقيق فيضلون بإضلال أهل الأهواء والبدع، كما أشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:29]؛ أي: إيمانكم ما كان حقيقيًا بل كان تقليديًا، فزال بأدنى شبهة، ويستدلون على هذا المعنى بقولهم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [الصافات:30]؛ ليزيل إيمانكم عنكم بالقهر والغلبة على قلوبكم، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات:30]؛ أي: كان لكم نفوس أمَّارين بالسوء طغت عليكم نفوسكم، وأضلتكم عن سواء السبيل.

ثم أخبر عن إقرارهم بعد إنكارهم بقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ [الصافات:31] يشير إلى قوله تعالى في الأزل: ﴿كُن﴾، وحكم بأمر واحد وهو ﴿كُن﴾؛

أي: يكون كل شيء كما أراده في الأزل وأخبر الله تعالى عن مقتضى قوله: ﴿كُن﴾ في الأزل، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات:33]، كما كانوا في الغواية والضلالة مشتركون.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات:34]؛ يعني في حكم الأزل بأمر ﴿كُن﴾؛ ليكونوا مجرمين ليذوقوا العذاب الأليم، ومن ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:35]، ولهذا ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:36] فقال تعالى على قصد قوله: ﴿كُن﴾ في الأزل.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات: 37 - 50].

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:37]؛ يعني: محمدًا ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾[الصافات:38]؛ يعني: كفار مكة، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:39] وما كنتم تعملون إلا ما قد أمرتم بعمله بأمر ﴿كُن﴾.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:40] في العبودية والمخلصين في حكم الأزل بالعصيان، ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:41] من أمر ﴿كُن﴾ بالسعادة.

ثم أشار من الرزق المعلوم إلى الفاكهة فقال: ﴿فَوَاكِهُ﴾ [الصافات:42]؛ أي: فهم ألّا يتفكهوا مما يشاءون ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات:42] من الأزل إلى الأبد بأنهم محمولو العناية، كما قال:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ﴾ [الإسراء:70]، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات:43]، في جوار الحق تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات:44]، في المدارج والمراتب يستأنس بعضهم برؤية بعض وهذه صفة الأبرار فإن من صفة الأحرار ألا يستأنس إلا بمولاه بقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:45-47] يشير إلى أن أهل

السير من أرباب الوسائط الذين وقفوا على أبواب الشهوات الإنسانية، ومشربهم التلذذ بالشراب من الكأس والشراب من معين، وقوم شربوا ومشربهم الحب كما قال قائلهم:

شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

وقال آخر:

قوم شربوا ومشربهم المحبوب شراب ألحاظ بسكر اللبّا

وإلى مثل هذا المعنى يشير بقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:48، 49] لا ينظرون إلى غير الولي، ثم الولي قد ينظر إليهن، وفيهم من لا ينظر إليهن:

جُنِنَّا على ليلى وجُنَّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نُريدها

ثم أخبر عن إقبال أرباب الأحوال بقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:50] يشير إلى أن أهل جهنم هم الذين كانوا ممن لم يقبلوا على الله بالكلية وإن كانوا مؤمنين موحدين وإلا كانوا في مقعد صدق مع المقربين.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: 51 - 61].

وبقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:51-53] يشير إلى أنهم في الجنة يتذكرون فيما جرى بينهم في الدنيا مع قرنائهم؛ ليريهم ما بهم من العذاب فيعرفوا قدر نعمة الله على أنفسهم، ويزيد في الشكر على نعم الله، ويستحلي لهم ذوق نعيم الجنة مما يطالعون أحوال قرنائهم السوء وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ [الصافات:54-57]؛ أي: نعمة حفظه وعصمته

وهدايته ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:57]؛ أي: معكم فيما كنتم فيه من الضلالة في البداية وفيما أنتم فيه من العذاب والبعد والنهاية، وإنما أخبر الله تعالى عن هذه الحالة قبل وقوعها؛ ليعلم أن غيبة الأشياء سواء في علمه وجودها وعدمها، بل كانت المعدومات في علمه موجودة، وليعلم أن الأمور بيده تعالى يقلبها كيف يشاء.

بقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ* إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: 58، 59] يشير إلى أن من مات بالموتة الأولى - وهي الموتة الإرادية عن الصفات النفسانية الحيوانية - فقد حي بحياة روحانية ربانية لا يموت بعدها أبدًا، بل ينقل المؤمن من دار في جوار الحق تعالى، فلا يعذب بنار الهجران وآفة الحرمان، وأذهبت نفحة من نفحات الحق من جناب القدس، أو شم رائحة من نسيم القرب، أو بدت شظية من الحقائق، وتباشير الوصلة جدير أن يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات:60] وبالحري أن يقال: ل﴿مِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:61]، بل لمثل هذه الحالة تبذل الأرواح وتفدي الأشباح، كما قيل:

عَلى مِثلِ لَيلى يَقتُلُ المَرءُ نَفسَهُ   وَإِن كُنتُ مِن لَيلى عَلى اليَأسِ طاوِيا

وهاهنا تضيق العبارات وتتقاصر الإشارات.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات: 62 - 75].

ثم أردف بعد قصة الأولياء قصة الأعداء، فقال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ* إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:62-65]، يشير إلى أن من كان هاهنا معاملاته في صفة قبح

صفات الشياطين؛ أي: في قبح صورة الشياطين، ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات:66]؛ لأنهم كانوا لها في مزرعة الآخرة - أعني: الدنيا - زراعين، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:67]، ثم أن من جهنم لا إلى الجحيم.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات:69] عن طلب الحق ومتابعة الهوى، فهم على آثارهم يهرعون، ولقد ضلَّ عن طلب الدنيا بمتابعة الهوى، قبلهم أكثر الأولين، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات:72]، في الظاهرين من المرسلين، وفي الباطن من إلقاء الملهمين؛ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:73 - 74]، الذين أخلصوا في العبودية، فخلصهم الله من حبس الوجود بالفضل والجود.

ثم أخبر عن نداء النوح في بذل الروح بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ [الصافات:75]، يشير إلى نوح الروح لما أصابه الأذى من قومه، وهم النفس وصفاتها في التكذيب، ولم يسمع قومه منه ما كان يقول من حديثنا في دعوتهم إلينا، فرجع إلينا فخاطبنا وخاطبناه، وكلمنا وكلمناه، ونادانا فناديناه، وكان لنا وكنا له، وأجابنا فأجبناه، فلنعم المجيب كان لنا ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:75] كنا له.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات: 76 - 82]

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:76- 77] وهم القلب والسر والخفي، وما يتولد منهم من الأعمال الصالحات الباقيات.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات:78] الثناء الحسن والذكر الجميل، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85]، وقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:72] ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:79]، يشير بهذا أن المستحق بسلام الله في العالمين هو نوح روح الإنسان؛ لأنه ما جاء أن الله تعالى سلم على شيء من العالمين غير الإنسان، كما قاله ليلة المعراج: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال النبي

ﷺ: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[1]، فما قال: وعلى ملائكتك المقربين، وإنما كان اختصاص الإنسان بسلام الله من بين العالمين؛ لأنه حمّال حمل ثقيل وهو الأمانة التي عرضها على العالمين، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ [الأحزاب:72] على نفسه الضعيفة بحمل الأمانة الثقيلة، ﴿جَهُولاً﴾ [الأحزاب:72] عن كمال منافعها عند أدائها إلى أهلها، وكمال مضارها عند الجناية فيها، فكان الإنسان أحوج شيء بسلام الله؛ ليعبر بالأمانة على الصراط المستقيم الذي هو أدق من الشعر وأحد من السيف؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «يكون دعوات الرسل حينئذٍ: رب سلم سلم»، وهل سمعت أن يكون لغير الإنسان العبور على الصراط؛ لأنهم يؤدون الأمانة إلى أهلها، وهو الله تبارك وتعالى، فلابد من العبور على صراط الله للوصول إليه لأداء أمانته إليه، وفي هذا أسرار إنشاؤها كفروع السر تعبر، يكفيك هاهنا ما أشار إليه.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات:80 ـ 82] في بحر الوجود، يشير إلى غير الإنسان من الموجودات أنه ما خلص أحدٌ منهم من غرق الوجود إلى ساحل العدم بالجود، ولما سلم من سلم من بحر الوجود إلى ساحل الجود بسلام الله كان مخصوصًا في كل حال من حالاته بسلام من الله العزيز الحكيم؛ لعبوره بالسلامة من تلك الحالة، كاحتياجه بالسلام في العرصة؛ لعبوره على الصراط المستقيم بالرحمة، سلم عليه بقوله: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58] بعد العبور عند الدخول في الجنة بقوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:7]، وقال ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر:46]، وبعد الدخول في الجنة خوطب بقوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:24]؛ يعني: تحت ثقل حمل الأمانة ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:24].

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾

---

(1) رواه البخاري (2/ 862)، وأحمد في «مسنده» (2/ 74).

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: 83 - 101].

وبقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:83، 84] يشير إلى إبراهيم السر؛ فإنه من شيعة نوح الروح، وجاء ربه بقلب سليم عن تعلقات الكونين؛ ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ [الصافات:85] آذر: النفس ﴿وَقَوْمِهِ﴾ [الصافات:85]؛ أي: صفاتها، ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ* أَئِفْكًا آلِهَةً﴾ [الصافات:85،86] من الدنيا والهوى والشيطان ﴿دُونَ الله تُرِيدُونَ* فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات:86،87] أن يغفل عنكم أو لا يؤاخذكم بما كسبت أيديكم، أو يخالف قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7، 8].

وبقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:88، 89] يشير إلى نجوم شواهد الحق تعالى إذا طلعت من مشرق العناية، فنظر إليها إبراهيم السر فيرى بلمعان نورها أدنى التفاته إلى غير الله، فيتحقق عنده، وإن مزاج محبته وطلبه انحرف بقدر التفاته، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] [الصافات:89] ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾[الصافات:90] آذار النفس وصفاتها، ﴿مدبرين﴾ [الصافات:90]، ﴿فَرَاغَ﴾ [الصافات:91]؛ أي قال: ﴿إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات:91] من الدنيا والهوى والشيطان، ﴿فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ* فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات:91-93] المؤيد بتأييد الله تعالى، فكسر الأصنام كلها ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:94] النفس وصفاتها، ويعاتبونه في كسر الأصنام، قال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:95] من أنواع الشهوات؛ أي: ما تتوهمون منها، ﴿والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96] من أعمالكم ومتوهماتكم

(1) أي: شائق إلى لقاء الحبيب.

ومتخيلاتكم، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ [الصافات:97] من الهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:97]؛ جحيم الحرص والشهوة، ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ [الصافات:98] بأن يحرقوه بنار الحرص والشهوة، ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:98] بأن جعلنا نار الحرص والشهوة بردًا وسلامًا على إبراهيم السر، وقد علاهم بالعفة والقناعة وردّ كيدهم.

ثم أخبر عن ذهاب الخليل إلى باب الجليل بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، يشير إلى إبراهيم الروح أن الله لما ابتلاه بنمرود النفس، وقومه من صفات النفس، وقد رآهم على عبادة غير الله من أصنام الهوى، والشيطان ينفر عنهم وعن أذاهم وعن صحبتهم؛ لأنهم كانوا حيواني الصفات شيطاني الأوصاف، وكان هو ملكي الصفات رباني الأوصاف، ولهذا السر رد من أعلى عليين عالم الأرواح إلى أسفل الأشباح؛ ليتعلم السير من الأسفل إلى الأعلى، ويحصل الآن الذهاب إلى الله تعالى، ثم يضطره بإذية النفس وصفاتها إلى الرجوع إلى الحضرة، فلما بلغ سيره الربي وآل أمره إلى الردى، قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ يشير به إلى السير إلى الله تعالى، وبقوله: ﴿سيهدين﴾ يشير إلى السير بالله في الله.

وبقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:100] يشير إلى أنك كما وهبت لي نفسًا من المفسدين هب لي قلبًا من الصالحين، وهو الذي قال: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[1].

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:101]، فهو القلب السليم الحليم.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: 102 - 112].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات:102]؛ أي: بلغ سعي القلب مع الروح إلى الحضرة. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[1] [الصافات:102]، يشير به إلى أن من شرائط السائرين إلى الله قطع الأبوة والبنوة الحيوانية، ومن شرائط السائرين بالله التسليم والتفويض بالكلية في الأمور إلى الله، والخروج عن مستحسنات الطبع ومن مستحسنات العقل إلى مشيئة الله تعالى وما اختاره له، وهذا حقيقة قوله تعالى ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102].

ومن شرائط السائرين في الله فداء النفس وبذل الروح في طلب الحق تعالى، وبه يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصافات:103]، وقد أسلم إبراهيم نفسه، وقد فداها حين وضع في المنجنيق، وقد أسلم إسماعيل وبذل روحه حين تله للجبين، ومن دقة النظر في رعاية آداب العبودية، وحفظ حقوق الربوبية في العصمة إلى إسماعيل عليه السلام: أمر أباه بأن يشد يديه ورجليه؛ لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعاتب، ثم لما هم يذبحه: افتح القيد عني فإني أخشى أن أعاتب، فيقال لي: أمشدود اليدين جئتني؟ وإني لا أتحرك ستشعر.

ولو بيد الحبيب سقيت سمًا لكان السم من يديه تطيب

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:107] إنما سمي الذبح عظيمًا؛ لأنهما نبيين عظيمين أحدهما أعظم من الآخر، وهما إسماعيل ومحمد - عليهما الصلاة - لأنه كان محمد

(1) لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلاً لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان.

قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقيل له اذبحه فإنه لا يصلح للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يُفرح بسواه، فابتُلي بذبحه، ثم لما سلَّم وقام مقام الاستقامة واتَّبع الأمر فداه بذبح عظيم.

في صلب إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات:108]؛ أي: في أمة من الآخرين إلى قيام الساعة؛ أي: من الأمم الآخرين، ﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات:109]؛ أي: سلام مما أسلم إبراهيم وسلم من النار وذبح الولد، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:110] الذين أحسنوا عبوديتنا، وأسلموا أوامر ربوبيتنا، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 81] المخلصين، لا من عبادنا للدنيا والهوى.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ [الصافات:111]؛ يعني: إبراهيم ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات:111] القلب ﴿نَبِيّاً﴾ [الصافات:111] ملهمًا من الحق تعالى، كما قال بعضهم: حدثني قلبي عن ربي، ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:111]؛ أي: المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة.

﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٣ - ١٣٢].

يقول الله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ [الصافات:113] يشير إلى أنه بارك على إبراهيم الروح، وإسحاق القلب، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ [الصافات:113]؛ أي: ومما يتولد من صفاتهما ﴿مُحْسِنٌ﴾ [الصافات:113] في الطاعة والعبودية بالإخلاص، ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات:113]؛ أي: ظالم ظَلَمَ على نفسه في طلب الحق تعالى.

ثم أخبر عن أبناء الأنبياء بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾

[الصافات:114]، يشير إلى موسى القلب وهارون السر بأن نجاهما من غرق بحر الدنيا وماء شهواتها، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ [الصافات:115-116]؛ يعني: موسى القلب وهارون السر وصفاتهما على فرعون النفس وصفاتها، ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات:116-117] من العلوم الحقيقية والإلهامات الربانية، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات:118] إلى الحضرة، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات:119] بالثناء الحسن عليهما وبالاقتداء بهما، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات:120] سلام الحفظ والرعاية وسلامتها عن الآفات بالكلاءة، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:121] بالإحسان والتوفيق للإحسان، ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 122]، يشير إلى أن من توفيقنا إياهما للإحسان وفقناهما ليكونا من عبادنا المؤمنين؛ يشير إلى أن من توفيقنا إياهما للإحسان وفقناهما ليكونا من عبادنا المؤمنين.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ [الصافات:123] الروح ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:123]، فقد أرسل إلى قومه من القلب والنفس وصفاتها ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: 124]، فتقوى القلب أن تبقى بالله من الله، كما كان حال النبي ﷺ إذ يقول: «أعوذ بك منك»[1]، وتقوى النفس أن يتقي برضاه من سخطه وبما فاته من عقوبته، ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات:125]؛ أي: أتدعون بعل الدنيا القبيحة، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ [الصافات:125] عبادة ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات:125]، الذي خلقكم وخلق أباءكم الأولين؛ يعني: الأرواح والأبناء العلوية، وذلك قوله: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 126]، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الصافات:127] أي: النفس وصفاتها ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:128]، من عبودية غير الحق، وهم القلب والسر وأوصافهما، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾[الصافات:129]؛ أي: الثناء الحسن على إلياس الروح﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 129] من الأنبياء والأمم.

---

(1) النسائي في الكبرى (1/ 452)، والطبراني في الأوسط (15/ 384)، والحاكم في المستدرك (1/ 449).

﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:130]؛ أي: القلب والسر وأوصافهما من عبودية غير الحق، وهم القلب والسر وأوصافهما، فإنهم إل ياسين الروح، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:131]، بأن يحسن معهم بتقديم سلامنا عليهم، سلام السلامة في العبودية على الدارين، والخلاص عن آفات الكونين، وبأن نجعله من عبادنا المؤمنين المخلصين عن عبودية الهوى والدنيا والعقبى.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: 133 - 148].

ثم أخبر عن نجاة لوط ودرجاته بقوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 133]، يشير إلى لوط الروح أنه مهبط أنوار الحق ومحط أسراره؛ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [الصافات:134]، من القلب والسر وصفاتهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات:134] من سطوات قهرنا، ﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الغَابِرِينَ﴾ [الصافات:135]، وهي عجوز النفس الأمّارة؛ فإنها بمثابة الزوجة للوط الروح، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات:136] من النفس وصفاتها، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ﴾ [الصافات:137] أيتها الصفات الإنسانية عليهم مصبحين في صباح يوم الدين، يشاهدون آثار سطوات قهرنا باستيلاء صفات النفس وغلبات دواعي الشهوات، ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:138] فتعتبرون وتؤمنون بوحدانية الحق تعالى، وترجعون إلى أبواب فضله وكرمه ورحمته.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ أي: يونس القلب ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:139]، وهو أيضًا مهبط أنوار الحق تعالى؛ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[الصافات:140]؛ أي: فلك الهوى المشحون من شهوات النفس، ﴿فَسَاهَمَ﴾ مع أهل الهوى؛ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾

[الصافات:141]؛ أي: من المغلوبين المفتونين بشهوات النفس فألقى في بحر الدنيا، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ [الصافات:142] حوت النفس، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:142] بالتفاته إلى بحر الدنيا وركوبه فلك الهوى إذ أبق من عبودية المولى، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات:143] المطيعين الذاكرين لله، الراجعين إليه بالتوبة والاستغفار ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ [الصافات:144]؛ يعني: القلب في بطن حوت النفس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:144] والإشارة فيه أن خلاص يونس القلب إذا التقمه حوت النفس لا يكون إلا بملازمة ذكر الله، ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:145]، يشير بهذا إلى أن القلب إن تخلص من بحر النفس وبحر الدنيا يكون مستقيمًا؛ بانحراف مزاجه القلبي بمجاورة صحبة النفس وإسراف طبعها، بقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصافات:146]، يشير إلى إنبات شجرة العناية عليه؛ ليستظل بظلها إلى أن يزول عنه ضعف البشرية، ويتقي بالسلامة القلبية، ويستعد لتواتر الإلهامات الربانية، ويستحق بالخلافة للسلطنة الروحانية، فينصب لرعاية الرعية.

فذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:147] به يشير إلى أن كل قلب تخلص من سجن النفس يصير سلطانًا على ولاية الإنسانية، يحكم على مائة ألف صفة من صفات البشرية أو يزيدون، ﴿فَآمَنُوا﴾ هذه الصفات كلها بما يأتيهم من الحق، واقتدوا به وتخلقوا بأخلاقه؛ ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ يعني: بالقلب وأخلاقه ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات:148] يستعدون للتخلق بأخلاق الله تعالى.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157) ﴾ [الصافات: 149 - 157].

وبقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات:149]، يشير إلى كمال جهالة الإنسان وضلالته إذا وكل إلى نفسه الخسيسة، وخلى إلى طبيعته الركيكة أنه يظن بربه ورب العالمين نقائص لا يستحقها، إذا عاقل بل غافل من أهل الدنيا؛ إذ يجبلون إليه

أنه اصطفى البنات على البنين وأنه خلق الملائكة إناثا، ولا يعلمون أن الخلاق منزّه عن أوصاف المخلوقين، فإنه الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وإنه ﴿لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:6]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:93]، وأن الملائكة مبرءون من الذكورة والأنوثة، وأنهم من إفك الإنسانية يقولون هذه المحالات، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات:150-152]؛ إذ قالوا: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات:153] لأن الملائكة ليسوا بالبنات ولا بالبنين، وأنهم ليسوا من هذا القبيل، وأن الله منزه عما يصفونه به، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:154] على الغني عن العالمين، ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات:155]؟! أنكم تستنكفون من البنات، وتصفون الإله القديم والرب الكريم بما استنكفتم منه مع كفركم وقبيح فعلكم، ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات:156]؟ حجة ظاهرة على ما يقولون، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات:157] فيما يقولون بأن الله نزل عليكم كتابًا ذكر فيه هذا المعنى، وأنه كم ينزل عليكم كتابًا يذكره، فلم يفترون على الله الكذب؟

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) ﴾ [الصافات: 158 - 170].

ثم أخبر عن غاية جهالتهم ونهاية ضلالتهم بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:158]، يشير إلى أجنبية الإنسان وقصور نظر عقله عن كمال أحدية الله وجلال صمديته؛ إذ وكل الإنسان إلى نفسه في معرفة ذات الله وصفاته، فيقيس ذاته على ذاته، وصفاته على صفاته، فيثبت له نسبًا كما له نسب، ويثبت له زوجةً وولدًا كما له زوجة وولد، ويثبت له جوارح كما له جوارح، ويثبت له مكانًا كما له مكان، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وهو يقول تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

البَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:158] يشير إلى أن الجنة قد علمت أن لا نسبة لها مع الله تعالى، وعلمت أن قائلي هذه المقالة لمحضرون في النار، ثم نزه نفسه عما يصفه الواصفون لعقولهم وأرائهم، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:159]؛ يعني: أهل الأهواء أو البدع، ﴿إِلاَّ عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 160]؛ يعني: إلا من أخلصه الله عن ضلالة الإنسانية بهداية الربانية فإنهم يعرفون الله بنور الله، كما قال ﷺ: «عرفت ربي بربي، ولولا فضل ربي ما عرفت ربي»[1].

وبقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات:161،162]، يشير إلى أن أهل الضلالة وما هم يعبدون في ضلالتهم ليسوا على شيء في الإضلال من أحد، إلا من قدر الله أن يكون من أهل النار فحينئذٍ يضلون بتقدير الله، وذلك قوله: ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ [الصافات:163].

وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[2] [الصافات:164] يشير إلى أن للملك مقامًا معلومًا لا يتعدى حده، وهو المقام الملك الروحاني أو الكروبي، والكروبي لا يقدم على مقام الروحاني؛ فلا عبور لهم من مقامهم إلى مقام فوق مقامهم، ولا نزول لهم إلى مقام دون مقامهم، ولهم بهذا فضيلة على إنسان يبقى في أسفل السافلين والدرك الأسفل

(1) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (6/ 258)، والقشيري في الرسالة القشيرية (1/ 142).

(2) أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقامٌ معلومٌ؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوفٌ؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد. قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة. وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى، من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة. قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام إلى مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات. وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

من النار، وللذين عبروا منهم عن أسفل السافلين بالإيمان والعمل الصالح وصعدوا إلى عليين، بل ساروا إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، بل طاروا إلى منزل أو أدنى فضيلة عليهم؛ ولهذا أمروا بسجدة أهل الفضل منهم بقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:72]، فللإنسان أن ينزل من مقام الإنسانية إلى درك الحيوانية، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179] وله أن يترقى بحيث يعبر عن مقام الملكي، ويقال له: تخلقوا بأخلاق الله، ولو كان من مفاخر الملك أن يقول: وإنا لنحن الصادقين؛ يعني: في الصلاة والعبودية، فإن للإنسان معه شركة في هذا، وللإنسان صفة يحبها الله وليس للملك فيه شركة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:4]، وأن يقولوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:166] أيضًا للإنسان معهم شركة، ومن مفاخر الإنسان أن يقولوا: وإنا نحن لمحبون وإنا لنحن المحبوبون وهم مخصوصون به في الترقي من مقام المحبة إلى مقام المحبوبية، وبقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:167-170] يشير إلى تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: 171 - 182].

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾[1] [الصافات:171] يشير أن

---

(1) قال البقلي: سبقت لهم كلمة الحسنى باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مرادهم بكل ما أرادوا له، أنزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات.
قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب
-

تـوفي الإنـسان إلى مقـام الإيمان وأن ترقي المؤمن إلى مقام الولاية وأن ترقي الولي إلى مقام قـوله النـبوة وأن ترقي النبي إلى مقام المرسلين كله بعناية رب العالمين وبتقديره ذلك قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ [المجادلـة:21] أي: قـدره الله ﴿أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلـة:21] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:172-173] فمن نصرناه فلا يغلب ومـن جدلناه فلا يغلب، وجنده الذين نصبهم لنشر دينه، وأقامهم لنصر الحق وتبيينه فمن أراد إذلالهم فعلى أذقانه يجر وفي حبل هلاكه ينجر.

ويقـوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات:174] يشير إلى خذلانهم بقوله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعـرض عـنهم فإني قد أعرضـت عنهم حتى حين أقبلوا علينا فيقبل علـيهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:8] ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات:175] أحـوالهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الـصافات:175] جـزاء مما علمـوا مـن الخـير والـشر ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ [الـصافات:176] وإنـما كـان ذلـك فـيما كـان يتمـنون قيام الساعة وكانوا ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الـصافات:176] ذلـك لفـرط جهلهـم ثـم لقلـة تصديقهم ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ [الصافات:177] وأتاح البلاء لعقولهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات:177-179] فعن قريب سيحصل ما مـنه يحـذرون ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الـصافات:180] تقديـسًا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الـصافات:180] أهل الأهواء والبدع ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:181] الذين يُـبلغون رسالات ربهم ليبلغوها بالسلامة ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:182] هو المحمود في كل حال من الحالات ساء أو سر نفع أم ضر.

-

وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نـزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهَّرها من كل ما سـواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسـبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نـزَّه نفسه أن يلحق به وبتنـزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنـزيهه مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية.

سورة ص

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ (٨)﴾ [ص: 1-8].

﴿ص﴾ [ص: 1]، بقوله: ﴿ص﴾[1] يشير إلى: القسم بصاد الصمدية في الأزل، وبصاد صانعيته في الأواسط، وبصاد صبوريته في الأبد، وبصاد صدق الذي جاء بالصدق، وبصاد صديقيته الذي صدق به، وبصاد صفاء صفوته في مودته ومحبته، وبقوله:

---

(1) هذا الحرف من كنوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحدثية، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفَّاه بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوًا من بحر النبوة، صاحبًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهًا عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببصري؛ حتى تطلع على غيوبة جلال وصالي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي.

ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد سيد أهل الصحو ﷺ بقوله: «مَنْ رآنِي فقدْ رأى الحقَّ» ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد.

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:1]، يشير إلى: القسم بالقرآن الذي هو مخصوص بالذكر؛ وذلك لأن القرآن قانون معالجات القلوب المريضة، وأعظم مرض القلب نسيان الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67]، وأعظم علاج مرض النسيان ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]؛ ولأن العلاج بأضدادها.

وبقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:2]، يشير إلى: انحراف مزاج قلوب الكفار لمرض نسيان الله تعالى من اللين والسلامة إلى الغلظة والقساوة، ومن التواضع إلى التكبر، ومن الوفاق إلى الخلاف، ومن الوصلة إلى الفرقة، ومن المحبة إلى العداوة، ومن مطالعة الآيات إلى الإعراض عن البحث للأدلة والسير للشواهد.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا﴾ [ص:3] عند هجوم البلاء، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:3] إذ فات وقت الإشكاء، ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص:4] ولم يعجبوا أن يكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة، فلما تحيروا في شأن أنبيائهم رموهم بالسحر، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:4]، والإشارة في هذا أنهم لما كان منحرف مزاج القلوب بمرض نسيان الحق، جاءت النبوة على مذاق عقولهم المتغيرة سحرًا، والصديق كذابًا، ومن حول نظرهم رأوا الإله الواحد آلهة، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:5] ولم يعلموا أنهم جعلوا الإله الواحد آلهة، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:5]، لم تباشر خلاصة التوحيد قلبهم، وتعدوا عن ذلك تجويزًا، فضلاً عن أن يكون إثباتًا وحكمًا، فلا عرفوا الله ولا معنى الإلهية، فإن الإلهية؛ هي القدرة على الاختراع، وتقدير قادرين على الاختراع غير صحيح لما يجب من وجوده المانع بينهما وجوازه، وذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كمالي الوصف لم يكونا إلهين، وكل أمر جر تنويه بسقوطه مطوع باطل بقوله: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:6]، يشير إلى: إن الكفار إذا تواصلوا فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم، والاستقامة في دينهم، بل الطالب الصادق، والعاشق الوامق أولى بالصبر والثبات على قدم الصدق في طلب المعبود المحبوب المعشوق، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:6] في الأزل في المقبول والمردود.

وبقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص:7]، يشير إلى أن ركون الجهال إلى البشرية والعادة وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة، واستناموا إلى التقليد والهوادة، وبقوله: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ [ص: 8]، يشير إلى أن القرآن قديم؛ لأنه سماه الذكر، ثم أضافه إلى نفسه تعالى بقوله: ﴿مِّن ذِكْرِي﴾ [ص:8]، ولا خفاء بأن ذكره قديم؛ لأن الذكر المحدث يكون مسبوقًا بالنسيان، وهو منزه عن النسيان، وبقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:8]، فيشير إلى أنهم مستغرقون في عذاب الطرد والبعد ونار القطيعة، ولكنهم عن ذوق العذاب بمعزل؛ لغلبة الحواس إلى أن يكون ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:9]، فيغلب السرائر على الصور، والبصائر على البصر، فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأحقاف:34]؛ يعني: كنتم معذبين، وما كنتم ذائقي العذاب؛ فالمعنى: إنهم لو ذاقوا عذابي ووجدوا ألمًا لما قدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم، وفيه إشارة إلى حال أكثر علماء زماننا وعُبَّادهم أنهم إذا رأوا عالمًا ربَّانيًا من أرباب الحقائق يخبر عن حقائق لم يفهموها، ويشير إلى دقائق لم يذوقوها، دعتهم النفوس المتمردة إلى تكذيبه، ويقولون: أكوشف هو بهذه الحقائق من بيننا، ويقعون في الشك من أمرهم، لو استبصروا في دينهم لما جحدوهم، واغتنموا أنفاسهم، واقتبسوا من أنوارهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)﴾ [ص: 9 - 17].

ثم أخبر عن جهالة الكفار وضلالتهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص:9]، يشير إلى أنه هو العزيز الذي له خزائن الرحمة، ومن دونه فهو ذليل له لاحتياجه إليه، وهو الوهاب الذي يهب لمن يشاء ما يشاء، وفيه آل هؤلاء الكفار الذين عارضوا ونازعوا وكابروا واجتمعوا عندهم شيء من هذه الأشياء، فيفعلوا ما

أرادوا، أو يعطوا ما شاءوا، ويرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على من أرادوا، ويهلكوا من أرادوا.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص:10]؛ بل الله يصطفي من يشاء، ويؤتي من يشاء لعزته، وهم ﴿جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص:11]، كلهم عجزة لا يقدرون على ذلك مهزومون، شبههم في بقائهم عن مرادهم بالمهزومين؛ أي: إن هؤلاء الكفار ليس معهم حجة سؤالهم قوة، ولا لأصنامهم أيضًا من النفع والضر مكنة، ولا في الدفع والرد عن أنفسهم قوة، وبقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص: 12-13]، يشير إلى تسلية قلب النبي ﷺ وتصفيته عن اهتمام كفار مكة؛ لئلا يفيق قلبه عن تكذيبهم إياه، ولا يحزن عليهم لكفرهم فإن هؤلاء الأحزاب.

﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ [ص:14] كما أن قومك كذبوك، ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:14]؛ أي: فوجب عليهم عذابي؛ ليكونوا مظهر قهري، ومطلب نار غضبي، ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ [ص:15] كلهم، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [ص:15] أثرًا من آثار قهرنا، ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص:15] راحة وخلاص، وبقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:16]، يشير إلى أن النفوس الخبيثة السفلية تميل بطبعها إلى السفليات؛ وهي في الدنيا لذائذ الشهوات الحيوانية، وفي الآخرة دركات أسفل سافلين جهنم، كما أن القلوب العلوية اللطيفة تميل بطبعها إلى العلويات؛ وهي في الدنيا حلاوة الطاعات ولذاذة القربات، وفي الآخرة درجات أعلى علّيّين الجنان، وكما أن الأرواح القدسية تشتاق بخصوصيتها إلى شواهد الحق، ومشاهد أنوار الجمال والجلال، ولكل من هؤلاء الأصناف جذبة بالخاصية من جاذبة بلا اختيار: كجذبة المغناطيس للحديد، وميلان طبع الحديد إلى المغناطيس من غير اختيار بل باضطرار، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص:17] فيما يلتمسون من تعجيل العذاب، فعن قريب سينزل الله نصرك يا محمد ويعطيهم سؤلهم.

ثم أخبر عن توبة داود وأوابته بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ

﴿أَوَّابٌ﴾[1] [ص:17]، يشير إلى كماليته في العبودية بأنه لم يكن عبد الدنيا ولا عبد الآخرة، وإنما كان عبدنا خالصًا مخلصًا، وله قوة في العبودية ظاهرًا وباطنًا:

فأما قوته في الظاهر: فبأنه قتل جالوت وجنوده بثلاثة أحجار رميًا إليهم.

وأما قوته في الباطن: إنه كان أوّابًا، وقد سرت أوابيته في الجبال والطير فكانت تأوّب معه.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23)﴾ [ص: 18 - 23].

وبقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:18-19]، يشير إلى كمال عناية ربوبيته في حقه بعد إظهار كمال عبوديته، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص:20] في الظاهر بأن جعلناه أشد ملوك الأرض، وفي الباطن بأن ﴿آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:20]؛ والحكمة هي: أنواع المعارف من المواهب، وفصل الخطاب: بأن ملك المعارف بأدل دليل وأقل قليل، وبقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:21-22]، يشير إلى كمال ضعف البشرية مع أنه كان أقوى الأقوياء إذ فزع منهم، ولعل فزع داود عليه السلام كان لإطلاع درجة، على أنه ذلك تنبيه له وعتاب فيما سلف منه، وبقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ

(1) هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسبيحه وتنزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمري والحمامة ومالك الحزين، وكان ﷺ يعرف أصواتهن وتسبيحهن من حيث المحبة والعشق، [العرائس].

﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص:22]، يشير إلى أنه لا تخف عن صورة أحوالنا فإنا جئنا لتحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [ص:22]؛ ولكن خف عن حقيقة أحوالنا، فإنها كشف أحوالك التي جرت بينك وبين خصمك أوريًا، وبقوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص:22]، يشير إلى أن هذه الحكومة هي الحكمة التي بينك وبين خصمك، فاهدنا فيها إلى الصراط المستقيم إلى الله، فإن سير العباد إلى الله على أقدام المعاملات على جادة الشريعة.

وبقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص:23]، يشير إلى أن الظلم في الحقيقة من شيم النفوس، فإن وجدت ذا عفة فلعلة، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53].

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)﴾ [ص: 24 - 26].

وبقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص:24]، يشير إلى أن النفوس جبلت على الظلم والبغي وسائر الصفات الذميمة ولو كانت نفوس الأنبياء عليهم السلام، ثم استثنى منهم أهل الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [ص:24]؛ يعني: الذين آمنوا وعملوا أعمالاً صالحة لتزكية النفس عن صفاتها الذميمة، ثم قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص:24]؛ يعني: وقليل من أهل الإيمان أن يكون أعمالهم صالحة لتزكية النفس، وهم الأنبياء والأولياء، وفيه إشارة أخرى وهي: إن من شأن النبي والولي أن يحكم كل واحد منهم بين الخصوم بالحق، كما ورد الشرع به بتوفيق الله، وإن الواجب عليهم أن يحكموا على أنفسهم بالحق كما يحكمون على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء:135]، فلما انتبه داود عليه السلام أنه ما حكم على

نفسه بالحق كما حكم على غيره كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:24]؛ أي: أناب واستغفر ورجع إلى ربه متضرعًا خاشعًا، باكيًا بقية العمر، معتذرًا عما جرى عليه، فتقبل الله منه ورحم عليه وعفا عنه.

وقال:﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾ [ص:25]؛ أي: لقربة بكل تفرع وخضوع وخشوع، وبكاء وأنين وحنين، وتأوه صدر منه ﴿وَ﴾ [ص:25] له بهذه المراجعات، ﴿حُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:25] عندنا، وفيه إشارة أخرى وهي أن نعلم أن المعصوم عن عصمة الله ﷻ، ومن يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلله ﴿فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف:186].

ثم أخبر عن الهدى أنه مخالفة الهوى بقوله: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:26]، يشير إلى معان مختلفة:

منها: إن الخلافة الحقيقة ليست بمكتسبة للإنسان؛ إنما هي عطاء وفضل من الله ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:21]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص:26]؛ أي: أعطيناك الخلافة.

ومنها: إن استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام:165].

ومنها: إن الإنسان وإن خلق مستعدًا للخلافة، ولكن بالقوة فلا يبلغ درجتها بالكمال إلا الشذاذ منهم.

ومنها: إن [خلافته] تتعلق بعالم المعنى، كما أن الخلقية تتعلق بعالم الصورة، ولهذا إنما أخبر الله تعالى عن صورة آدم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾[1] [ص:71]، ولما

(1) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

فقد وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسيين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء

أخبر عن معناه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:1].

ومنها: إن الروح الإنساني من الفيض الأول، وهو أول شيء تعلق بأمر «كن»، ولهذا نسبه إلى أمره، فقال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85]، ولما كان هو الفيض الأول إفاضة إلى ذاته تعالى، فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص:72]، فلما كان الروح هو الفيض الأول كان خليفة الله بذاته وصفاته، إما بذاته؛ فلأنه كان له وجود من وجوده بلا واسطة، فوجوده كان وجود خليفة وجود الله تعالى، وإما بصفاته؛ فلأنه كان له صفات أيضًا من وجود صفات الله بلا واسطة، فكل وجود وصفات يكون بعد وجود الخليفة يكون خليفة الله بالذات والصفات، ... هلم جرًّا إلى أن يكون القالب الإنساني وهو أسفل سافلين الموجودات، وآخر شيء لقبول الفيض الإلهي، وأقل حظ من الخلافة، فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض خلق لخليفة روحه منزلاً صالحًا لنزول الخليفة فيه وهو قالبه، وأعد له عرشًا فيه ليكون محل استوائه عليه وهو القلب، ونصب له خادمًا وهو النفس، فلو بقي الإنسان على فطرة الله التي فطر الناس عليها يكون روحه مستفيضًا من الله تعالى، فائضًا بخلافة الحق تعالى على عرش القلب، فائض بخلافة الروح على خادم النفس، فائض بخلافة القلب على القالب، والقالب فائض بخلافة النفس على الدنيا وهي أرض الله، فتكون الروح بهذه الأسباب والآلات خليفة الله في أرضه بحكمه وأمره بتواقيع الشرائع.

ومنها: إن من خصوصية الخلافة الحكم بين الناس بالحق، والإعراض عن الهوى، وترك متابعته، كما أن من خصوصية أكل الحلال العمل الصالح، قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ

إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق.

الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:51].

ومنها: إن الله تعالى جعل داود الروح خليفة في أرض الإنسانية، وجعل القلب والسر، والنفس والقالب، والحواس والقوى، والأخلاق والجوارح والأعضاء كلها رعية له، ثم على قضية «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1]، أمر بأن يحكم بين رعيته بالحق؛ أي: بأمر الحق تعالى، وقال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ [ص:26]؛ أي: لا بأمر الهوى، ثم اعلم أن الله تعالى خلق الهوى في الباطل على صفة الضلالة مخالفًا للحق تعالى، فإن من صفة الهداية والحكمة في خليفته ليكون هاديًا إلى الحضرة بضدية طبعه ومخالفة أمره، كما أن الحق تعالى كان هاديًا إلى حضرته بنور ذاته وموافقة أمره؛ ليسير السائر إلى الله على قدمي موافقة أمر الله ومخالفة هواه؛ ولهذا قالت المشايخ: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا إلى الله.

ومنها: إن أعظم جنايات العبد وأقبح خطاياه متابعة الهوى، كما قال ﷺ: «ما عبد إله في الأرض أبغض على الله من الهوى»[2].

ومنها: إن للهوى كمالية في الإضلال لا توجد في غيره؛ وذلك لأنه يحتمل أن يتصرف في الأنبياء بإضلالهم عن سبيل الله، كما قال لداود عليه السلام في هؤلاء: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْـهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْـحِسَابِ﴾ [ص:26]، يشير إلى أن الضلال الكبير؛ هو الانقطاع عن طلب الحق، ومن ضل عن طريق الطلب مأخوذ بعذاب شديد القطيعة والحرمان من القرب وجوار الحق، وذلك ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْـحِسَابِ﴾ [ص:26]؛ وهو يوم يجازي فيه كل محق بقدر هدايته، وكل مبطل بحسب ضلالته.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ

(1) حديث ابن عمر: رواه أحمد (2/ 5، رقم 4495)، والبخاري (2/ 848، رقم 2278)، ومسلم (3/ 1459، رقم 1829)، وأبو داود (3/ 130، رقم 2928)، والترمذي (4/ 208، رقم 1705)، وقال: حسن صحيح. وحديث عائشة: رواه الخطيب (5/ 276). وحديث أبي موسى: رواه العقيلي (1/ 49).

(2) تقدم تخريجه.

﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 27 - 29].

وبقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:27]، يشير إلى أنا خلقناهما وما بينهما بالحق؛ ليكون مرآة يشاهد فيها المؤمنون الذين ينظرون بنور الله شواهد صفات جمالنا وجلالنا، مرآة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:191]، فظن الذين كفروا أنا خلقناهما باطلاً، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: 27] بما ظنوا، ﴿مِنَ النَّارِ﴾ [ص:27]؛ أي: من عذاب نار القطيعة والبعد.

وبقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:28]، يشير إلى أن أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل التقوى هم مظهر صفات لطفنا، والمفسدون والفجار هم مظهر صفات قهرنا، فلا تجعل كلتا الطائفتين كل واحدة منهما كالأخرى.

وبقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:29]، يشير إليه أنه مبارك على من يعمل به، ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:29] بالفكر السليم، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ [ص:29]؛ أي: وليتعظ به ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29]؛ وهم الذين انسلخوا من حلل بشريتهم كما تنسلخ الحية في جلدها.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 30 - 40].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ﴾ [ص:30]؛ أي: لداود الروح ﴿سُلَيْمَانَ﴾ [ص:30] القلب، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:30]، رجع إلى الحضرة بإخلاص العبودية بلا علة الدنيوية والأخروية.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْـجِيَادُ﴾ [ص:31]؛ وهي مراكب صفات البشرية، وبقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْـخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْـحِجَابِ﴾ [ص:32]، يشير إلى أن حب غير الله شاغل عن الله وموجب للحجاب.

وبقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:33]، يشير إلى أن كل محبوب سوى الله إذا حجبك عن الله لحظة يلزمك أن تعالجه بسيف نفي لا إله إلا الله، وبقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:34]، يشير إلى إلقاء وسوسة شيء من الشهوات الجسدانية على كرسي صدر سليمان القلب، فافتتن به إلى أن تاب منه، ورجع إلى الحضرة.

ثم أخبر عن الإجابة بعد الإنابة بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[1] [ص:35]، يشير إلى معانٍ مختلفة:

منها: إنه أراد طلب المُلك الذي هو رفعة الدرجة، بني الأمر في ذلك على التواضع الموجب للرفقة؛ وهو قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص:35].

ومنها: إنه قدم طلب المغفرة؛ لأنه لو كان طلب المُلك ذلة عن حق الأنبياء - عليهم السلام - تكون مسبوقة بالمغفرة لا يطالب بها.

ومنها: إن المُلك مهما يكن في يد مغفور له منظور بنظر العناية ما يصدر منه تصرف في الملك إلا مقرونًا بالعدل والنصفة، وهو محفوظ من آفات الملك وتبعاته.

ومنها: قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:35]؛ أي: يكون ذلك موهوبًا له، بحيث لا ينزعه منه ويؤتيه من يشاء، كما هي السنة الإلهية جارية فيه.

ومنها: قوله: ﴿لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ﴾ [ص:35]؛ أي: لا يطلبه أحد غيري؛ لئلا يقع في فتنة الملك على مقتضى قوله تعالى:﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، فإن المُلك جالب للفتنة، كما كان جالبًا إلى سليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص:

(1) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مُهِمّ الدين على مُهِمّ الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعده ، ثم دلت الآية أيضاً على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لافتتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ، ثم توسل به إلى طلب المملكة. اللباب (13/ 369).

34]؛ ولئلا يكون هو سبب افتتانهم.

ومنها: قوله: ﴿مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ﴾ [ص:35]؛ أي: مُلكًا لا يطلع على حقيقته وكماليته أحد حتى يطلبه منك؛ يعني: يكون في جملة «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1] ليطلبه.

ومنها: قوله: ﴿لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ﴾ [ص:35]؛ أي: لا يكون هذا الملك ملتمس أحد منك غير للتمتع والانتفاع به، وهو بمعزل عن قصدي ونيَّتي عن طلب هذا، فإن لي في هذا المُلك نية لنفسي، ونية لقلبي، ونية لروحي، ونية للرعايا، ونية للملك.

وأما نيته لنفسه: فتزكيتها عن صفاتها الذميمة وأخلاقها اللئيمة، وذلك في منعها عن استيفاء شهواتها الحيوانية، وترك مستلذاتها النفسانية بالاختيار دون الاضطرار، وإنما يتيسر ذلك بعد القدرة الكاملة عليه بالمالكية والملكية بلا مانع ولا منازع، وكمالية في المملكة بحيث يعوذ فيها مما تحرك داعية من دواعي البشرية المركوزة في جبل الإنسانية؛ ليكون كل واحد من المشتهيات والمستلذَّات النفسانية محرك لراعية تناسبها عند تملكها، والقدرة عليها عند توقان النفس إليها، وغلبات هواها، فيحرم على النفس مراضعها، ويحرمها عن مشاربها، ونهاها عن هداها خالصًا لله وطالبًا لمرضاته، فتموت النفس عن صفاتها كما يموت البدن عن إعواز ما هو غذاء يعيش به، فلما ماتت النفس عن صفاتها الذميمة يحيـيها الله تعالى بالصفات الحميدة، كما قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:9]، فلا يبقى لها نظر إلى الدنيا وسائر نعيمها، كما كان حال سليمان لم يكن له نظر إلى الدنيا ونعيمها، إنما كان مع تلك الوسعة في المملكة يأكل كسيرة من كسب يده مع جليس مسكين، ويقول: جالس مسـكينًا.

وأما نيته لقلبه: فتصفيته عن محبة الدنيا وزينتها وشهواتها، وتوجهه إلى الآخرة بالإعراض عنها عن القدرة عليها والتمكن فيها، ثم صرفها في سبيل الله وقلع أصلها من أرض القلب؛ ليبقى القلب صافيًا نقيًا من الدنس قابلاً للفيض الإلهي، فإنه خلق مرآة

---

(1) رواه الطبراني (6/ 122، رقم 5706). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (7/ 30، رقم 33973)، وأحمد (5/ 334، رقم 22877)، ومسلم (4/ 2175، رقم 2825)، والحاكم (2/ 448، رقم 3549).

لجميع الصفات الإلهية.

وأما نيته لروحه: فلتحليته بالأخلاق الحميدة الربَّانية، ولا سبيل إليها إلا بعلو الهمة وخلوص النية، فإن المرء يطير بهمته كالطائر ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:38]، وتزينه الهمة بحسب نيل المقاصد الدنيوية الدنية، وصرفها عن نيل المراتب الدنية الأخروية الباقية، وإن لترك المقاصد الدنيوية وإن كان أثرًا لتربية الهمة، ولكن لا يبلغ حد أثر صرفه ما يملك من المقاصد الدنيوية لنيل الدرجات العلية، فلما كان من أخلاق الله تعالى أنه يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها، التمس سليمان عليه السلام أقصى مراتب الدنيا ونهاية مقاصدها؛ لئلا يلتفت إليها ويستعملها في تربية الهمة؛ لتتجلى روحه بحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها متخلقًا بأخلاق الله تعالى.

وأما نيته للرعايا: بأن يحسن إليهم ويؤلف قلوبهم ببذل المال والجاه، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فإنهم إذا أحبوا نبي الله لزمهم حب الله، فيكون حب الله وحب نبيه في قلوبهم محض الإيمان، ومن لم يكن منهم أن يؤمن بالإحسان فيدخلهم في الإيمان بالقهر والغلبة بأن يأتيهم ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة:40]، كما أدخل بلقيس وقومها في الإيمان.

وأما نيته للملك: بأن يجعل الممالك الدنيوية الفانية أخروية باقية، بأن يتوسل بها إلى الحضرة بصرفها في إظهار الدين، وإقامة الحق، وإعلاء كلمة الإسلام، فإن قيل قوله: ﴿لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:35]، هل يتناوله النبي ﷺ أم لا؟ قلنا:

إما بالصورة: فيتناول، ولكن لعلو همته وكمال قدره لا بعدم استحقاقه؛ لأنه عُرض عليه ﷺ مُلك أعظم من ملكه فلم يقبله، وقال: «**الفقر فخري**»[1].

وإما بالمعنى: فلا يتناول النبي ﷺ؛ لأنه قال: «**فضلت على الأنبياء بست**»[2]؛ يعني:

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (1/ 371، رقم 523)، والترمذي (4/ 123، رقم 1553) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (1/ 330، رقم 1169)، وأبو يعلى (11/ 377، رقم 6491)، وابن حبان (6/ 87، رقم 2313).

على جميع الأنبياء، ولا خفاء بأن سليمان ﷺ ما بلغ درجة واحدة من أولي العزم من الرسل اختصاصه بصورة الملك منهم، وهم معه مفضلون بست فضائل من النبي ﷺ، فمن الملك الحقيقي الذي كان ملك سليمان صورته بلا ريب يكون داخلاً في الفضائل التي اختصه الله بها، وأخبر عنها بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء:113]؛ بل أعطاه الله تعالى ما كان مطلوب سليمان ﷺ من صورة الملك ومعناه، أو فسر ما أعطى سليمان وفتنه به من غير رحمة مباشرة صورة الملك، والافتتان فلم يقبله به عزة ودلالاً.

وبقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:36]، يشير إلى أن سليمان ﷺ لما فعل بالصافنات الجياد، وما فعل في سبيل الله عوضه الله تعالى مركبًا مثل: الريح كان ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:12].

وبقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ [ص:37-39]، يشير إلى أن الإنسان إذا كمل في إنسانيته يصير قابلاً للفيض الإلهي بلا واسطة، فيعطيه الله من آثار الفيض تسخير ما في السموات من الملائكة، كما سخر لآدم بقوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34] وما في الأرض، كما سخر لسليمان الجن والإنس والشياطين والوحوش والطيور؛ وذلك لأن كل ما في السماوات وفي الأرض أجزاء وجود الإنسان الكامل، فإذا أنعم الله عليه بفيض سخر له أجزاء وجوده في المعنى، أما في الصورة فيظهر على بعض الأنبياء تسخير بعضها إعجازًا له، كما أظهر على نبينا ﷺ تسخير القمر عند انشقاقه بإشارة إصبعه؛ ولهذا قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ [ص:39]، وبقوله: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:39]، يشير إلى أن الأنبياء بتأييد الفيض الإلهي ولاية إفاضته الفيض على من هو أهله عند استفاضته، ولهم إمساك الفيض عند عدم الاستفاضة من غير أهله، ولا حرج عليهم في الحالتين.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ [ص:40] في الإفاضة والإمساك، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 40]؛ لأنه كان متقربًا إلينا بالعطاء والنعم.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا

﴿تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص: 41 - 44].

ثم أخبر عن رعاية العبودية وعناية الربوبية بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص:41]، يشير إلى معانٍ مختلفة:

منها: إن من شرط عبودية خواص عبادنا من الأنبياء والأولياء الصبر عند نزول البلاء، والرضاء بجريان أحكام القضاء.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى لو سلط الشيطان على بعض أنبيائه أو أوليائه لا يكون لإهانتهم؛ بل يكون لعزتهم وإعانتهم على البلوغ إلى رتبة نعم العبدية، ودرجة الصابرين المحبوبين.

ومنها: إن العبادات من الأنبياء والأولياء لو لم يكونوا من كنز عصمة الله وحفظه لـمسنهم الشياطين بنصب وعذاب.

ومنها: إن من آداب العبودية إجلال الربوبية وإعظامها عن إحالة الضرر والبلاء والمحن عليها إلا على الشيطان، كما قال يوسف: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف:100]، وقال يوشع عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف:63]، وقال موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ [القصص:15].

ومنها: ليعلم ما بلغ من بلغ مقام الرجال البالغة إلا بالصبر على البلوى، وتفويض الأمور إلى المولى، والرضاء بما يجري عليه في القضاء.

وبقوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص:42]، يشير إلى أن الله تعالى إذا نظر إلى العبد بنظر الرضاء يبدل مرضه بالشفاء، وشدته بالرخاء، وجفاه بالوفاء، ويخرج من تحت قدميه بركضته ينبوعًا ينبع منها مغتسل العلل، ومشرب أرباب الملك.

وبقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 43]، يشير إلى كمال القدرة على الإيجاد والإفناء، والإحياء والإماتة، والإعادة إظهارًا للرحمة، وموعظة لأرباب القلوب الحية.

وبقوله: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [ص:44]، يشير إلى معانٍ مختلفة:

منها: إظهارًا لبراءة ساحة المرأة من كل ريبة توهمها في حقها أيوب عليه السلام.

ومنها: إن الله تعالى أراد أن يعصم نبيه أيوب عليه السلام عن الذنبين اللازمين أحدهما، إما الظلم، وإما الحنث.

ومنها: إنه تعالى أراد ألاَّ يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها، ولا يكافئها بالخير شرًا، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

وبقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44]، يشير إلى أن أيوب عليه السلام لم يكن ليجد نفسه صابرًا، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص:44]؛ أي: جعلناه صابرًا، يدل على هذا المعنى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:127]؛ أي: هو الذي صبرك، وإلا لم تكن تصبر، وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:44] يدل على أنه تعالى جعله صابرًا؛ لأنه كان نعم العبد، وإنها كان نعم العبد؛ لأنه كان أوابًا راجعًا إلى الحضرة في طلب الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: 45 54].

ثم أخبر عن خلاص أهل الإخلاص بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:45]، يشير إلى أن كمالية العبودية إنها يحصل في عبادنا المخلصين؛ إذًا ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ [ص:46] من غل بشريتهم، و[شوائب] أنانيتهم ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص:46]؛ أي: تفصيله خالصة بجعل القلب سليمان من ذكر الدار؛ يعني: بقطع تعلقه عن الدارين؛ إذ لم يعلموا على ملاحظة حظوظها، بل تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكر الدارين.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ﴾ [ص:47-48] واعتبر أو أسلم نفسه للذبح في سبيل الله، ﴿وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ [ص:48] قيل أنهما كانا

أخوين، ﴿وَذَا الكِفْلِ﴾ [ص:47] تكفل الله تعالى بعمل رجل صالح مات في وقته، ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ﴾ [ص:48-49]؛ أي: القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء وقصصهم؛ ليعتبر بهم ويقتدي بسيرهم، فإنهم كل من الأخيار للنبوة والرسالة، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص:49] الذين يتقون بالله عما سواه ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:49] في الحضرة وعالم الوحدة.

وبقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:50-53]، يشير إلى أن هذه الجنات بهذه الصفات مفتوحة الأبواب لهم، وأبواب الجنة بعضها مفتوحة إلى الخلق، وبعضها مفتوحة إلى الخالق، لا يغلق عليهم واحدة منها، فيدخلون من باب الخلق، ويتنعمون بما أعد لهم فيها، ثم يخرجون من باب الخالق وينزلون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]،لا يقيدهم نعيم الجنة ليكونوا من أهل الجنة، كما لم يقيدهم نعيم الدنيا ليكونوا من أهل الدنيا،بل أخلصهم الله من حبس الدار، ومتعهم بنزل المنزلين، وجعلهم من أهل الله وخاصته، ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص:54]؛ أي: هذا ما رزقناهم من الأزل فلا نفاذ له إلى الأبد.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: 55 - 61].

ثم أخبر عن الطاغين الباغين بقوله تعالى : ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص:55]، يشير إلى أن لأهل الطغيان الذين أعرضوا عن الحق تعالى لشر مرجع ﴿جَهَنَّمَ﴾ [ص:56] البعد والطرد ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص:56] يوم القيامة، ولكنهم اليوم مهدوا لأنفسهم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا﴾ [ص:56-57]؛ أي: هذا الذي مهدوا اليوم، ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ [ص:57] يوم القيامة، ولكنهم اليوم مهدوا لأنفسهم؛ يعني: قد حصَّلوا اليوم معنى صورته، ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:57] يوم القيامة، ولكن مذاقهم بخلل

يجدون ذوق ألم عذاب ما حصّلوه لسوء أعمالهم فليذوقوه يوم القيامة.

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:58]؛ أي: فنون آخر من مثل ذلك العذاب، يشير به إلى: إن لكل نوع من المعاصي نوعًا آخر من العذاب، كما أن لكل بذر يزرعون يكون له ثمرة تناسب البذر.

وكما أخبر عن حال الأتباع والمتبوعين ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ [ص:59]؛ أي: يسأل الخزنة للمتبوعين، هل دخل الأتباع معكم مرجعكم؟ فإنهم زرعوا ما زرعتم، هل يحصدون معكم ما تحصدون؟ قال المتبوعون: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ [ص:59]؛ يعني: بالأتباع لا تعذر بما عملنا، وبما عمل الأتباع باتباعهم إياهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [ص:59] معنا، ﴿قَالُوا﴾ [ص:60] الأتباع، ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ [ص:60] بأمركم ما وافقناكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص:60] قرارنا وقراركم.

وبقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص:61]، يشير إلى أن للمتبوعين ضعف عذاب الأتباع، عذاب ضلالة أنفسهم، وعذاب إضلال المتابعين لهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:25].

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74)﴾ [ص: 62 - 74].

وبقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص:62]، يشير إلى تخاصم أهل النار مع أنفسهم، يسخرون بأنفسهم كما كانوا يسخرون بالمؤمنين، فيقولون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾ [ص:62] في جهنم، ﴿رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص:62]، وهذا مقام الأشرار.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [ص:63] وما كانوا من الأشرار، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص:63]، ما لنا لا نراهم معنا هاهنا، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ [ص:64] التخاصم، ﴿لَحَقٌّ﴾ [ص:64] مع أنفسهم ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص:64] من الندامة، حين لا ينفعهم التخاصم ولا الندامة.

وبقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص:65]، يشير إلى أنه ليس للعباد ملجأ ولا مفر إلا إله واحد لا شريك له؛ ليعز العباد في الله إلى شريكه، وهو قهار يقهر العباد بذنوبهم ومعاصيهم، وليس النبي ﷺ إلا مخوفهم ومحذرهم من الكفر والمعاصي، ومبشرهم على الإيمان والطاعة، وإن الله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ﴾ [ص:66] بالانتقام من المجرمين، ﴿الْغَفَّارُ﴾ [ص:66] لمن تاب وآمن وعمل صالحًا.

ثم أخبر عن تعظيم النبأ العظيم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:67-68]، يشير إلى أن أمر النبوة وما أنبأهم به من أخبار القيامة والحشر، والجنة والنار، هو نبأ عظيم وشأن جسيم، يستدل به على صدقه في دعوى النبوة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:68]؛ لضلالتكم، وغاية جهالتكم، ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:69] فيما أخبرتكم من اختصامهم لو لم يكن لي نبوة، ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [ص:70]؛ أي: ما يوحى ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص:70]، ظاهر النبوة بالدلائل الواضحة منها: قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾[1] [ص:71-72] تسوية تصلح لنفخ الروح الخاصة المضافة للحضرة،

---

(1) بيَّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشاهدة أنوار الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفتها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:72]؛ لاستحقاقه الخلافة، ومسجود به الملائكة، ﴿فَسَجَدَ الْـمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:73]؛ لآدم خلافة عن الحق تعالى؛ إذ كان متجليًا فيه فوقعت هيبته على الملائكة فسجدوا له، ولما كان إبليس أعول فلما رأى آثار أنوار التجلي على مشاهدة آدم استكبر، كما قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74].

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴾ [ص: 75 - 81].

وبقوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، يشير إلى استحقاق آدم لمسجوديه الملائكة باختصاصه في الخلقة بيديه من سائر المخلوقات، ويشير بيديه إلى صفتي اللطف والقهر، وهما يشتملان على جميع الصفات، وما من صفة إلا وهي إما من قبيل اللطف، وإما من قبيل القهر، وما من مخلوق من جميع المخلوقات إلا هو إما مظهر صفة اللطف، وإما مظهر صفة القهر، كما أن الملك مظهر صفة لطف الحق تعالى، والشيطان مظهر صفة قهر الحق تعالى إلا الآدمي، فإنه خلق مظهر كلتي صفتي اللطف والقهر، والعالم بما فيه بعضه مرآة صفات لطفه تعالى وبعضه مرآة صفة قهره، والآدمي مرآة ذاته وصفاته تعالى وتقدس كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، وبقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص:75-78]، يشير إلى عزة آدم وكرامته بأن يكون مستحقًا لسجود الملائكة ولم يكن لأحد منهم أن يستكبر من سجوده، وإن استكبر ويدعي الخيرية عليه يلعنه الله، ويخرجه عما يكون فيه من المقام والمنزلة، وحسن الصورة والطرد وإن استكبر عن الحضرة.

وبقوله قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْـمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْـمَعْلُومِ﴾ [ص:79-81]، يشير إلى أن من أبعده الحق وأطرده، وقلب عليه أحواله حتى تجر إلى نفسه أسباب الشقاوة، كما دعا ربه وسأله الأنظار من كمال شقاوته؛

ليزداد إلى يوم القيامة في سبب عقوبته فأنظره الله وأجابه إذا سأله بربوبيته؛ ليعلم أنه كل من سأله باسمه الرب فإنه يجيب كما أجاب إبليس، وكما أجاب آدم عليه السلام إذا قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23]، وأجابه وتاب عليه، وهدى إبليس لتمام شقاوته، قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82]، ولو عرف عزته تعالى لما أقسم بها على مخالفته عن عجزه وعزة عباده.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص: 82 - 88].

قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:83] في عبوديتك لما كان تجاسره في مخاطبة الحق، حيث أمر على الخلاف وأقسم عليه أقبح وأولى في استحقاقه اللعنة من امتناعه للسجود لآدم.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:84-85]، وبقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص:86]، يشير إلى أن من شرط العبودية الخالصة أن لا يراد عليها الجزاء ولا الشكور، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:86]، من حيث إني ما جئتكم باختياري دون أن أرسلت إليكم، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:87]؛ يعني: الذي جئت به من الرسالة ما هو الأشرف، وذكر باقي لأهل العالم؛ لأني ما أرسلت إلا رحمة للعالمين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:88]؛ أي: بعدما استمرت سنة بعثتي بالعلماء بالله من أمتي الذين هم ورثتي، والخلفاء الراشدين من بعدي، والأئمة المهديين لأمتي، والمشايخ السالكين لخواص الطالبين في متابعتي، فإن الحق لا يخفى والباطل لا يدوم.

سورة الزمر

مكية وهي خمس وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (1) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (2) ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار (3) لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار (4) خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار (5)﴾ [الزمر: 1 - 5].

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(1) [الزمر:1]، يشير إلى أنه كتاب عزيز، نزل من رب عزيز على عبد عزيز، بلسان ملك عزيز، في حق أمة عزيزة، في أوقات عزيزة، نزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها، والعجب منها كيف لا تزهق سرورًا بوصولها، وارتياحًا بحصولها وكتاب موسى في الألواح! ومنها ما كان يقرأ موسى وغيره، وكتاب نبينا ﷺ نزل به الروح الأمين على قلبه، وفضل الفصل بين من يكون خطاب ربه مكتوبًا في ألواحه، وبين من يكون خطاب ربه محفوظًا في قلبه وكذلك أمته، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:49].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر:2]؛ أي: من الحق نزل، وبالحق نزل، وعلى الحق نزل، ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:2] لا لغيره الدنيا، فالعبادة: معانقة

---

(1) قال الورتجيبي: أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص.

قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نـزل من ربٍّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نـزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والعجب منها كيف لا تزهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!.

الأمر على غاية الخضوع وتكون بالنفس والقلب وبالروح:

فالتي بالنفس والإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص.

والتي بالقلب والإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص.

والتي بالروح فالإخلاص فيها التنقي عن طلب الاختصاص.

﴿أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:3]، الدين الخالص ما يكون جملته تعالى وما للعبد نية نصيب، ولا يحصل الدين الخالص إلا من العبد المخلص، والمخلص من خلصه الله من حبس الوجود بجوده لا بجهده[1]، وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ [الزمر:3]، يشير إلى أن الإنسان مجبول على معرفة صانعه وصانع العالم، ومقتضى طبعه عبادة صانعه، والتقرب إليه في خصوصية فطرته ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30]، ولكن لا عبرة بالمعرفة الفطرية والعبادة الطبيعية؛ لأنها مشوبة بالشرك لغير الله؛ ولأنها تصدر من نشاط النفس واتباع هواها، وإنما تعتبر المعرفة الصادرة عن التوحيد الخالص، ومن أماراتها قبول دعوة الأنبياء والإيمان بهم وبما أنزل عليهم من الكتب، ومخالفة الهوى، والعبادة على وفق الشرع لا على وفق الطبع، والتقرب إلى الله بأداء ما افترض الله عليهم، ونافلة قد أسن النبي ﷺ بها أو بمثلها، فإنه كان من طبع إبليس السجود لله، فلما أمرنا بالسجود على خلاف طبعه ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] بعد أن كان من الملائكة المقربين، وكذلك حال الفلاسفة من لا يتابع الأنبياء منهم، ويدعي معرفة الله، ويتقرب إلى الله بأنواع العلوم، وأصناف الطاعات والعبادات بالطبع لا بالشرع، ومتابعة الهوى إلا بأمر المولى، فيكون حاصل أمره ما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان:23]، وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:3]، يشير إلى أن اليوم كل مدع يدعي حقيقة ما عنده في الدين والمذهب على اختلاف طبقاتهم، فالله تعالى يحكم بينهم في الدنيا والآخرة:

---

(1) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أنْ يكونَ في العَالَمِ مُخْلِصٌ. تفسير القشيري (7 / 12).

أما في الدنيا: فيحق الله الحق بانشراح صدر أهل الحق بنور الإسلام بكتابة الإيمان في قلوبهم، وتأييدهم بروح منه، وكشف شواهد الحق عن أسرار تجلي صفات جماله وجلاله لأرواحهم، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال:8] بتضييق صدور أهل الأهواء والبدع، وقسوة قلوبهم، وعمى أسرارهم وبصائرهم وغشاوة أرواحهم بالحجب.

وأما في الآخرة: فتبييض وجوه أهل الحق وإعطائهم كتابهم باليمين، وتثقيل موازينهم، وجوازهم على الصراط، ويسعى نورهم بين أيديهم، ودخولهم الجنة، ورفعتهم في الدرجات، وتسويد وجوه أهل الباطل، وإتيان كتابهم بالشمال، ودرأ ظهورهم، وتخفيف موازينهم، وذلة أقدامهم عن الصراط، ودخول النار ونزولهم في الدركات، وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:3]، يشير إلى تهديد من يتعرض لغير مقامه، ويدعي رتبة ليس بصادق فيها، فالله لا يهديه قط إلى ما فيه سداده ورشده، وعقوبته أنه يحرم تلك الرتبة التي تصدى لها بدعواه قبل تحقيقه بوجودها.

وبقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر:4]، يشير إلى أنه تعالى لو أراد اتخاذ الولد مما يخلق لاصطفى من مخلوقًا جنسًا آخر أعز وأكرم مما خلق، ثم نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر:4] ولا ثاني له، والولد يكون ثاني والده وجنسه، وشبهه القهار الذي بقهاريته لا يقبل الجنس، والشبه بنوع ما.

وبقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر:5]، يشير إلى أنه تعالى محق، في خلقها ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:5] بالحكمة البالغة؛ ليكون مظهر آياته لأرباب المعرفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190]، وليجعلها دالة على أحوال السائرين إلى الله في القبض والبسط، والجمع والفرق، والصحو والسكر، والستر والتجلي، ونجوم العقل وأثار العلم، وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشك والجحد ونهار الوصل، وليالي الهجر والفراق، وكيفية أحوال المريدين وترقيهم، وفترتهم وزيادتهم ونقصانهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الزمر:5]؛ أي: شمس الروح، وقمر القلب ،﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر:5]؛ أي: يسير كل واحد على

مقام قدَّره الله لهم وعينه ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ [الزمر:5] المتعزز على المحبين ، ﴿الْغَفَّارُ﴾ [الزمر:5] للمذنبين.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾ [الزمر: 6 – 7].

ثم أخبر عن خلق الخلق بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الزمر:6]، يشير إلى أن خلقة الإنسان من نفس واحدة وهي الروح، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:6]؛ وهو القلب، وإنه خلق من الروح كما خلقت خواص ضلع آدم، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:6]؛ أي: خلق فيكم من صفات الأنعام ثماني صفات؛ وهي الأكل والشرب، والتغوط والبول، والشهوة والحرص، والشره والغضب، وأصل جميع هذه الصفات الصفتان الاثنتان: الشهوة والغضب، فإنه لابد لكل حيوان من هاتين الصفتين لبقاء وجوده بهما، فبالشهوة تجذب المنافع إلى نفسه، وبالغضب تدفع المضرات، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا﴾ [الزمر:6] من النطفة إلى تمام الجسد، ﴿مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر:6]، أو بعد خلق الروح في عالم الأرواح ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر:6]؛ ظلمة الخلقة، وظلمة وجود الروح، وظلمة البشرية بين آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خلقتنا ظاهرًا وباطنًا من قطرتين أمشاج متشاكلة الأجزاء مختلفة الصور في الأعضاء، مسخرًا بعضها لبعض محال للصفات الحميدة: كالعلم والقدرة والحياة، وغير ذلك في أحوال القلوب: كالسمع والبصر والحواس والقوى، وهذه كلها نعم أنعم الله بها علينا، ثم ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ [الزمر:6]؛ يعني: الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه وهو ربكم؛ أي: أنا خلقتكم، وأنا رزقتكم، وأنا صورتكم، وأنا الذي أسبغت عليكم أنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق شهود جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدي وأدعوكم إلى وحدانيتي، فمالكم لا تنقطعون بالكلية إليَّ؟ ولا ترجون ما وعدتكم لديَّ؟ ومالكم تطلبون مني ولا تطلبونني؟ وقد بشرتكم بقولي: «ألا

من طلبني وجدني، ومن كان لي كنت له، ومن كنت له يكون له ما كان لي»[1]، ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الزمر:6]؛ أي: له ملك القدرة على تبليغ العباد إلى هذه المقامات، وإعطائهم هذه الكرامات، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:6] عن ملازمة باب العبودية إلى باب عاجز مثلكم من الخلق.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ [الزمر:7] نعمتي، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر:7] وعن العالمين، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:7] من غاية كرمه ولطفه، فإن أعرضوا عنه يخذلهم من عزته وقهره، وكبريائه وجبروته، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:7]؛ يعني: لا يرضى لكفركم؛ لأنه موجب للعذاب الشديد، ويرضى لشكركم، لأنه موجب لمزيد النعمة؛ وذلك لأن رحمته سبقت غضبه، يقول: «يا مسكين، أنا لا أرضى لك أن لا تكون لي، وأنت ترضى بأن تكون لي قليل الوفاء كثير التجني، فإن أطعتني شكرتك، وإن ذكرتني ذكرتك»[2]، بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر:7]، يشير إلى أن الروح والقلب لا يؤاخذان بوزر النفس إن لم يكونا مباشرين [معها] وزرها، ولا يرضيان به، فإن الرضا بالكفر كفر، كما أن النفس لا تثاب على طاعة الروح والقلب ما لم يكن مباشرة لها معهما، ولا ترضى بهما، فإن باشرتها معهما ورضيت بها تثاب بحسبها، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الزمر:7]؛ للروح والقلب والنفس، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ [الزمر:7] بجزاء أعمالكم، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:7] واحد منكم من الخير والشر، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر:7] من أعمال الروح والقلب والنفس.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: 8 - 10].

ويقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:8]، يشير إلى أن من

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره حقي في تفسيره (12/ 236).

طبيعة الإنسان أنه إذا مسته ضر خشع وخضع، وإلى ربه فزع، وتملق بين يديه وتضرع، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ [الزمر:8] وأزال عنه ضره، وكفى أمره، وأصلح باله وأحسن حاله، ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الزمر:8]، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، وأشرك بمعبوده، وأمر على جحوده، ﴿وَجَعَلَ للهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر:8] وينقطع في طريقه، فإن للإنسان الذي هو طبيعة ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: 8]؛ أي: بقليل عمرك من قليل دنياك، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:8]؛ لأنك صاحبت أهل النار، وسلكت على أقدام مخالفات المولى، ومرافقات الهوى، وطريق الدركات السفلى.

ثم أخبر عن أهل النجاة وأرباب الدرجات بقوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:9]، يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهرًا وباطنًا من غير فتور ولا تقصير، ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ [الزمر:9] ونعيمها كما يحذر الدنيا وزينتها، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:9] لا نعمة ربه، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9] قدر جوار الله وقربته وتجارة على الجنة ونعيمها، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9] قدره، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ [الزمر:9] حقيقة هذا المعنى ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9]؛ وهم الذين انسلخوا من جلد وجودهم بالكلية، وقد ماتوا عن أنانيتهم وعاشوا بهويته.

وبقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر:10]، يشير إلى أن من شرط أخص خواص عبادي الذين خلصوا من عبودية غيري من الدنيا والآخرة، وآمنوا بإيمان الطلب شوقًا ومحبة أن يتقوا بي عما سواي، ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ [الزمر:10] في طلبي، ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ [الزمر:10] لا يطلبون مني غيري ﴿حَسَنَةٌ﴾ [الزمر:10]، أي: لهم حسنة وجداني؛ يعني: حسن الوجدان مودع في حسن الطلب، وبقوله: ﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر:10]، يشير إلى حضرة جلاله إنه لا نهاية فلا يغتر طالب بها فتح عليه من أبواب المشاهدات والمكاشفات، فيظن أنه قد بلغ المقصد الأعلى والمحل الأقصى، فإنه لا نهاية لمقامات القرب، ولا غاية لمراتب الوصول، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ [الزمر:10] على صدق الطلب، ﴿أَجْرَهُمْ﴾ [الزمر:10] من نيل المطلوب ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] إلى أبد الآباد.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١١ - 16].

ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:11]، يشير إلى أن النبي ﷺ مأمور أن يعبد الله خالصًا ولا يعبد معه الدنيا والعقبى،﴿لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ أي: يكون مقصده في العباد معبوده.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْـمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:12] في طلب الحق تعالى؛ ليعلموا أن ديني ومذهبي طلب الحق من الحق لا غيره، فالمسلم من أسلم وجهه لله في متابعتي بصدق الطلب، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [الزمر:13] فيما أمرني بطلبه وترك سواه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:13]؛ وهو يوم ألم الهجران عذاب القطيعة والحرمان، والإشارة فيه: إنكم يا مدعي الإسلام خافوا أيضًا إن عصيتم ربكم فيما أمركم أن تطلبوه ولا تطلبوا معه غيره عذاب القطيعة والحرمان.

﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ﴾ [الزمر:14] لا الدنيا ولا العقبى، وأطلب بعباده المولى ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:14] وكل له سؤال ودين ومذهب فلي أتمُّ سؤلٍ وديني هواكم، فلما أخبر عن الدين الخالص أنه طلب الحق تعالى وهم على مخالفة دينه، فقال: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:15]؛ يعني: العبادة الحقيقة، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:15]؛ أي: ما طلبوا بعبادتكم ما شئتم بالهوى من دون المولى، ثم بين أن ذلك غاية الخسران ونهاية الخزي والهوان بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْـخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الزمر:15] بإفساد استعدادهم للوصول والوصال، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر:15] من القلوب والأسرار والأرواح حصلوا آخرتهم بالإعراض عن طلب المولى، والإقبال في متابعة الهوى ليكون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:15] لهم في النار المأوى، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْـخُسْرَانُ الْـمُبِينُ﴾ [الزمر:15]؛ والخاسر على الحقيقة من خسر دنياه بمتابعة الهوى، وخسر عقباه بارتكاب ما نهي عنه، وخسر مولاه إذا هو بغير مولى.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ [الزمر:16] نار القطيعة، ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾

[الزمر:16] من نار الحيرة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:29] لا يخرجون منها ولا يفترون عنها، كما أنهم اليوم في جهنم عقائدهم يستديمون بجابهم ولا ينقطع عنهم عقابهم، ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر:16]، فمن خاف بتخويف الله إياه عن هذه الخسران فهو عبده عبدًا حقيقيًا، فيستوجب خطابه ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:16]؛ يعني: من خصوصية عبادي أن يتقوا إلي عما سواي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)﴾ [الزمر: 17 - 20].

ثم أخبر أن عباد الله قد اجتنبوا طاغوت الهوى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ﴾ [الزمر:17]، يشير إلى أن طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب عبادة الطاغوت من خالف هوى نفسه، وعانق رضاء مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه رجوعًا بالكلية، وبقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1] [الزمر:18]، يشير إلى معانٍ كثيرة:

منها: إن أهل البشارة من يكون مخصوصًا بخاصية العبدية التي هي فصاحة إلى الله؛ أي: يكون جسدًا عما سوى الله.

ومنها: إنهم مبشرون بالوصول والوصال، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ﴾ [الزمر: 18] إلى الحضرة.

ومنها: إن الألف واللام في القول المعموم، فيقتضي أن لهم حسن الاستماع في كل قول من القرآن وغيره، ولهم أن يتبعوا أحسن من يحتمل كل قول إتباع درايته والعمل به، وأحسن كل قول ما كان من الله أو لله، أو يهدي إلى الله، وعلى هذا يكون استماع أتباع قول القوال من هذا القبيل.

ومنها: إن القول يسمع الإنسان والشيطان والنفس والملك والإله ﷻ، فيسمع من

---

(1) ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة، البحر المديد (3/ 310).

الإنسان أن الحق والباطل، ومن الشيطان الباطل، فإنه يشير إلى المعاصي دعوة الشهوات مما لها فيه نصيب، ومن الملك دعوة الطاعات، ومن الحق تعالى الخطاب في حقائق التوحيد والدعوة إلى الحضرة، كما قال تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، وقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:8]، فأحسن الأقوال قول الله، وأحسن الاستماع أن يستمعوا من الله، ومن عرف الله لا يسمع إلا بالله ومن الله، ومن أحسن أن يسمع من الله أحسن أن يسمع عباد الله، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ﴾ [الزمر:18] بجذبات ألطافه إلى أعطافه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:18] الذين عبروا عن قشرية الأشياء ووصلوا إلى ألباب حقائقها.

وبقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:19]، يشير إلى أن من حق عليه في القسمة الأولى أن يكون مظهرًا لصفات قهره إلى الأبد لا ينفعه شفاعة الشافعين، ولا يخرجه من جهنم سخط الله وطرده، وبعده جميع الأنبياء والمرسلين، ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:20] اليوم من الشرك والمعاصي، والزلات والشهوات، وعبادة الهوى والركون إلى غير المولى، فقد أنقذهم الله في القسمة الأولى من أن يحق عليهم كلمة العذاب، وحق عليهم أن يكونوا مظهر صفات لطفه إلى الأبد، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ [الزمر:20] بحسب مقاماتهم في التقوى، ﴿مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر:20]؛ أي: ما لا نهاية له من غرفات المعارف، والقربات مبينة بأيدي أعمال السالكين وأحوال المجذوبين بعضها فوق بعض ﴿مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر:20] أنهار الحكم والأسرار، ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ [الزمر:20] الذي وعد التائبين بالمغفرة، والمطيعين بالجنة، والمشتاقين بالرؤية، والعاشق الصادق بالقربة والوصلة، ﴿لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر:20] إذا لم يقع لهم فترة، ولا محالة بصدق وعده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 21 - 23].

ثم أخبر عن خاصية إنزال الماء من السماء بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الزمر:21] سماء القلب، ﴿مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمر:21] الحكمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر:21] أرض البشرية، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [الزمر:21] من الأعمال البدنية، ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [الزمر:21] من الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد بقوله: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر:21]، يشير إلى أعمال المرائي تراها مخضرة على وفق الشرع، ثم يجف من آفة العجب والرياء، فتراه مصفرًا لا نور له، ثم جعله من رياح القهر إذا هبت عليه مظلمًا لا حاصل له إلا الحسرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:21]، وذلك المؤمن بقوة عقله يوجب استغلاله له بعمله إلى أن تبدوا منه آثار اجتهاده وكمال تمكينه وقيادة بصيرته، ثم إذا بدت لائحة في سلطان المعارف تصير تلك الأنوار معمورة، فإذا بدت أنوار التوحيد استهلك تلك الجملة، كما قالوا: فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار تلك الكواكب.

وبقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1] [الزمر:22]، يشير إلى أن الإيمان نور ينور الله به مصباح قلوب عباده المؤمنين، والإسلام ضوء نور الإيمان مستضيء به مشكوة صدورهم، ففي الحقيقة من شرح الله صدره بضوء نور الإيمان فهو على نور من نظر عناية ربه، ومن إمارات ذلك النور محو آثار ظلمات صفات الذميمة النفسانية، وفي حب الدنيا وزينتها وشهواتها، وإثبات حب الأخرة والأعمال الصالحة لها، والتحلية بالأخلاق الكريمة الحميدة ،كما قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: 39]، من إماراته أن تلين قلوبهم لذكر الله فتزداد أشواقهم إلى لقاء الله وجواره، فيسأمون

(1) بيّن الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبـــهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته.

من محق الدنيا وحمل أثقال الأوصاف البهيمية والسبعية والشيطانية، فيفرون إلى الله ويتنورون بأنوار صفاته؛ منها: نور اللوائح بنجوم العلم، ثم نور اللوامع ببيان الفهم، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار جمال الصمدية بحقائق التوحيد، فعند ذلك فلا وجد ولا وجود، ولا قصد ولا مقصود، ولا قرب ولا بعد، ولا وصال ولا هجران، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]؛ كلا بل هو الله الواحد القهار، ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:22]، الصلبة الصدئة برين المكاسب التي لم يقترعها خواطر التعريف، فبقيت على نكارة الجحد ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر:22]، الضلالة الظلومية الباقية، والجهالية الدائمة.

ثم أخبر عن خطابه وكتابه بقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:23]، يشير إلى معانٍ:

منها: إنه نزل على محمد ﷺ القرآن، أحسن حديث مما نزل على جميع الأنبياء والمرسلين.

ومنها: إنه أحسن حديث؛ لأنه كلام الله وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث.

ومنها: إنه كتاب متشابه في اللفظ، مثاني في المعنى من وجهين: أحدهما لكل لفظ منه معاني مختلفة، بعضها يتعلق بلغة العرب وبعضها يتعلق بأحكام الشرع، وبعضها يتعلق بإشارات الحق تعالى، كمثل الصلاة فإن معناها في اللغة الدعاء، وفي أحكام الشرع؛ هي عبارة عن هيئات وأركان وشرائط وحركات مخصوصة بها، وفي إشارة الحق تعالى هي الرجوع إلى الله تعالى، كما جاء روحه من الحضرة بالنفخة الخاصة إلى القالب، فإنه عبر على القيام الذي يتعلق بالسماوات، ثم على الركوع الذي يتعلق بالحيوانات، ثم على السجود الذي يتعلق بالنباتات، ثم على التشهد الذي يتعلق بالمعادن، فبالصلاة يشير الله تعالى إلى رجوع الروح إلى حضرة ربه على طريق جاء منها؛ ولهذا قال النبي ﷺ «الصلاة معراج المؤمنين»(1)، وليس هاهنا مقام شرح رجوع الروح إلى حضرة ربه بمعراج الصلاة، وقد

---

(1) قال روزبهان: وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع

شرحنا حقيقة هذا في كتابنا الموسوم بـ «منارات السائرين إلى حضرة الله -ﷻ- ومقامات الطائرين»، ولكن المعاني والإشارات والأسرار والحقائق مثاني فيها إلى لا متناهي، وإلى هذا أشير بقوله: ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي...﴾ [الكهف:109].

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:23]، إذا قرعت صفة الجلال أبواب قلوبهم من خشية الله وهيبته، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر:23] بتجلي صفات جماله ﴿إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:23] بالشوق والطلب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الزمر:23]؛ أي: ذلك التجلي ﴿هُدَى اللهِ﴾ [الزمر:23] ليس للإنسان إليه سبيل إلا بالطلب رد، والسبيل سد، ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ [الزمر:23] بأن يكله إلى نفسه وعقله ويحرمه عن الإيمان بالأنبياء ومتابعتهم، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23] من براهين الفلاسفة

الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهًا لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه خبَّر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزيه والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاصٌ، مذكورٌ مبينٌ لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلام؛ لهيمانهم إلى رؤية جماله، ذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشدٍ في المعرفة، مرشدٍ في التوحيد، راسخٍ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين. قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعرُّ بالخوف، وتلين بالرجاء. وقيل: بالقبض والبسط. وقيل: بالهيبة والأنس. وقيل: بالتجلي والاستتار. وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد. وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين. وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

والدلائل العقلية.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: 24 - 28].

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر:24] عن نفسه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 24]؛ أي: عذاب يوم القيامة كمن لا يتقي ويظلم على نفسه، ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:24]؛ أي: ذوقوا عذاب ما كسبتم بأفعالكم الردية، وأخلاقكم الدنية؛ يعني: كنتم في غير العذاب، ولكن ما كنتم تجدون ذوقه لغلبة نوم الغفلة، فإذا متم أنبتتم، والذي يؤكد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:72]، ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 25]؛ أي: أتاهم العذاب في صورة الصحة والنعمة والسرور، وهم لا يشعرون أنه العذاب، وأشد العذاب ما يكون بفتنة، كما أن أتم السرور ما يكون صلة، وأوجع تأثير الفراق للقلب ما يكون بغتة غير متوقفة، وفي معناه قيل:

فبتنا بخير والدنيا مطمئنة   وأصبحت يومًا والزمان تقلبا

وبقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:26]، يشير إلى أنه تعالى أذاقهم عذاب الخزي والهوان في الدنيا وهو العذاب الأدنى؛ ليعلموا أن عذاب الآخرة أكبر فيحترزوا عنه، ويرجعوا إلى ربهم بالتوبة والإنابة.

ثم أخبر عن ضرب الأمثال بشرح الأقوال بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:27]، يشير إلى أن أحوال العباد واشتغالهم بالدنيا، وتعلقاتهم بها وبالأهالي واحتجابهم عنا، نوضحها لهم بضرب الأمثال المتناسبة في القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:27] أحوالهم لما كانت أرواحهم في جوارنا مفردة عن هذه التعلقات الشاغلات، متوجهه إلى حضرتنا منتفعة بشواهد ألطافنا، فيشتاقون إلى تنسم روائح نفحات ألطافنا، فيتعرضون لها بالتجريد والتفريد؛ ليصلوا إلى

حقيقة التوحيد متمسكين بحبل كلامنا.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر:28] منزلاً من عندنا ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر:28]؛ أي: صراطًا مستقيمًا إلى حضرتنا، ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:28] به عما سوانا.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر: 29 – 34].

ثم ﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا﴾ [الزمر:29] من تلك الأمثال ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر:29]؛ أي: الذي يتجاذبه شغل الدنيا وشغل العيال، وغير ذلك من الأشغال المختلفة، والخواطر المتشتتة، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:29] مؤمنًا خالصًا ليس للخلق فيه نصيب، ولا للدنيا معه نسيب، وهو عن الآخرة غريب، وإلى الله قريب منيب، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[1] [الزمر:29] البطَّالون والطالبون، والمنقطعون والواصلون، ﴿الْحَمْدُ لله﴾ [الزمر:29] الثناء له وهو مستحق لصفات الجلال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:29] كمال جماله، ولا يطَّلعون على أحسن استعدادهم لمرآتية صفات جماله وجلاله، وإلا لعطلوا الأمور الدنيوية بأسرها، وخربت الدنيا التي هي مزرعة الآخرة، وهلك الباطل والطالب.

وبقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:30]، يشير إلى نعيه ﷺ، ونعي المسلمين إليهم؛ ليفرغوا بأجمعهم عن مأتمهم، ولا تعزيه في العادة بعد ثلاث، ومن لم يتفرغ من مأتم

(1) قال البقلي: شبَّه الله المتشتتين هومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبَّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم للرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ فرْدٌ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

نفسه وأنواع همومه فليس له من هذا الحديث [في شيء]، فإذا أفرغ قلبه عن حديث نفسه وعن الكونين بالكلية فحينئذ يجد الخير من ربه، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم؛ ولهذا أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: «يا داود فرغ لي بيت أسكن فيه قال: يا رب أنت منزه عن البيت كله، قال: فرغ لي قلبك»[1]، وقال لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1]؛ يعني: ولي قلبك، وقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:4]؛ أي: قلبك فطهر؛ أي: عن لوث تعلقات الكونين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:31]، أي: تراجعون الحق تعالى لشفاعة أقربائكم وأهاليكم وأصدقائكم بعد فراغكم عن خويصة أنفسكم.

وبقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:32]، يشير إلى بعض مدَّعي هذا الحديث ممن يدَّعي ويكذب على الله بأنه أعطاه رتبة لم يذق بعد منها ما يشاء، وإذا وجد صديقًا جاءه بالصدق في المقال والأحوال كذبه، وينكره على صدقه، يكون حاصل أمره يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:60]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:32]؛ أي: لكافري النعمة.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر:33]؛ أي: جاء به من الحق تعالى لا من عند نفسه؛ لأن الصدق ليس من المكاسب، بل هو من المواهب، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33]؛ أي: الذي جاء بالصدق هو الذي صدق بالصدق إذ رآه مع غيره؛ لأن الصدق لا يرى إلا بالصدق، كما أن النور لا يرى إلا بالنور؛ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:33]؛ أي: بنور الصدق يرون الحق والباطل فيتقون بالحق عن الباطل.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:34]؛ لأنهم تقربوا إلى الله بالاتقاء به عما سواه، فأوجب الله في إدامة كرمه أن يتقرب إليهم بإعطاء ما يشاءون من عنده، بحسب حسن استعدادهم في الطلب بالتقرب من كمالات القرب والمشاهدة، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:34]؛ أي: ذلك للقرب والمشاهدة جزاء من عمل على مشاهدة الحق؛ لأن

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (9/ 144).

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: 35 - 40].

﴿لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ﴾ [الزمر:35]؛ أي: من المحسنين ﴿أَسْوَأَ﴾ [الزمر:35] من الإحسان، ﴿الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر:35]؛ أي: من الكبائر ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:35] من الإحسان، فأحسن ما عملوا أن عبدوا الله كأنهم يرونه؛ أي: عبدوه على المشاهدة وبأحسنها.

﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:36]؛ أي: أليس الله لعبده بكاف عن غيره وعما سواه، والإشارة فيه: إن الله كاف لعبده عن كل شيء، ولا يكفي له كل شيء عن الله، ولهذا المعنى ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:16] من نفائس الملك والملكوت؛ ليكون للنبي ﷺ ذلك النفائس كافيًا عن رؤية الله، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] بنظر القبول إليها حتى ﴿رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18].

وبقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:36]، يشير إلى إن رؤية الخير والشر من غير الله ضلالة، وتخويف بمن دون الله غاية الضلالة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:36]؛ لأن الهادي على الحقيقة هو الله.

﴿وَمَنْ يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:37] كيف يضله؟! ﴿أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ﴾ [الزمر:37] يعز من يعبده ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر:37] ممن يعصيه.

ثم أخبر عن مقال أهل الضلال في ثناء ذي الجلال بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله﴾ [الزمر:38]، يشير إلى إن الإيمان الفطري مركوز في جبلة الإنسان يوم الميثاق؛ إذ أشهدهم الله على أنفسهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾

[الأعراف:172]، كما قال: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30]، وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]، فلا يزال يوجد في الإنسان وإن كان كافرًا أثر ذلك الإقرار، ولكنه غير نافع إلا مع الإيمان الكسبي بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء به، فلما قرر عليهم علو صفاته وما هو عليه استحقاق جلاله فأقروا بذلك.

ثم طالبهم بذكر صفات الأصنام التي عبدوها من دونه، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:38]، فلم يمكنهم في وصفها إلا الجمادية، والبعد في الحياة، والعلم والقدرة، والتمكن من الخلق، فيقول: كيف أشركتم به بهذه الأشياء؟ وهل استحيبتم عن إطلاق أمثال هذا في صفة ﴿قُلْ﴾ [الزمر:38] يا محمد، ﴿حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:38] كافي الله المتفرد بالجلال، القادر على ما يشاء، المتفضل معي، ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:39]، سوف ينكشف ربحنا وخسرانكم، وسوف يظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف يطالبكم ولا جواب لكم، ويعذبكم ولا شفيع لكم، ويدخر عليكم ولا صريخ لكم، وسوف تعلمون ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [الزمر:40] بسوء أعماله، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ [الزمر:40] من أفعاله ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [الزمر:40] إلى الأبد.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: 41 - 44].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ [الزمر:41] أو للذين ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67]، ليذكرهم القرآن جواز الحق، وما نالوا من فضل الله، ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى﴾ [الزمر:41] بالقرآن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ [الزمر:41] اهتدى؛ لأن فوائد الهداية راجعة

(1) تقدم تخريجه.

إلى نفسه بأن تنورت بنور الهداية، فتمحوا عنها ظلمات آثار صفاتها الحيوانية السبعية الشيطانية الموجبة لدخول النار، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر:41]، فإنه توكل إلى نفسه وطبيعتها، فتغلبت عليه الصفات الذميمة، فيكون حطب النار، ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ [الزمر:41] يا محمد، ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:41] تحفظهم من النار.

وبقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾[1] [الزمر:42] عنده، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر:42]، يشير إلى أنه تعالى من عواطف إحسانه القديم في شأن العبد ورعاية صلاحه في ليله ونهاره، وحالة نومه ويقظته، وحين وفاته وحياته، وبعد مماته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الزمر:42] لدلالات على كمال عناية الله ونهاية لطفه وكرمه في حق عباده ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42] في هذه الإشارات المودعة وفي هذه العبارات.

ثم أخبر عن جهالة العباد وضلالتهم بقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:43]، يشير إلى أن اتخاذ الأشياء للعبادة أو للشفاعة بالهوى والطبع لا بأمر الله ووفق الشرع يكون ضلالة على ضلالة، وإن

---

(1) قال البقلي: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجددت عليها لذائذ المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ كُلَّ ليلةٍ إلى تحتَ العرشِ، فمَنْ نامَ على طهارةٍ أُذِنَ لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يُؤذن» قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتوفَّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفسًا لطيفًا، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتًا. وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيفٍ، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضًا: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذَّر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟!

المقبول في العبادة والشفاعة ما يكون بأمر الله ومتابعة نبيه على وفق الشرع؛ وذلك لأن حجاب العبد هو الطبع والهوى، وإنما أرسل الأنبياء لنفي الهوى؛ ليكون حركات العبادة وسكناتهم بأمر الحق تعالى ومتابعة الأنبياء لا بأمر الهوى ومتابعة النفس؛ لأن النفس وهواها ظلمانية، والأمر ومتابعة الأنبياء نورانية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257] ولا تندفع الظلمة إلا بالنور.

ثم اعلم أن العبادات نورانية، والشهوات ظلمانية، ولكن العبد إذا عبد الله بالهوى والطبع تصير عبادته ظلمانية، وإذا جامع زوجته بالأمر على وفق الشرع تصير شهوته نورانية، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:44]؛ أي: هو مالك الشفاعة لا يملكها غيره، إلا في ما ملكه الشفاعة وأذن له فيها، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:44]، يشير إلى أن ما في السماوات سماوات القلوب، والأرواح أرض النفوس، والأشباح هو الله مالك ولا يملكه أحد؛ لأنه عُبد، ولا ملك لعبد فالعبد وما يملكه لمولاه، وإنما هو عارية عندهم، والعارية مردودة إلى مالكها، ثم كل عبد من العباد يرجع إلى حضرة ربه ويرى أحواله، هل ربح بما أعطي أو خسر عليه؟.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝ ﴾ [الزمر: 45 -47]

ويقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: 45]، يشير إلى إمارة خسرانهم بأنهم تصرفوا في العارية بغير إذن صاحبها على خلاف أوامره، وفي إمارة خسرانهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:45]؛ أي: من دون الله، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:45]؛ وذلك لانحراف مزاج توحيدهم بالتفاتهم إلى ملك الله الذي كان عندهم بالعارية بنظر الخيانة من التملك، فوقعوا عن الصراط المستقيم الواحدة في جهنم الشركة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:15].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الزمر:46] سماوات القلوب والأرواح، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر:46] أرض النفوس والأشباح، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ [الزمر:46] غيب ما

يجري في الأرواح والقلوب والنفوس، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر:46] شهادة ما يجري على الأشباح، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ [الزمر:46] من الأرواح والقلوب والنفوس والأشباح فيما جرى عنهم، وفيما بينهم اليوم بالعفو والفضل والكرم، وتوفيق التوبة والإنابة وإصلاح ذات البين، ويوم القيامة بالعدل والنفقة وانتقام بعضهم من بعض ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:46] بالشرع والطبع.

ثم أخبر عن أحوالهم مع أهوال الآخرة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ [الزمر:47]؛ لكن ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:47]، يشير إلى أن هذه الجملة لا تقبل يوم القيامة لدفع العذاب، واليوم هاهنا يقبل ذرة من الخير، ولقمة من الصدقة، وكلمة من التوبة والاستغفار، كما أنهم لو بكوا في الآخرة بالدماء لا يرحم بكائهم، وبدمعة واحدة اليوم تمحى كثير من دواوينهم، فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1] [الزمر:47]، وفي سماع هذه الآية حسرة لأصحاب الانتباه، وفي بعض الأخبار أن قومًا من المسلمين من أصحاب الذنوب يؤمر بهم إلى النار، فإذا وافوها يقول: مالك من أنتم؟ فإن الذين جاءوا قبلكم من أهل النار

---

(1) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيّ والعبادة، واغترُّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ. [العرائس].

وجوههم مسودة وعيونهم زرقاء، وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون: ونحن لم نتوقع أن نلقاك وإنها ننتظر بأشياء أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:47].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الزمر: 48-52].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر:48] من كفران النعمة، ونسيان الحضرة بالبعد والطرد والهجران، ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ [الزمر:51]؛ يعني: الغفلة، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر:51] بأعمالهم وأخلاقهم، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:51] عن مجازاتهم بالخير والشر.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الزمر:52] من نعمة الدنيا والآخرة وسعادتها، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:52] على من يشاء؛ يعني: أمر الدنيا والآخرة يبنى على مشيئته سبحانه وتعالى لا على مشيئة العباد، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52] بأن يخرجهم عن مشيئتهم، ويستسلمون لمشيئة الله تعالى وحكمه وقضائه.

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝﴾ [الزمر: 53 - 56].

ثم أخبر عن إسراف الأشراف بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:53]، يشير إلى مدح وذم من التسمية بـ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [الزمر:53] مدح، والوصف بأنهم أسرفوا ذم، فلما قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ [الزمر:53] طمع المطيعون أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسهم ونكس

العاصي رأسه من أناجي يقول لي: هذا، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:53] فانقلب الحال، فهؤلاء الذين نكسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت زلتهم، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت حولتهم، ثم أزال الأعجوبة عن القصة بما قوى رجاهم بقوله: ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر:53]؛ يعني: إن أسرفت فعلى نفسك أسرفت لا تقطعوا من رحمة الله بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عنا، ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:53]، واللام للاستغراق والعموم، والذنوب جمع وجميعًا تأكيدًا، فكأنه قال: أغفر ولا أترك، وأعفوا ولا أبقي، وفيه إشارة أخرى وهي أنه بـ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [الزمر:53] استخصهم بالمغفرة على الإسراف بالذنوب، فإنه تعالى في الأزل جعلهم من خواص عباده، وقبلهم بلا علة، فلا يردهم بالعلة، ومن كرمه يقول: «إن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة»، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ [الزمر:53] لكم في الأزل، وأنتم في كتم العدم، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53] عليكم إلى الأبد.

وبقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:54]، يشير إلى عباده المختصين بالعناية وإن أسرفوا أن ارجعوا إلى ربكم بالكلية، فالتوبة لأهل البداية وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، والأوبة للمتوسط وهي الرجوع من الدنيا إلى الآخرة، والإنابة لأهل النهاية وهي الرجوع مما سوى الله إلى الله بالقناعة في الله وهو قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:54]، أي: أسلموا ببذل ليفنيكم به عنكم، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ [الزمر:54] بأن تفسدوا الاستعداد الأصلي فتستوجبوا العذاب، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر:54] لعدم الاستعداد.

وبقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:55]، يشير إلى أن ما أنزل من الله منه: ما يكون حسنًا، ومنه: ما يكون أحسن، فالذي أنزل وهو حسن فهو ما يدعونه إلى الجنة، والذي أنزل وهو أحسن فهو يدعو به إلى الله عز وجل وهو قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:46]، فالمعنى اتبعوا داعي الله بالسير إلى الله، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ [الزمر:55] عذاب الفرقة والقطيعة بإفساد الاستعداد فلا يمكنكم الإنابة والرجوع، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:55] إنكم منقطعون.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر:56] بإفساد استعداد الوصول إلى الله، ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:56] المنكرين المستهزئين

بأرباب الطلب، وأصحاب القلوب.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)﴾ [الزمر: 57 - 62].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ [الزمر آية: 57] من وساوس الشيطان، وهواجس النفس، ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي﴾ [الزمر:57] إلى صفة جلاله، ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:57] به عما سواه.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ [الزمر:58] عذاب الحرمان والهجران، ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ [الزمر:58] رجعة إلى الاستعداد الأصلي، ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:58] في الطلب، وترك ما سوى الله، فيقول الله: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ [الزمر:59] من الأنبياء، ومعجزاتهم، والكتب وحكمها، ومواعظها وأسرارها، وحقائقها ودقائقها وإشاراتها، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر:59] عن اتباعها، والقيام بشرائطها، ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:59]، أي: كافر النعمة بما أنعم الله به عليك من نعمة وجود الأنبياء، وإنزال الكتب وإظهار المعجزات.

ويقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:60]، يشير إلى أن يوم القيامة تكون الوجوه بلون القلوب، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:60] الذين تكبروا على أولياء الله عن قبول النصح والموعظة.

﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الزمر:61] بالله عما سواه ﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾[1] [الزمر:61] سوء القطيعة والهجران، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:61] على ما فاتهم من نعيم الدنيا والآخرة فازوا بقربة المولى، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين، اليوم

---

(1) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب : ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) البحر المديد (5/ 337).

عصمة وغدًا رؤية، اليوم عناية وغدًا كفاية وولاية.

﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:62] دخل أفعال العباد وإكسابهم في هذه الجملة، ولا يدخل كلامه فيه؛ لأن المخاطب لا يخطب تحت الخطاب؛ لأنه تعالى يخلق الأشياء بكلامه، وهو كلمة «كن»، به يشير إلى أنه تعالى خلق كل شيء بشيء، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62]؛ ليبلغه على ذلك الشيء الذي خلق له.

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: 63 - 67].

ثم أخبر عن كمال قدرته إظهارًا لعزته بقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر:63]، يشير إلى أن له مفاتيح خزائن لطفه وهي مكتوبة في سماوات القلوب، وله مفاتيح خزائن قهره وهي مودعة في أرض النفوس؛ يعني: لا يُملَّك لأحد مفاتيح خزائن لطفه وقهره إلا هو، وهو الفتاح وبيده المفتاح يفتح على من يشاء أبواب خزائن لطفه في قلبه فيخرج ينابيع الحكمة منه وجواهر الأخلاق الحسنة، ويفتح على من يشاء أبواب خزائن قهره في نفسه فيخرج عيون المكر والخداع والحيل منها وفنون الأوصاف الذميمة؛ ولهذا السر قال ﷺ «مفتاح القلوب لا إله إلا الله»[1]، وكما سأله عثمان ﷺ عن تفسير مقاليد السماوات والأرض قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، كما مر ذكره، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله أُولَئِكَ هُمُ الْـخَاسِرُونَ﴾ [الزمر:63]، يعني: بأنهم فتحوا أبواب نفوسهم بمفتاح الكفر والنفاق.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْـجَاهِلُونَ﴾ [الزمر:64] عن فضله في حقي، فإنه بتوحيده ربَّاني، وبتفريده عذاني، وبشراب حبه سقاني.

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

---

(1) ذكره حقي (12/ 321).

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:65]، يشير إلى أن الإنسان ولو كان نبيًا لئن وكل إلى نفسه ليفتحن بمفتاح الشرك والرياء أبواب خزائن قهر الله على نفسه، وليحبطن عمله بأن يلاحظ غير الله بنظر المحبة، ويثبت معه في الإبداع سواه، وليكونن من جملة المشركين الخاسرين، وفيه دقيقة لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65]، أي: من مكاسبك؛ ولكن لا يحبط من مواهبي شيء؛ يعني النبوة والرسالة من مواهبي لا تبطلها مكاسبك كما لا تحصلها ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:66]، بأنه كونك نبيًا مرسلاً بفضله وكرمه لا بسعيك وعملك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ﴾[1] [الزمر:67] ما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه، فمن وصف بتمثيل أو جنح إلى تعطيل حاد عن السنن المثلى، وانحرف على طريقة الحسنى، ووصفوا الحق بالأعضاء، وتوهموا في نعمته إلا جزاء مما قدروه ﴿حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67]، فمذهبي في تحقيق هذه الآية أن أجري على ما أراد الله تحقيقها فلا أفسرها ولا أؤلها من المتشابهات فلا مساغ لها إلا الإيمان بها، كما قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7] أي: نؤمن به ولا نفسره ولا نؤوله، فأما أرباب الحقائق والإشارات وأن يريهم الله تعالى حقيقة بعض المتشابهات، فالعلاج في هذا الزمان ألّا يفشو أسرار الحق تعالى بالكتابة، اللهم إلا أن يجدوا مريدًا صادقًا مستعدًا لقبول هذا الفيض بلا تعصب منزهًا عن شوائب الهوى؛ لئلا يقع في فتنة؛ ولهذا المعنى نزه الله ذاته وصفاته عن فهم المفسرين ووصف المتأولين فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:67]؛ أي: بصفات المخلوقين.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم

---

(1) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه

يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (12/ 325).

قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 68 - 72].

ثم أخبر عن نفخ الصور وإشراق النور بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [الزمر:68]، يشير إلى نفخ نفخات ألطاف الحق في صور الأرواح ﴿فَصَعِقَ﴾ [الزمر:68]،؛أي: فتغير عن وصفه في سماوات القلوب من الصفات الإنسانية إلى الصفات الربانية، ومن في الأرض البشرية من الصفات النفسانية إلى الصفات الروحانية ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [الزمر:68] في بعض الصفات أن لا يغيرها، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ [الزمر:68]؛ أي: قائمون بالله ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:68] بنور الله.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ [الزمر:69] أرض الوجوه، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69] إذا تجلى لها، ويقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:69]، يشير إلى أن النبيين والشهداء إذا دُعوا للقضاء والحكومة والمحاسبة، فكيف يكون حال الأمم وأهل المعاصي والذنوب؟

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [الزمر:70] من الخير والشر، والطاعة والمعصية، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:70]؛ أي: والله أعلم منهم بأنفسهم بما يفعلون؛ إذ هو يخلق أفعالهم فيهم، وهو يعلم أيها خلق للخير والشر، ﴿وَسِيقَ﴾ [الزمر:71] الذكر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر:71] بداعية الكفر على أقدام أفعالهم، ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [الزمر:71] البعد والفراق، ﴿زُمَرًا﴾ [الزمر:71] فرقة فرقة على أقدام أفعال آخر، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:71] السبعة التي من الأوصاف الذميمة النفسانية؛ وهي: الكبر والبخل، والحرص والشهوة، والحسد والغضب والحقد، فإنها أبواب جهنم، وكل من يدخل فيها لابد له من أن يدخل من باب من أبوابها.

وبقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71]، يشير إلى أن الحكمة الإلهية اقتضت إظهارًا لصفة القهر أن يخلق نارًا ويخلق لها أهلاً، كما أنه تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً إظهارًا لصفة اللطف، فلهذه الحكمة ﴿قِيلَ﴾ [الزمر:72] في الأزل قهرًا وقسرًا ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر:72]، وهي الصفات الذميمة كما مر شرحها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر:72]، بحيث لا يمكنه الخروج عن هذه الصفات بتبديلها، كما يخرج المتقون منا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:72]، به يشير إلى أن العصاه صنفان:

صنف منهم: متكبرون وهم المصرون متابعو إبليس فلهم الخلود في النار.

وصنف منهم: متواضعون وهم التائبون متابعو آدم فلهم النجاة، وبهذا الدليل يثبت أنه ليس ذنب أكبر بعد الشرك من الكبر؛ بل الشرك أيضا يتولد من الكبر، كما قال تعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34]، وهذا تحقيق قوله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهم ألقيته في النار»[1]؛ ولهذا المعنى قال ﷺ «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر»[2].

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: 73 - 75].

ثم أخبر عن سوق أهل التُقى إلى جنة المأوى بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:73]، يشير إلى أنهم سيقوا بداعية الإيمان على أقدام الأعمال الصالحة ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:73] فرقه فرقة، كل فرقة على قدم خلق آخر، ولكنه سوق بغير تعب ولا نصب، بل سوق بروح وطرب، هؤلاء عوام أهل الجنة، وفوق هؤلاء قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:31]، وفوقهم من قال فيهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ [مريم:85]، وفرق بين من يساق إلى الجنة وبين من تقربت منه الجنة،

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وفي الحقيقة أهل السوق الظالمون، وأهل الزلفة المقتصدون، وأهل الوفد السابقون، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:73]؛ أي: وجدوا أبوابها مفتوحة؛ لئلا يصيبهم وصب الانتظام، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:73] هذا لعوام أهل الجنة، ولخواصهم قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر:74]، للعوام بقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر:74]، وللخواص صدقهم وعده بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26]، ولأخص الخواص أصدقهم وعده بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] فنعم أجر العاشقين.

وبقوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: 75]، يشير إلى أن النبي ﷺ وخواص متابعيه من أمته إذا كانوا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] في جوار رب العالمين وكمال قرب أو أدنى ترى يا محمد الملائكة حافين من حول العرش، ولا حول لهم ولا قوة على العبور، والوصول إلى العرش وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:75]، راضون قائمون بذلك، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر:75]؛ يعني: بين الملائكة وبين الأنبياء والأولياء بما أعطي كل فريق منهم من المراتب والمنازل ما أعطي، ﴿وَقِيلَ﴾ [الزمر:75]؛ يعني: قال كل فريق منهم ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:75] على ما أنعم علينا به.

سورة غافر

مكية وهي خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦﴾ [غافر: 1 - 6].

﴿حم﴾ [غافر:1]، يشير إلى القسم بسر بينه وبين حبيبه محمد ﷺ لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وذلك أن الحاء والميم هما حرفان من وسط اسم الله وهو رحمان، وحرفان من وسط اسم حبيبه وهو محمد، كما أن الحرفين سر اسميهما، فهما يشيران إلى أن القسم بسر كان بينهما أن ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ﴾ [غافر:2] الذي معز لأوليائه ﴿الْعَلِيمِ﴾ [غافر:2]، بما صدر منهم إلى أعز أوليائه به، ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر:3] لهم ما يتوب عليهم، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:3] بأن يوفقهم الإخلاص في التوبة؛ لأنهم مظهر صفات لطفه، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر:3] لمن لا يؤمن ولا يتوب؛ لأنهم مظهر صفات قهره، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:3] لعموم خلقه بالإيجاد من العدم، وإعطاء الحياة والرزق بالكرم، وأيضًا ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر:3] لظالمهم، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:3] لمقصدهم، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر:3] لمشركهم، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:3] لسابقهم، ولما كانت من سنة كرمه أن سبقت رحمته غضبه، غلبت ها هنا أسامي صفات لطفه على اسم صفة قهره؛ بل من عواطف إحسانه ومراحم طوله وإنعامه جعل صفة اسم قهره بين ثلاثة أسماء من صفات لطفه فصار ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:19-20]، فإذا هبت رياح العناية من مهب الهداية ويتموج البحرين فيتلاشى البرزخ باصطكاك البحرين، ويصير الكل بحرًا واحدًا، وهو بحر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر:3]، فإذا كان إليه المصير فقد طاب المصير.

وبقوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر:4]، يشير إلى أنه إذا أظهر البرهان واتضح البيان استسلمت الألباب الصافية للاستجابة والإيمان، فأما أهل الكفر

والطغيان فلهم على الجحود إصرار، وشؤم شركهم يحول بينهم وبين الإنصاف، وكذلك أهل الحرمان من كرامات أولياء الله، وذوق مشاربهم ومقاماتهم يصرون على إنكارهم، يخصص الله عباده بالآيات، ويعرضون عليهم بقلوبهم، فيجادلون في جحد الكرامات، وسيفتضحون كثيرًا، ولكنهم لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: 4] لتحصيل العلوم؛ إذا كان مبنيًا على الهوى والميل إلى الدنيا فلا يكون لها نور يهتدي به إلى ما خصص الله تعالى به عباده المخلصين.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: 5]، يشير به: إن في كل عصر يكون فيه صاحب ولاية لابد لهم من أرباب الجحود والإنكار وأهل الإعراض، كما كانوا في عهد كل نبي ورسول، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: 5]؛ ليكون ذلك سببًا لشقاوة المنكرين، وسعادة المقربين ثم قال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ [غافر: 5]؛ أي: عاقبتهم على ذلك الإنكار بالإصرار عليه، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: 5]؛ أي: كان عقاب الدنيا بالإصرار، وعقاب الآخرة بالنار، وذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 6].

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)﴾ [غافر: 7 - 11].

ثم أخبر عن أحوال حملة العرش وأعمالهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] [غافر: 7]، يشير

---

(1) قال روزبهان: وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبته، وفيض مشاهدته، يطيرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون عما يجدون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه
=

إلى أن الملائكة كما أمروا بالتسبيح والتحميد والتمجيد لله تعالى فكذلك أمروا بالاستغفار والدعاء لمذنبي المؤمنين؛ لأن الاستغفار للذنب. ويجتهدون في الدعاء لهم فيدعون لهم بالنجاة، ثم برفع الدرجات كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:7] فارحمهم وأعف عنهم ما علمت لهم ومنهم، ويقوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:7]، يشير إلى أنه الملائكة لا يستغفرون إلا لمن تاب ورجع عن إتباع الهوى، واتبع بصدق الطلب وصفاء النية سبيل الحق تعالى وبقوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر:7]، يشير إلى أن بمجرد التوبة لا تحصل النجاة إلا بالثبات عليها، وتخليص العمل عن شوب الرياء والسمعة، وتصفية القلب عن الأهواء والبدع.

وبقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر:8]، يشير إلى أن بركة الرجل التائب تصل إلى آبائه وأزواجه وذرياته لينالوا بها الجنة ونعيمها، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ [غافر:8] تعز التائبين وتحبهم وإن أذنبوا، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [غافر:8] فيما لم تعتصم محبتك عن الذنوب، ثم يتوب عليهم.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ [غافر:9]؛ يعني: بعد أن تابوا؛ لئلا يرجعوا إلى المعاصي والذنوب، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر:9]، يحيلون الأمر فيه إلى رحمته، وبرحمته لئن سلط على المؤمنين أراذل في خلقه وهم الشياطين فقد قيض بشفاعة أفاضل من خلقه وهم الملائكة المقربون.

ثم أخبر عن أراذل الخلق دون الأفاضل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر:10]، يشير إلى أن مقت الحق تعالى مودع في محبة العبد نفسه؛ لأنها أعدى عدوه، وقد صرف محبة الله الذي هو أحب محبته إلى أعدى عدوه بدل صفته فمقته الله ﷻ؛ فمعنى الآية: إن العبد لو مقت نفسه في الله لكان أحبه ولم يمقته، فلما

منزه عن النظير والشبيه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشوف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده. ثم بيَّن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته.

أحب نفسه ولم يمقتها في الله ومقت الله له يضره نفسه فمقته الله، فمقت الله للعبد أكبر على العبد من مقته نفسه؛ لأن مقته لنفسه ينفعه وينفع نفسه ومقت الله له يضره نفسه، ولأن أشد العقوبات التي توصل الحق إلى العباد آثار سخطه وغضبه، وأجل النعم التي يفردها بها آثار رضاه عنهم، فإذا عرف الكافر في الآخرة أن ربه عليه غضبان فلا شيء أصعب على قلبه منه على أنه لا بكاء ينفعه، ولا غناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع له تضرع في الآخرة ولا ترجى له حيله، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:10].

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:11] إماتة القلوب وإحياء النفوس، إماتة الأبدان وإحياؤها بالبعث ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر:11]، وإن كان تقدير الأعمال والإماتة والإحياء منك ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر:11] اليوم بنوع من الأعمال، ولما لم يجبهم الله؛ لأنه لا سبيل لكم إلى الخروج من النار بنوع من الأعمال فلعله خلى موضع الرجاء بكرمه.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾
[غافر: 12 - 16].

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر:12]؛ أي: ذلك العذاب بأنكم إذا دعيتم بوحدانية الله بالخروج عن الإثنينية كفرتم بكفران هذه النعمة على أنفسكم، وأنكرتم قبولها، ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ [غافر:12]؛ يعني: ببقاء الوجود والدعوة إلى غير الله من نعيم الدار، ﴿تُؤْمِنُوا﴾ [غافر:12] وتقبلوا، ﴿فَالْحُكْمُ لله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر:12]، في ذلك لا لكم، فلمن يشاء يبقيه في مقام الإثنينية، ولمن شاء يخرجه إلى الوحدانية كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:57] إلى نور الوحدانية.

وبقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر:13]، يشير إلى أنه ليس للإنسان أن يرى ببصيرته حقائق آيات الحق تعالى إلا بإرادة الحق تعالى إياه كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي

الآفَاقِ﴾ [فصلت:53]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [غافر:13]؛ أي: سماء الأرواح، ﴿رِزْقًا﴾ [غافر:13]؛ أي: الواردات والشواهد التي هي رزق القلوب وبها تربى، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر:13]؛ أي: وما يتحقق هذه الحقائق إلا لمن يرجع بكلية إلى الله تعالى فيشاهد في كل مقام ما يناسب ذلك المقام.

وبقوله: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:14]، يشير إلى أن المدعو من الله ينبغي أن يكون على كراهة كافر النفس فإنها تميل إلى مشاربها.

ثم أخبر عن الدرجات والكرامات بقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر:15]، يشير إلى رفع درجات الطوائف المختلفة، رافع درجات العصاة بالنجاة، والمطيعين بالمثوبات، والأصفياء والأولياء بالكرامات، والعارفين بالارتقاء عن الكونين، والمحبين بالفناء في المجيء وبقاء المحبوبية، ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:15]؛ أي: ذو الملك العظيم؛ لأنه تعالى خلقه أرفع الموجودات وأعظمها جنة إظهارًا للعظمة ،وأيضًا بجميع الصفات ذو عرش القلوب فإنها العرش الحقيقي؛ لأنه تعالى استوى على العرش بصفة الرحمانية ولا شعور للعرش به، واستوى على قلوب أوليائه بجميع الصفات وهم العلماء بالله مستغرقين في بحر معرفته، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:15] روح الدراية للمؤمنين، وروح الولاية للعارفين، وروح النبوة للنبيين، ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15]؛ أي: لينذر الروح يوم تلتقي مع الله بلا هَوْدٍ، وهو معنى قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ [غافر:16]؛ أي: خارجون من وجودهم بالفناء، ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: 16] من وجوده هم عند إفنائه حتى لا يبقى له غير الله، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16]؛ يعني: ملك الوجود، وهذا المقام الذي أشار إليه الجنيد بقوله: ما في الوجود سوى الله فإذا لم يكن لغير الله ملك الوجود يكون هو الداعي والمجيب، فيقول: ﴿للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]؛ لأنه تعالى تجلى بصفات القهارية فما بقي الداعي والمجيب غير الله.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: 17 - 20].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:17] في بذل الوجود للمعبود، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:17]؛ يعني: يوم التجلي يكون بقدر بذل الوجود نيل الجود، فإن الحطب بقدر بذل الوجود المجازي ينال من جود النار بلا ظلم على الحطب من النار، بأن تأخذ وجود شيء من الحطب ولا تجود عليه من النارية بشيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:17] للعباد عند جريان هذه الأحكام؛ إذ جاء الحق وزهق الباطل بالسرعة.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:18]، إن كانت قيامة العوام مؤجلة، فقيامة الخواص معجلة لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب، والبعاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب وشهادة الأعضاء فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والتحول يخبر، واللون يفضح، والعبد يستر، ولكن البلاء يظهر، وإذا أزف فناء الصفات بلغت القلوب الحناجر، وعيونهم شرفت بدموعها، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [غافر:18] على أنفسهم بحمل أمانة المحبة ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]، يستغيثون به فيسقي في حقهم بالمساعدة؛ لخلاصهم من ورطة الهلاك، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:19]، فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئًا غير المحبوب، والنظر إلى غير المحبوب خائنة أعين القلوب، وفي معناها قيل فقلت: إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[1] [غافر:19] من

(1) قال روزبهان: وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليَّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفها، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفها الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية». وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن

متمنيات النفوس، ومستحسنات القلوب، ومرغوبات الأرواح، فالحق تعالى بها خبير، ويكون السالك موقوفًا بها حتى يخرج عن تعلقها.

وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر:20]، يشير إلى أن الحق تعالى هو الذي يخرج السالكين عن تعلقات أوصافهم على ما قضى به وقدر في الأزل، لا عاملين عليها وإن كان بواسطة أعمالهم كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:257] وإن كان بواسطة إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وكذلك يقضي الأجانب بالبعاد، وبالوصال لأهل الوداد، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [غافر:20] في الأزل قد سمع سؤال أهل الحوائج وهم بعد في العدم بلا وجود، وكذلك سمع أنين نفوس المذنبين، وحنين قلوب المحبين وهم مسبوقون بالعدم، ﴿الْبَصِيرُ﴾ [غافر:20] بحاجاتهم وبقضاء حوائجهم.

﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ [غافر: ٢١ - ٢٢].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: 21]؛ أي: فينظروا كيف خلق السماوات والأرض وما بينهما على قضية حوائجهم وهم صنفان: أهل السعادة، وأهل الشقاوة:

فأهل السعادة: شكروا الله على نعمة الوجود فزادهم نعمة الإيمان، فشكروا نعمة

تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع والطريقة. وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانته في الصدر ألا يصبر في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن. قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

الإيمان فزادهم نعمة الولاية، فشكروا نعمة الولاية فزادهم نعمة القرب والمعرفة في الدنيا، ونعمة الجوار في الآخرة.

وأهل الشقاوة: قد كفروا نعمة الوجود فعذبهم الله بالكفر والبعاد، والطرد واللعن في الدنيا، وعذبهم في الآخرة بالنار وأنواع التعذيبات، وقوله: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر:21] فيعتبروا بمن كانوا هم منهم أشد قوة في الجهل والاعتداء، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر:21] بالفساد، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ﴾ [غافر:21] من قهر الله وبطشه، ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر:21]، أو لم يسيروا بنفوسهم في أقطار الأرض ويطوفوا مشارقها ومغاربها؛ ليعتبروا بها فيزهدوا فيها، ولم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان قطع التعلقات فيشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها، أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية؛ ليهلكوا في سلطان الحقائق، ويتخلصوا من حبس المخلوقات ملكها وملكوتها.

ويقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ [غافر: 22]، يشير إلى بعض السالكين والقاصدين إلى الله إن لم يصل إلى مقصوده؛ ليعلم أن موجب حجبيته وحرمانه اعتراض خامر قلبه على شيخه أو على غيره من المشايخ بعض أوقاته، ولم يتداركه بالتوبة والإنابة، فإن الشيوخ بمحل الأنبياء للمريدين وفي الخبر «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[1]، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ [غافر:22] على انتقام الأعداء للأولياء، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر:22] في الانتقام من الأعداء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[غافر:23-27]

ثم أخبر عن أهل الإعراض والاعتراض بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

(1) تقدم تخريجه.

وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:23-24]، يشير إلى أنه تعالى من عواطف إحسانه يرسل أفضل خلقه في وقته إلى من أرذل خلقه، ويبعث أخص عباده إلى أحسن عباده؛ ليدعوه إلى حضرة جلاله لإصلاح حاله بفضله ونواله، والبعد عن خسة طبعه وركاكة عقله يقابله بالتكذيب وينسبه إلى السحر، والله سبحانه وتعالى إظهارًا لحلمه وكرمه لم يعجل عقوبته ويمهل إلى أوانه ظهور شقوته، فيجعله مظهر صفة قهره، وليبلغ موسى عليه السلام كمال سعادته فيجعله مظهر صفة لطفه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [غافر:25]؛ يعني: موسى عليه السلام ومعه التوراة والمعجزات، قالوا: لاستكمال شقاوتهم؛ يعني: فرعون وقومه، ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر:25]، عزم على إهلاك موسى وقومه، واستعان على ذلك بجهده وحيله ورجاله إتمامًا لاستحقاقهم العذاب وللرد من حفظ الحق تعالى كان كما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:25] في ازدياد ناقدًا لهم به، يشير إلى أن من حفر بئرًا لولي من أولياء الله ما يقع فيه إلا حافره، بذلك أجرى الحق تعالى سنته.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:26]، فمن عمي قلبه ظن أن الله يذره أن يقتل موسى بحوله وقوته أن تذره وقومه، ولم يعلم أن الله يهلكه وقومه، وينجي موسى وقومه وهو يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:26] ولم يخف هلاك نفسه، وهلاك قومه وفساد حالهم في الدارين، ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:27]، فأعاذه الله من شرهم وأمّنهم من كيدهم.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [غافر: 28 - 33].

وبقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ [غافر:28] إلى قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:33]، ويشير إلى أن الله تعالى إذا شاء بكمال قدرته إظهارًا لفضله وقدرته يخرج الحي من الميت، كما أخرج مؤمن من آل فرعون مؤمنًا حيًا قلبه بالإيمان من بين قوم كفار أموات قلوبهم بالكفر فيتحقق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، وإذا شاء إظهارًا لعزته وجبروته يعمي ويصم الملوك والعقلاء مثل فرعون وقومه؛ لئلا يبصروا آيات الله الظاهرة، ولا يسمعوا الحجج الباهرة مثل ما نصحهم بها مؤمن أنهم بتحقق قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:33] وتحقيقًا لقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:13].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: 34 - 37].

ثم أخبر عن أسباب الارتياب بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ [غافر:34]، يشير إلى أن الإنسان من ظلوميته وجهوليته لو خلي إلى طبيعته لا يؤمن بنبي من الأنبياء، ولا بمعجزاتهم أنها آيات الحق تعالى، وهذا طبيعة المتقدمين والمتأخرين منهم، وأن المهتدي منهم من يهده الله بفضله وكرمه، ومن إنكارهم الطبيعي أنهم ما آمنوا بنبوة يوسف عليه السلام فلما هلك أنكروا أن يكون بعده رسولاً.

كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ﴾ [غافر:34]؛ أي: يكله إلى إنكاره الطبيعي ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ [غافر:34] في طلب الدنيا وشهواتها، ﴿مُرْتَابٌ﴾ [غافر:34] في دعوى الإيمان والطلب.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر:35]؛ أي: بغير شاهد من

شواهد الحق تعالى أتاهم من الله بوادة الحق ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ﴾ [غافر:35]، أن يقولوا على الله مالا تعلمون، ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:35] أن يجادلوهم بالباطل ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:35]؛ أي: كذلك بطريق تكبر المتكبر، وتمرد الجبار والجدال بالباطل يختم الله تعالى بخاتم المقت على كل قلب متصف بالكبر والجبروت.

وبقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر:36]، ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:37]، يشير إلى أن من ظن الله سبحانه في السماء كما ظن فرعون فإنه فرعون وقته، ولو لم يكن من المضاهاة بين من يعتقد أن الله تعالى في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خزيًا لمذهبهم وغلط اعتقادهم، فإن فرعون غلط إذ توهم أن الله في السماء، ولو كان في السماء لكان فرعون مصيبًا في طلبه من السماء، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر:37] دل على أن اعتقاده أن الله في السماء خطأ، وأنه بذلك مصدود عن سبيل الله، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:37] في طلب الله عن السماء، ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:37] خسران وضلالة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢)﴾

[غافر: ٣٨ - ٤٢].

وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 38]، يشير إلى أن الهداية مودعة في أتباع الأنبياء والأولياء، وللولي أن يهدي سبيل الرشاد كما يهدي النبي إليه بتبعية النبي، ومن الهداية قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:39]، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر:40] إظهار للعدل ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ

﴿فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:40] إظهارًا للفضل مما لم يكن وحساب العبد أن يرزق مثله.

ثم أخبر عن الداعي إلى الخير والداعي إلى الشر بقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ [غافر: 41]، يشير إلى قول مؤخر الروح: ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:41] بمتابعة المصطفى ومخالفة الهوى من نار الأخلاق الذميمة، والأوصاف السبعية والبهيمية والسفلية، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر:41] نار الشهوات وهي دركات الجحيم.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [غافر:42]؛ أي: رغبة وذوق منه، ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ [غافر:42] الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4] ولا يوجد له شبيه، ﴿الْغَفَّارِ﴾ [غافر:42] لمن تاب ورجع إليه من متابعة الهوى بمتابعة المصطفى.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر: 43 - 46].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [غافر:43] من عبادة الهوى، ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ [غافر:43]؛ أي: استجابة دعوة في الدنيا؛ أي: ببقاء، ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ [غافر: 43]؛ أي: بنجاة ورفعة درجات في الآخرة، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ [غافر:43] مرجعنا، ﴿إِلَى اللهِ﴾ [غافر:43]، لابد بالموت ومفارقة الأرواح الأجساد، ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [غافر: 43] بالتصرف في الدنيا وزينتها وشهواتها على وفق هوى أنفسهم، ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:43] نار القطيعة والبعد والطرد.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر:44] يا آل فرعون النفس عند معاينة عذاب أخلاقكم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ [غافر:44] بقطع التعلق عنكم، وترك التخلق بأخلاقكم وطلب التخلق بأخلاق الله، ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر:44] فيتقرب بكرمه إلى من تقرب إليه، ويطرد من تقرب إلى الدنيا وشهواتها، ﴿فَوَقَاهُ اللهُ﴾ [غافر:45]؛ أي: الروح ﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر:45]؛ أي: من شر النفس وصفاتها، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:45]؛ أي: بالنفس وصفاتها ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر:45]؛ أي: النفس

وصفاتها في استغراقهم في بحر شهوات الدنيا ملابسة الأخلاق الذميمة يزداد كل ساعة بُعد وطرد عن الحضرة، وذلك معنى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46]؛ أي: نار القطيعة، وعن نعيم جنان العرفان بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [غافر: 46]، يشير إلى ساعة مفارقة الروح البدن بالموت فإن من مات فقد قامت قيامته، ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:46]، وذلك إن اشد عذاب فرعون النفس بساعة المفارقة؛ لأنه يعظم عن جميع مألوفات الطبع دفعة واحدة، والعظام عن المألوف شديد، فاعلم أن بحسب كل شيء تعلق به قلبه من المال والجاه والأولاد والأهالي يكون للميت عند انقطاعه عنه ضربة يجد ألمها كما يجد ألم قطع كل عضو منه، وقد يكون الألم بقدر شدة التعلق به.

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (47) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (48) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (49) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (50) إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ (51) ﴾ [غافر: 47 - 51].

وبقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر:47] في الدنيا، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:47-48]، يشير إلى أن محاجة بعضهم لبعض بأن يقول الضعفاء للمستكبرين: أنتم أضللتمونا، والمستكبرون يقولون لهم: بل أنتم وافقتمونا باختياركم يزيد في غيظ قلوبكم، فكما يعذبون بنفوسهم يعذبون بضيق صدورهم، ويفيض بعضهم من بعض.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 49]، وهذه أيضًا من إمارات الأجنبية يدخلون واسطة بينهم وبين ربهم، ثم إن الله تعالى ينزع الرحمة عن قلوبهم حتى لا يشفعوهم.

﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر:50] إذلالهم واستهزائهم وتقريعًا، وهذا أيضًا نوع من العذاب حتى أجابوهم بالتذلل والهوان، ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا

فَادْعُوا﴾ [غافر:50] وهذا أيضًا من نوع الإيذاء ونوع من العذاب، ثم يقولون لهم مستخفين بهم: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:50]؛ يعني: من القبول.

ثم أخبر عن نصرة الأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:51]، يشير إلى الظفر بنفوسهم، فإن كمال النصرة في الظفر على أعدى عدوك وهو نفسك التي بين جنبيك وهو الجهاد الأكبر، ولا يمكن الظفر على النفس ألا ينصره الحق تعالى ينصر القلب على النفس، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر:51] بالتوفيق لتزكيتها بالمجاهدات والرياضات الظاهرة، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:51] عند طلوع شواهد الحق بنصره عليها بكيد خفي ولطف غير مرئي من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، وغاية النصرة أن يقبل الناصر عدو من ينصره، فإذا أراه وحققه أنه لا عدو في الحقيقة وان الخلق أشباح يجري عليهم أحكام القدرة، فالولي لا عدو له ولا صديق ليس له إلا الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:257].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٥٢ - 59].

ثم قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:52] به يشير إلى حاصل أمر النفس وظلمها على القلب، ودليل الخطاب أن المؤمنين ينفعهم معذرتهم، ولهم من الله الرحمة ولهم حسن الدار.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ [غافر:53]، يشير إلى موسى القلب أنه يهديه الله إلى حضرته بجذبات ألطافه وتجلي صفات جلاله وجماله، ولا هادي له غيره، ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ [غافر:53] من بعد موسى؛ أي: من بعد إصلاح حال موسى القلب بالهداية والوصول، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [غافر:53]؛ أي: أرباب الطلب، ﴿الْكِتَابَ﴾ [غافر:53]،

﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ [غافر:54]؛ أي: ما يكتب وينقل من أحوال كمالات القلب ورفعة درجات يكون سبب هدايتهم، وتذكيرًا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر:54]؛ وهم أرباب القلوب المستعدة لقبول الفيض الإلهي.

وبقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [غافر:55] على أذاهم يشير إلى قلب الطالب الصادق بالصبر على ذي النفس، والهوى، والشيطان، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [غافر:55] في نصرة القلب المجاهد مع كافر النفس وظفره عليها، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر:55]؛ أي: مما سرى إليك من صفات النفس في تخلقه بأخلاقها فاستغفره لهذا الذنب فإنه صدأ مرآة القلب، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:55]؛ أي: بدوام الطاعات وملازمة الأذكار تصفوا مرآة القلب من صدأ الأخلاق الذميمة.

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر:56]، يشير إلى مدعي أهل الطلب ومجادلتهم مع أرباب الحقائق فيما ﴿أَتَاهُمْ﴾ [غافر:56] الله من فضله بغير حجة وبرهان بل ﴿حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:109]، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر:56]؛ أي: ليس مانعهم في قبول الحق، وتصديق الصديقين، وتسليمهم فيما يشيرون إليه في الحقائق والمعاني أكبر مما كان وصف إبليس إذ ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34]، و﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:12] وهذه الصفة مركوزة في النفوس كلها؛ ولهذا المعنى بعض الجهلة المغترين بالعلوم ينكرون على بعض مقالات المشايخ الراسخين في العلم.

وبقوله: ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:56]، يشير إلى أن المدعين الكذابين لهذا الحديث المنكرين على أرباب الحقائق لا يصلون إلى مرادهم ولا يدركون مرتبتهم؛ ولهذا قال بعض المشايخ: لا تنكر فإن الإنكار شؤم، والمنكر من هذا الحديث محروم ثم قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [غافر:56] أيها الطالب المحق من شر نفسك، والنفوس المتمردة، وجميع آفات تعوقك عن الحق، وتقطع عليك طريق الحق تعالى، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [غافر:56] للحاجات، ﴿الْبَصِيرُ﴾ [غافر:56] العليم بقضائها.

وبقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:57]، يشير إلى منكري البعث أنهم يقرون أن الله خلق السماوات والأرض، وينكرون مرة أخرى يوم

البعث، فخلق السماوات والأرض ابتدءًا وابتداعًا أعظم من خلق الناس، وبعثهم وخلقهم مرة أخرى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [غافر:57] من أهل الغفلة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:57] أن الإعادة أهون من البداية في خلق من لم يكن شيئًا.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 60 - 64].

ثم أخبر عن استدعاء الدعاء عن أهل الولاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، يشير إلى أن معنى ادعوني؛ أي: لا تطلبوا مني غيري فإن من كنت له يكون له ما كان لي، وإن من يطلبني يجدني كما قال «إلا من طلبني وجدني»[1]، ويقال: ﴿ادْعُونِي﴾ [غافر:60] بشرط الدعاء، وشرط الدعاء الأكل من الحلال، وقيل الدعاء مفتاح الحاجة وأسنانه لقم الحلال، ويقال: كل من دعاه استجاب له إما بما سأله أو شيء آخر هو خير له منه، ويقال، الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو من له شريك وهو لا شريك له، وكذلك المبتدع من المعطلة أو المشبهة لا يعبدون الله؛ لأنهم إنما يعبدون إلهًا لا صفات له من الحياة والسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة والإرادة بزعمهم، إنما يدعون إلهًا له جوارح وأعضاء من اليد والأصابع والأرجل والساق والعين، والله تعالى منزه عن ذلك فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] [الشورى:11]، فأما أهل

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أفاد الشيخ البيطار في تأويل هذه الآية المباركة من فوائد معارف الحقيقة المحمدية بقوله: اعلم - رحمك الله تعالى وفتح فهمك للمعاني الإلهية - أن الكاف في قوله: ﴿كَمِثْلِهِ﴾، أصلية لا زائدة كما يفهمه العموم، فإنا إذا جعلناها زائدة يكون المعنى ليس مثل الله شيء؛ لأن الحوادث لا تشبهه، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وهذه عقيدة من يعرف الله بفكره لا بإيمانه، ومثل هذا ينزل جميع ما ورد في الكتاب والسنة من العلم بالله على حسب ما يأوله بفكره، وهو الذي في قلبه زيغ عمّا أبانه الله ونطق به رسوله ﷺ، فيصف الله بتنزيه لم يصف به نفسه، ويفصل في حق الله ألفاظه على ألفاظ الله ورسوله؛ =

فيقول مثلاً: حاشا ربنا من النزول والاستواء والضحك والبدء والقدم وأمثال ذلك، فالذي أثبته الله لنفسه ينفيه عنه، فما أقبح هذه المعرفة! وما أشنع هذا التنزيه! وهذا هو الجهل المركب فهو كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

وأما المحققون من أهل الله فلا زائد عندهم في القرآن العظيم، بل كل شيء له معنى ولا عبث في القرآن ألبتة، فالكاف عند المحققين بمعنى المثل، فيكون المعنى: ليس مثل مثله شيء، فالمثل الأول هو آدم ﷺ، ومثل هذا المثل هو محمد ﷺ فكون المثل آدم لقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» فهو المثل، وليس المراد أنه ثاني؛ لأن واحدية الله لا تقبل الثاني كواحدية العدد، بل واحدية الله وجوده الذي لا يقبل الغير كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]. وقد اجتمعت هذه الأربعة في آدم ﷺ فهو أول من جهة روح الله المنفوخ فيه، وآخر باعتبار أنه غاية تنزلات الحقائق، فهو الإنسان الذي هو أحسن تقويم وأسفل سافلين، فلا أعلا منه ولا أسفل منه، وهو صورة والباطن روحًا؛ فلهذا المعنى هو المراد بأنه مثل الله، أي: صورة الله الكاملة، ومجلى ذاته، ومحل ظهور أسمائه وصفاته، ولهذا على ملائكة الله حتى سجدوا له، فافهم.

وأما كون محمد ﷺ مثل هذا المثل؛ لأنه في الصورة إنسان مثل آدم فيما هو من حقيقة غير آدم لحقيقة الملائكة مثلاً إلا باعتبار أحدية الوجود المطلق فليس المنفي عنه الشيئية في كلام الله تعالى المثل، بل المنفي عنه الشيئية هو مثل المثل وهو محمد ﷺ كما يفيده قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:40]، أي: منتهى دائرة الكل أجمعين، والمنتهى عين المبدأ؛ فهو مطلق عن الشيئية والوجود المحض الذي هو نور السماوات والأرض، فهو ليس شيئًا من الأشياء المقيدة؛ لأن الشيء المقيَّد كالجزء من الأجزاء، فنفى الله عن مثل المثل وهو محمد ﷺ الشيئية التي تطلق على كائن في الوجود من المظاهر المقيَّدة، وقد أشار ﷺ إلى شأنه الأحدي بقوله: «كان الله ولم يكن شيء غيره» فلا شيء في حضرة الإطلاق المشار إليها «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وقد بيَّن الله معنى هذه النبوة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] والجملة المعرفة الطرفين تفيد الحصر، أي: لا سميع إلا هو، ولا بصير إلا هو، فهو السميع لنفسه أزلاً والبصير كذلك، يعني أنه الحقيقة الجامعة لكل شيء سميع ومسموع ولكل بصير ومبصر، وحيث كان كذلك فليس شيئًا كما تعهدون بل كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، فهذا بيان الله وأصرح من بيان الله لا يكون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:122].

فنبوته وآدم بين الماء والطين كونه روح آدم وحقيقة القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، فما سجد الملائكة إلا لتلك الروح المنفوخة في صورة آدم، فآدم قبلة وكعبة الملائكة كما أن الكعبة المشرفة قبلتنا، والسجود له هو المعنى الظاهر في صورة آدم، وهذا المعنى عين نبوته الباطنة ﷺ فبين الله ذلك بأن محمدًا ﷺ عين الوجود المطلق الذي يندرج فيه كل ما يسمى شيئا

فكيف يكون شيئًا وهو حقيقة كل شيء ؟!

فلتفهم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، فالسجود الملكي لمحمد باطنًا وهو في الظاهر لآدم ..

واعلم ـ سقاك الله شراب محمد الطهور وألبسك من ملابس ظهوراته نور على نور ـ أنه فتح عليّ في الكلام على هذا الوارد الجامع للمعرفة الإلهية المحمدية، وأنا أطالع الفص النوحي من كتاب: «فصوص الحكم» لسلطان العارفين وأستاذهم الشيخ الأكبر، وقد تكلم على هذه الآية، ولكن لا بالمعنى الذي تكلمنا به، ولا أشك أنه من باطنه ﷺ ، فإنه مظهر كمالات محمد ﷺ التي انطوى عليه باطنه ﷺ، وذلك لأني طلبت منه في مقامه عند ضريحه الشريف أن يفيض على معاني كتابه «الفصوص» حسب ما يفهمها هو من نفسه، فأخذ الشرح منه ﷺ، ولاشك أن أجاب، وكيف لا وجدّه حاتم طي ما بدا منه الجود العظيم إلا من كون هذا المظهر المحمدي الكامل في ظهره، ومن جوده ﷺ أنه أهدى لنا أذواقه وعلومه في كتبه لنحصل على ما حصل عليه؛ إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله هو المؤمن في الحقيقة، فافهم ما أشرنا إليه، وعلى الله قصد السبيل، فهو القاصد بنا وهو عين السبيل وعين ما يقصد، فالكل منه وإليه، فهو المؤمن المحب والمؤمن المسمى بالأخ والنفس هي نفسه والحقيقة حقيقته والمظاهر مظاهره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، ؛ فكل وجه في الوجود وجهه، فما طلب طالب إلا منه، ولا أعطى إلا إليه، فمن قال: يا رسول المدد، أو يا محيي الدين، أو يا عبد القادر، أو يا رفاعي لا يجيبه إلا الله؛ لأن الله قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:15].

فمن زعم أن الذي ينادي الأولياء مشرك فهو المشرك؛ لأننا لا نثبت غير الله، والوهابي يثبت غير الله، فهو المشرك ونحن الموحدون بفضل الله ورحمته؛ لأننا نراه في كل شيء، ونشاهده في كل شيء، فحينئذ لا يغيب عنًّا: لأن الأشياء لا تغيب عنًّا، وكيف يغيب عنا ونحن المؤمنون بأنه هو الظاهر ؟!

وأما أهل غير الحقيقة لا يصدقونه في أنه هو الظاهر، ولا يسلمون له كلامه فيعبدون ربهم بالتخيل فيطلبونه ولا يجدونه؛ لأنهم على قاعدة: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فكذبوا الله في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ [الحديد:3]، فمتى يجدونه وقد أعدموه؟! ولهذا أضل الله أعمالهم كما ضلوا فلا يجدون ربهم ولا يجدون أعمالهم إلا في العدم كما قال: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور:39].

وأما نحن فوجدنا عين الشراب لا عند السراب، فما ظمأنا ولكن شربنا وطربنا وساقينا، هو ساقي القوم، فهو أولنا شربًا وآخرنا شربًا، فلا يدخل الجنة حتى ندخلها جميعا مع أنه أول من يقرع بابها، ويدخلها بصورته الخاصة، ومن جهه حقيقته هو الآخر، فالأول هو والآخر هو، فلا يصدق من وصفه بدخول الجنة إلا بدخول مظاهر حقيقته، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40] أي: حتى يكشف لهم أن الحقيقة المحمدية عين المظاهر

السنة فيثبتون له ذلك بالصفات لا بالأعضاء والجوارح، ولا يفسرونه ولا يؤدونه ويقرؤونه على ما أراد الله به ويؤمنون به، ويقولون: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعوا الله ويسأله شيئًا إلا أعطاه إما في الدنيا وإما في الآخرة يقول له: هذا ما طلبته في الدنيا وقد ادخرتها لك إلى هذا اليوم، حتى يتمنى العبد انه ليته لم يعط شيئًا في الدنيا ويقال: ادعوني – بالسؤال- استجب لكم بالفضل والنوال، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:60]؛ أي: عن دعائي وطلبي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر:60] الحرمان والبعد مني، ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60]؛ أي: ذليلين مهينين مردودين.

وبقوله: ﴿الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [غافر:61]، يشير إلى ليل البشرية يسكنون أهل الرياضات والمجاهدات فيه إلى استرواح القلوب ساعة فساعة؛ لئلا يمل عن مداومة الذكر والتعبد وحمل أعباء الأمانة، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:61]؛ أي: نهار الروحانية مظهرًا للجد والاجتهاد في الطلب، والتصبر على التعب، وسكون الناس في الليل على أقسام:

أهل اللغة: يسكنون إلى استراحة النفوس والأبدان.

وأهل الشهوة: يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم في الرجال والنسوان.

وأهل الطاعة: يسكنون إلى حلاوة أعمالهم لبسطهم واستقلالهم.

وأهل المحبة: يسكنون إلى حنين النفوس، وحنين القلوب، وضراعة الأسرار، واشتغال الأرواح بنار الأشواق، وهم يقدمون القرار في ليلهم ونهارهم أولئك أصحاب الاشتياق أبدًا في الاحتراق، ﴿ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر:62] الذي جعل سكونكم معه، وأنزع حكم له عن غيره، واشتياقكم إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:62] الذي يقلبكم في جميع الأحوال من حال إلى حال، ويستعملكم بجميع الأعمال والأقوال، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر:62] مع رؤية هذه

الصورية ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20]، لأنه القائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:5]، والمعنى استيلاء الحقيقة واندراج صور الوجود في حقيقة الرحمن فتلك الحقيقة موطن الصور والله الموفق.

الآيات وكشف البينات إلا بقهر دامغ، وحكم بالغ.

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ [غافر:63] كما يؤفكون قهر و حكمة، ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:63]، وبقوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر:64]، يشير إلى أنه تعالى جعل أرض البشرية مقرًا للروح، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر:64]؛ أي: سماء الروحانية مبنية عليها، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:64] بأن جميع أرض البشرية وسماء الروحانية في عالم صوركم، ولم يجمعها في صورة شيء آخر من الملائكة، والجن، والشياطين، والحيوانات، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، وفيه إشارة أخرى إلى: إن الله تعالى خلق الأرض لكم استقلالاً ولغيركم طفيلاً وتبعًا؛ لتكون مقركم، والسماء أيضًا خلقها لكم؛ لتكون سقفكم مستقلين به وغيركم تبعًا لكم فيه، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:64] إذ جعلها مرآة جماله كما قال ﷺ: «كل جميل من جمال الله وإنما جعل لكم جميلاً ليحبكم»[1]، كما قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[2]، فيه إشارة إلى: تخطئة الملائكة فيما قبحوكم و ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[البقرة:30]، فإن الحسن ليس ما يستحسنه الناس، فإن الحسن ما يستحسنه الحبيب ما حطك الواشون عن رتبة عندي، ولا ضرك مغتاب كأنهم أسنوا، أو لم يعلموا عليك عندي بالذي عابوا خلق الشموس في ضيائها والأقمار في أنوارها، ولم يقل لهما ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:64]، وفيه أن الواشين قبحوا صورتكم عندنا؛ بل الملائكة كتبوا صحيفتكم بقبيح ما ارتبكتم، ومولاكم أحسن صوركم عنده بأن محاسن ديوانكم الزلات، وأثبت في ذلك الحسنات كما قال تعالى ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:39] وقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70].

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا

(1) ذكره حقي في تفسيره (12/ 430).

(2) أخرجه مسلم (1/ 93، رقم 91)، والترمذي (4/ 361، رقم 1999).

شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ غافر: ٦٥ -٦٨].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:65]، ليس الطيب ما يستطيبه الخلق، الطيب ما يستطيبه الرب، فإنه طيب لا يقبل إلا طيبًا، فالطيب الذي يقبله الله من العبد إذ هو من مكاسب كلام الطيب؛ وهو كلمة «لا إله إلا الله»، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10]، والطيب الذي هو مواهب الحق تعالى هو تجلي صفات جماله وجلاله، وبها أشار بقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:65]، ثم قال :﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ هُوَ الْحَيُّ﴾ [غافر:64-65]؛ أي: له الحياة الحقيقة الأزلية الأبدية، ومن هو حي بإحيائه من نور صفاته، كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام:122]، ويشير بقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:65] بعد قوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ [غافر:65]، إلى أن الذي يحيي بحياته ونور صفاته لما يبلغ رتبة الإلهية، ﴿فَادْعُوهُ﴾ [غافر:65] بالإلهية ﴿مُخْلِصِينَ﴾ [غافر:65] عن حبس الوجود، ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:65]؛ أي: المقرين له بالعبودية من غير دعوى بالربوبية كمن ادعى بها بقوله: أنا الحق، وقول من قال: سبحاني ما أعظم شأني، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:65]؛ يعني: فيما أنزلكم ويبلغكم مقام الوحدة بفضله ورحمته لأنه مقام لا وسع للإنسان في بلوغه بمجرد سعيه من دون فضل ربه.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ [غافر:66] يا محمد ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ [غافر:66]، مع جلال قدري واختصاصي بالحبيبية ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [غافر:66]؛ أي: يثبتون له الإلهية في مقام الواحد عن غلبات السكر من الذات الشراب الطهور الذي سقاكم ربكم في أقداح تجلي صفاته بقوله: «أنا الحق سبحاني» وما يعد له ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر:66]؛ أي: من تجلي ذاته وصفاته إذا اكتال علي بأوفى الكيل أصفى الشراب ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:66].

ثم يشير به إلى أنه ﷺ مع كمال نبوته ورسالته وقربه بربه وعظم قدره عنده لو لم يسلم لرب العالمين بالعبودية لم يكن مسلمًا.

ثم أخبر عن أطوار خلقة الإنسان بالشرح والبيان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم

مِنْ تُرَابٍ﴾ [غافر:67]، يشير إلى خلق قالب الإنسان وبدء أمره من الذرة الترابية، استخراجها من صلب آدم ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [غافر:67]؛ أي: أودعها في قطرة نطفة أبيه ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر:67] خلقها علقة في بطن أمه ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر:67] من بطون أمهاتكم ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر:67] ففي كل طور من هذه الأطوار اختصكم بخاصية لم توجد في غيركم، وكل واحد منها خزانة الله تعالى فيها لطفه وقهره مودع، فمنكم المجذوبون ومنكم المخذولون:

فالمجذوبون: هم المسلكون المصعدون الطائرون بجناحي لطفه وقهره إلى أعلى مراتب القرب.

والمخذولون: هم المهبطون المخسفون السائرون بقدمي لطفه وقهره إلى أسفل مدارج البعد.

وذلك قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ [غافر:67]؛ أي: من القرب والبعد ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:67] تفهمون طريق القرب فتسعون فيه، وتلهمون طريق البعد فتعرضون عنه، ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ [غافر:68] القلوب الميتة بنور ربوبيته ولطفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾

[غافر: ٦٨ - ٧٧].

﴿وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [غافر:68]؛ أي: في الأزل ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ [غافر: 68] في حال القضاء ﴿فَيَكُونُ﴾ [غافر:68] إلى الأبد، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر:69] يشير به: إلى أهل الأهواء والبدع، أنهم يصرفون معاني

القرآن إلى آرائهم وأهوائهم، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ [غافر:70]؛ أي: بالقرآن إذا بدلوا معانيه بآرائهم ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ [غافر:70]؛ أي: بما هو حقيقة رسالة الرسل في إرشاد الخلق إلى الصراط المستقيم في طلب الحق تعالى، فكذبوا به فسروه برأيهم وبدلوا السنة بالبدعة، فوقعوا عن الصراط المستقيم والدين القويم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 70]، ﴿إِذِ﴾ [غافر:71] أراد ﴿الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر:71] التي بدواعي الهوى ابتدعوها في أعناق أرواحهم، ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ، ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ [غافر:72]؛ أي: نار القطيعة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:72]، ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر:73] من الهوى والدنيا ﴿مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [غافر:74] إذ لم يكن له أصل ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر:74]؛ لأنه كان مجازًا لا حقيقة، فيضلون به عن الصراط المستقيم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر:74] بأن يريهم شيئًا مجازيًا في زينة وجود شيء حقيقي، فيضلون به عن الصراط المستقيم، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر:75] بزينتها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [غافر:75]؛ يعني: في طلب الباطل ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:75] بزينة الدنيا وشهواتها، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [غافر:76]؛ وهي شهوات الدنيا، كل شهوة منها باب من أبواب جهنم النفس في الدنيا، وباب من أبواب جهنم النار في الآخرة ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:76] دركات النار، ﴿فَاصْبِرْ﴾ [غافر:77] على طلب الحق وترك الباطل أيها الطالب الصادق ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [غافر: 77] لكلا الفريقين، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [غافر:77] عين اليقين كشفًا وعيانًا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر:77] بجذبات الألوهية ليكون فارغًا عنهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:77] فنكافئهم بحسب أعمالهم وأحوالهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 78 - 81].

ثم أخبر عن إرسال الرسل، وإيضاح السبل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78] يشير إلى أن الحكمة البالغة الأزلية اقتضت أنا نبعث قبلك رسلا، ونجري عليهم وعلى أممهم أحوالاً، ثم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ﴾ [هود: 120] أنبائهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] ونؤدبك بتأديبهم؛ لتتعظ بهم، ولا نقدمك بالرسالة عليهم؛ ليتعظوا بك، فإن السعيد من يتعظ بغيره ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]؛ لاستغنائك عن ذلك، تخفيفًا لك عما لا يعنيك، وهذه أمارة كمال العناية فيما قص عليه وفيما لم نقصص عليه، وفيه جواب من التمس منه ﷺ أن يأتي بآية، فقال: كما أن ذكر الرسل وقصصهم ما كان بالتماس النبي ﷺ إلا بإرادة الله، كذلك ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ [غافر: 78] على ما اقتضت الحكمة والإرادة في إتيان الآية ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر: 78] بإتيانها في وقتها وإظهارها على يده كما التمسوها، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] الذين أرادوا إبطال الحق بتكذيب الآيات.

ثم أخبر أنه تعالى أظهر من الآيات لمصلحة عباده، وما لم يظهر أيضًا لم يظهر لمصلحتهم بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [غافر: 79-80]؛ أي: خلقها لمنافعكم، ولو كان لكم فيها مفاز لم يخلقها ومنافعها ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: 80]؛ يعني: خلق الفلك أيضًا لمصلحتكم ومنفعتكم.

وفيه إشارة أخرى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ [غافر: 79]؛ أي: خلق النفس البهيمية الحيوانية؛ ليكون مركبًا لروحكم العليا ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ [غافر: 80] من مشاهدة الحق ومقامات القرب ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [غافر: 80]؛ أي: في صفاتها، وهي الشهوة الحيوانية، ومنفعتها أنها مركب العشق والغضب، وأنها مركب الصلابة في الدين، والحرص مركب الهمة، وبهذه المراكب يصل إلى المراتب العلوية، كما قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ﴾؛ أي: صفات القلب ﴿تُحْمَلُونَ﴾؛ أي: جوار الحق تعالى، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: 81] بتجلي صفاته ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ﴾ [غافر: 81]؛ أي: صفاته ﴿تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: 81] إذا تجلى بها؛ أي: لا يبقي معها الإنكار والجحود.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85) ﴾ [غافر: 82 - 85].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر:82] أرض البشرية ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ [غافر:82] بصيرة القلوب ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر:82] من النفوس المتمردة ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر:82] استعدادًا في طلب الدنيا، واستيفاء الشهوات ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر:82] في الحرص على المال وطلب الجاه ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر:82] بطول أعمال الأعمار ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر:82] أمَرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثر أموالاً وأطولَ أعماراً ، فانجرُّوا في حِبَالِ آمالهم ، فوقعوا في وهْدَة غرورهم ، وما للحقِّ عن مراده فيهم ، واغتروا بسلامتهم في مُدّةٍ ما أرخينا لهم عنان آمالهم ، ثم فاجأناهُم بالعقوبة ، فلم يُعْجِزُوا الله في مُرادِه منهم .

وهذا تحقيق قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:83]؛ أي: من شبهات المعقولات والمخيلات والموهومات، ثم عاجلناهم بالعقوبة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:83] فلم يعجزوا الله في مراده منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:84] ووقعوا في مذلة الخيبة وشدة البأس ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:84] تمنوا أن لو أعيدوا إلى الدنيا من البأس، وما قابلهم الله في الخيبة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:85] وتخرطهم في سلك من آبائهم من أهل الشرك والسخطة، ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر:85] الذين أشركوا في عبودية غيره ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85]؛أي: كافري النعمة خسروا على أنفسهم مزيد النعمة.

سورة فصلت

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ⑥ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⑦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾ [فصلت: 1 - 8].

﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(1) [فصلت:1-2] يشير: بالحاء إلى الحكمة، وبالميم إلى المنة؛ أي: منَّ على عباده بتنزيل حكمة من الرحمن الأزلي، الذي سبقت رحمته غضبه، فخلق الموجودات برحمانيته الرحيم الأبدي، الذي وسعت رحمته كل شيء إلى الأبد ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت:3] بين الحق والباطل، والسعيد والشقي، وبقوله: ﴿قُرْآناً عَرَبِياً﴾ [فصلت:3] يشير إلى أن القرآن قديم من حيث أنه كلام الله وصفته، والعربية كسوة مخلوقة، كساه الله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:3] العربية، والعربية بحروفها مخلوقة والقرآن منزه عنها، ﴿بَشِيرًا﴾ [فصلت:4] لمن يعرف قدره ويؤدي حقه بالوصول والوصال ﴿وَنَذِيرًا﴾ [فصلت:4] لمن لم يعرف قدره، ولا يؤدي حقه بالانقطاع والانفصال، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ [فصلت:4] عن أداء حقه ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:4] بسمع القبول والانقياد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:5] في التوحيد ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت:5] ما يفهم كلامك قالوه حقًا، وإن قالوا على الاستهانة والاستهزاء؛ لأن قلوبهم في أكنة حب الدنيا وزينتها، مقفولة بقفل الشهوات والأوصاف البشرية، ولو قالوا ذلك

---

(1) معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسمٌ أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبتي لهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة والكرم عليك وعلى أمتك.

عن بصيرة لكان ذلك منهم توحيد، فتعرضوا للمقت لما فقدوا من صدق القلب؟! قالوا: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:5] من الأنانية ﴿فَاعْمَلْ﴾ [فصلت:5] بالله فانيًا عن وجودك موحدًا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:5] ببقاء وجودنا مشركين، وبقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت:6] يشير إلى أن البشر كلهم متساو، وفي البشرية مسدود بهم باب معرفة الله بالوحدانية بالآلات البشرية من العقل وغيره، وإنما فتح هذا الباب على قلوب الأنبياء بالوحي، وقلوب الأولياء بالشواهد والكشوف، وعلى قلوب المؤمنين بالإلهام والشرح، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وبقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:6] يشير إلى أن استقامة المرء في دينه موقوف على استقامته في المتابعة ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:6]؛ ليرفع بقوة النبوة الحجب التي بينكم وبينه ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:6] الذين بقوا في شرك الوجود ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:7]؛ أي: لا يزكون نفوسهم عن خبث الحديث ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ [فصلت:7] وهي وجودهم الباقي ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت:7] بكفر السر والحجاب.

ثم أخبر عن عرفان الإيمان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:8] يشير إلى أن من آمن ولم يعمل صالحًا لم يؤجر إلا ممنونًا؛ أي: ناقصًا، وهو أجر الإيمان، ونقصان من ترك العمل، ثم بترك العمل الصالح يدخل النار ويخرج منها بأجر الإيمان، فأجر العمل الصالح الذي يصدر من النفس الجنة، وهو الأعمال البدنية: كالصلاة والصوم والحج وما أشبهها، وأجر الأعمال القلبية: كالرضاء واليقين والتوكل وما أشبهن من الأخلاق الحسنة، الشوق والمحبة وصدق الطلب، وأجر الأعمال الروحانية: كالتوجه إلى الله بالكلية، وترك التلذذ بكشف الأسرار، وشهود المعاني والكرامات، والاستئناس بالله، والاستيحاش من الخلق، والقلق في المحبة، وأجر أعمال الأسرار: كالإعراض عما سوى الله، وترك الركون إلى مقامات القرب، والفطام عن الالتذاذ بالمعارف، ودوام التجلي، وكشوف الحقائق بالدقائق.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى

ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: 9 - 14].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:9]؛ أي: أرض البشرية في يومي الهوى والطبيعة، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:9] من الهوى والطبيعة إذا تحركت أرض البشرية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [فصلت:9] من ابتلاء ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت:9] الذي خلق عالمي العقل والهوى، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ [فصلت:10] في أرض البشرية ﴿رَوَاسِيَ﴾[1] [فصلت:10] من العقل؛ لتسكين أرض البشرية لا يستقر إلا برواسخ العقل ﴿مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت:10] بالحواس الخمس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[2] [فصلت:10] بستة من قوى البشرية ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:10]؛ أي: مع يومي خلق الأرض؛ يعني: في يومي الروح الحيواني والروح الطبيعي ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: 10] لهذه القضية، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت:11] سماء القلب ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:11] نار الروحانية، وبقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لتجيبا ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] وإنما ذكرهما بلفظ التأنيث في البداية، كأنهما كانتا ميتة وهي مؤنثتان، وإنما ذكرهما في النهاية بلفظ التذكير؛ لأنه أحياهما وأعقلهما وهما في العدم ،فأجابا بقولهما: أتينا طائعين جواب العقلاء، وفي قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت:12] إشارة إلى أن لسماء القلب سبعة أطوار، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح:14] فالطور الأول من القلب يسمى: الكركر وهو محل الوسوسة.

---

(1) قال القشيري: أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء، سقياً لكم، يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِه بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (8/ 17).

(2) أي : حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل : خصابها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (5/ 391).

والثاني: الشغاف وهو مظهر الهواجس.

والثالث: الفؤاد وهو معدن الرؤية كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، والرابع: القلب وهو منبع الحكمة، كما قال ﷺ: «ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه على لسانه»[1]، والخامس: السويداء وهو مرآة الغيب.

والسادس: الشغاف وهو مثوى المحبة كما قال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30]، والسابع: محبة القلب وهي مودة التجلي وموضوع الكشوف، ومركز الأسرار ومهبط الأنوار، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]؛ أي: يومي الروح الإنساني، والإلهام الرباني ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12]؛ أي: ما هو أهله ومحله، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12] وهي أنوار الأذكار والطاعات والعبادات ﴿وَحِفْظًا﴾ [فصلت: 12] من الشياطين، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ [فصلت: 12] الذي لإظهار عزَّته وعظمة قدر هذه الكمالات ودبَّرها في نطفة قدرة ﴿الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12] الذي أحاط علمه بمصالح الدارين وأهلها، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [فصلت: 13] أرباب النفوس المتمردة عن الله، وطلبه وطلب رضاه ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13]؛ أي: أخبر المكذبين لك أن لكم سلفًا سلكتم طريقهم في العناد والجحود، فإن أبيتم إلا الإصرار ألحقناكم بهم بالهلاك فتكونوا كأمثالهم ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 14].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)﴾ [فصلت: 15 - 20].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: 15] وركنوا إلى قوة

(1) تقدم تخريجه.

نفوسهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:15] فهابهم قواهم لما استكمن منهم بلواهم، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ [فصلت:15] وخلق الأشياء كلها ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:15] في إهلاكهم، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:15] مع إحاطة علمهم بالآيات والقدرة، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت:16]؛ ليقلعهم من أصولهم، ولما يغادر منهم أحدًا ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:17] قيل: إنهم في الابتداء آمنوا وكانوا يتقون وصدقوا، ثم ارتدوا وكذبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال، ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18] فمنهم من نجاهم من غير أن يروا النار عبروا القنطرة ولم يعلموا، وقوم كالبرق الخاطف: وهم أعلاهم، وقوم كالراكض: وهم أيضًا الأكابر، وقوم على الصراط: يسقطون وتردهم الملائكة على الصراط فبعد وبعد، وقوم بعد ما دخلوا النار: فمنهم من تأخذه إلى كعبيه، ثم إلى ركبتيه، ثم إلى حقويه، فإذا بلغت القلب قال الحق تعالى للنار: «لا تحرقي قلبه فإنه محترق في»، وقوم يخرجون من النار: بعد ما امتحشوا وصاروا حممًا.

ثم أخبر عن حشر الأعداء مع القرناء بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت:19] يشير إلى أن من لم يمتثل أوامر الله تعالى ونواهيه ولم يتابع رسوله، فهو عدوًا لله وإن كان منافقًا بالله مقرًا بوحدانيته، وإن ولي الله: من كان يؤمن بالله ورسله، ويمتثل أوامر الله ونواهيه، ومتابعة الرسول، ويحشر الأولياء إلى الله وجنته، كما يحشر الأعداء إلى نار القطيعة والبعد وجحيمه ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:20]؛ لأنهم كانوا يستعملوها في معاصي الله بغير اختيارهم.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (23) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (24)﴾ [فصلت: 21 - 24].

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:21] بهذا يشير إلى أن الجهاد في الآخرة يكون حيوانًا ناطقًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].

وبقوله: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:21] يشير إلى: إن الأرواح والأجسام متساوية، وفي قدرة الله إن شاء جعل الأرواح بوصف الأجسام ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171]، وإن شاء جعل الأجسام بوصف الأرواح تنطق وتسمع، وتبصر وتعقل؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت:21]؛ يعني: خلق الأرواح بوصفها حين خلقها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:21] كما يشاء بوصف الأرواح أم بوصف الأجسام، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ [فصلت:22]؛ لأنه لم يكن في حسابكم ما استقبلتم ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:22]؛ لأنها كانت أجسامًا صامتة غير ناطقة، وبقوله: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:22] يشير إلى معتقد الفلاسفة الزنادقة أنهم يعتقدون أن الله لا يكون عالم الجزئيات، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:23] أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْـخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:23] الذين خسروا على بذرًا لأرواحهم في أرض أجسادهم بأن لم يصل إليه ماء الإيمان والعمل الصالح، ففسد حتى صار بوصف الأجساد ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171]، كما قال: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:3] ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ [فصلت:24] على ما هم فيه من الخسران ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [فصلت:24] نار الطرد والقطيعة والبعد، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ [فصلت:24] فعلى ما قال: ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْـمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:24].

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ

﴿الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: 25 - 29].

وبقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت:25] يشير إلى أنه تعالى إذا أراد بعبد سوء قيض له إخوان وقرناء شرهم الأضداد لهم فيها رموا، وإذا أراد بعبد خيرًا قيض له قرناء خيرًا يعينونه على الطاعة، ويحملونه عليها، ويدعونه إليها، وإذا كان إخوان سوء يحملونه على المخالفات ويدعونه إليها ومن ذلك الشيطان، فإنه مقيض على الإنسان مسلط يوسوس إليه بالمخالفات، وشر من ذلك النفس الأمارة بالسوء، و بئس القرين النفس تدعو اليوم إلى ما فيه هلاكها وهلاك العبد، وتشهد غدًا عليه بها دعته إليه، وشر قرين للمرء نفسه، ثم الشياطين، ثم شياطين الإنس ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت:25] من طول الأمل ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:25] من نسيان الزلل، والتسويف في التوبة، والتقصير في الطاعة ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [فصلت:25] بالتقدير الأزلي ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت:25] بالشقاوة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت:25] بإفساد استعدادهم الفطري.

ثم أخبر عن أحوال أهل الكفر ومقامهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:26] يشير إلى طبيعة النفوس المتمردة الأمارة بالسوء إن من شأنها: انتشار الهواجس النفسانية، وإلقاء الخواطر المنتسبة من الأوصاف الحيوانية، وإثارة الوساوس الشيطانية والهجو من الكلام، وإنشاء اللغو والباطل، وحديث النفس على الدوام اشتغالاً للقلوب بها عن استماع الإلهامات الربانية والإشارات الوحدانية؛ لعلها تغلب على القلوب والأرواح، وتسلب العقول والأفهام، ولم تعلم أن القلوب التي نورت بالإيمان وأبدت بعواطف الإحسان، والأرواح التي كوشفت بعوارف الحرمان ولطائف العيان؛ فهي التي شرفت بسماع أسرار الغيب المبرأة عن الريب، والقلوب التي هي في ظلمات جهلها لا يدخل الإيمان فيها، ولا يباشر السماع سرها.

وبقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [فصلت:27] يشير إلى أنه تعالى إذا تجلى على النفوس الكافرة المتمردة يعذبها بها عذابًا شديدًا يؤدي إلى إفنائها، ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:27]؛ أي: نجزي النفوس بسطوة نار

نور التجلي عند احتراق صفاتها وإفناء ذواتها، ﴿أَسْوَأَ﴾ ما كانت تعمل في شغل القلوب عن استماع كلام الحق، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ [فصلت:28]؛ أي: النفوس المتمردة، ﴿النَّارُ﴾ [فصلت:28] نار أنوار التجلي ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ [فصلت:28] ما يشاءون، ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت:28]؛ أي: بدوام التجلي في مقام التمكن ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ [فصلت:28] من شواهد الحق ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:28] ينكرونها لئلا يصل إلى القلوب.

وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ [فصلت:29] يشير إلى أن النفوس إذا فنيت عن أوصافها بنار أنوار التجلي، وذاقت حلاوة الشرب تلتمس من ربها اطلاعها على بقايا الأوصاف الشيطانية والحيوانية التي جبلت النفوس عليها؛ ليمكنها منها، فتجعلها تحت أقدام جهة إفنائها فيعلوا بها إلى مقامات القرب، كما قال تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] وذلك قوله: ﴿أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:29]؛ أي: ليكونا من الأعلين إذا كانا تحت أقدامنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 30 -35].

ثم أخبر عن القلوب المستقيمة والأرواح الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [فصلت:30] يشير إلى يوم الميثاق لما خوطبوا بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172]؛ أي: ربنا الله، وهم الذرات المستخرجة من ظهر آدم عليه السلام أقروا بربوبيته ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:30] على إقرارهم بالربوبية، ثابتين على أقدام العبودية لما خرجوا إلى عالم الصورة، ولهذا ذكر بلفظه ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنه للتراخي فأقروا في عالم الأرواح، ثم استقاموا في عالم الأشباح، وهم المؤمنون بخلاف المنافقين والكافرين، فإنهم أقروا ولم

يستقيموا على ذلك:

فاستقامة العوام: في الظاهر بالأوامر والنواهي، وفي الباطن بالإيمان والتصديق.

واستقامة الخواص: في الظاهر بالتجريد عن الدنيا وترك زينتها أو شهواتها، وفي الباطن بالتفريد عن نعيم الجنان شوقًا إلى لقاء الرحمن، وطلب العرفان.

واستقامة الأخص: في الظاهر برعاية حقوق المتابعة على وفق المبايعة بتسليم النفس والمال، وفي الباطن بالتوحيد في استهلاك الناسوتية؛ ليستقم بالله مع الله، فانيًا عن الأنانية باقيًا بالهوية بلا أرب من المحبوب، مكتفيًا من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام فنائه في وجوده، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾[1] [فصلت:30] الخوف إنما يكون في المستقبل من الوقت ؛وهو بحلول مكروه أو فوات محبوب، والملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون وكل محذور لهم لا يكون، هذا تحقيق قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا﴾، والحزن من حزونة الوقت، والذي هو راض بجميع ما يجري مستسلم للأحكام الأزلية فلا حزونة في عيشه؛ بل من يكون قائمًا بالله، هائمًا في الله، دائمًا مع الله، لا يدركه الخوف والحزن، فالملائكة يبشرونهم ألا تخافوا من سوء الخاتمة، ولا تحزنوا على فوات العناية في السابقة، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:30]؛ أي: جنة الوصلة، فإن الوعد صار نقدًا فما بقي الوعد والوعيد، وما هو إلا عبد في العبد، فأوعد الله للعوام من جميل الثواب، وللخواص من حسن المآب نقد لأخص الخواص من أولي الألباب، ويقال: لا تخافوا من عزل الولاية، ولا تحزنوا عن منع الهداية، وابشروا بحسن العناية في البداية والنهاية، ولا تخافوا ذلة المذلة، ولا تحزنوا مما أسلفتم من الذلة، وابشروا بدوام الوصلة، وبقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ [فصلت:31] يشير إلى ولاية الرحمة للعوام، وولاية النصرة للخواص، وولاية المحبة لأخص الخواص، فبولاية الرحمة للعوام ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت:31] يوفقهم لإقامة الشريعة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت:31] يجازيهم بالجنة، وبولاية النصرة للخواص في الحياة الدنيا يسلطهم على أعدى عدوهم وهو

---

(1) قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (5/ 402).

أنفسهم الأمارة بالسوء؛ ليجعلوها مزكاة من أخلاقها الذميمة وأوصافها الدنية، وفي الآخرة جذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] وبولاية المحبة لأخص الخواص في الحياة الدنيا يفتح عليهم أبواب المشاهدات والمكاشفات، وفي الآخرة يجعلهم من أهل القربات والمعاينات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ [فصلت:31] في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ [فصلت:31] من نعيم الجنة بحسب علو همتكم فيها، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:31] بدواعي القلوب والأرواح، من الوصول والوصال بحسب صدق الطلب، وحسن السؤال من حضرة الجلال ذي الفضل والأفضال، والكرم والنوال، ﴿نُزُلًا﴾ [فصلت:32] فضلاً وعطاءً، وتقدمه لما يستديم إلى الأبد من فنون الأعطاف وأصناف الألطاف ﴿مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:32] يبدل السيئات بالحسنات، ويزيد لأهل الطاعات في الدرجات والقربات.

ثم أخبر عن أحسن الأقوال لأرباب الأحوال بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ﴾ [فصلت:33] يشير إلى أن أحسن قول قاله الأنبياء والأولياء قولهم: بدعوة الخلق إلى الله، وهو من خصائص النبي ﷺ إنه كان مخصوصًا بهذه الدعوة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:46] وهو أن يكتفي بالله في الله لا يطلب منه غيره، قال: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:33]؛ أي: كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه؛ يعني: سلكوا طريق الله إلى أن يصلوا إلى الله وصولًا بلا اتصال ولا انفصال، فبسلوكهم ومنازلتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم دعوا بعد ما عرفوا الطريق إليه الخلق إلى الله، ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:33] لحكمة الراضين بقضائه وتقديره ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ [فصلت:34]؛ وهي التوجه إلى الله بصدق الطلب وخلوص المحبة، ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت:34]؛ وهي طلب ما سواه منه والرضاء عنه بها دونه، ولهذا قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وبقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] [فصلت:34] يشير إلى دفع طلب ما سوى

---

(1) بيّن الله سبحانه ههنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقًا والبعيد قريبًا، حين دفع غضبه بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيًا

الله بطلب الله فإنه أحسن مما سواه، فإذا فعلت ذلك وتقربت إلى الله بطلبه والله يتقرب إليك بتجلي صفاته لك ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ [فصلت:34]؛ يعني: النفس الأمارة بالسوء ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34]؛ لتزكيتها عن صفاتها الذميمة بإفاضة أنوار التجلي عليها، وهذا هو الإكسير الأعظم بأن صار العدو صديقًا والبعيد قريبًا، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:35] لا يقوم باستفادة هذه الأحوال إلا من أكرم بتوفيق الصبر، ورقى عن سفاسف الشيم الإنسانية إلى معالي الأخلاق الربانية، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] [فصلت:35] من فناء نفسه والبقاء بربه.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٦ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ۝٣٨ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت: 36 - 40].

وبقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت:36] يشير إلى أن

في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنىً.

قال ابن عطاء: لا يسوِّي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهَّال الكبائر، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات.

وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة.

(1) بيَّن الله سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

النبي والولي لا ينبغي أن يكون أمنًا من مكر الله، وإن الشيطان صورة مكر الحق تعالى يكون على حذر من نزغاته مستعيذًا بالله من همزاته، فلا يدرها أن تصل إلى القلب بل يرجع إلى الله في أول الخطرة، فإنه إن لم يخالف أول الخطرة صار فكرة، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان، ثم إن لم يتدارك ذلك تجري الذلة، فإن لم يتدارك بحسن الرجعة صار قسوة ويتمادى به الوقت فهو يخطر كل آفة، ولا يتخلص العبد من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة بالله والإخلاص في العبودية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:42] فكلما زاد العبد في تبريه من حوله وقوته، وأخلص بين يدي الله تضرعه واستعانته، زاد الله في حفظه ورفع الشيطان عنه؛ بل يسلطه عليه ليسلم على يديه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [فصلت:36] لدعائك ﴿الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36] بقضاء حوائجكم.

ثم أخبر عن آياته وتكرماته بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت:37] يشير إلى ليل البشرية ونهار الروحانية، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت:37] إذا تجلت شمس الروح وقمر القلب ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:37]؛ أي: لا تتخذوا ما كشف لكم عند تجلي شمس الروح من المعقولات، وأنواع العلوم الدقيقة مقصدًا ومعبدًا كما اتخذت الفلاسفة، ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:37]؛ أي: لا تتخذوا أيضًا ما شاهدتم عند تجلي شواهد الحق في قمر القلب من المشاهدات، ومكاشفات العلوم الدينية مقصدًا ومعبدًا كما اتخذ بعض أرباب السلوك، ووقفوا عند عقبات العرفان والكرامات، فشغلوا بالمعرفة عن المعروف، وبالكرامة عن المكرم ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:37]؛ أي: اتخذوا المقصود والمعبود حضرة حضرت جلال الله، الذي خلق ما سواه منازل السائرين به إليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ [فصلت:37] من جملة المحبين الصادقين الذين ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:37] طمعًا بوصاله والوصول إليه، لا من الذين يعبدونه خوفًا من النار وطمعًا إلى الجنة، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ [فصلت:38] أهل الأهواء و البدع، ولا يوفقون للسجود بجميع الوجود لله، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: 38] من أرواح الأنبياء والأولياء ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [فصلت:38] ينزهونه عن احتياج سجدة أحد من العالمين على أنه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً

وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15]، ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت:38] على التسبيح والتنزيه، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ﴾ [فصلت:39] أرض البشرية ﴿خَاشِعَةً﴾ [فصلت:39] يابسة عند إعواز ما الهوى، وإشراق شمس العناية لم ينبت منها نبات داعية من دواعي البشرية، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ [فصلت:39] ماء الخذلان والابتلاء ﴿اهْتَزَّتْ﴾[1] [فصلت:39] بنبات الدواعي ﴿وَرَبَتْ﴾ [فصلت:39] منها أشجار المعاصي والمناهي، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ [فصلت:39]؛ أي: أحيا النفوس الميتة ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [فصلت:39]؛ أي: القلوب الميتة يحييها بنور الإيمان، وصدق الطلب، وغلبات الشوق، وكذلك إذا وقع للعبد فترة في معاملة وغيبة من نشاط طلبه، فإذا تغمده الحق سبحانه بما يدخل على قلبه من ماء التذكير نبت في قلبه نبات الوفاق، فيعود إلى مألوف مقام هو تعود عود تعداده غضًا طريًا، وشجر وفاقه بعد ما أصابته الجذوبة بماء العناية مستقيًا، وكذلك إذا حصل لأهل العرفان وقفة، أو بدا لهم من جرَّاء سوء أدبٍ حجبةٌ، نظر الحق سبحانه وتعالى إليهم بالرعاية فاهتزت رياض أنسهم، واخضرت مشاهد قربهم، وانهزمت وفود وقفتهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:39] من إظهار اللطف والقهر.

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:40] يشير إلى إن إلحادهم عن الحق إنما كان من نتيجة خذلاننا فلا يخفى علينا سبب إلحادهم، فإن كل إنسان نكل إلى نفسه لا يصدر منه إلا إلحاد عن الحق؛ لأنها جبلت على الأمارية بالسوء، ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ [فصلت:40] وهي: الطبيعة الإنسانية النفسانية الحيوانية التي هي منشأ دركات جهنم ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:40] وهو منظور بنظر عنايتنا، محفوظ من شر نفسه بفضل رعايتنا، وفي قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:40] إشارة إلى أن وكالتهم إلى هوى أنفهسم، فإنه بالطبع يهوون إلى الدرك الأسفل، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:40] بأن يكون مصيركم إلى النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿41﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

(1) (اهتزّتْ) أي : تحركت (وربَتْ) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (5/ 407).

خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: 41 - 46].

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت:41] يشير إلى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [فصلت:40] وفي القرآن إنها ألحدوا فيه؛ لأنهم كفروا به لما جاءهم وإنها كفروا؛ لأنهم كانوا لأهل الخذلان، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:41]؛ يعني: القرآن وإن من عزته أن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ [فصلت:42]؛ يعني: أهل الخذلان ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت:42]؛ يعني: بالإيهان به ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42] بالعمل به ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ [فصلت:42] ينزل بحكمته على من يشاء من عباده لمن يشاء أن يعمل به ﴿حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42] في أحكامه وأفعاله؛ لأنها صادرة منه بالحكمة، وبقوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت:43] يشير إلى تسلية أرباب الطلب المعرضين عن الخلق المقبلين على الله؛ يعني: أيها الطالب الصادق، إن أطلق الخلق لسان اللوم فيك، و يقال: إنه مجنون أو ساحر، فإنه قد قيل للرسل أكثر من ذلك ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:39]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت:43] لك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:43] لأعدائك وحسادك.

ثم أخبر عن نعمة القرآن وإنكار أهل الكفران بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:44] يشير إلى إزاحة العلة لمن أراد أن يعرف صدق الدعوة وصحة الشريعة، فإنه لا نهاية للتعلل بمثل هذه المعللات؛ لأنه تعالى لو جعل القرآن أعجميًا وعربيًا، لقالوا: لولا جعله عبرانيًا وسريانيًا، ثم وصف القرآن بأنه شفاء للمؤمنين وسبب شقاء للكافرين بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:44] فهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن حد الفكرة وتحير الخواطر، وشفاء لصدق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته والتلذذ بالتكفر فيه،

وشفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما فيه من لطف المواعيد، وشفاء لقلوب العارفين لما يتوالى عليها من أنوار التحقيق، وآثار خطاب الرب العزيز: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ [فصلت:44] لا يسمعون بقلوبهم من الحق فلا يستجيبون، ويقول: في ظلمات الجحد والجهل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:44] لا يزدادون على مر الأيام إلا الضلال ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:44]؛ لأن النداء إنما يجيء من فوق أعلى عليين، وهم في أسفل السافلين في الطبيعة الإنسانية وهم أبعد البعد.

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت:45] يشير إلى أن الإلهامات الربانية التي يلهم بها موسى الروح، فاختلف فيها فالقلب يؤمر بها، والنفس تكفر بها ولا تعمل بها ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [فصلت:45] في تأخير عذاب النفس بتكاليف الشريعة ومخالفة هواها إلى أجل مسمى، وهو حد البلوغ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت:45] بتزكية النفس بأحكام الشرع ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ [فصلت:45]؛ يعني: النفوس وصفاتها ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:45]؛ يعني: من إلهامات الحق، هل هي من الله أم لا؟ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:46] في تزكية نفسه ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت:46]؛ لأن فلاحها في صلاحها بالتزكية ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ [فصلت:46] بمخالفات الشريعة ﴿فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:46]؛ أي: فعليها راجعة إساءتها؛ لأنها تقاسي ضرها وتلاقي شرها، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:46] بل هم يظلمون على أنفسهم بالإساءة.

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت: 47 – 50].

وبقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت:47] يشير إلى علم جزاء أعمال العباد يوم القيامة، فإنه لا يعلمه إلا هو؛ لأنه ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت:47]؛ أي: لا تخرج من ثمرة عمل من أعمال العباد

من أحكام التقدير الإلهي، ولا تحمل أنثى نفس بحمل صفة من صفاتها، ولا تضع من عمل هو من نتائج تلك الصفة إلا بعلمه وتقديره الأزلي، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت:47]؛ يعني: الذين كانوا يرون أنهم يخلقوا أفعالهم وأعمالهم ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت:47] يشهد أنه خالق فعله، وكوشفوا بأنه لا خالق إلا الله ولا وجود في الحقيقة إلا الله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [فصلت:48] له وجود ﴿وَظَنُّوا﴾ [فصلت:48] وأيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [فصلت:48] مهرب إلا الله عند قيام الساعة بتجلي صفة القهارية.

ثم أخبر عن اللوم الإنساني والكرم الرباني بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت:49] يشير إلى أن الإنسان مجبول على طلب الخير بحيث لا تتطرق إليه الساعة، فبهذه الخصلة بلغ من بلغ رتبة خير البرية، وبها بلغ من بلغ دركة شر البرية وذلك؛ لأنه لما خلق لحمل الأمانة التي أشفق منها البرية ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب:72]، وهي عبارة عن الفيض الإلهي بلا واسطة وذلك فيض لا نهاية له، فلحملها احتاج الإنسان إلى طلب غير متناه، فصرف بعضهم هذا الطلب في قبول الفيض الإلهي وأعرض عن غيره متأخر البرية، ومن صرف هذا الطلب في تحصيل الدنيا وزينتها وشهواتها واستيفاء لذاتها فيا شتتم من الطلب، وصار شر البرية، ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ [فصلت:49] وهو فطامه عن مألوفات نفسه وهواه ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[1] [فصلت:49] لا يرجو زوال

(1) قال الورتجبي: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برّه بأوليائه ويكون مقلدًا في الدعاء ومعرضًا بسرّه عنه ويظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرُّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرُّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذُّ بلاءه، كما يستلذُّ نعمه في لسان الخلائق.

لنا فيه إشارةٌ؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنزهة عن مباشرة الحدثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منزَّهٌ عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبيًّا مرسلاً، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعًا في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرُّ من الحق وهو غضبان عليه معربدًا شطاحًا بتكلُّمه عن سرِّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله

البلايا والمحن لعدم علمه بربه وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إلى الله؛ ليدفع عنه ذلك، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت:50]؛ أي: لئن كشفنا عنه البلاء وأوحينا إليه الرضاء لدعاه استحقاقًا واتفاقًا، ولا يعتقد ذلك هنا فضلاً وإنعامًا؛ لأنه محجوب بأنانيته عن هويتنا؛ بل يرى ذلك من جلادته وكفايته أو من طالعه وجده ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:50] من حسن استعدادي وسعادة طالعي.

وبقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ [فصلت:50] بالحشر والنشر ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:50] بحسب قسمي وسعد طالعي، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ [فصلت:50]؛ أي: فلينجزينهم بجزاء ما عملوا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:50] وهو عذاب الطرد والبعد، وإفساد استعداد الروح لقبول الفيض وحرمة حرمانه، وقد كان معذبًا بهذا العذاب ولكنه لم يجد ذوق العذاب وألمه، فلنذيقنه الآن بعد انتباهه من نومة غفلته.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ [فصلت: 51 - 54].

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [فصلت:51]؛ لأنه إذا خليناه إلى طبيعة الإنسانية وهي الظلومية الجهولية لا يميز بين البلاء والعطاء، فكثير مما يتوهمه عطاء هو مكر واستدراج وهو يستديمه، وكثير مما هو فضل ونعمة وصرف عطاء وهو يظنه بلاء فيعافه ويكرهه؛ بل إذا أنعمنا عليه صاحبه بالبطر، وإذا أبليناه قابله بالضجر؛ بل وإذا أنعمنا عليه عجب بنفسه فتكبر مختالاً في زهوه لا يشكر ربه ولا يذكر فضله، ويشتغل بالنعمة عن المنعم ويتباعد عن نشاط طاعة، وكالمستغني عنا يهيم على وجهه، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:51] وتضرع شديد بالاضطرار بخصوصية الجوهر الإنسانية فإن له إلى ربه الرجعى عند الاضطرار لحاجته الأصلية الكلية اليد.

من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

وبقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:52] يشير إلى أن كل بلاء وعناء، ونعمة ورحمة، ومهانة ومسرة تنزل بالعبد، فهو من عند الله فإن استقبله بالتسليم والرضاء صابرًا شاكرًا للمولى في الشدة والرخاء والسراء والضراء، فهو من المهتدين المقربين، وإن استقبله بالكفران والجزاع بالخذلان فهو من الأشقياء والمبعدين المضلين، وبقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53] يشير إلى معانٍ كثيرة منها: أن الخلق لا يرون آياتنا إلا بإراءة الله إياهم.

ومنها: أن الله خلق الآفاق مظهر آياته، وكذلك نفس الإنسان مظهر آياته.

ومنها: أنه ليس للآفاق شعور على الآيات، ولا على مظهريتها للآيات.

ومنها: أن الإنسان هو الذي له شعور على الآيات، وعلى مظهريته للآيات.

ومنها: أن نفس الإنسان مرآة مستعدة لمظهرية جميع آيات الله، ومظهريتها بإرادة الحق تعالى بحيث تبين له أنه الحق، ويتبين لغيره أنه الحق، وفي قوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53] إشارة إلى: العوام والخواص وأخص الخواص:

فأما العوام: فتبين لهم باختلاف الليل والنهار والأحداث التي تجري في أحوال العالم، واختلاف الأحوال التي تجري عليهم في الطفولية إلى الشيخوخة، واختلاف أحكام الأعيان مع اتفاق جواهرها في التجانس، وهذه هي آيات حدوث العالم، واقتضاء المحدث بصفاته.

وأما الخواص: فيتبين لهم ببصائر قلوبهم من شواهد الحق واختلاف الأحوال في القبض والبسط، والجمع والفرق، والحجب والجذب، والستر والتجلي، والكشوف والبراهين، وأنوار الغيب وما يجدونه من حقائق معاملاتهم ومنازلاتهم بإراءة الحق تعالى.

وأما أخص الخواص: فيتبين بالخروج عن ظلمات حجب الإنسانية إلى نور الحضرة الربانية بتجلي صفات الجمال والجلال كشف القناع الحقيقي عن العين والعيان.

ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ [فصلت:53] بإراءة آياته وتعريف ذاته وصفاته بكشف القناع ورفع الأستار، ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:53] لا يغيب عن قدرته شيء، وبقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:54] يشير إلى أن أهل

الصورة لفي شك من تجويز ما يكاشف به أهل الحقيقة من أنواع المشاهدات والمعاينات، ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:54] وهو قادر على التجلي لكل شيء، كما قال ﷺ: «إذا تجلى الله لشيء خضع له»[1].

(1) تقدم تخريجه.

سورة الشورى

مكية وهي ثلاثة وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ⑥﴾ [الشورى: 1 - 6].

﴿حم* عسق﴾[1] [الشورى 1 - 2] يشير إلى القسم بحاء حبه، وميم محبوبه محمد، وعين عشقه على سيده، وقاف قربه إلى سيده بكمال لم يبلغه أحد في خلقه، أقسم بأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ [الشورى:3] أنك محبوبه الأزلي وبحبك خلق الموجودات

---

(1) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنّ ومن كان أهله من سرّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرّه وسرّ سرّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيي بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيومية صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حم﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبّاق كل سابق بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبّاح بحر قدسي وأنسي ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

بتبعيتك ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى:3]؛ أي: وكذلك أوحى إلى الأنبياء من قبلك أنك محبوبه الأزلي، ﴿اللهُ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:3]؛ أي: أوحى الله العزيز الذي لا يحتاج إلى وجودك ووجود غيرك، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:3] الذي لحكمة بالغة اتخذك حبيبًا في الأزل وخلقك للأبد وخلق الموجودات بتبعيتك، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:4] ملكًا وملكًا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى:4] أعلى رتبة وأعظم عزة في الألوهية، في أن استحقاقه لأوصاف المجد والجلال بمالكية ما في السماوات وما في الأرض، وبملكية من فيها.

وبقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى:5] يشير إلى قبيح أقوال المشركين من بني آدم وأفعالهم وجراءتهم على الله تعالى، ولعظم كفرهم كادت السماوات تنشق إلى أسفلهن؛ أي: تنفطر جملتها، فالمعنى أن أولاد آدم بهذه الصفة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:5] لا يفترون، ومع هذا عناية الله تعالى في حق أولاد آدم أن الملائكة مأمورون بترك التسبيح ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ [الشورى:5] فيه إشارة إلى أن استغفار الملائكة لهم ليس من اختيارهم؛ بل أن الله هو الغفور لبني آدم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:5] بهم، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لهم وهو يغفر لهم مع كثرة عصيانهم، والكفار الذين يرتكبون عظيم هذا الجرم من الشرك والذنوب العظائم لا يقطع رزقهم ولا صحبتهم ولا تمتعاتهم في الدنيا، وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة، وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: 6] يشير إلى أن كل من عمل بمتابعة هواه وترك الله حدًا ونقض له عهدًا، فهو متخذ الشياطين أولياء؛ لأنه يعمل بأوامرهم وأفعاله موافقة لطباعهم، ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى:6] بأعمال سرهم وعلانيتهم، إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:6]؛ لتمنعهم عن معاملاتهم.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا

عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: 1 - 7].

ثم أخبر عما أوحى الله لإنذار أم القرى بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى:7] يشير إلى إنذار نفسه الشريفة؛ لأنها أم القرى نفوس آدم وأولاده؛ لأنه ﷺ هو الذي تعلقت القدرة بإيجاده قبل كل شيء، كما قال ﷺ: «أول ما خلق الله روحي ومنه تنشأ الأرواح والنفوس»[1]، ولهذا المعنى قال آدم: «ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»؛ فالمعنى أنه: كما يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم والأمم، ﴿كَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى:7]؛ لتنذر نفسك الشريفة بالقرآن العربي؛ لأن نفسك عربية ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:7] من نفوس أهل العالم؛ لأنها محدثة بنفسك الشريفة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، وقال ﷺ: «بعثت إلى الخلق كافة»[2]، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [الشورى:7] يوم يجمع بين الأرواح والأجساد، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:7] لا شك في كونه، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:7]، كما أنهم اليوم فريقان فريق في جنة القلوب وراحات الطاعات وحلاوات العبادات وتنعمات القربات، وفريق في سعير النفوس وظلمات المعاصي وعقوبات الشرك والجحود، فكذلك غدًا فريق من أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: 8 - 12].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى:8] كالملائكة المقربين ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6]، أو جعلهم كالشياطين المبعدين المطرودين المتمردين، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يجعلهم مركبين من جوهري الملكي والشيطاني؛ ليكونوا مختلفين بعضهم الغالب عليه الوصف الملكي مطيعًا لله تعالى، وبعضهم الغالب عليه الوصف الشيطاني متمردًا على الله تعالى؛ ليكونوا مظاهر صفات لطفه وقهره، مستعدين لمرآة صفات جماله وجلاله، متخلقين بأخلاقه، وهذا سر قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] ومن هنا قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:32] ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى:8]؛ ليكون مظهرًا لصفات لطفه ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:8]؛ ليكونوا مظهرًا لصفات قهره.

وبقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى:9] يشير إلى أنه لا ولاية لأحد دونه، فالله هو متولي الأمور في الخير والشر والنفع والضر، ﴿وَهُوَ﴾ [الشورى:9] الذي ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الشورى:9]؛ أي: النفوس والقلوب، اليوم وغدًا، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:9] من الإيجاد والإعدام، وبقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى:10] يشير إلى اختلاف العلماء في شيء من الشرعيات والمعارف الإلهية، فالحكم في ذلك إلى كتاب الله وسنة رسول الله، وإجماع الأمة وشواهد القياس، أو إلى أهل الذكر، كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:43] ولا ترجعون إلى العقول المشوبة بآفة الوهم والخيال، فإن فيها للنفس والشيطان مدخلاً بإلقاء الشبهات، وأدنى الشبهة في التوحيد كفر، وقد زلت أقدام جميع أهل الأهواء والبدع والفلاسفة عن الصراط المستقيم والدين القويم بهذه المذلة، وبقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:10] يشير إلى أنه إذا اشتغلت قلوبكم بحديث نفوسكم لا تدرون أبالسعادة جرى حكمكم، أم بالشقاوة مضى أسمكم؟ فكلوا الأمر إلى الله واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لعقولكم سبيل إلى معرفته وعلمه من عواقبكم.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ﴾ [الشورى:11] سماوات القلوب عن معالم الغيوب،

﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى:11] أرض النفوس عن عوالم الغيوب، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى:11]؛ أي: خلق حواء النفس من ضلع آدم الروح لتسكن إليها، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى:11]؛ أي: خمر في طينتكم صفات الأنعام بأضعاف ما فيها، ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:11] يخلقكم في وصف الأنعام لاستعداد حمل الأمانة التي ما حملها الملائكة؛ لكونهم أرواحًا مفردة، ولا الحيوانات؛ لأنها عرية في الأرواح الروحانية، وحملها الإنسان؛ لكونه مركبًا من الروح الملكي والجسد الحيواني، ثم قال في هذا المعرض: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] [الشورى:11]؛ يعني: شيئًا من هذه الأشياء التي ركب منها الإنسان من جميع الموجودات، فإنه نسخة العالم بما فيه من العناصر الأربعة: النبات والحيوان، والأجرام، والنفوس، والأرواح، ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]؛ أي: مع أنه تعالى سميع بصير والحيوان أيضًا سميع بصير ولكن لا شبه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أحكامه، على أن قومًا وقعوا في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحد والنهاية والكون في المكان، وأقبح قولاً منهم من وصفه بالجوارح والآلات، وقوم وصفوه بما هو تشبيه في الصفات فظنوا أن بصره في حدقة، وسمعه في عضو، وقدرته في يد إلى غير ذلك، وقوم قاسوا حكمه على حكم عباده فقالوا: ما يكون من الخلق حسنًا فمنه حسن فهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه، والحق تعالى مستحق التنزيه دون التشبيه، محقق بالتحصيل دون التعطيل والتمثيل، مستحق التوحيد دون

---

(1) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المِثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: 60] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أُثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبتَ المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهميٌ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: 35]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: 35]: أي يبين الله الأمثال للناس، لفهم.

التحديد، موصوف بصفات الكمال، مسلوب عن العيوب والنقصان، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى:12]؛ أي: مفاتيح سماوات القلوب وفيها خزائن لطفه ورحمته، وأرض النفوس وفيها خزائن قهره وعزته، فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه فبعضها مخزن المعرفة، وبعضها مخزن المحبة، وبعضها مخزن الشوق، وبعضها مخزن الإرادة، وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والأنس والرضا وغير ذلك، وكل نفس مخزن لنوع من أوصاف قهره، فبعضها مخزن النكرة، وبعضها مخزن الجحود، وبعضها مخزن الإنكار، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة كالشرك والنفاق، والحرص والكبر، والبخل والشره، والغضب والشهوة، وغير ذلك، وفائدة التعريف أن المقاليد له قطع أفكار العباد من الخلق إليه في جلب ما يريدونه ودفع ما يكرهونه، فإنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:12] يوسع ويضيق رزق النفوس ورزق القلوب، والخلق بمعزل عن هذا الوصف.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: 13 - 15].

ثم أخبر عن تبيين الدين بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى:13] يشير إلى أصول الدين أنها لم تختلف في جميع الشرائع، فأما الفروع فمختلفة فالآية تدل على أن مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة، ثم بين بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى: 13]؛ أي: في الأصول؛ وهي التوجه إلى الله بالكلية في صدق الطلب بتزكية النفس عن الصفات الذميمة، وتصفية القلب عن تعلقات الكونين، وتحلية الروح بالأخلاق الربانية،

ومراقبة السر بكشف الحقائق وشواهد الحق، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:13]؛ أي: في الدين تفرق أهل الأهواء بالبدع بحسبان المعرفة والبراهين المعقولة، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ [الشورى:13] مشرك أهل الأهواء والسمعة والرياء ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:13] من التوحيد والوحدة.

وبقوله: ﴿الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:13] يشير إلى مقامي المجذوب والسالك، فإن المجذوب من الخواص اجتباه في الأزل وسلكه في سلك من يحبهم واصطنعه لنفسه تعالى، وجذبه به عن الدارين بجذبة توازي عمل الثقلين﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، والسالك من العوام الذين سلكهم في سلك من يحبونه موفقين للهداية على قدمي الجهد والإنابة، إلى سبيل الرشاد في طريق العناد، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ [الشورى:14]؛ يعني: أهل الأهواء والبدع ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الشورى:14] من الكتاب والسنة ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:14]؛ أي: حسد بعضهم على بعض طلبًا للرئاسة والقدرة والشهرة، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الشورى:14] بافتراقهم ثلاثة وسبعين فرقة افتراق كل فرقة في زمان معين، ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:14] بالهداية.

وبقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى:14] يشير إلى الذين أورثهم الكتاب، الذين اصطفيناهم من العباد بعد أهل الأهواء والبدع، ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [الشورى:14] من افتراق المبتدعين ﴿مُرِيبٍ﴾ [الشورى:14] لباطليتهم، ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ [الشورى:15] ؛ أي: لبطلان مذاهب الأهواء والنوع ﴿فَادْعُ﴾ [الشورى:15] إلى صراط مستقيم السنة ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى:15] بالكتاب في الدعاء والطاعة، أمر الكل بالاستقامة وأفرد الداعي بذكر الاستقامة واختصمه به لاستقامة تبعية، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ الله مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:15]؛ ليعلم أن إتباع الأهواء ضلالة وإن كان مقرونًا بشبه المعقول، والإيمان بما أنزل الله في التوحيد والمعرفة، وإثبات الصفات ونفي التشبيه والتعطيل هداية، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:15]؛ أي: لأستوي بين أهل الأهواء وبين أهل السنة بترك البدعة ولزوم الكتاب والسنة؛ ليندفع الافتراق ويكون الاجتماع، ﴿الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى:15] لا الهوى ﴿لَنَا

﴿أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى:15] مقبولاً للسنة لا علينا وعليكم، مردودًا للبدعة، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:15]؛ أي: خصومة بالأهواء والعصبية، ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى:15] في المرافقة بالسير إلى الله، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى:15] بانتهاء السير إلى الله كقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:42].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: 16 - 19].

وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى:16] يشير إلى الذين يجادلون في معرفة الله بشبه المعقول مع صاحب المعرفة الذي استجيب له بالوصول إلى الحضرة، فحجتهم من بعد استجابته صعبة باطلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:16]؛ لأنهم يحجبون بالباطل، فهم مستوجبون اللعنة والطرد والإبعاد.

ثم أخبر عن إنزال القرآن والميزان بقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:17] يشير إلى كتاب الإيمان الذي كتب الله في القلوب، وميزان العقل الذي يوزن به أحكام الشرع، والخير والشر، والحسن والقبح، فإنهما قرينان متلازمان لابد لأحدهما من الآخر، وسماها البصيرة فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام:104] فمن صبر فلنفسه ومن عمى فعليها، ففي انتفاء أحدهما انتفاء الآخر، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171] فنفي العقل والبصيرة بانتفاء الإيمان.

وبقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:17] يشير إلى زجرهم عن طول الأمل وينبئهم على انتظار الأجل وهجومه، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:18] إنكارًا وجحودًا واستهزاءًا وتكذيبًا بها، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشورى:18] بالغيب ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى:18] من أحكام الآخرة، ويكلون أمرهم إلى الله فلا

يتمنون الموت حذار الابتلاء، ولكن إذا أراد الموت لم يكرهوه ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى:18] فيستعدون له ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى:18]؛ أي: ضلالة بعيدة لأنه أزلي، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى:19] فلطفه من وجهين: أحدهما لطف الفطرة التي فطر الناس عليها في أحسن تقويم مستعدًا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة، ولطف الجذبة للوصلة، وأيضًا لطيف بعباده بأن جعلهم عباده لا عباد الدنيا ولا عباد النفس والهوى والشيطان، ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:19] بلطفه الوصول والوصال، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ [الشورى:19] في إيصال العباد إلى الحضرة، ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:19]، بأنهم ﴿لاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255] وأكثر ما يستعمل اللطف في وصفه في الإحسان بالأمور الدينية، خاطب العابدين بقوله: ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى:19]؛ أي: بعمل غوامض أحوالكم من وفيق الرياء والتصنع لئلا يعجبوا بأحوالهم وأعمالهم، وخاطب العصاة بقوله: ﴿لَطِيفٌ﴾ لئلا ييأسوا من إحسانه، وخاطب الفقراء بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ [الشورى:19]؛ أي: أنه يحسن بكم، وخاطب الأغنياء بقوله: ﴿لَطِيفٌ﴾؛ ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال من غير وجهة بنوع تأويل، ومن لطفه بعباده: أنه جعلهم مظهر صفات لطفه، أنه عرفهم أنه لطيف ولولا لطفه ما عرفوه، أنه زين أسرارهم بأنوار العرفان وكاشفهم بالعين والعيان.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى: 20 - 22].

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ [الشورى:20] بحمده وسعيه ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:20] بهدايتنا، وتوفيق مزيد طاعتنا، وصفاء الأحوال في المعارف بعنايتنا اليوم، ونزيده في الآخرة قربة ومكانة ورفعة في الدرجات، وشفاعة الأصدقاء والقرابات، ﴿وَمَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ [الشورى:20] مكتفيًا به ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:20]؛ أي: من آفات حب الدنيا من عمى القلب وبكمه وصممه وسفهه، والحجب التي يتولد منها من الأخلاق الذميمة النفسانية، والأوصاف الردية الشيطانية السبعية، والبهيمية الحيوانية، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:20]؛ أي: في الأوصاف الروحانية والأخلاق الربانية.

ثم أخبر عن جفاء الشركاء بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى:21] يشير إلى كفار النفوس أنهم شرعوا عند استيلائهم من الدين بالهوى للأرواح والقلوب ما لم يرض به الله من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ [الشورى:21]؛ يعني: ما سبق من الحكم بالحكمة في تأخير تكاليف الشرع لقمع الطبع تربية لقالب بحمل أعباء الشريعة، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:21] بالتكاليف والمجاهدات قبل البلوغ، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:21]؛ يعني: في ظلم نفسه بمتابعة الهوى، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:21] بعد البلوغ في العظام من مألوفات الطبيعة بالأحكام الشرعية، ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [الشورى:22] بمتابعة الهوى في الأوصاف الذميمة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى:22]؛ يعني: عذاب ما كسبوا ما في الدنيا بكثرة الرياضات وأنواع المجاهدات؛ لتزكية النفوس من أوصافها وتحليتها بأضدادها، وأما في الآخرة بورودها النار لتنقيتها، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى:22] استعملوا تكاليف الشرع؛ لقمع الطبع، وكسر الهوى، وتزكية النفس، وتصفية القلب، وتحلية الروح، ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى:22] في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة، وفي الآخرة في روضات الجنة، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:22]؛ أي: مراتبهم في القربات والوصلات، والمكاشفات والمشاهدات، ونيل الدرجات على قدر همتهم ووفق مشيئتهم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى:22] في حق الأمة، والنبي ﷺ مخصوص بالفضل العظيم كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء:113].

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ

يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى: 23 - 26].

﴿ذَٰلِكَ﴾ [الشورى:23] الفضل الكبير ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى:23] به فضل من الله، والنبي ﷺ مبشر به بأن الله يبشرهم على لسانه، ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [الشورى:23]؛ أي: على التبشير ﴿أَجْرًا﴾ [الشورى:23]؛ لأن الله ليس يطلب منكم على الفضل عوضًا، فأنا أيضًا لا أسألكم على التبشير أجرًا، فإن المؤمن أخذ من الله خلقًا حسنًا، فكما أن الله تعالى بفضله يوفق العبد للإيمان ويعطي الثواب لمن آمن به وليس يرضى بأن يعطيك فضله مجانًا؛ بل يعطيك عليه أجرًا، كذلك ليس يرضى لرسوله ﷺ بأن يطلب أجرًا على التبليغ والتبشير؛ بل يشفع ذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا الْـمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:23] ذلك أيضًا ليثبت الله قلبك على المحبة في الله، وهو أن تودّ من يتقرب إلى الله بالطاعة، ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى:23] بالتضعيف والتوفيق لمثلها والإخلاص فيها، وبزيادة لا يصل العبد إليها بوسعه مما يدخل تحت طوف البشر، ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ﴾ [الشورى:23] للمقصرين على الطاعة برحمته، ﴿شَكُورٌ﴾ [الشورى:23] للموفرين في الطاعة فوق استطاعتهم فيها، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى الله كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: 24]؛ أي: أنك إن افتريته ختم الله على قلبك ولكنك لم تكذب على ربك، ولو كنت تكذب على ربك لختم على قلبك، ﴿وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ﴾ [الشورى:24]؛ أي: الكذب ﴿وَيُحِقُّ الْـحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:24]؛ أي: الصدق، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى:24] ومعنى الآية: إن الله يتصرف في عباده بما يشاء من إبعاد قريب وإدناء بعيد.

ثم أخبر عن قبول التوبة وعفو السيئة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى:25] يشير إلى أن الله تعالى إذا أراد أن يتوب على عبد من عباده ليرجع من أسفل سافلين البعد إلى أعلى عليين القرب يخلصه عن رق عبودية ما سواه بتصرف جذبات العناية، ثم يوفقه للرجوع إلى الحضرة، ويقبل منه الرجوع بالتقرب إليه كما قال:

«من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1]؛ أي: من تقرب إلي شبرًا بالتوبة تقربت إليه ذراعًا بالقبول، ولو لم يكن القبول سابقًا على التوبة لما تاب، كما قال بعضهم لبعض المشايخ: أن أتوب إلى الله هل يقبلني، قال: إن يقبلك الله تتوب إليه، ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:25]؛ أي: يعفو عن كثير من الذنوب التي لا يطلع العبد عليها ليتوب عنها، وأيضًا يعفو عن كثير من الذنوب قبل التوبة ليصير العبد به قابلاً للتوبة وإلا لما تاب، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:25] من السيئات والحسنات مما لا يعلمون إنها من السيئات والحسنات، فبتلك الحسنات يعفو عن السيئات، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى:26]؛ يعني: ويعطيهم الثواب في الآخرة ويجيبهم ما سألوه ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى:26] بهذه الزيادة يشير إلى الرؤية، فإن الجنات ونعيمها مخلوقة تقع في مقابلة مخلوق مثلها، وهو عمل العبد والرؤية مما يتعلق بالقديم فلا تقع إلا في مقابلة القديم، وهو الفضل الرباني كقوله تعالى:﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26]؛ أي: للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الجنان ونعيمها، والزيادة هي الرؤية التي من فضل الله يؤتيها من يشاء، ولما ذكر أنه تعالى يقبل توبة التائبين ومن لم يتب يغفر ذلتهم، والمطيعون يدخلهم الجنة ،فلعل يخطر ببال أحدهم أن هذه النار فلمن هي؟ قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:26] فلعل خطر ببالهم أن العصاة من المؤمنين لا عذاب لهم فقال الله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 26] فدليل الخطاب: إن المؤمنين لهم عذاب ولكن ليس بشديد، ثم إن العبد لم يتب خوفًا من النار ولا طمعًا في الجنة، لكان في حقه أن يتوب ليقبل الحق سبحانه، ثم إن العاصي يكون أبدًا منكسر القلب فإذا علم أن الله يقبل الطاعة من المطيعين يتمنى أن له طاعة يسيرة ليقبلها الله فيقول الحق: عبدي، إذ لم تكن لك طاعة تصلح للقبول فلك توبة إن أتيت بها تصلح لقبولنا.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ

(1) تقدم تخريجه.

ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: 27 - 31].

وبقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:27] يشير إلى تسلية الفقير كأنه يقول: إنما لم أبسط أيها الفقير، عليك الدنيا لما كان لي من العلوم إن وسعت عليك لطغوت وسعيت في الأرض بالفساد، ويشير أيضًا إلى وعيد الحريص على الدنيا لئلا ينتبه عن نومة الغفلة ويتحقق له أن لو بسط الله له الرزق بحسب حرصه على الطلب؛ لكان سبب بغيه وطغيانه وفساد حاله فيكن فائزة حرصه على الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَكِن﴾ وهي كلمة استدراك، إن لم أوسع عليك الرزق لصلاح حالك لم أضع عنك الكل، ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:27]؛ لعلمه بصلاح حالك، ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:27].

وبقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[1] [الشورى: 28] يشير إلى أن العبد إذا ذبل غصن وقته، وتكدر صفو ورده، وكسف شمس أنسه، وبعد بالحضرة وساحات القرب عهده، فربما ينظر الحق بنظر رحمته فينزل على سره أمطار الرحمة ويعود عوده طريًا وينبت من مشاهد أنسه وردًا جنيًا، وأنشدوا:

أقبل فقد أغيى الصدود ... ولعل أيامي تعود
ولعل عهدك باللوى ... يحيى العهود
والغصن ينشد تارة ... وتراه غضر تميد

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى:28] لطالبيه، ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:28] في توليتهم، وبقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى:29]

---

(1) أي: يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

يشير إلى سماوات الأرواح وأرض الأجساد ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ النفوس والقلوب فلا مناسبة بين كل واحد منهم، فإن بين الأرواح والأجساد بونًا بعيدًا في المعنى؛ لأن الجسد من أسفل سافلين والروح من أعلى عليين، والنفس تميل إلى الشهوات الحيوانية الدنياوية، والقلب يميل إلى الشواهد الروحانية الأخروية الربانية، ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ [الشورى:29] على طلب الدنيا وزينتها، وعلى طلب الآخرة ودرجاتها، وعلى طلب الحضرة وقرباتها ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:29]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:30] يسلي به قلوب العباد وأهل المصائب؛ يعني: إذا أصابتكم مصيبة الذنوب والمعاصي موجبة للعقوبة الأخروية الأبدية تداركنا بإصابة المصيبة الدنيوية الفانية؛ ليكون جزاءً لما يذر منكم من سوء الأدب، وتطهيرًا لما تلوثتم به من المعاصي، ثم إذا كثرت الأسباب من البلايا على عبد وتوالت عليه ذلك فليكفر في أفعاله المذمومة، كم يحصل منه حتى يبلغ جزاء ما يفعل مع العفو الكثير بقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] هذا المبلغ، فعند هذا يزداد حزنه وأسفه وخجله لعلمه بكثرة ذنوبه وعصيانه وغاية كرم الله، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الشورى:31] يمنعكم مني ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:31] ينصركم علي أو على أنفسكم أو على غيركم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾ [الشورى: 32 -38].

ثم أخبر عن آياته البينات بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى:32] يحثهم على الفكرة المنبهة لهم في السفن التي تجري في البحار، فيرسل الله تعالى الرياح مرة ويسكنها أخرى وما يريهم من السلامة والهلاك، والإشارة في هذا إلى مسلك الناس في خلال فتن الوقت من الأنواع المختلفة، ثم حفظ العبد في إيواء السلامة، وذلك يوجب خلوص الشكر الموجب له جزيل المزيد فيه إشارة أخرى، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي﴾ جواري سنن هممهم العالية في بحر الدنيا، جارية بريح العناية الأزلية إلى

ساحل الحضرة الربوبية بغير سكون والتفات إلى ما في بحر الدنيا، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:33]؛ أي: على ظهر البحر بفضله وكرمه، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:33] يشير إلى كل من صبره بالله وشكره بالله، فإنه تعالى هو الصبور الشكور، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ [الشورى:34] بعدله وقسطه ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى:34] من موجبات الهلاك، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:34]؛ أي: وإنه يعفو عن كثير من الذنوب المهلكات، ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [الشورى: 35] بالهوى والطبيعة من غير بينة ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى:35] خلاص من الله وعذابه، ثم قال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى:36]؛ يعني: إن الراحات في الدنيا لا تصفو من المشائب ولا تخلو، وإن أنفق البعض منها من الأجانين فإنها سريعة الزوال وشبكة الارتحال، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الشورى:36] من الثواب الموعود ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى:36] من هذا القليل الموجود؛ بل ما عند الله من الألطاف الخفية، والمقامات العلية، والمواهب السنية خير وأبقى مما في الدنيا والآخرة، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:36] لا على الدنيا ولا على الآخرة، ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ [الشورى:37] وهو حب الدنيا ومتابعة الهوى، فإنهما رأس كل خطيئة ومنشؤها، ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى:37] وهي الاشتغال بطلب الدنيا وصرفها في اتباع الهوى، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:37]؛ أي: يتجرعون كاسات الغضب النفسانية بأفواه القلوب الروحانية، ويسكنون سورة الصفة الشيطانية، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى:38] فيما دعاهم إليه بخطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الشورى:38]؛ أي: أداموا بالحضور والمراقبة والسير، وبقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:38] يشير إلى التمسك بذيل إرادة المشايخ في السلوك إلى الحضرة؛ ليتسلكوا بمشاورتهم وإرشادهم لا باسترسال النفس والهوى وتلقين الشيطان، كما قال الجنيد: «من لم يكن له أستاذ فأستاذه الشيطان»، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [الشورى:38] من الولاية والهداية ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:38] على طالبي أرباب طلب الله بصدق الإرادة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: 39 - 44].

ثم أخبر عن انتصار ذوي الأبصار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ [الشورى:39] يشير إلى أرباب القلوب الذين أصابهم الظلم من قبل أنفسهم، ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:39] من الظالم، وهو نفسهم بكبح عنانها عن الركض في ميدان المخالفة، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ [الشورى:40] صدرت من النفس من قبل الحرص والشهوة، أو الغضب، أو البخل، أو الجبن، أو الحسد، أو الكبر والغل ﴿سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى:40] تصدر من القلب ﴿مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:40]؛ أي: مثل ما يصادف علاجها؛ أي: بصد تلك الأوصاف فإن العلاج بأضدادها، ولا يجاوز عن حد المعالجة في رياضة النفس وجهادها، فإن لنفسك عليك حقًا، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى:40]؛ أي: عفا عن المبالغة في رياضة النفس وجهادها بعد أن تصلح النفس بعلاج أضداد أوصافها، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى:40] بأن يتصف بصفاته فإن من صفاته العفو، وهو عفو يحب العفو فيكن العبد العفو محبوبًا لله تعالى، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:40] الذين يضعون شدة الرياضة على النفس موضع العفو، ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ﴾ [الشورى:41] من القلوب على النفوس ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ الشورى:41]؛ أي: بعد أن ظلم النفس عليه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ [الشورى:41]؛ يعني: النفوس ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:41]؛ يعني: من القلوب على النفوس المرتاضة المطمئنة بذكر الله، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ [الشورى:42] للقلوب على النفوس، ﴿الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى:42]؛ أي: القلوب ﴿وَيَبْغُونَ﴾ [الشورى:42] ويظلمون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:42] أرض القلوب ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى:42]؛ أي: أتوا بغير المأذون لهم من الأفعال الخبيثة والأوصاف الذميمة، ﴿أُولَئِكَ﴾ [الشورى:42]؛ أي: النفوس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:42] هي الرياضات الشديدة الأليمة على خلاف هواها، ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ [الشورى:43] على الرياضة ﴿وَغَفَرَ﴾ [الشورى:43]؛ أي: لمن غفر من القلوب؛ أي: عفا عن النفوس

المرتاضة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ [الشورى:43]؛ أي: ذلك الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى:43]؛ يعني: الأمور المحمودة عند الله، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ [الشورى:44] من النفوس الأمارة بالسوء ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الشورى:44] من القلوب والأرواح بأن يخرجه من الأمارية، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى:44]؛ أي: من بعد الله فله أن يخرجه من الصفة الأمارية كما قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53]؛ أي: إلا ما يخرجها برحمته عن الصفة الأمارية ولهذا المعنى قال: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:44] من النفوس التي لم تقبل الصلاح بالعلاج في الدنيا، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [الشورى:44] يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:44]؛ لنقبل الصلاح بعلاج الرياضات الشرعية والمجاهدات الطريفة.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: 45 - 47].

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [الشورى:45] على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى:45] إذ لم يخشعوا في الدنيا من عزة العناية لا ينفعهم ندامة ولا يسمع منهم دعوة، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:45] من خجالة المؤمنين إذ يعيرونهم بما ذكروهم فلم يسمعوا، وذكروا أنه لا ناصر لهم لينصرهم ولا راحم يرحمهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشورى:45]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78] الذين ربحوا على ربهم، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الشورى:45] بإبطال استعدادهم، إذ صرفوه في طلب الدنيا وزخارفها والالتذاذ بها ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الشورى:45]؛ أي: وخسروا أهليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الشورى:45] إذا لم يقوا أنفسهم وأهليهم نارًا بقبول الإيمان وأداء الشرائع ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:34-36]، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:45] الذين كانوا في جهنم شهوات النفس جثيًا في

الدنيا ﴿فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى:45] في الآخرة، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الشورى: 46] من المؤمنين ﴿يَنْصُرُونَهُمْ﴾ [الشورى:46] بالشفاعة، ولا الذين اتخذوا ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الشورى:46] من دون أن ينصرونهم بالنجاة من أولياء الله، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ [الشورى:46] بأن يشغلهم بغيره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:46] يصل به إلى الله.

ثم أخبر عن الاستجابة بالعبودية للربوبية بقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ [الشورى:47] للعوام: إلى الوفاء بعهده والقيام بحقه والرجوع من مخالفته إلى موافقته، وللخواص: إلى الاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها؛ إجابة لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:25].

ولأخص الخواص: من أهل المحبة إلى صدق الطلب بالإعراض عن الدارين متوجهًا بحضرة الجلال، ببذل الوجود في نيل الوصول والوصال مجيبًا لقوله: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:46]، والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح وعن قريب سيغلق الباب على القلوب بغتة ويؤخذ قلبه وذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى:47].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: 48 -51].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [الشورى:48] عن الله بالإقبال على الدارين ولم يجيبوا ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى:48] بحفظهم عن الالتفات إلى الدارين لأن الحفظ من شأني لا من شأنك فإني حفيظ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:48] فليس عليك إلا بتبليغ الرسالة، ثم نحن نعلم بما نعاملهم بالتوفيق أو بالخذلان.

وبقوله: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى:48] يشير إلى ما يفتح الله تعالى به على القلوب من رحمته الخاصة؛ يعني: المواهب الإلهية، وفتوحات الغيب،

وأنواع الكرامات التي تربى بها أطفال الطريقة، ثم من ضيق سخطات البشرية استمالت الطبيعة إلى البطر بها فيجيبه، والعجب أنها تداخله وتغلق أبواب الفتوحات بعد فتحها وذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:48]؛ يعني: إذ لم يشكر على ما فتح الله عليه من المواهب ليزيده؛ بل نظر إلى نفسه بالعجب، وأفشى سره على الخلق وإراءته شمعة من خصوصيته للإنسانية، إذ وكله الله إلى نفسه، ثم قال: ﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ [الشورى:49]؛ أي: سماوات القلوب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى:49] أرض النفوس ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:49] فيهما، وبقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:49] يشير إلى أرباب الولاية من المشايخ المسلكين، يهب لبعضهم من المريدين الصادقين الأتقياء الصلحاء وهم بمثابة الإناث لا تصرف لهم في غيرهم بالتخريج والتسليك، ويهب لبعضهم من المريدين والصديقين المحبين الواصلين، الكاملين المسلكين المخرجين وهم بمثابة الذكور لاستعداد تصرفهم في الطالبين، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى:50]؛ يعني: يهب لبعضهم من الجنسين المذكورين متصرفين في الغير وغير المتصرف، ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:50] لبعضهم من المشايخ ﴿عَقِيمًا﴾ [الشورى:50] لا يقوم منهم المريدون، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:50] لمن يجعله متصرفًا وغير متصرف في المريد، ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى:50] على من يشاء أن يجعله متصرفًا أو غير متصرف.

ثم أخبر عن معاملة أهل المكالمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْيًا﴾[1] [الشورى:51] يشير إلى أن البشر متى كان محجوبًا بصفات البشرية، موصوفًا بأوصاف الخلقية الظلمانية الإنسانية لا يكون مستعدًا أن يكلمه الله إلا بالإلهام والوحي في النوم أو اليقظة، ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:51] بالكلام الصريح ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:51] من الملائكة، ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ [الشورى:51]

---

(1) إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص95) بتحقيقنا.

إنه علي بعلو القدم لا يجانسه محدث، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الشورى:51] فيما يساعد البشر بإفناء أنانيته بهويته، فإذا فنيت البشرية وارتفعت الحجب وتبدلت كينونيته بكينونية الحق حتى به يسمع وبه يبصر وبه ينطق، فيكلمه الحق به شفاها، وبه يسمع العبد كلام كفاحا كما كان حال النبي ﷺ في سر ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:10].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 52 -53].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:52] وهو نور ينعكس في مرآة كينونيتك بتجلي كينونيتنا لمرآة كينونيتك؛ ليكون بنا حبيًا فتحب جمالنا بمحبتنا، ونحب جمالك بمحبتك التي هي عكس محبتنا في مرآتك فإذا أمعنت النظر وجدت الناظر والمنظور، والمحب والمحبوب واحدًا كما قيل:

أَنـا مَـن أَهـوى وَمَـن أَهـوى أَنـا نَحـنُ روحـانِ حَلَلْـنا بَـدَنا

وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى:52]؛ أي: حقيقتهما إذ كنت في ظلمة كينونيتك، فلما أخرجناك منها بتجلي كينونتنا جعلناك نورًا دربت به نور الكتاب ونور الإيمان، فإن حقيقتهما نور واحد كما قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52] إلى حضرة جلالنا بالوصول والوصال، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى:52] أيضًا ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:53] ملكًا وملكًا؛ لأنك نور تهدي إلى حضرة جلالنا، ولمناسبة نوره مع نور الإيمان والقرآن قيل: «كان خلقه القرآن»[1]، وقال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53]؛ لأنه تعالى مبدأ كل شيء ومرجع كل شيء ومصيره.

(1) رواه أحمد (53/ 447)، وابن عساكر (3/ 382).

سورة الزخرف

مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف: 1 - 8].

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف1 - 2] يشير إلى القسم بحاء حياته و ميم ملكه معناه وحياتي وملكي، وهذا القرآن المبين الذي أبان طريق وصول السالكين إلى الله والمعتصمين بالله، إن الذي أخرت من رحمتي لعبادي المؤمنين حق وصدق، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:3] بعد أن كان القرآن كلامي وصفتي قائمة بذاتي، عرية عن كسوة العربية، منزهة عنها وعن توابعها، وإنها كسوناها العربية ليتيسر عليكم فهم معناه، وذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:3]؛ أي: تفهمون معناه، ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ يعني: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ وهو علم الحق تعالى فإنه أصل كل كتاب، ولهذا المعنى قال في أم الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ [الزخرف:4] نظيره قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39]، وقوله: ﴿لَعَلِيٌّ﴾ [الزخرف:4] قدره ﴿حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:4] محكم الوصف لا تبديل له ولا تحويل، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف:5]؛ أي: أفنترككم ولا نذكركم ونقطع عنكم خطابنا وتعريفنا؛ أي: لا تفعل ذلك، ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:5] بأن أسرفتم في خلافكم؛ أي: لا ندفع عنكم التكليف بأن خالفتم، ولا نهجركم بقطع الكلام عنكم وإن أسرفتم، وفي هذا إشارة لطيفة وهي ألا يقطع الخطاب اليوم عمن تمادى في عصيانه، وأسرف أكثر شأنه فأحرى من لم يقصر في إيمانه وإن تلطخ بعصيانه، ولم يدخل خلل في عرفانه لا يمنع عنه لطائف غفرانه و عواطف إحسانه، وبقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:6]، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف:7] يشير إلى كمال ظلومية نفس الإنسان وجهوليتها، وكمال حكم الله وكرمه وفضل ربوبيته بأنهم وإن بالغوا في إظهار أوصافهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة، بالاستهزاء مع الأنبياء والمرسلين والاستخفاف بهم، إلى أن كذبوهم

وسعوا في قتلهم من أهل الأولين والآخرين، وكذلك يفعلون أهل كل زمان مع ورثة الأنبياء من العلماء المتقين، والمشايخ السالكين الناصحين لهم، الداعين إلى الله والهادين لهم، وإن الله تعالى لم يقطع عنهم مراحم فضله وكرمه، وكان يبعث إليهم الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويدعوهم إلى جناته، وينعم عليهم بعفوه وغفرانه، ومن غاية أفضاله وإحسانه تأديبًا وترهيبًا لعباده أهلك بعض المتمردين المتهادين في الباطل؛ ليعتبر المتأخرون من المتقدمين وذلك قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:8].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: 9 - 16].

ثم أخبر عن فضله مع الكفار بتوفيقهم للإقرار بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:9] يشير إلى أن جبلة الإنسان معرفة الله مركوزة وذلك؛ لأن الله تعالى أخذ ذرات ذريات بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ، فاسمعهم خطابه وعرفهم بربوبيته ووفقهم لإجابته حتى قالوا: بلى، فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالقية الله تعالى في هذا العالم الذي هو العزيز، فلعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه بجذبات عناية العليم الذي يعلم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124]، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:117] بكمال حكمته، وبقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف:10] يشير إلى أرض النفس إنه جعلها قرارًا للروح ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ [الزخرف:10]؛ أي: للأرواح ﴿فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:10] إلى حضرة الربوبية إذا جاءتهم في الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69]، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الزخرف:11] سماء الروح ﴿مَاءً﴾

[الزخرف:11] ماء الهداية ﴿بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ [الزخرف:11]؛ أي: فأحيينا به بلدة القلب الميت ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:11] من ظلمات أرض الوجود بإحياء الأرواح إلى نور الله؛ ليحيا به كما قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:122]، ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:12]؛ أي: أصناف الخلق وأنواع المخلوقات كما قال: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يس:36]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ [الزخرف:12]؛ أي: فلك القلوب وأنعام النفوس﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ [الزخرف:13] بتسخيرها لركوبكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف:13] ولو لم ينعم علينا بتسخيرها ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[1] [الزخرف:13] مطيعين لتسخيرها، ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:14] كما جئت أول مرة كما قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:104] فكان بدء خلقنا بإشارة أمركن أخرج أرواحنا من كتم العدم إلى عالم الملكوت، ثم بنفخة الخاصة رددنا أسفل سافلين القالب وهو عالم الملك، ثم بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] أعادنا على مركب النفوس من عالم الملك إلى ساحل بحر الملكوت، ثم سخر لنا فلك القلوب وسيرنا في بحر الملكوت إلى عالم الربوبية.

وبقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:15] يشير إلى خصوصية الإنسان بكفران النعمة لله تعالى؛ لأنه ﷻ بعد أن أنعم على الإنسان باستعداد الرجوع إلى الحضرة وهيأ أسبابه للرجوع، جعلوا الملائكة وهم عباده جزء منه بأنهم قالوا هم بنات الله، والبنت تكون جزء من والدها ولهذا قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:15]، ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف:16].

---

(1) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فحَمَلهم عليه إلى عرَصات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَم فأناخوا بعقوة العِزَّةِ وعند ذلك تحطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أو نبياً مُرْسَلاً أو ولِيًّا مُكَرَّماً فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق، تفسير القشيري (7/ 210).

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف: 17 - 25]

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف:17] إلى قوله: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:24] بذلك كله يشير إلى كفورية الإنسان وسوء أدبه مع الله وأوصاف ظلوميته وجهوليته، ومن جهالته تقليد آبائه في الضلالة عن عمى قلبه واتباع هوى نفسه، فإن وكل إلى نفسه وطبيعتها لا يخرج من ظلمات نفسه أبدًا ويكون ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:44] إلى أن أدركته العناية الأزلية فتخرجه من ظلمات الأوصاف الإنسانية بجذبات الولاية إلى نور الهداية وإلا من لم يجعل الله له نورًا فماله من نور، وبقوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:25] يشير إلى أن من خذله الله ووكله إلى خصوصية نفسه المتمردة الأمارة بالسوء فإنه ينتقم منه بالهلاك والعذاب، ويجعله مرآة صفات قهره؛ ليعلم أن الحكمة البالغة مقتضية بأن يجعل المكذبين من أهل الكفران مرآة صفات قهره، كما اقتضت أن يجعل للمصدقين من أهل الإيمان مرآة صفات لطفه.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: 26 - 32].

ثم أخبر عن طريق كل فريق منهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ [الزخرف:26] يشير إلى إبراهيم القلب إذ قال لأبيه: وهو الروح، وقومه: وهم النفس وصفاتها وهواها ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:26] من الروحانيات والمعقولات والنفسانيات وشهوات الدنيا وزخارفها، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: 27] به يشير إلى أن ليس لشيء من المخلوقات الهداية إلى الله إلا بالله كما قال ﷺ: «والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»[1]، وقال ﷺ: «بعثني الله مبلغًا وليس لي من الهداية شيء»[2]، فبهذا المعنى يتحقق لك أن كل من ادعى معرفة الله والوصول إليه بطريق العقل والرياضة والمجاهدة من غير متابعة الأنبياء، وإرشاد الله من الفلاسفة والبراهمة والرهابنة، فدعواه باطلة ومتمناه كاسدة.

وفيه إشارة أخرى وهي: إن الله تعالى إذا أرشد عبدًا من عباده هداه إلى صراط مستقيم معرفته، وإن لم يبلغه دعوة نبي، أو إرشاد ولي، أو نصح ناصح، ولا يتقيد بتقليد آبائه وأهل بلده من أهل الضلالة والأهواء والبدع، ولا يؤثر فيهم شبههم ودلائلهم المعقولة المشوبة بالوهم والخيال ولا يخاف في الله لومة لائم، كما كان حال إبراهيم عليه السلام فإنه لم يبلغه دعوة نبي، ولا إرشاد ولي، ولا نصح ناصح، فلما آتاه الله رشده قال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:26-27]، وفي زماننا هذا أهل الأهواء والبدع ممن لم يرشدهم الله، فإنهم متقيدون بتقليد آبائهم المبتدعة بحيث لا يؤثر فيهم آيات القرآن والأحاديث الصحيحة، والبراهين القاطعة مع دعوى الإسلام والإيمان، ويقولون كما قال الأولون من الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:23] ولعمري أن هذه المصيبة قد عمت بحيث لا يمكن تداركها إلا ما شاء الله، والمعصوم من عصمه الله من هذه الفتنة والبلاء وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ [الزخرف:28] وهي لا إله إلا الله ﴿فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:28] إلى الله على قدمي اعتقاد أهل السنة والجماعة والأعمال الصالحة على قانون

---

(1) رواه النسائي في الكبرى (3/ 21)، والطيالسي في مسنده (2/ 286)، والبيهقي (2/ 174).

(2) ذكره المناوي في فيض القدير (2/ 571).

المتابعة بنور هذه الكلمة الباقية، ثم قال في حق أهل الأهواء والبدع والضلالة: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ [الزخرف:29] من الدنيا وشهواتها فأسكرهم حب الدنيا وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ [الزخرف:29] من دلائل القرآن، ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف:29] قد بيَّن الحق والباطل بالأحاديث الصحيحة، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ [الزخرف:30] من أرباب الدين وأهل الحق ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ [الزخرف:30]؛ أي: ينظرون إلى الحق وأهله كمن ينظر إلى السحر وساحره، ويقولون بلسان الحال: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:30].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الزخرف:31]؛ أي: حكم القرآن وأسراره وحقائقه التي ينطق بها فقير لا يؤثر به ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:31]؛ أي: من علماء البلاد وأفاضلهم، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:32]؛ أي: الولاية، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [الزخرف:32] ولايتهم، ﴿مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:32] وذلك في قسمة المحبة الأزلية من المحبين بإشارة يحبهم ويحبونه، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:32] كاتخاذ المشايخ المحققين المريدين الصادقين سخريًا بالتربية، ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:32] من الولاية، ﴿خَيْرٌ﴾ [الزخرف:32] لأهلها ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:32] أهل الدنيا.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: 33 - 37].

وبقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:33] يشير إلى الجبلة الإنسانية التي طبعت على حب الدنيا وزخارفها واستيفاء شهواتها؛ لأن الإنسان خلق منها، وله نفس حيوانية مائلة إلى مراتع الدنيا وزخارفها، فإن الكفر والجهل والظلم مركوز في طبيعتها؛ لأنها منشأ الأوصاف البهيمية والسبعية والشيطانية، فلو خليت إلى طبعها ووافق لها مقتضاها

ومنتهى هواها من الدنيا وزخارفها لمالت إليها، واستغرقت في بحر غفلاتها، ولم تتضرع إلى طاعة ربها، وعبودية خالقها، وطلب معرفته، وإن الله تعالى بكمال حكمته لم يخلق الإنسان على طبيعة واحدة في الطاعة والعبودية؛ لأنه تعالى خلق الملائكة على هذه الطبيعة لتكون مظهرًا لصفات لطفه، كذلك لم يخلقهم على طبيعة واحدة في الكفر والتمرد؛ لأنه تعالى خلق الشياطين على هذه الطبيعة؛ ليكونوا مظهرًا لصفات قهره، وإنما خلق الإنسان أطوارًا مختلفة، ليكون بعضهم مظهرًا لصفات لطفه كالملائكة، وبعضهم مظهرًا لصفات قهره كالشياطين، وبعضهم مظهرًا لصفات لطفه وقهره جميعًا في سر ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]وخصوصيتهم بهذه الكرامة من بين سائر المخلوقات وهم خلفاء الله في أرضه وهم زبدة العالم وخلاصته، وهم الذين خلقوا لإظهار الكنز المخفي ومعرفته، والعالم بما فيه تبع لوجودهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض و﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:7]، وهم الذين يحبهم ويحبونه، ولولا أن الله تعالى أخرجهم من ظلمات طبيعتهم، وهداهم إلى نور ذاته وصفاته بجذبات عنايته لا يجذعوا بزخارف الدنيا إذ جعل الله لهم من الزخرف بيوتًا ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ [الزخرف: 34]، ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:35] لا دوام له ولا حاصل الدائمة والقربة اللازمة عند ربك؛ أي: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] للمتقين الذين اتقوا ربهم عما سواه.

ثم أخبر عن تارك الذكر والفكر بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف:36] يشير إلى من أعرض عن الله بالإقبال على الدنيا ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف:36] وإن أصعب الشياطين نفسك الأمارة بالسوء، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:36] ملازم لا تفارقه في الدنيا والآخرة، فهذا جزاء من ترك المجالسة مع الله بالإعراض عن الذكر فإنه يقول: «أنا جليس من ذكرني»[1] فمن لم يعرف قدر خلوته مع الله، وحاد عن ذكره، وأخلد إلى الخواطر النفسانية الشيطانية سلط الله عليه من يشغله عن ربه وصرفته سطوات الأنوار الإلهية عنه، ومن لم يعرف قدر فراغ قلبه، واتبع شهوته وفتح

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (2/ 268).

بابها على نفسه بقي في يد هواه أسيرًا غالبًا عليه أوصاف شيطنة النفس وهذا تحقيق قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الزخرف:37]؛ أي: عن سبيل الله بالشبهات التي توقعهم في ضلالات البدع والأهواء، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:37] الذي سولت له نفسه أمرًا فيتوهم أنه على صواب، ثم يحمل قرينة السوء على موافقته في باطله ويدعي أنه حق فقد أضر بنفسه وبغيره.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: 38 - 45].

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ [الزخرف:38] حين انكشف غطاء الحجب عن بصره بهبوب نفحات ألطافه بيّن خيانة قرينه وندم على صحبته، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:38] وهذه الندامة لا تنفع لمن فاته الوقت وأدركه المقت بشؤم قرينه السوء، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:39] التابع والمتبوع من أهل الأهواء والبدع.

وبقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:40] يشير إلى أن من شددنا بصيرته ولبسنا عليه رشده، ومن صببنا في مسامع قلبه رصاص الشقاء والحرمان لا يمكنك يا محمد مع كمال نبوتك هدايته، وإسماعه في عين عنايتنا السابقة ورعايتنا اللاحقة، وبقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ [الزخرف:41]، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف:42] يشير إلى تسلية النبي ﷺ إنه تعالى ينتقم من أعدائه ومنكريه إما في حال حياته وإما بعد وفاته، وإنه لقادر على الانتقام منهم بواسطة كما كان يوم بدر، وبغير واسطة كما كان في زمان أبي بكر ﷺ وغيره، فبذلك أشبه على حد الخوف والرجاء ووفقه على وصف التجريد لاستبداده على الغيب، وكذلك المقصود في أمر كل أحد أن يكون من جملة نظارة التقدير

ويفعل الله ما يريد، ثم قال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف:43]؛ أي: فاعتصم بالقرآن فإنه حبل الله المتين بأن تتخلق بخلقه، وتدور معه حيث يدور، وتقف حيث ما أمرت، وثق ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:43] تصل به إلى حضرة جلالنا، ﴿وَإِنَّهُ﴾ [الزخرف:44]؛ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:44] به شرف الوصول لك وبمتابعتك، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:44] عن هذا الشرف والكرامة هل أديتم حقه وقمتم بأداء شكره سعيًا في طلب الوصال والوصول، أم ضيعتم حقه وجعلتموه وسيلة الاستنزال إلى الدرك الأسفل، بصرفه في تحصيل المنافع الدنياوية والمطالب النفسانية؟ وبقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:45] يشير إلى أن بعثة جميع الرسل كانت على ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ [يوسف:41] مع الله إلهًا آخر من النفس والهوى والشيطان، أو شيء من الدنيا والآخرة كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5]؛ أي: ليقصدوه فإنه المقصود، ويطلبوه فإنه المطلوب والمحبوب والمعبود.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)﴾ [الزخرف: 46 - 50].

ثم أخبر عن حالة رسالة موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:46] يشير إلى ظلومية الإنسان وجهولية كفران نعمة ربه، إذ يرسل إليهم رسولاً كريمًا بدلائله وحجته الظاهرة الباهرة، وهي معجزاته إلى فرعون، وهو فرعون النفس ﴿وَمَلَئِهِ﴾؛ أي: صفاتها، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ [الزخرف:47]؛ ليسعدوا وينتبهوا وينتفعوا بها ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف:47] فقوبل بالهزأ والضحك والتكذيب، ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف:48] والله تعالى لم يتبع تلك الآيات والدلالات بشيء إلا كان أوضح مما قبله، ولم يقابلوه إلا بجفاء أوحش مما قبله من ظلومية طبع الإنسان وكفوريته، وبقوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:48] يشير إلى أن من جهولية نفس

الإنسان ألا يرجع إلى الله على أقدام العبودية إلا إن تجرد بسلاسل البأساء والضراء إلى الحضرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:51]، ولهذا لما عضهم الأمر وضاق نطاق بشريتهم ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ [الزخرف:49] وما قالوا مع هذا الاضطرار بها يا أيها الرسول، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:49]؛ لأنهم ما رجعوا إلى الله بصدق النية وخلوص العقيدة ليروه بنور الإيمان رسولاً ويرون الله ربهم، وإنما رجعوا بالاضطرار لخلاص أنفسهم لا لإخلاص قلوبهم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:49]؛ أي: لنؤمن بك وبربك، فدعا موسى عليه السلام وأجابه ربه فكشف عنهم فعادوا إلى كفرهم ونقضوا عهدهم وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف:50].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٦].

وبقوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:51] يشير إلى أن من تعزز بشيء من دون الله فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء، فلما تعزز فرعون بملك مصر وجري النيل بأمره فكان فيه هلاكه، وكذلك من استصغر أحدًا سلطه الله عليه، كما أن فرعون استصغر موسى عليه السلام وحديثه وعابه بالفقر واللكنة، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:52]، ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:53] فسلام الله عليه وكان هلاكه في يديه.

وفيه إشارة أخرى وهي: إن قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ هو من خصوصية صفة إبليس فكانت هذه الصفة توجد في فرعون وكان في صفة فرعون قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24] ولم توجد هذه الصفة في إبليس؛ ليعلم أن الله أكرم الإنسان باستعداد

يختص به، وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] فإذا افسد استعداده واستنزله دركة لا يبلغه فيها إبليس وغيره وهي أسفل سافلين فيكون شر البرية، ولو استكمل استعداده ينال رتبة في القربة لا يسعه فيها ملك مقرب فيكون خير البرية. وبقوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[1] [الزخرف:54] يشير إلى أن كل من استولى على قوم فاستخفهم فأطاعوه رهبة منه وإن آمنوا من سطوته فخالفوه أمنًا منه، فإذا استولى سلطان القلب على قومه وهم النفس وصفاتها وهواها، فاستخفهم بالرياضة والمجاهدة على وفق الشريعة وقانون الطريقة أطاعوه رهبة منه، بأن يزيد في جهادهم ورياضتهم ومخالفة طباعهم، وإن استولت على قومها وهم القلب والروح وصفاتهما فاستخفهم بمخالفات الشريعة، وموافقات الهوى والطبيعة فأطاعوها رهبة إلى أن يتخلقوا بأخلاقها فأطاعوها رغبة، وبقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:55] يشير إلى أن إغضاب أوليائه إغضابه، وإنه ينتقم لأوليائه من أعدائه كما أخبر في حديث رباني: «من عاد لي وليًا فقد بارزني بالحرب، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الجرو لجروه»[2]، وهذا أصل في باب الجمع أضاف أسلافهم أولياءه إلى نفسه، وفي الخبر أنه يقول: «مرضت فلم تعدني»[3]، وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

---

(1) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا؛ فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن له من الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

(2) رواه الطبراني في الكبير (10/ 292).

(3) أخرجه مسلم (4/ 1990، رقم 2569)، وابن حبان (1/ 503، رقم 269).

[النساء:80] فجعلناهم سلفًا متقدمين، ومثلاً يتعظ بهم من خلفهم من المتأخرين.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزخرف: 57 - 62].

ثم أخبر عن مشكلهم في ضرب مثلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف:57] يشير إلى صدود نفس الإنسان وإعراضه عن الحق وجداله في الباطل، كما أن كفار مكة بهذا الاختصاص ضربوا للنبي ﷺ مثلاً بعيسى ابن مريم أنه كان يزعمك رسول الله، وقد قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:98] وهو عزير والملائكة قد عبدوا من دون الله فنحن نرضى بأن نكون نحن وآلهتنا معهم في النار، وليس لهم في الآية موضع الحجة؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل إنكم ومن تعبدون، ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:58] وذلك إنهم قالوا: إن قال آلهتكم خير فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيرًا فقد نفي عيسى خير من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: فراموا بهذا السؤال أن يجادلوه ولم يسألوه للاستفادة، وجواب النبي ﷺ عنه أن عيسى خير من آلهتهم ولكن ليس يستحق أن يعبد، وليس ما هو خير في الأصنام استحق أن يكون معبودًا من دون الله، فبين الله تعالى أن جدالهم ليس لفائدة إنما هو في خصوصية نفس الإنسان فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:58]؛ أي: خلقوا على المخاصمة والمخالفة والمجادلة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:54]. وبقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:59] يشير إلى أن كل عبد ينعم عليه إما بجعله نبيا أو بجعله وليًا، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:59]؛ أي: عبرة يعتبرون به بأن يسارعوا في عبوديتنا طمعًا في أنعامنا عليهم، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَلَائِكَةً﴾ [الزخرف:60]؛ أي: إن أطعمتونا ننعم عليكم بأن نجعلكم متخلقين بأخلاق الملائكة،

﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:60]؛ أي: ليكونوا خلفائي في الأرض بهذه الأخلاق لتستعدوا بها، أن تتخلقوا بأخلاقي فإنها حقيقة الخلافة، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: 61] في نزول عيسى عليه السلام ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:61]؛ أي: فلا تشكوا بالساعة وقيامها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ [الزخرف:61] فإن في اتباعي قيام الساعة الحقيقية، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف:61]؛ أي: من اتبعني في الحقيقة فقد قامت قيامته، وقد عبر عن الصراط الحقيقي، ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الزخرف:62] متابعتي ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الزخرف:62] ولما كانت العداوة في الضد عن صراط المتابعة فكان أعدى الأعداء النفس؛ لأن تصرفها في الصد عن المتابعة أقوى من الشيطان.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخرف: 63 - 69].

وبقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ [الزخرف:63] يشير إلى أن الأنبياء عليهم السلام كما يجيئون بالكتاب من عند الله يجيئون بالحكمة مما آتاهم الله كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151]، وقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]؛ ولهذا قال: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:63]؛ لأن البيان عما تختلفون هو الحكمة، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف:63] فإن طاعتي الحق كما قال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الزخرف:64]؛ أي: لا تعبدوني فإن بالعبودية شريك معكم، وإنه متفرد في ربوبيته إيانا، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 64] أن نعبده جميعًا ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [الزخرف:65]؛ يعني: قومه تحزبوا عليه حزب آمنوا بأنه عبد الله ورسوله، وحزب آمنوا بأنه ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:73] فعبدوه بالإلهية، وحزب اتخذوه ولدًا لله وابنًا له ﴿تَعَالَى اللهُ عَمَّا﴾ [النمل:63] يقول

الظالمون، وحزب كفروا به وجحدوا نبوته، وظلموا عليه وأرادوا قتله، فقال تعالى فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:65]؛ أي: أليم عذابه، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [الزخرف:66]؛ أي: الذين تحزبوا عليه، ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف:66] بإتيانها، فيجازي كل حزب بحسب اختلافهم فيه.

ثم أخبر عن وصف الأخلاء والأصدقاء على المعصية في الدنيا بقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67] يشير إلى أن كل خلة وصداقة تكون في الدنيا مبنية على الهوى، والطبيعة الإنسانية تكون في الآخرة عداوة يتبرأ بعضهم من بعض وبعض، والأخلاء في الله خلتهم باقية إلى الأبد وينتفع بعضهم عن بعض، ويشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، وهم المتقون الذين استثناهم الله تعالى، وشرائط الخلة في الله أن يكونوا متحابين في الله، خالصة لوجه الله من غير شوب بعلة دنيوية هوائية متعاونين في طلب الله ولا يجري بينهم مداهنة، فبقدر ما يرى بعضهم في بعض صدق الطلب والجد في الاجتهاد ليساعده ويرافقه ويعاونه، فإذا علم منه شيئًا لا يرضاه الله لا يرضى من صاحبه ولا يدار به، فقد قيل: المداراة في الطريقة كفر؛ بل ينصحه بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا عاد إلى ما كان عليه وترك ما [لا يرضي ربه] يعود إلى صدق مودته وحسن صحبته كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:8]، وبقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:68] يشير إلى أن من أعتقه الله من رق المخلوقات، واختصه بشرف عبوديته في الدنيا لا خوف عليه يوم القيامة من شيء يحجبه عن الله، ولا يحزن على ما فاته من نعيم الدنيا والآخرة مع استغراقه في لجي بحر المعارف والعواطف، ثم وصفهم وشرح سيرتهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الزخرف:69]؛ أي: بأنوار شواهد تجلي آثار صفاتنا آمنوا إيمانًا عيانيًا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:69] في البداية لأوامرنا ونواهينا في الظاهر، وفي الوسط مسلمين لآداب الطريقة على وفق الشرع بتأديب أرباب الحقيقة في تبديل الأخلاق والتزكية في الباطن، وفي النهاية مسلمين للأحكام الأزلية والتقديرات الإلهية، وجريان الحكم ظاهرًا و باطنًا في الإخراج عن ظلمة الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي.

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)﴾ [الزخرف: 70 - 76].

ثم أخبر عن منازل أرباب الوصول بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الزخرف:70] جنة الوصال ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ [الزخرف:70]؛ أي: أمثالكم في الطلب ﴿تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:70] في رياض الأنس ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف:71] من طعام المشاهدات ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ من شراب المكاشفات، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ [الزخرف:71] أرباب المجاهدات لما قاسوه في الدنيا من الجوع والعطش، وتحملوا وجوه المشاق فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب، وأما أرباب القلوب من أهل المعرفة والمحبين فلهم ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:71] من النظر إلى الله لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم، وبذل الأرواح في الطلب لما عالجوا من أحزانهم لشدة غلبهم، ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:71]؛ أي: دائمون في لذة الاستغراق، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:72]؛ أي: بما أورثتم بيوتكم في النار لأهل النار، وأورثتم بيوت أهل النار في الجنة، ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [الزخرف:73] من أنهار أشجار المعارف ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف:73] وفي رياض الأنس ينقلبون في يوم، ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الزخرف:74] الذين أبطلوا حسن استعدادتهم الروحانية باستيفاء اللذات وشهواتهم النفسانية الحيوانية ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ [الزخرف:74] صفات النفس ﴿خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:74] إذ لم يخرجوا منها لحسن الاستعداد حتى أبطلوه.

وبقوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:75]؛ يعني: عن الكافرين العذاب يشير إلى أن أهل التوحيد وكان بعضهم في النار ولكن لا يخلدون فيها ويفتر عنهم العذاب بدليل الخطاب، وقد ورد في الخبر أنه يميتهم الحق أمانة أن يخرجهم من النار، والميت لا يحس ولا يألم، وذكر في الآية ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:75]؛ أي: خائبون وهذه صفة الكفار والمؤمنون وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم يعدون أيامهم إلى أن تنتهي أشجانهم، وقال بعض الشيوخ: «إن حال المؤمن في النار من وجه أرواح لقلوبهم من

حالهم في الدنيا؛ لأن اليوم خوف الهلاك وغدًا يقين النجاة». ولقد أنشدوا:

غـــيب الـــسلامة إن صـــاحبها مـــستوقع لقـــواهم الظهـــر

وفـــضيلة الـــبلوى تـــرقب أهلهـــا عقـــب الـــرجاء ودورة الدهـــر

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:76] يشير إلى نوع عذر من صفات قهره إلى صفات لطفه كرمًا منه ورحمة.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)﴾ [الزخرف: 77 - 83].

وبقوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:77] يشير إلى أنهم لو قالوا في الدنيا يا مالك بدل قولهم: ﴿يَا مَالِكُ﴾ يسمعوا أنتم تخرجون بدل ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:77]، ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف:78] بالدين القويم فلم تقبلوا إلا من الطبيعة الإنسانية، أن أكثرهم يميلون إلى الباطل وذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف:78]، وبقوله: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف:79] يشير إلى أن أمور الخلق متقضة عليهم فلما يتمشى لهم ما دبروه وقلما يرتفع لهم من الأمور شيء على ما قدروه، وهذه الحال أوضح دليل على إثبات الصانع، وبقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1]

(1) وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحّل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنّه ينظرُ بنورِ الله»، والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له. والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراسة بنور الله، وهو أن يكون متصفًا بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله.

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض

=

[الزخرف:80] خوفهم بسماع أحوالهم وكتابة الملك أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله، ولو كان لهم خبر عن الله لما كان خوفهم لغير الله ومن علم أن أعماله تكتب عليه ويطالب بمقتضاها قل إلمامه بما يخاف أن يسأل عنه.

ثم أخبر عن تنزيه ذاته وصفاته بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[1] [الزخرف:81] يشير إلى نوع من الاستهزاء بهم وبمقالهم والاستخفاف

فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

(1) قال سيدي البيطار: أي: للرحمن المتجلي في صورة البشر الذي يتولد منه الأنثى والذكر، ويجوز أن يرجع قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، لولد الرحمن؛ لأن الرحمن عين صورة الإنسان كما ورد الحديث: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن».

ألا ترى قوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، وروحه عينه، إذ الولد سر أبيه، فآدم سر الرحمن وسره عينه، ففي هذا الولد سر الواحد الأحد.

فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:30]، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 17].

فأقول: إن القرآن العظيم المنزَّل على محمد ﷺ نزل من حقيقة الأحدية الجامعة لأسماء التنزيه وأسماء التشبيه، فهو الجامع لكل شرع في الوجود، وسواء كان أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، والمنزَّل عليه هذا القرآن هو حقيقة الوجود، فله شرع عام وله شرع خاص، فمن شرعه العام اندرجت كل أمة في شرعه، ومن شرعه الخاص خصَّ أمته التي بعد ظهور جسمه الطاهر بخصوصيات، فآية تأتي بشرعه العام وآية تأتي بشرعه الخاص، فكان ما يجوز في حق هذا يحرم في حق هذا.

ألا ترى أنه أقرَّ أهل الذمة على ما هم عليه وقَبِل منهم الجزية، فالتوراة شرعة في حق اليهود وهي مندرجة في القرآن، والإنجيل شرعة في حق النصارى، وهو مندرج في القرآن، وأما نحن معشر الأمة القرآنيين فأتانا من كتاب الله، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]. ألا ترى أنه قبل الرهبانية من أهلها، ولم يقبلها منَّا، فقبولها لأهلها في القرآن من قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:27]، فلما أوجبوها على أنفسهم كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فكانت في حقهم قربة إلى الله، لا في حقنا للحديث الشريف: «لا رهبانية في الإسلام». فهذا مما يدلك على أن كل أمة وشرعها اندرجت باطنًا في أمة محمد ﷺ وشرعه، فهو ﷺ كما أنه هيولي العالم، هو الهيولي في باطن الأمر لكل دين إلهي وحكمي من الاستحسانات التي رتبها العقلاء بمقتضى دور الزمان؛ لأنه مظهر اسم الله الديَّان حل الكمال، فالأديان

بعقولهم؛ يعني: قل إن كان للرحمن ولد كما تزعمون وتعبدون عيسى بأنه ولده فأنا كنت

في حق أربابها من باطن التنزلات المحمدية، ولذا قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي» وليس دون آدم إلا جميع من سواه من ذريته، أي: آدم وغيره من ذريته تحت لوائي، فلو لم يكن آدم وذريته متسبين إليه لما كانوا تحت لوائه، فافهم.

فاتسعت الدائرة المحمدية لقبول جميع الدوائر، ومن هذا المعنى بدت تسوية الحربية التي ظهرت في زماننا، وهي السنة السادسة والعشرون بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة المحمدية من تجلي الاسم الرحمن المذكور في هذا الوارد وإنما قلنا من تجلي الاسم الرحمن؛ لأن الاسم الرحمن هو الذي كشف هذه التسوية قال الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:3].

ومن النكت البديهة: أننا جمعنا لفظة «عابدين» بإسقاط (أل) التعريفية من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، ولكن حسبنا النون وحدها بخمسة بطريق الجمل الصغير، وضممنا عددها الموافق في العدد الاسم محمد ﷺ وهو اثنا وتسعون لعدد قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160]، وهو ألف ومائتان وأربع وثلاثون، فبلغ الجميع عدد سنتنا، التي هي سنة ظهور جمعية الاتحاد، وذلك ألف وثلاثمائة وستة وعشرون، فعلمنا أن هذه الجمعية - الذين هم رجال دولة مولانا السلطان عبد الحميد خان نصره الله - مظهر نصر الله والفتح، مؤيدون بالإمداد المحمدي، فلا غالب لهم؛ لأنهم عابدون لله متناصرون على الحق، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:13].

ومما يقوي هذا الاستخراج أننا حسبنا اسم محمد ﷺ بالجمل الصغير، فبلغ عشرين، وحسبنا عدد جمعية بالوقف على الهاء بالجمل الصغير، فبلغ عشرين وحسبنا عدد سنانيك بالجمل الصغير فبلغ عشرين، فهذه الموافقة تقوي نسبة هذه الجمعية إلى محمد ﷺ.

واعلم - رحمك الله - أنك إذا وقفت على قوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠﴾، من آية هذا الوارد وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، يكون الوقف هنا في غاية الحسن، ويكون الولد بمعنى النتيجة، لأنه ﷺ نتيجة رحمة الرحمن المتجلية في سائر الأكوان من حضرة أم كتاب السر والإعلان، ومن هنا يعلم قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ [فصلت:1] رمز محمد ﷺ الذي هو بذاته، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:2]، فهو منزَّل من إطلاق البطون العمائي الذي هو قبل خلق الخلق إلى شهادة ظهور نور ذات الله القديم، وقد استخرجت اسم محمد ﷺ من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ من منه علم المعمي بطريق الدور والتدلي، وذلك أن الميم من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ دورية أولها ميم وآخرها ميم، فحصل ميمان في النطق، ثم تدلَّت الميم من عدد الأربعين إلى عدد الأربعة، وهي عدد الدال فحصل من ميم ﴿حمٓ﴾ ميمان ودال، ضممنا ذلك إلى حاء، ﴿حمٓ﴾ فظهر اسم محمد ﷺ.

أول العابدين له، ثم نزه ذاته وصفاته عما نسبوه إليه بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:82] يعني: ذاته وصفاته منزهة عن كل وصف تدركه العقول والظنون، وما ينسبونه إلى العرش في معنى الاستواء بظنونهم في طلب التأويل﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران:7]، وبقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف:83] يشير إلى: أن الله تعالى خلق الخلق أطوارًا مختلفة، فمنهم من خلقه فيستعده للجنة بالإيمان والعمل الصالح وانقياد الشريعة ومتابعة النبي ﷺ.

ومنهم من خلقه للنار فيستعده للنار برد الدعوة والإنكار والجحود والخذلان، بأن وكل إلى الطبيعة النفسانية الحيوانية التي تميل إلى اللهو واللعب والخوض فيما لا يعنيه.

ومنهم من خلقه للقربة والمعرفة فيستعده لها بالمحبة والصدق، والتوكل واليقين، والمشاهدات والمكاشفات والمراقبات، وبذل الوجود بترك الشهوات وأنواع المجاهدات، وتسليم تصرفات أرباب الولات؛ ليتحقق له أنه تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:84]؛ أي: هو معبود أهل السماء وبه تقوم السماء، ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:84]؛ أي: هو الذي معبود أهل الأرض وإله الآلهة، ولا قاضي لحوائج أهل الأرض إلا هو، وبه تقوم الأرض، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الزخرف:84] في تدبير العالم وأهله، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:84] بجميع الأحوال في الأزل إلى الأبد.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ [الزخرف: 85 - 89].

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزخرف:85] تعالى وتقدر وتنزه وتكبر ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ﴾ سماوات الأرواح الأشباح ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف:85] من القلوب والأسرار والنفوس ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف:85] لا يعلمها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:85] بالاختيار والاضطرار يرجعون بالموت في السلاسل والأغلال ﴿يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ﴾ [القمر:48]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:86]؛ أي: من شهد الحق وشاهده بفضل الحق وفيضه، فيثبت له الحق حق الشفاعة؛ لأن الشفاعة لأهل الحضور في المشاهدة لا لأهل الغيبة في البعد، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: 87]؛ لأن الإنسان خلق للمعرفة وطبع عليها وبهذا أكرمه الله، فأما الإنسان في معرفة الأنبياء وقبول دعوتهم، والتوفيق لمتابعتهم، والتدين بأديانهم، ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:87] بتكذيب الأنبياء ورد دعوتهم إلا لكمال عزة الله وجلاله وعظمته، ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف:88] بأنبيائك وكتبك مع إيمانهم بخالقيتك، فأجاب الله لأهل هذا القيل بقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف:89]؛ لأن الأمر ليس إليهم ولا إليك ولكنه بمشيئتنا منوط، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:89] إذا كشف الغطاء وظهر اللقاء؛ لأن كل من خلق لما خلق وما عمل، وإلى ما رجع ، رجع، والله أعلم.

سورة الدخان

مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩﴾ [الدخان: 1 - 10].

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان آية 1: 2]، يشير بالحاء إلى حاء حقيقته، بالميم إلى ميم محبته ومعناه: بحقي ومحبتي لعبادي، وكتابي العزيز إليهم المبين لهم، أن لا أعذب أهل محبتي بفرقتي، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:3] ليلة ذات بركة وقدر؛ لأنها ليلة افتتاح الوصلة، وأشد الليالي بركةً وقدرًا ليلة يكون العبد فيها حاضرًا ببقائه، مشاهدًا لربه، يتنعم بأنوار الوصلة ويجد فيها نسيم القربة، وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة كما قالوا:

لا أظلـــم اللـــيل ولا أدّعـــي ... إن نجـوم اللـيل ليـست تغـوز

لـــيلي كـــما شـــاءت فـــإن لم تجـــد ... طـال وإن جـادت فلـيلي قـصير

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:3] للطالبين المشتاقين؛ لئلا يقطع عليهم طريق الوصلة قواطع الكونين، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:4]؛ أي: يفصل في هذه الليلة كل أمر صادر بالحكمة من السماء في السنة من أقسام الحوادث في الخير والشر، والمحن والمنن، والنصرة والهزيمة، والخصب والقحط، ولهؤلاء القوم من الحجب والجذب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط، والستر والتجلي منكم، بين عبد ينزل له الحكم والقضاء بالشقاء والبعد، وآخر نزل حكمه بالوفاء والدقة، ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ [الدخان:5] نازلاً بالحكمة البالغة منا، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:5] محمدًا ﷺ رحمة مهداة ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:6]؛ ليخرج المشتاقين من ظلمات المفارقة إلى نور المواصلة، وأيضًا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رحمة لنفوس

أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [الدخان:6] لأنين المشتاقين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الدخان:6] بحنين المحبين، ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ [الدخان:7] سماوات الأرواح، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الدخان:7] أرض الأشباح، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الدخان:7] من القلوب والأسرار والنفوس، ويدخل فيه مكاسب العباد فإنه يملكها بمعنى قدرته عليها، وإذا حصل مقدوره في الوجود دل على أنه مفعوله؛ لأن معنى الفعل مقدور وجد من فاعل، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان:7]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الدخان:8]؛ أي: لا يتصرف في الإيجاد والتغيير في حال إلى حال إلا هو، ﴿يُحْيِي﴾ [الدخان:8] قلوب أوليائه بنور محبته وتجلي صفات جماله، ﴿وَيُمِيتُ﴾ [الدخان:8] نفوسهم بتجلي صفات جلاله، ﴿رَبُّكُمْ﴾ [الدخان:8] أو رب آدم وأولاده، ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:8]؛ أي: رب آباء العلوية، ﴿بَلْ هُمْ﴾ [الدخان:9] هذا خطاب الغائبين؛ أي: أهل الغيبة ﴿فِي شَكٍّ﴾ [الدخان:9]؛ لغيبتهم عن الحق، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:9] وصف أهل الشك والنفاق باللعب وذلك لترددهم وتجرئهم في أمر الدين، واشتغالهم بالدنيا، واغترارهم بزينتها.

وبقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان:10]، يشير إلى مراقبة سماء القلب عن تصاعد دخان أوصاف البشرية.

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18)﴾ [الدخان: 11 - 18].

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ [الدخان:11] عن شواهد الحق ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: 11]، لأرباب المشاهدة.

كما قال السري: اللهم مهما عذبتني فلا تعذبني بذل الحجاب، ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ [الدخان:12]، عذاب الحجاب ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[1] [الدخان:12]، بأنك قادر

(1) ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في
-

على رفع الحجاب وإرجائه، ومن أمارات إرخاء الحجاب بدخان البشرية: مخالفة سفراء قلوبهم من الخواطر التي ترد من الحق عليهم، حتى عوقبوا في الوقت بما لا يتبع له وسعهم، فإذا اخذوا في الاستغاثة يقال لهم: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ [الدخان:13]، من يوأده الحق ﴿مُبِينٌ﴾ [الدخان:13]، بإلهام تقواهم وفجورهم، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الدخان:14]، وخالفوه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان:14]؛ أي: خاطر شيطاني، ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ [الدخان:15]، عن صورتهم في الدنيا ﴿قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان:15]؛ لأن جميع الدنيا عندنا قليل، ولكن ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان: 16]، تورثهم حزمًا طويلاً، ولا يجدون في ظلال انتقامنا مقبلاً، ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان:16].

ثم اخبر عن فتن أرباب المحن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:17]، يشير إلى أنه تعالى جعل فرعون وقومه فيما فتنهم فداء أمة محمد ﷺ؛ لتعتبر هذه الأمة بهم فلا يصرون في جحودهم كما أصروا، ويرجعوا إلى طريق الرشد، ويقبلوا دعوة رسولهم ويؤمنون بما جاء؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم بعد أن جاءهم رسول كريم طالبهم بإزالة الظلم عن نبي إسرائيل، واستنصر بالله وأظهر الحجة من قبل الله، ثم أمرهم: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان:18].

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)﴾ [الدخان: 19 - 28].

وهم أمانة الله ردوهم إلى: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ [الدخان:19]؛ بإهانة عباد الله واستحقاقهم، ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان:19]، من المعجزات الظاهرة الباهرة القاهرة، ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ [الدخان:20]، من شر نفسي ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ [الدخان:20]،

البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا ينكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء. [العرائس].

من شر نفوسكم ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان:20]، لشيء من الفتن.

وفيه إشارة أخرى، وهي: أن الله فتن فرعون وقومه، وهم صفات النفس وجاءهم رسول كريم من الخواطر الرحمانية: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾؛ أي: بني إسرائيل صفات القلب ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عند الحق أؤديهم إليه، ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ بالاعتداء والاستكبار أني آتيكم من الله سلطان مبين، بدلائل وحجج واضحة وبراهين قاطعة من واردات ترد على القلوب؛ فتعجز النفوس عن تكذيبها.

وبقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:21]، يشير إلى مداهنة الروح المسلم مع النفس الكافر؛ وذلك بأن الروح العلوي يدعو النفس السفلية إلى عالم عبودية الله ومراتب قربه، ومن طبيعة النفس الأمارة بالسوء أن تدعو الروح العلوي إلى العالم السفلي، وتدارك البعد عن الحضرة؛ فمن دأب أهل البدايات والمداهنة بين الروح والنفس على شرط أن الروح يقول مع النفس وصفاتها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:1-6]، إلى أوان غلبة الروح وصفاته على النفس وصفاتها، فينزل فيه آية القتال جاهدًا الكفار والمنافقين، وأغلظ عليهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ [الدخان:22]، بعد اليأس عن إيمان النفس وإصرارها على متابعة هواها ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ [الدخان:22]؛ يعني: النفس وصفاتها ﴿قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ [الدخان:22]، مصرون على كفرهم ومتابعة هواهم، فيلهم الله الروح أن أسر بعبادي؛ فيمده بالسير من عالم البشرية إلى عالم الروحانية، ومن عالم الروحانية إلى عالم الربانية إلى أن يتخلق الروح بأخلاق الحق، فلابد للنفس بالتأييد الإلهي أن يتبع الروح عند استيلاء سلطان الحق عليه، وهذا تحقيق قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الدخان:23].

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ [الدخان:24] بحر فضل الحق تعالى ﴿رَهْوًا﴾ [الدخان:24]، مشقوقًا بعصا الذكر، ﴿إِنَّهُمْ﴾ [الدخان:24]؛ يعني فرعون النفس وصفاتها ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان:24] فانين في بحر الوحدة، ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ [الدخان:25]؛ أي: جنات الشهوات، ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:25] من مستلذات الحيوانية، ﴿وَزُرُوعٍ﴾ [الدخان:26] في الآمال الفاسدة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:26] من المقامات الروحانية

بعبورها عليها، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ [الدخان:27] من تنعمات الدنيا والآخرة بالسير والإعراض عنها، ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ متنعمين.

وبقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:28]، يشير إلى أنه الصفات النفسانية وإن فنيت بتجلي الصفات الربانية، فمهما يكون القالب باقيًا بالحياة يتولد من الصفات النفسانية والحيوانية، فيكون وارث تلك الصفات الفانية إلى أن تفنى هذه الصفات المتولدة بالتجلي أيضًا، ولو لم تكن هذه المتولدات ما كان السائر الترقي؛ فافهم جدًا، وبهذا الترقي يبرأ السائر على المقام الملكي؛ لأنه ليس للملك ترقيًا من مقامه، كما قال: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)﴾ [الدخان: 29 - 39].

وبقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[1] [الدخان:29]، يشير إلى أن سماء الأرواح وأرض الأشباح إنما تبكي على النفس وصفاتها؛ إذ لم تستعد بتبدل الأخلاق، ولم تفن في صفاته، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان:29] لنيل هذه السعادة العظمى.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الدخان:30]؛ أي: القلب وصفاته ﴿مِنَ الْعَذَابِ

---

(1) قال البقلي: كيف تبكي السماء والأرض على من يدّعي الأنانية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء».

قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

الْـمُهِينِ﴾ [الدخان:30]، الذي يصل إليهم ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ النفس، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ [الدخان:31]؛ أي: مرتبة علية ﴿مِنَ الْـمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان:31]، الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان، ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الدخان:32] من التقديرات الأزلية ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان:32]، ولو لم يخترهم ما كان لهم الخيرة أن يكونوا غالبين على فرعون النفس وصفاتها، ﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾ [الدخان:33]؛ يعني: للقلب وصفاته ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ [الدخان:33]؛ أي: التجليات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان:33] لهلاك فرعون النفس وصفاتها في الإفناء.

ثم أخبر عن مقالة منكري الحشر والنشر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان:35]، يشير إلى أن من غلب عليه الحس، ولم يكن له عين القلب مفتوحة؛ ليطالع ببصر بصيرته عالم الغيب وهو الآخرة لا يؤمن إلا بما يريه بصر الجسد؛ ولهذا أنكروا البعث والنشور؛ إذ لم يكن لهم مشاهد إلا نظر حسهم، وقال: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ [الدخان:36]؛ أي: أحيوهم حتى نراهم بنظر الحس ونستخبر عنهم أحوالهم بعد الموت، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:36] فيما تدعون من البعث.

ثم هددهم بالهلاك فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:37]، وهو ملك اليمن، وكانوا قوم فيهم كثرة وتبع كان مسلمًا، فأهلك الله قومه على كثرة عددهم وكمال قوتهم، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الدخان:38] من الأمم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:38] مستحقين للهلاك.

وبقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[1] [الدخان:38]، يشير إلى السماوات والأرض الأشباح، وما بينهما من القلوب والأسرار والنفوس، وإنما

---

(1) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حق سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه، ومن نظر وشاهد الصانع فهو لتحققه.

صدق درة المعرفة، دليله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] أي ليعرفون وهذا تحقيق قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان:39]؛ أي: ما خلقناهما إلا مرآة قابلة لظهور صفات الحق، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53].

وبقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:39]، يشير إلى أن مرآة قلب أكثرهم مكدرة بصدأ صفات البشرية، وهم لا يعلمون أنهم مرآة لظهور صفاتها فيها.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: 40 - 50].

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان:40]؛ أي: يفصل بين أرباب الصفاء وأصحاب الصداء، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى﴾ [الدخان:41]، ولا ناصر، ولا حميم عن حميم، ولا نسيب عن نسيب، ولا شيخ عن مريد ﴿شَيْئًا﴾ [الدخان:41]، من الصفاء إذا لم يحصلوا هاهنا في دار العمل، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان:41]، في تحصيل الصفاء ورفع الضراء، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ [الدخان:42]، عليه بتوفيق تصفية القلب في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89]، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ [الدخان: 42] يعز من يشاء بصفاء القلب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الدخان:42]، يرحم من يشاء بالتجلي لمرآة قلبه.

وبقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان:43]، ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان:44]، يشير إلى أن الأثيم وهو الذي عبد صنم الهوى وغرس شجرة الحرص؛ فأثمرت الشهوات النفسانية اللذيذة على مذاق النفس في الدنيا، يكون طعامه في الآخرة الزقوم الذي ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [الدخان:45]، ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:46]، ﴿خُذُوهُ﴾ [الدخان:47]، أيتها الزبانية الطبائع الحيوانية، ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ [الدخان:47]، اسحبوه ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:47]، جحيم البعد والقطيعة، ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ

رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:48]، وهو عذاب الحسرة والحرمان، وحرقة الهجران في قعر النيران.

وبقوله: ﴿ذُقْ﴾ [الدخان:49]، يشير إلى أنه كان معذبًا بهذا العذاب في الدنيا، ولكن كان في نوم الغفلة لم يكن ليذوق ألم العذاب، فلما مات انتبه فذاق ألم ما ظهر به على نفسه، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ [الدخان:49]، في نظرك ﴿الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:49]، عند قومك؛ فذق ألم عذاب الذلة والإهانة؛ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:50] بوساوس الشيطان وهواجس النفس.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان: 51 - 59].

ثم أخبر عن أرباب اليقين من المتقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[1] [الدخان:51]، يشير إلى أن من اتقى بالله عما سواه يكون مقام الوحدة آمن خوف الإثنينية، وأن يكون بالصورة ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:52]، ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان:53]، بالقلوب متوجهين إلى الحضرة، ﴿كَذَلِكَ﴾ [الدخان:54] متوجهين بالقلوب إلى الحضرة، ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾، في الصورة، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان:55]، يشتهون آمنين من أن يتولد عنها الحجب للقلوب، كما يكون في الدنيا، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان:56]؛ أي: موت النفس سبقت بسيف المجاهدة وقمع الهوى وترك الشهوات، ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ

---

(1) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: «إنَّ المُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضمّ ميم «مُقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس أمنين آمنوا فيه من الغير. تفسير ابن عادل (14/ 176).

﴿الْأُولَىٰ﴾[1] [الدخان:56] في الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق في الجهاد الأكبر، ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:56]؛ أي: عذاب البعد وجحيم الهجران، ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ﴾ [الدخان:57]، لا استحقاقًا لهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الدخان:57]؛ أي: ذلك المقام الوحداني ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان:57]؛ أي: الخلاص من حبس الوجود، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان:58]؛ يعني: تقرير هذا المقام في الوحدة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ [الدخان: 58]؛ يعني: خواص أمتك ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:58] أن هذا المقام بعد لهم، ﴿فَارْتَقِبْ﴾ [الدخان:59] ظهور هذه الطائفة ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان:59]، وإن طلبهم وظهورهم.

(1) قال الورتجبي: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن ،فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيارب موت هناك؛ ويارب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

سورة الجاثية

مكية وهي سبع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: 1 - 8].

﴿حم﴾ [الجاثية:1]، يشير بالحاء إلى حياته وبالميم إلى مودته، كأنه قال: بحياتي ومودتي لأوليائي، لا شيء أحب علي من لقاء أحبائي، ولا أعز وأحب على أحبائي من لقائي، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ [الجاثية:2]؛ أي: هذا الكتاب تنزيل ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:2]، على أوليائه وأحبائه.

ثم أخبر: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية:3] الصورية والمعنوية ﴿لَآيَاتٍ﴾ [الجاثية:3]، شواهد الربوبية لائحة، وأدلة الإلهية واضحة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:3] المحبين الذين صحا فكرتهم عن سكر الغفلة وجبت سيرهم في محال العبرة، وصفاء قلبهم عن دنس البشرية، وتجلي روحهم بإطلاق الربوبية؛ فحظوا بحقائق الوصلة.

وبقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] [الجاثية:4]، يشير إلى أن العبد إذا أمعن نظره في حسن استعداده ظاهرًا وباطنًا، وأنه خلق في أحسن تقويم يرى استواء قده وقامته وحسن صورته وسيرته واستكمال عقله وتمام تميزه، وما هو

---

(1) قال الورتجبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروقٌ كثيرةٌ، وحقيقة الإيمان هو اليقين حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللهُمَّ إنِّي أسألُك إيمانـًا يباشرُ قلبِي ويقيناً ليس بعده كفرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

مخصوص به في جوارحه وحوائجه، ثم فكر فيما عداه من الدواب في أجزائها وأعضائها وأوصافها وطبائعها والتمييز والعلم، ثم وقف على اختصاصه، وامتياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم ثم في الإيمان، ومن الملائكة في حمل الأمانة، وتعلم علم الأسماء، ووجوده لخصائص أهل الصفوة من المكاشفات والمشاهدات والمعاينات والمخافيات وأنواع التجليات، وما صار به الإنسان خليفة الله ومسجود ملائكته المقربين، عرف تخصيصهم بمناقبهم وانفرادهم بفضائلهم؛ فاستيقن أن الله كرمهم، وعلى كثير من المخلوقات فضلهم، وإنهم محمولو العناية في بر الملك وبحر الملكوت.

وبقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الجاثية:5]، يشير إلى اختلاف ليل البشرية ونهار الروحانية، وما أنزل الله تعالى من الواردات الربانية من سماء الأرواح، ومن غيث الرحمة رزقًا للقلوب؛ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [الجاثية:5] أرض القلوب ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:5]، عند استيلاء أوصاف البشرية عليها في أوان الولادة إلى حد البلاغة، إذا كانت محرومة عن غداء تعيش به، وهو أوامر الشريعة ونواهيها المودع فيها نور الإيمان، الذي هو حياة القلوب، ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [الجاثية: 5]، وهي رياح نفحات الحق تعالى ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:5]، التعرض لنفحات ألطاف الحق.

وفيه إشارة أخرى: أن الله تعالى جعل العلوم الدينية كسبية مصححة بالدلائل، وموهبية محققة بالشواهد؛ فمن لم يستبصر بهما زلت قدمه عن الصراط، ووقع في عذاب الجحيم، فاليوم في ظلمة الحيرة والتقليد وفي الآخرة في الوعيد بالتخليد.

وبقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:6]، يشير إلى أن الإيمان الحقيقي لا يمكن حصوله في القلوب إلا بالله وكتابته في القلوب، وبإراءته المؤمنين آياته، وإلا فلا يحصل بالدلائل المنطقية ولا بالبراهين العقلية؛ فافهم جدًا.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ [الجاثية:7] مكذب ﴿أَثِيمٍ﴾ [الجاثية:7] معرض عن الحق، ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ الله﴾ [الجاثية:8]، في الظاهر؛ إذ ﴿تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ [الجاثية:8]، على

الإنكار والجحود ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية:8]، عن قبول الحق، يسمع الباطن ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:8]، فمن استمع باستماع الحق والفهم، واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين، وتصدى لعز المنزلين، ومن تصامم بحكم الخذلان والغفلة؛ ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية:8] بوقوعه في وهدة الجهل.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية: 9 - 13].

وقد وسم بكي الهجران والقطيعة، فآل أمره إلى أنه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ [الجاثية:9]، من عالم رباني ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية:9]، قليل العناد وتأوله على ما نفع له من وجود المراد من دون تصحيح بإسناد، فهؤلاء: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: 9] مذل، وقد يكاشف حاله من بواطن قلبه بتعريفات من الغيب، لا يبدو فيها ريب ولا يتخالجه منها شك فيما هو به في حاله، فإذا استهان بها وقع في ذل الحجة وهوان الفرقة.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية:10] جهنم الحرص والأمل، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ [الجاثية:10] بالسوء وبالحرص ﴿شَيْئًا﴾ [الجاثية:10]، القلوب ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الجاثية:10] من الدنيا وأهلها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: 10]، وهو هجران إله عظيم ﴿هَذَا هُدًى﴾ [الجاثية:11]؛ أي: هذا الذي ذكرنا من الآيات والدلالات والإشارات وأسباب الهداية لمن أراد الله به خيرًا يسمعهم، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجاثية:11] أن أعرضوا عنها وأنكروا عليها، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ [الجاثية:11]، وهو نظر قهر الحق بالقطيعة، وهو ﴿أَلِيمٌ﴾ [الجاثية:11] مؤلم حقًا.

ثم أخبر عن كرمه مع العبد بأنواع نعمه بقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية:12]، يشير إلى أنه تعالى مسخر بحر العدم؛ لتجري فيه فلك الوجود بأمره، وهو أمر ﴿كُنْ﴾ [البقرة:117]، والحكمة في هذا التسخير مختصة بالإنسان لا بالفلك، سخر البحر والفلك له وسخره لنفسه؛ ليكون خليفة مظهرًا لذاته

وصفاته تبارك وتعالى نعمة منه وفضلاً؛ لإظهار الكنز المخفي، فبحسب كل مسخر من الجزئيات والكليات يجب على العبد شكر، وشكره أن يستعمله في طلب الله بأمره ولا يستعمله في هوى نفسه، وله أن يعتبر من البحر الصوري، والذين يركبون البحر فربما تسلم سفينتهم وربما تغرق، كذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي بهم رياح المشيئة، مرفوع لهم شراع التوكل من شيء في البحر بمجرى اليقين، فإن هبت رياح العناية تحث السفينة إلى ساحل السعادة، وإن هبت نكباء الفتنة لم يبق بيد الملاح شيء غرقت في لجة الشقاوة، فعلى العبد أن يكون ابتغاؤه فضل الله، ويسعى في الطلب بأداء شكر النعم، وذلك قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية:12].

وبقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:13]، يشير إلى أن السماوات والأرض وما فيهن خلقت للإنسان، ووجودها تبع لوجوده، وناهيك عن هذا المعنى إن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم عليه السلام، وهذا غاية التسخير وهم أكرم وأعز مما في السماوات والأرض، ومثال هذا أنه لما أراد أن يخلق ثمرة خلق شجرة، وسخرها للثمرة لتحمل، فالعالم بما فيه شجرة وثمرتها الإنسان؛ ولعظم هذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13]؛ أي: في هذا المعنى دلالات على شرف الإنسان، وكماليته ﴿لِقَوْمٍ﴾ لهم قلوب منورة بنور الإيمان والعرفان، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ بفكر سليم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: 14 - 18].

وبقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية:14]، يشير إلى أن المؤمنين إذا غفروا لأهل الجرائم، وإن لم يكونوا أهل المغفرة لإصرارهم على الكفر والإيذاء يصير متخلقًا بأخلاق الحق، ثم الله تعالى يجزي كل قوم جزاء عملهم، كما قال:

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية:14] من الخير والشر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ [الجاثية:15]، من العفو للجرم ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية:15]؛ يعني: نفسه تتصف بصفة العفو والمغفرة وهي من صفات الله، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ [الجاثية: 15]، من المعصية والظلم ﴿فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية:15]؛ أي: تصير نفسه متصفة بالعصيان والظلم، وهو من صفات الشيطان، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:15] على حسب صفاتكم وأعمالكم، إن كنتم من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم، وإن كنتم فجارًا فإن الفجار لفي جحيم.

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية:16]، يشير إلى القلب وصفاته؛ لأنه محل تنزيل الكتاب، وهو الإلهامات الربانية والإشارات والخواطر الرحمانية، وكشف المعاني الحكمية، وشواهد الأسرار [الربانية]؛ إنما هو القلب وصفاته، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الجاثية:16]؛ وهي الواردات الرحمانية الطيبة من حيث صفات النفس والشيطان، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ [الجاثية:16]؛ أي: القلوب ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية:16]؛ أي: على أهل عالم قالبهم من الروح والسر والخفى، وإن كان الروح في بدء الأمر أشرف من القلب؛ لإفاضة فيضه عليه، ولما صار عرش القلب استواء صفة رحمانية الحق تعالى فضله الله على الروح بهذه الخاصية.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية:17]، وهو بيان كشف العيان، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ [الجاثية:17]؛ يعني: النفس والقلب في الإعراض والإقبال على الله، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الجاثية:17]، العياني والبياني ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:17]، من طبيعة النفس وهواها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الجاثية:17]؛ أي: يوم إحياء القلوب بنور الصدق والمحبة ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية:17]، من الإعراض النفساني والإقبال القلبي.

ثم أخبر عن الشريعة النبوية المصطفية بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:18]، يشير إلى أنا أفردناك من جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها، وخصصناك بحقائق فأدركها، وسننا لك طريق فاسلكها، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها، ولا تتجاوز عنها ولا يحتاج إلى متابعة غيرك، ولو كان موسى وعيسى حيًا لما وسعهما إلا إتباعك.

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ* إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية:18-19]؛ يعني: إن أراد الله بك نعمة فلا يقدر أحد على منعها، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد أن يصرفها عنك، فلا تعلق لمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى غيرنا، وثق وتوكل علينا.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: 19 - 22].

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية:19]؛ لمناسبة فيما بينهم يتعلق بعضهم ببعض لقضاء حوائجهم، سماهم: الظالمين؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، وسُمي المؤمنين: المتقين؛ لأنهم اتقوا عن هذا المعنى، فاتخذوا الله الولي في الأمور كلها، وذلك قوله :﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:19]؛ لأنهم اتقوا به عما سواه ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾، يعني: اتخاذ الله الولي والاتقاء به عما سواه للناسين الغافلين عن الله موجب البصيرة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:20]؛ أي: المستعدين للوصول إلى مقام اليقين بأنوار البصيرة، إذا تلألأت انكشف بها الحق والباطل، فنظر الناس على مراتب، فمن ناظر بنور العقل، ومن ناظر بنور الفراسة، ومن ناظر بنور الإيمان، ومن ناظر بنور العرفان، ومن ناظر بنور العيان، ومن ناظر بنور العين؛ فهو على بصيرة شمسها طالعة وسماؤها على السحاب مصبحة.

وبقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:21]، يشير إلى أن من حفظناه بالخذلان في حضيض الضعة لمن رفعناه في هواء المنعة، ومن أخذناه بيده فنعتناه كمن رأسه الخذلان فرحمناه، ومن بعد بذل جهله واستفراغ وسع وإسبال دمع وإحراق قلب عذرناه فرحمناه، كمن يبسط وقت أنس حال وروح لطف حففناه فرفعناه وسكرناه، ثم قربناه وأدنيناه، ثم أفنيناه عن أنانيته، ثم أبقيناه ببقائنا، وذلك حقيقة قوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية:21]؛ أي: سواء قوم

محياهم ومماتهم بهواهم وطبعهم، وقوم محياهم بنا ومماتهم فينا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:21].

﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ﴾ [الجاثية:22] سماوات القلوب، ﴿وَالْأَرْضَ﴾ [الجاثية: 22]، أرض النفوس ﴿بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:22]، بترك الهوى، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:22] في المجازات بغير الاستحقاق.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27)﴾ [الجاثية: 23 - 27].

ثم أخبر عن جزاء أهل الأهواء؛ أي: بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:23]، يشير إلى الفلاسفة والدهرية والطائفية، من لم يسلك سبيل الإتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة بتأديب الطريقة على قانون الشريعة، ولم ينسلخ هواه بالكلية، ولم يؤدبه، ولم يسلكه إمام مقتدى في هذا الشأن من أرباب الوصال والوصول، بل اقتدى بأئمة الكفر والضلالة، وانتفى آثارهم بالشبهات العقلية وحسبان البراهين القطعية؛ فوقع في شبكة الشيطان، فأخذه بزمام هواه، وأضله في نبه هواه، وربما دعاه إلى الرياضة وترك الشهوات؛ لتصفية العقل وسلامة الفكر، فيمينه إدراك الحقائق حتى أوبقه في وهدات الشبهات فيهم في كل ضلالة، ويضل في كل فج عميق، وأصبح خسرانه أكثر من ربحه، ونقصانه أوفر من رجحانه، ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ [الجاثية:23]؛ لئلا يسمع الحق، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ [الجاثية:23]؛ لئلا يفهم الحق، ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية:23]، لئلا يرى الحق ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ [الجاثية:23]؛ أي: لا يقدر على هدايته إلا الله، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:23]، أرباب العقول السليمة أنهم في ضلالة بعيد يعملون القرب على ما يقع لهم من نشاط نفوسهم زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر استدرجوا من حيث لا يشعرون.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:24]،

يشير إلى أن من ختم الله على قلبه انحسم مادة نظره إلى عالم الآخرة، كالأنعام لا ترى إلا عالم الحس، فلا يؤمن بها في الغيب من البعث وتنكره، ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 24]؛ أي: بإنكار البعث ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:24] الظنون الكاذبة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [الجاثية:25] لا يسمعون؛ لأن سمعهم مختوم عليه ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ [الجاثية:25] عند عقولهم السخيفة في انتفاء السمع، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ [الجاثية:25]؛ أي: أحيوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:25] في الإحياء بعد الموت؛ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الجاثية:26]؛ يعني: بالأحياء يوم القيامة لا في الدنيا، وفيه إشارة إلى أهل الإشارة ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ﴾ بالحياة الإنسانية، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عن صفاتكم الإنسانية الحيوانية، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بالحياة الربانية إلى يوم القيامة، وهي النشأة الأخرى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:26] عند أرباب النظر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:26]؛ لأنهم أهل النسيان والغفلة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ [الجاثية:27]، سماوات القلوب يحي منها ما يشاء بنوره، ويميت ما شاء بظلمة النفوس، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية:27] أرض النفوس، يحيي منها ما شاء بنوره، ويميت منها ما شاء بالحرص والشهوة، ويميت منها ما شاء بنور الإيمان والإخلاص، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الجاثية:27]، وهو يوم نشور القلوب عن قبور الصدور بقيام المحبة، ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:27]، الذين أبطلوا الاستعداد الفطري.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)﴾ [الجاثية: 28 - 32].

ثم أخبر عن أحوال القيامة وأهوالها بقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ

تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[1] [الجاثية:28]، يشير إلى عجز العباد، وألَّا قوة لهم فيما كتب الله عليهم في الأزل، وألَّا يصيبهم في الدنيا والآخرة إلا ما كتب الله لهم، وهذا حقيقة قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى﴾ في أعمالهم، ﴿كِتَابِهَا﴾ الذي كتب الله لهم في الأزل فيعلمون به، ثم يوم القيامة يقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:28]، ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾؛ يعني: الذي كتبنا عليكم في الأزل بما تعملون، إلى الأبد ينطق عليكم بالحق أنكم عملتم ما كتبنا لكم، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية:29]، بقلم أفعالكم على صحيفة أعمالكم من كتابنا، الذي كتبنا لكم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على وفق مشيئتنا ومقتضى حكمتنا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الجاثية:30]، التي سبقت غضبه في حقهم ليكونوا مظهرًا لصفات لطفه، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية:30] بالعناية السابقة لهم، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الجاثية:31] بالحكمة الأزلية والإرادة القديمة؛ ليكونوا مظهرًا لصفات قهره، يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الجاثية:31] أن تقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنكم ما كنتم أهلاً لها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية:31] مستعدين للإباء والاستكبار؛ ولهذا المعنى ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:32]، لعدم نور اليقين.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (34) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)﴾ [الجاثية: 33 - 37].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية:33]؛ أي: أثمر لهم في الآخرة ما زرعوا في مزرعة الدنيا بأعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية:33]، أهل

(1) قال الشيخ ابن عجيبة: فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكب، كما هو المعتاد في مقام التقاول والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (3 / 479).

الحق ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ [الجاثية:34]، من الرحمة ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية:34]؛ أي: كما زرعتم في مزرعة الدنيا بذر النسيان أثمركم في الآخرة ثمرة النسيان، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [الجاثية:34]؛ لأنها مأوى من نسينا، كما أن الجنة مأوى من ذكرنا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية:34]؛ ليخلصوكم منها، ﴿ذَلِكُم﴾ [الجاثية: 35]؛ أي: أصابكم ذلكم ﴿بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الجاثية:35]، التي رأيتم على مخلص عبادنا، ﴿هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الجاثية:35]؛ إذ ما قبلتم وصيتنا إذ قلنا؛ فلا تغرنك بالحياة، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية:35] من نار قهرنا؛ لأنكم دخلتم فيها على قدمي الحرص والشهوة فيها، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية:35] في الرجوع إلى الجنة على قدمي الإيمان والعمل الصالح.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ [الجاثية:36]؛ أي: رب سماوات القلوب يربيها بين إصبعي اللطف والقهر، إن شاء أقامها ليكون مظهرًا لصفات اللطف، وإن شاء أزاغها ليكون مظهرًا لصفات القهر، ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ [الجاثية:36]؛ أي: رب أرض النفوس ينبت فيه ما يشاء من شجرة الكفر والإيمان ونبات السعادة والشقاوة، كما هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية:36]، يخلق فيها ما يشاء من أصناف المخلوقات.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية:37]، بأنها مظهر صفات عظمته وجلاله وعزته وكبريائه؛ يعني: إذا تجلى الحق - عز وعلا - بصفة من صفاته لمرآة قلب عبد من عباده، إنما يتجلى بحسب استعداد مرآة قلب العبد لا بحسب كمالية صفاته؛ فإن له تعالى بكل صفة كبرياء وعظمة لا نهاية لها، وإنه لو تجلى بصفة من صفاته بعظمتها وكبريائها؛ لاضمحلت الموجودات وتلاشت المكونات، ألا ترى أن النبي ﷺ أخرج أنملة إبهامه فوضعه على نصف أنملة خنصره، وقال: «تجلى نور الربوبية هذا المقدار للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا»[1]، وكبرياء كل صفة من صفاته بأنه لا أول لها ولا مبدأ لها، بل هي أبدية صمدية وسرمدية؛ ولهذا قال: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني

(1) رواه البخاري بنحوه (15/ 229)، والترمذي (11/ 327).

واحدًا منها ألقيته في جهنم»[1]؛ فلهذه [الخصوصية] للعبد أن يتخلق بكل خلق من أخلاق الحق تعالى، ولكنه محال أن يتخلق بهذين الخُلقين؛ لأنهما أزلي أبدي لا يتطرق إليهما التغير وفي خلق العبد تغير، وله بداية ونهاية وله مبدئ ومعيد، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37].

(1) تقدم تخريجه.

سورة الأحقاف

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 1 - 5].

﴿حم* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف:1-2]، يشير إلى أن حيث قلوب أهل عنايتي عن آفات صفات النفس الأمارة بالسوء، فصرفت عنها خواطر النظر إلى الدنيا وما فيها، ووجهتها للحضرة الربانية، وثبتها على مشاهدة اليقين بنور التحقيق؛ فلاح فيها شواهد برهانهم، فأضفنا بها لطائف إحساننا، فكمل منالها من عين الوصلة، وغديناهم بنسيم الأنس في ساحات القربة، وربيناهم بـ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ للتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ﴾؛ المعز للمؤمنين بإنزال الكتب عليهم، ﴿الْحَكِيمِ﴾ لكتابه عند التبديل والتغير والنسخ. وبقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف:3]، يشير إلى أن المخلوقات كلها ما خلقت إلا لمعرفة الحق تعالى، قال تعالى: «فخلقت الخلق لأعرف»[1]، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الأحقاف:3]، لمعرفة كل عارف، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:3]؛ ليكونوا مظهر صفات قهره ليعرف أنه تعالى قهار، وفيه إشارة إلى أن الإعراض عما انذروا به كفر.

بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الأحقاف:4]، يشير إلى كل ما يعبد من دون الله من الهوى والشيطان والدنيا والأصنام، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرض النفوس، كما خلقتها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف:4]؛ أي: في سماوات القلوب؛ ليخلقوا فيها من الحق والباطل، كما أن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء؛ فإن شاء أقامه للحق وإن شاء أزاغه للباطل.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ [الأحقاف:4] من عند الله يا عبدة غير الله، هل لكم فيه دليل على عبادة غير الله، ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف:4] من المعقول والمنقول والمكاشف والمشاهد بتجويز العبادة لغير الله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف:4] فيما يعبدون من دون الله.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف:5]؛ أي: من لا قدرة له على الاستجابة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:5]، ويدعو دعاء الذي يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:5]؛ أي: عن استجابة دعائهم عاطلون.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف: 6 - 10].

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ [الأحقاف:6]؛ أي: إذا نشر عن نوم غفلتهم، بل أحيوا بحياة الله ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:6]، كما كان حال إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، وقال: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:19].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف:7]؛ ذلك لأنهم عموا عن رؤية الحق وصمُّوا عن سماع الحق، فرموا رسلنا بالسحر وكلامنا بالافتراء، كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ﴾ [الأحقاف:8]، يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف:8]، أن يدفعوا عني عذابه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:8]، في حقي وفيما تظنون ﴿كَفَى بِهِ﴾ [الأحقاف:8]؛ أي: بالله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف:8]؛ أي: هو يجازيني إن كنت ساحرًا أو مفتريًا، وإن كنت صادقًا فيما جئت به منه فهو يكافئني،﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ [الأحقاف:8]، المخلص مع

عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8] بهم.

ثم أخبر عن حال الرسالة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، يشير إلى أني لست بأول رسول أرسلت، ولا بغير ما جاءوا في أصول التوحيد، حيث إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد والتصديق في العبودية، «وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46] بنور الفيض الإلهي؛ لتكونوا مستفيضين من نور سراجي بمصباح قلوبكم فتضيء بنار النور الإلهية، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: 35].

وبقوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: 9]، يشير إلى فساد أهل القدر والبدع، حيث قالوا إيلام البريء قبيح في العقل فلا يجوز؛ لأنه لو لم يجوز ذلك لكان يقول: اعلم قطعًا أني رسول الله معصوم؛ فلا محالة يغفر لي، ولكنه قال: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ليعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، له أن يفعل بعباده ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: 9]، بخاصة نفسي مستسلمًا لأحكامه الأزلية، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9]، لكم أرسلت إليكم مبلغًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، ولكن الله يهدي من يشاء.

وبقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: 10]، يشير إلى أنه لا عذر له بحال ولا أمان لهم من عقوبة الله، وما يستروحون إليه من حججهم عند أنفسهم كلها في التحقيق باطل، إذا شهد على مثله شاهد ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: 10]، استكبار إبليس جحودًا وعنادًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10]، الذين يضعون الجحد والعناد موضع الإقرار والتسليم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(1) تقدم تخريجه.

يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: 11 - 14].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ [الأحقاف:11]؛ يعني: الذين ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:11]، مثل هؤلاء الأراذل، هذا نوع من أنواع مكر النفس ليتوهم بها براءة ذمتها عن إنكار الحق، والتمادي في الباطل، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ [الأحقاف:11]؛ أي: بما ليس من مشاربهم، وما هم من أهل ذوق الإيمان بالقرآن به وبالمواهب الربانية، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:11].

وبقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:12]، يشير إلى أن التوراة إنما أنزلت على موسى قبل القرآن؛ لتكون إمامًا لمن آمن بها في الإيمان بالقرآن وبمحمد ﷺ إذ مشروح فيها أحوال حقيقتها، وتكون رحمة بأن يؤمنوا بها، ﴿وَهَٰذَا﴾ [الأحقاف:12]؛ يعني: القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ [الأحقاف:12]؛ يعني: للكتب المنزلة المشروحة فيها الوصية بالإيمان بمحمد، وأخذ الميثاق من النبيين وجميع الأمم على الإيمان والنصرة لدينه، ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:12]، أي: بلسان عربي؛ لأن قومه عرب ﴿لِيُنْذِرَ﴾ [الأحقاف:12] اليهود والنصارى، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأحقاف:12]، ظلموا أنفسهم بأن قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وغيروا ذكر محمد ﷺ ونعته في التوراة والإنجيل، و﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء:46]، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف:12]، الذين آمنوا بجميع الأنبياء والكتب المنزلة، ﴿وهدوا إلى الصراط المستقيم﴾، وثبتوا على الدين القويم.

ثم أخبر عن سلامة أهل الاستقامة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:13]، يشير إلى أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ من بعد استقامة الإيمان في قلوبهم، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ بجوارحهم على أركان الشريعة، وبأخلاق نفوسهم على آداب الطريقة بالتزكية، وبأوصاف القلوب على التصفية، وبتوجيه الأرواح على التحلية بالتخلق بأخلاق الحق؛ فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾باستقامة الإيمان، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ بالنفوس على أداء الأركان، وبالقلوب على الإبقاء، وبالأسرار على العرفان، وبالأرواح على الإحسان، وبالإخفاء على العيان، وبالحق على الفناء بأنانيتهم والبقاء بهويته؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحقاف:13] بالانقطاع، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:13] على ما فات لهم من

خطاب الدارين، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف:14] جنة الوحدة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأحقاف:14]، فانين عن الاثنينية باقين بالوحدة ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:14] في استقامة الأعمال مع الأقوال.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18)﴾ [الأحقاف: 15 - 18].

وبقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:15]، يشير إلى رعاية الحق الوالدين على جهة الاحترام، لما عليه لهما من حق التربية والإنعام؛ ليعلم أن رعاية حق الله تعالى على جهة التعظيم، لما عليه له في حق الربوبية، وأنعام الوجود أحق وأولى وفي إثبات حق الوالدين، قال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]، فحق من كان في شأنه بالتقدير والقسمة والخلق والخُلق والرزق والأجل، حتى إذا بلغ أشده في النبوة في الولاية والإيمان والإسلام من الأزل إلى الأبد أثبت وأعظم، كما أشار إلى هذا المعنى.

بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ [الأحقاف:15]، وفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:15]، فيه إشارة إلى ألا يمكن للعبد أن يعمل عملاً يرضى به ربه إلا بتوفيقه وإرشاده.

وبقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15]، يشير إلى أن صلاحية الآباء تورث الصلاحية للأبناء.

وبقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:16]؛ يعني: الأبناء على جزاء ما أحسنوا مع الآباء، يشير إلى أن بر الوالدين إذا كان مشروطًا بقبول الطاعة،

والتجاوز عن السيئات موعود بنعيم الجنات، فكيف لمن يؤدي حقوق الربوبية بالقيام بحق العبودية؛ فيفني ناسوتيته في لاهوتية ربه - تبارك وتعالى - فهل له جزاء إلا ما وعده ربه ﷻ بقوله: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا.....»[1] الحديث.

وبقوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا....﴾ [الأحقاف:17] الآية، يشير إلى ذم الذين اتصفوا في حقهما بالتأفيف، وفي ذلك تنبيه على ما وراءها من التأفيف، فحكم أن صاحبه من أهل الخسران، والخسران نقصان في الإيمان؛ فكيف بمن خالف مولاه، وبالعصيان أداه كما قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف:18].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٣﴾ [الأحقاف: 19 - 23].

وبقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:19]، يشير إلى أن من منة الله أن يجازي على حسب أعمالهم من الخير والشر، ولكل واحد من السعادة والشقاوة، وبحسب أعمالهم ونياتهم فيها منازل يبلغونها، وهم لا يظلمون في التوفية.

ثم أخبر عن آثار أهل النار بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف:20]، يشير إلى أن للنفس طيبات من الدنيا الفانية، وللروح طيبات من الآخرة الباقية، من اشتغل باستيفاء طيبات نفسه في الدنيا يحرم في الآخرة من استيفاء طيبات روحه؛ لأن في طلب استيفاء طيبات النفس إبطال استعداد الروح في استيفاء طيباته في الآخرة مودعة، وفي ترك استيفاء طيبات

(1) تقدم تخريجه.

النفس في الدنيا كمالية استعداد الروح في استيفاء طيبات في الآخرة مودعة؛ فلهذا يقال لأرباب النفوس: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف:20]، بأنكم استكبرتم في قبول دعوة الأنبياء في ترك شهوات النفس واستيفاء طيباتها؛ لئلا تضيع طيبات أرواحكم، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:20] تخرجون من أوامر الحق ونواهيه، ويقال للروح وأرباب القلوب: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ [الحاقة:24] في الأيام الخالية، ولما كانت نفوسهم تاركة لشهواتها بتبعية الروح، يقال لهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت:31]؛ أي: من نعيم الجنة فإنها من طيباتها وتلذ الأعين، وهو مشاهدة الجمال والجلال وهي طيبات الروح.

وبقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف:21]، يشير إلى أن كل نبي بعث لإنذار قومه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾؛ أي: لا تعبدوا النفس وهواها وشهواتها الدنيوية؛ لكي لا يذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا، فإن فيها عذابًا عظيمًا عظيمًا، وهو: فوت الدرجات والقربات، ونيل الدركات بإتباع الشهوات.

وبقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:22]، يشير إلى طباع النفوس المتمردة، التي اتخذت هواء نفسها وشهوات الدنيا، وزينتها آلهة يعبدونها، فمن تدعوهم منها إلى الله وقربه ومعرفته يجيبونه من غاية جهلهم، وكمال شقاوتهم: أجئتنا لتعرضنا بالإفك عن آلهتنا، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأحقاف:22] من العقاب والثواب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف:22]، إن عبادة الهوى تورث العذاب العظيم، وإن عبادة الإله تورث الثواب العظيم.

﴿قَالَ﴾ [الأحقاف:23] أرباب القلوب: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ﴾ [الأحقاف:23]، من يكون أهلًا للثواب ومن يكون أهلاً للعقاب، وكما أن الطبيب الحاذق يعلم بنبض المريض أنه فيم علاجه، ومتى ما يصلح للمريض من الأشربة والمغامن الموافقة له في كل وقت من الأوقات وحال من الأحوال، وإنما أنا مبلغ ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف:23] من الأنوار، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:23] الصواب من الخطأ والصلاح من الفساد خيرٌ أدلكم على الرشاد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26)﴾ الأحقاف: 24 – 26.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾، فيه إشارة إلى أنه تعرض في سماء القلوب تارة عارض يعرض ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف:24]، فيمطر مطر الرحمة يحي به الله أرض البشرية، فينبت منها الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، وتارة يعرض عارض ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف:24] بسوء أخلاقكم وفساد أعمالكم، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:24].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:25]، تدمر كل شيء من الأخلاق الحميدة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:25]؛ أي: أشخاصهم خالية عن الأخلاق والآداب والأعمال الصالحة، وقلوبهم فارغة من الصدق والإخلاص والرضاء والتسليم، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:25]، المعرضين عن الحق المقبلين على الباطل.

ثم أخبر عن تبيين أهل التمكن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف:26]، يشير إلى أن هذه الآلات أسباب تحصيل التوحيد، ولكن لمن يشأ الله به خيرًا، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:26]؛ أي: من التوحيد؛ إذ لم يشأ الله بهم خيرًا ما جحدوا وما استهزءوا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)﴾

[الأحقاف: 27 - 31].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأحقاف:27]، التي تعتبر بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:27] عن كفرهم إلى التوحيد بهذه الدلالات والعبارات؛ لأنها أسباب الرجوع إلى الحق والتوحيد لم يرجع واحد منهم؛ ليعلم أن الهداية بيد الله يؤتيها من يشاء كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13].

بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف:28]، يشير إلى الأسباب التي اتخذوها من دون الله من التعبد؛ أي: المختلفة التي تقربوا بها هل نصرهم في الاهتداء، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف:28]؛ أي: بل ضلت الأسباب عنهم عند الاهتداء فلم ينفعوهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ [الأحقاف:28]؛ أي: ظنهم الذي أفترته نفوسهم إفكًا، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:28]، أن الأسباب والمعاملات شركاء الله في الهداية.

ثم أخبر عن اهتداء الحق بهداية الله، مع أنهم أبعد عن قبول الهدى من الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف:29]، يشير إلى صرف نفر الجن الصفات الذميمة النفسانية الظلمانية إلى الروح النوراني وهي سبعة، كما أن نفر الجن سبعة: الكبر والبخل والغضب والشهوة والحرص والحسد والحقد، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف:29]؛ أي: يستمعون إلهام الحق تعالى الذي يلهم به الروح، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ [الأحقاف:29] بإحضار الله وصرفهم إليه، ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾[1] [الأحقاف:29]، فلما انعكس نور حضور الروح، ألهمهم بإلهام الحق على الصفات الذميمة أسكنهم عن إظهارها؛ فإن أهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار والنوران، والهيجان والانزعاج يدل على غيبة أو قلة بقضاء، ونقصان من الإطلاع، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ [الأحقاف: 29]؛ أي: فرغ من تصرفات الإلهام الرباني، ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ [الأحقاف:29] وهم

---

(1) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت موارد الهيبة.

المتولدات من الصفات الذميمة، وهي الأخلاق السنية ﴿مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:29]؛ أي: مجزين الأخلاق بلسان التصرف.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ [الأحقاف:30]؛ أي: إلهامًا ربانيًا ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف:30] بعد إنزاله على موسى الروح أنزل على محمد القلب ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:30] من الكتب المنزلة، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [الأحقاف:30]، ويخرج من الباطل ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:30] إلى مقعد صدق ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ [الأحقاف:31] باستعمال الأعضاء والجوارح في الأعمال الصالحة الشرعية، وتهذيب الأخلاق وتزكية الأوصاف ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: 31]؛ أي: بالإلهام الداعي إلى الله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [الأحقاف:31]؛ أي: بتبديل الأخلاق من السيئة إلى الحسنة.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف: 32 - 35].

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:32]؛ أي: ومن لم يبدل أخلاقه بترك الدنيا والرغبة في الآخرة والتوجه إلى الله، فليس الله بعاجز في إخراجه

---

(1) إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر:2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم».

حيث أثبت اللذَّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلُّف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

من الدنيا ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحقاف:32] لينقذوه من النار، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف:32]، ومأوى أهل الضلال السعير.

ثم أخبر عن قدرة إحياء الموتى هدى لأهل النهي بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف:33]، يشير إلى سماوات القلوب ﴿وَالْأَرْضَ﴾ [الأحقاف:33]، أرض النفوس، ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:33]، فيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق سماوات القلوب حية بحياة روحانية، لكنها ميتة من حياة ربانية، وليس لشيء غير الإنسان هذه الكرامة أن يحيه الله بالنور الرباني، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]، ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف:33-34]، يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأحقاف:34]؛ أي: العذاب الذي كنتم به معذبين في البعد والقطيعة وإفساد الاستعداد الأصلي لقبول الكمالات وبلوغ القرب، ولكن ما كنتم تذوقون مرارة ذلك العذاب وحرقته؛ لغلبة الحواس الظاهرة وكلالة الحواس الباطنة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف:34]، تسترون الحق بالباطل.

وبقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، يشير إلى صبر من كان قصده وعزمه إلى الله، فيصبر عما سواه ما يحجبه عن الله، ويصبر على مقاساة ما يوصله إلى الله كما قيل لبعضهم بما وجدت ما وجدت قال: بعزيمة كعزيمة الرجال، وأولوا العزم من لا يكون في عزمه مسخ ولا في طلبه نسخ، ثم قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف:35]؛ أي: العذاب ومهلهم؛ لتستعدوا بالتمتعات الحيوانية للعذاب العظيم، فإني أمهلهم رويدًا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:35]من ذوق العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ [الأحقاف:35] في التمتع بنعيم الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف:35]؛ لشدة ألم العذاب الروحاني بالنسبة إلى التنعم الجسماني، ثم قال: ﴿بَلَاغٌ﴾ [الأحقاف:35]، إن هذه الإشارة بلاغ من الله إلى أهل الله وطالبيه، فإن العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه الإشارة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ [الأحقاف:35] على الله ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف:35]، الذين خرجوا من عزم طلبه إلى طلب ما سواه.

سورة محمد ﷺ

مدنية وهي ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾ [محمد: 1 - 4]

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد:1]، يشير إلى كفر النفوس المجبولة عليه وصد القلوب المجبولة على طلب الحق عن السير في سبيل الله، بالهواجس النفسانية ودواعي البشرية والشهوات الحيوانية ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:1]؛ أي: أضل الله أعمالهم ليكون في طلب الحق تعالى، ويجعلها في إتباع الهوى وطلب الدنيا وزينتها وشهواتها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد:2] بالله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد:2] في طلب الله، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد:2] من بيان السير إلى الله والدلالات إلى الحق، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد:2]؛ أي: أمنوا بأنه الحق وعملوا به في طلب الحق، ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [محمد:2]؛ أي: محا وصقل عن مرآة قلوبهم صدأ الكفر والإنكار، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:2]؛ أي: أصلح قلبهم؛ ليكون قابلاً للفيض الإلهي بلا واسطة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد:3] وهو الهوى والدنيا، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد:3]، وهو صدق الطلب بجهاد النفس ومخالفة الهوى بجذبة الحق تعالى، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:3]؛ ليهتدوا بالمثال المطابق في الصورة إلى حقائق عالم المعالي.

وبقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد:4]، يشير إلى كافر النفس حيثما وجدتموه، وهو يمد رأسه إلى مشرب من مشارب الدنيا ونعيمها، فضرب الرقاب؛ أي: فاضربوا عن ذلك الرأس، وادفعوه عن ذلك المشرب، ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ [محمد:4]؛ أي: غلبتموهم وسخرتموهم، ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد:4]؛ أي: شدوهم بوثاق أركان الشريعة وآداب الطريقة، فإن بهذين الجناحين يطير صاحب

الهمم العلية إلى عالم الحقيقة، ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ [محمد:4] على النفوس ﴿بَعْدُ﴾ [محمد:4] الوصول بترك المجاهدة، ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد:4] بكثرة العبادة؛ عوضًا عن ترك بعد الظفر بالنفوس؛ ولتأمل النفوس بسيف المخالفة، فإن في مذهب أرباب الطلب يجوز كل ذلك بحسب نظر كل مجتهد، فإن كل مجتهد منهم نصيب ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:4] إلى أن يقصد القاصد المقصود، ويجد الطالب المطلوب، ويصل العاشق المعشوق، فإن جرى على النفس بعد الظفر بها مسامحة في إعفاء ساعة وإفطار يوم؛ ترويحًا للنفس من الكد وإجماءها للحواس، قوةً لها على الجهد فيما يستقبل من الأمر، فذلك على ما يحصل به الاستصواب من شيخ المريد، أو فتوى لسان القوم أو فراسة صاحب الوقت، ﴿ذَلِكَ﴾ [محمد:4] الذي ذكرت من طرف العبد، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: 4]؛ يعني: بقهر النفس يتجلى صفات الجلال بغير سعي المجاهدة في القتال، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ [محمد:4]؛ يعني: في النفوس ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد:4] في طلب الحق تعالى، ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:4] من بذل الوجود في طلب المعبود.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد: 5 - 11].

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد:5] إلى حضرة الربوبية بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28] ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد:5] أي: يجعلهم قابضي فيض الإلوهية ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:6]؛ أي: بالجذبة عرف النفوس قبول الفيض الإلهي.

ثم أخبر أن النصر في النصرة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[1] [محمد:7]، يشير إلى أنكم إن وجدتم في أنفسكم شيئًا يحرضكم على نصرة

---

(1) نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم؛ بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيمًا في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون =

الله، فذلك من أثر نصرة الله إياك، فإنه قد نصركم بالتوفيق لنصرة الحق، فأما نصرة الله من العبد على وجهين: صورة ومعنى.

أما نصرته في الصورة: نصرة دينه بإيضاح الدليل وتبيينه، وشرح فرائضه وسننه وإظهار معانيه وأسراره وحقائقه، ثم بالجهاد والغزو لإعلاء كلمته وقمع أعداء الدين.

وأما نصرته في المعنى: فبإفناء ناسوتيته في لاهوتيته؛ ليبقى بعد فناء خلقه.

وأما نصرة الله للعبد أيضًا على وجهين :صورة ومعنى.

أما نصرته للعبد في الصورة: فبإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإظهار الإعجاز والآيات، وبتبيين السبل إلى النعيم والجحيم وحضرة الكريم، ثم بالأمر؛ أي: وأمر في الجهاد الأصغر والأكبر، وتوفيق المسعى فيهما طلب الرضاء لا تبعًا لهواه، وبإظهاره على أعداء الدين وقهرهم في إعلاء كلمة الله العليا.

وأما نصرته للعبد في المعنى: فيأتيه أو يشده في إفناء وجوده الفاني في وجوده الباقي، بتجلي صفات جماله وجلاله، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:7] في الجهاد الأصغر والأكبر؛ لئلا تزول عن التوحيد والوحدة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [محمد:8] من النفوس السائرة بالحق يقيم صفاتها الذميمة، ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ [محمد:8] طردًا وبعدًا من جوار الحق، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:8] عن طريق الحق والصواب، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [محمد: 9] من موجبات مخالفات النفس والهوى وموافقات الشرع ومتابعة الأنبياء، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:9]؛ لشوبها ما بالشرك والرياء والتصنيع والهوى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد:10] تسلكوا في أرض البشرية، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [محمد:10] من القلوب والأرواح، لما تابعوا الهوى وتأولوا بحب الدنيا ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد:10]، وأهلكهم في أودية الرياء وبوادي البدعة والضلالة، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ [محمد:10] النفوس اللئام في طلب المرام ﴿أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: 10] من الضلال والهلاك.

- النفس فتصرع صرعة لا تقوم بعدها أبدًا. قال الحكيم الترمذي: إن أكرمتم أوليائي أكرمتكم. قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل أحوالكم. [العرائس].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد:11]؛ أي: ناصرهم على طلب الحق ومؤيدهم بالوصول والوصال، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:11]؛ أي: ما هو بناصر لهم، فصاروا أهل الخذلان والخسران.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (12) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (14) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)﴾ [محمد: 12 - 15].

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد:12]؛ إذ هو مولى لهم بنصرهم، ﴿جَنَّاتٍ﴾ [محمد:12] وهي جنات القلوب، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [محمد:12] والفضائل والمناقب والمواهب، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [محمد:12]؛ أي: النفوس المتمردة ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ [محمد:12] بمتاع الدنيا، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: 12]؛ للحظوظ النفسانية لا للحقوق الربانية، ﴿وَالنَّارُ﴾ [محمد:12] نار القطيعة ﴿مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:12] مقام لهم.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:13]، يشير به إلى روح الإنسان وقرية قالبه؛ أي: كم من قالب هو أقوى وأعظم من قالبك، الذي يخرج منه، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [محمد:13] بالموت، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:13] في دفع الموت عنهم؛ فانتبه واعتبر.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [محمد:14] بإراءته آياته في الآفاق وفي نفسه، عند تصفية مرآة قلبه عن صدأ أخلاقه الذميمة النفسانية، فيكاشفه شواهد الحق معانيه، ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾ [محمد:14] بتسويلات النفس، وإلقاء الشيطان وتزينه ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾[1]

---

(1) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. البحر المديد (3/ 39).

[محمد:14] بالبدعة ومخالفة الشرع، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:14] في العقائد القلبية والأعمال القالبية.

وبقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد:15]، يشير إلى جنة قلوب أرباب الحقائق، الذين هم على بينة من ربهم، التي وعد من اتقى بربه عما سواه فيها أنهار ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد:15]، وهو ماء حياة القلوب؛ فإنه لم يأسن بطول المكث، بل يزداد طيبه، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ﴾ [محمد:15]، وهو لبن الفطرة التي فطر الناس عليها، ﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ [محمد:15] بحموضة الأهواء والبدع، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد:15]، وهي خمر الشوق والمحبة، كما قال شاربها:

شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ﴾ [محمد:15]، وهو عسل الوصال ﴿مُصَفًّى﴾ [محمد:15]، عن كدر الملال بمشاهدة الجمال، منزهة عن المثل والمثال بلا زوال ولا انتقال، فمن الحس عسل اللقاء أنس على الدوام ببقائه، ولم يطلب مع بقائه شيئًا آخر لا من عطائه ولا من لقائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبريائه، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ [محمد:15] في جنة القلوب ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد:15]، التي جنت أرباب الحقائق من شجرة الكلمة الطيبة، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[1] [محمد:15]، يغفر عنهم ذنب وجودهم، ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ

(1) قال المحقق روزبهان: لأهل الحق في هذا العالم جِنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتقان، وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوحدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيى القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليريها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيبها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشوف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل

﴿فِي النَّارِ﴾ [محمد: 15]؛ أي: مثل أرباب اللقاء - كما مر ذكرهم - كمثل أصحاب الشقاء وخلودهم في نار الجفاء، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ [محمد: 15] من عين الهجران بكأس الخذلان ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15] من الحرمان.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: 16 - 19].

ثم أخبر عن وفاق أهل النفاق بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: 16]، يشير إلى أهل الأهواء، الذين هم بمعزل عن السمع الروحاني، إذا طبع الله على قلوبهم بكفرهم، فأصمهم الله وأعمى أبصارهم، فلا يسمعون دعوة الحق ولا يفهمون، لو يستمعون إليه بسمع الظاهر؛ لأنهم كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16]، فضلوا عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ [محمد: 17] إلى طريق الحق، فاستمعوا إلى دعوة الحق ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17] في طلب الحق، ﴿وَآتَاهُمْ﴾ [محمد: 17] ربهم ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]، وهو الاتقاء بالله عما سواه، بل اهتدوا بأنواع المجاهدات، فزادهم هدى بأنوار المشاهدات ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ [محمد: 18]؛ أي: ساعة الوصال ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: 18]، وهي غلبات الشوق وصدق الطلب؛ فإنه من شرط الوصال كما قال: «ألا من طلبني وجدني»[1]، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ [محمد: 18]، ساعة الوصال

الكشوف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ، ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره.

(1) تقدم تخريجه.

﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد:18] ببقاء الوجود؛ لأنه من كمال كشف الحقيقة.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:19]؛ أي: فاعلم بعلم اليقين ألَّا إله بغير اليقين إلا الله بحق اليقين، فإذا تجلى بصفة علمه الذاتي للجهولية الذاتية للعبد تفنى ظلمة جهوليته بنور علمه، فيعلم بعلم الله ألَّا موجود إلا الله، فهذا مظنة حسبان العبد أن العالم بعلم الله أنه لا إله إلا الله، كما قال الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:91]؛ لعلمه، فقيل: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[1] [محمد:19]؛ إذ حسبت أنك العالم بوحدانية الله؛ لأن من وصفه تعالى أنه لا يعلمه إلا هو، كما أنه لا إله إلا هو، واستغفر لذنبك ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:19] بأنهم يحسبون أنهم يحسنوا علم لا إله إلا الله، فإن من وصفه ما قدروا الله حق قدره.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ [محمد:19]؛ أي: متقلب كل روح في العدم بوصف خاص إلى عالم الأرواح في مقام مخصوص، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:19]؛ أي: مثوى كل روح إلى أسفل سافلين، والقالب بوصف خاص إلى عالم الأرواح، ثم متقلبه من أسفل السافلين القالب بالإيمان والعمل الصالح، أو بالكفر والعمل الصالح إلى الدرجات الروحانية والدركات النفسانية، ثم مثواه إلى عليين القرب المخصوص به، أو إلى سجين البعد

---

(1) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:19]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولمَّا كانت الألوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والألوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الألوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلٍّ، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

المخصوص به مثاله، كما أن لكل حجر ومدد وشجر وحصب يبنى به دارًا متقلبًا مخصوصًا، وموضعًا من الدار مخصوصًا به لا يشارك شيئًا آخر متقلب؛ ليوضع فيه شيء أخر، كذلك لكل روح متقلب مخصوص به ومثوى مخصوص به، لا يشارك فيه أحدًا.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥)﴾ [محمد: 20 - 25].

ثم أخبر عن أمارة أهل الوفاق وأهل النفاق بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد:20]؛ يعني: نأمر بالجهاد، يشير إلى أن من أمارات الإيمان تمني الجهاد؛ شوقًا إلى لقاء الله ﷻ.

وبقوله: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:20]، يشير إلى أن من أمارات الكفر والنفاق كراهية الجهاد كراهة للموت، كما أن من أمارات الإيمان تمني الموت، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة:6]، وقال الكفار ولا يتمنوه أبدًا، ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:20]؛ أي: فأولى بهم ﴿طَاعَةٌ﴾ [محمد:21] منهم لله ولرسوله ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:21]، بالإجابة لما أمروا بالجهاد، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: 21]؛ أي: جد الأمر وافترض القتال في الجهادين.

وبقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ [محمد:22]، يشير إلى أرباب الطلب وأصحاب المجاهدة، إن أعرضتم عن طلب الحق تعالى: ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد:22]، أرض قلوبكم بإفساد استعدادها لقبول الفيض الإلهي، ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22] مع أهل الحب في الله؛ فتكونوا في سلك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:23].

وهذا كما قال الجنيد: لو أقبل صديق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة فإن ما

فاته أكثر مما ناله، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد:23]، فإن فيه شفاء من كل داء؛ ليقضي بهم إلى حسن العرفان، ويخلصهم من سجن الهجران، ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 23]، أقفل الحق على قلوب أهل الهوى، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل لهم فهم الخطاب، وإذا كان الباب مقفلاً فلا الشك والإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق واليقين الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

ويقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْـهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:25]، يشير إلى الذي يطلع فجر طلبه، ويتلألأ نور التوحيد في قلبه، ثم قبل سوغ نهار إيمانه تغيم سماء قلبه من منشأ نزعات الشيطان وتسويلاته، وانكسف شمس طلبه، وأظلم نهار عرفانه، ودجى ليل سكره، وغابت نجوم عقله؛ فحدث عن بحر ظلماتهم ولا حرج.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: 26 - 29].

﴿ذَلِكَ﴾ [محمد:26]؛ أي: ذلك التراجع ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ [محمد:26]؛ أي: بأن القلوب لما مالت إلى النفوس وذاقت من مشاربها، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ﴾ [محمد:26]، من الواردات وهم النفوس، ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ [محمد:26] نوافقكم ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد:26] من حب الرئاسة وقبول الخلق، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد:26] عاملهم بحسب تغير أحوالهم وزيغ قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5] فسدت بصائرهم وغطت أسرارهم، وليس عليهم وجه التحقيق.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْـمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:27]، يقلبون وجوههم عن الحق، ويقلبونها عن السفليات ويديرونها عن العلويات، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ [محمد:28]، وهو الإعراض عن الحق تعالى والإقبال على الباطل في الدنيا وشهواتها، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد:28] وهو مخالفات النفس والهوى، وترك الدنيا وموافقات الشرع ومتابعة الأنبياء؛ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:28]، إذا تغيرت أحوالهم.

ثم أخبر عن مرض أصحاب الغرض بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد:29]، يشير إلى أن من مرض القلوب الحسبان الفاسد والظنون الكاذبة، فظنوا أن الله لا يطلع على خبث عقائدهم ولا يظهره على رسوله، ليس الأمر كما توهموه؛ بل الله تعالى فضحهم وكشف تلبيسهم، ولقد أخبر رسوله ﷺ وعرفه أعيانهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)﴾ [محمد: 30 - 34].

وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد:30]، بإراءته الحق تعالى إياه، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:30]؛ أي: في معنى الخطاب؛ لأنك تنظر بنور الله فترى منشأ كلامهم، فيخبرك سرائرهم عن ضمائرهم، وأن الأسرة لتدل على السريرة؛ فالمؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بنور التحقيق، والنبي ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:30] إنها صادرة بخباثة نياتكم.

ويقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد:31]، يشير إلى أن البلاء مخلص إبريز الولاء، كما قيل: البلاء للولاء كاللهب للذهب، فإن بالابتلاء والامتحان يتبين جواهر الرجال؛ فيظهر المخلص، ويفضح المارق، وينكشف المنافق، ويتميز الموافق، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:31]، إشارة إلى أننا نعلمكم، ونكشف لكم من المجاهد الصابر منكم، وبالابتلاء نخبركم عن جواهركم أنها من السعداء والأشقياء، وإلا نحن عالمون بخالص جواهركم من الأزل إلى الأبد؛ لأنا خلقناها على أوصافها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14]، فيتغير أحوال جواهركم في الأمة، فإن المختلفة لا تظنوا تغير علمنا، فإذا يراكم في حالة واحدة، وتغيرات أحوالكم كلها كما هي؛ بحيث لا يشغلنا حالة عن حالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد:32]؛ أي: أنكروا بعد أن أقروا، وقطعوا الطريق على الطالبين، ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ [محمد: 32] بشواهد الحق، فلم يعرفوا قدرها ولم يؤدوا حقها، أخذوا بكفران النعمة وأمهلوا بالخذلان فتقاعدوا عن الخدمة، ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ [محمد:32]، وإنما أضروا بأنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:32]، لا ينتفعون بها في الدارين.

ثم أخبر عن الطاعة بقدر الاستطاعة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:33]، يشير إلى أن عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الطبع والطبع ظلماني، وإنما جاء الشرع وهو نوراني؛ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع، فيكون ثمرًا وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور؛ أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [محمد:34] من النفوس المتمردة، ﴿وَصَدُّوا﴾ [محمد:34]، القلوب ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد:34] وطلبه، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [محمد:34] على طبيعتهم، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [محمد:34] في الآخرة؛ لأنهم ماتوا على الكفر؛ فيحشرون على ما ماتوا عليه.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: 35 - 38].

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ [محمد:35] في جهاد النفس، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ [محمد:35]؛ أي: تدعوا النفس إلى الصلح، فإن من صالح نفسه وترك جهاده لن يفلح أبدًا، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد:35]، يخاطب القلوب والأرواح العلوية، ولكم القوة الروحانية، ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:35] بالنصر؛ إذ تجاهدون النفس السفلية الضعيفة في الله، ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:35] لن ينقصكم أجوركم؛ لأنه لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾[النساء:40]، بالغوا في العبودية وسارعوا في

طلب الحق تعالى.

ولا تغتروا بالدنيا وزينتها، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [محمد:36] عند أرباب النظر وأصحاب الطلب ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:36]، مخصوصة بالفناء، مجبولة على التعب والنصب والبلاء والعناء، ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ [محمد:36] بطلب الحق، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [محمد: 36] بالحق عما سواه، ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ [محمد:36] بالتقرب إليكم على حسب تقربكم إليه؛ فإن تقربتم إليه شبرًا يتقرب إليكم ذراعًا، وإن جئتم إليه وأنتم تمشون يجيء إليكم وهو يهرول كما يليق بذاته وصفاته، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وبقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد:36]، يشير إلى المؤمنين من أهل الجنة أنه تعالى لا يسألكم جميع أموالكم ليدخلكم الجنة، بل بأداء الزكاة الواجبة يرضى عنكم لدخول الجنة، وهذا لمن يوق شح نفسه، فأما الأحرار عن ذوق الكونين ومن علت رتبتهم في طلب الحق تعالى؛ فلا يسامحون في استيفاء ذرة، ويطالبون ببذل الروح والتزام الغرامات، فإن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، بل يقال لهم: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ [محمد:37]، به يشير إلى الطالب الصادق، والعاشق الوامق الذي لا ترضى عنه الآية؛ فيخفى في السؤال كذلك أن يسأل الله، فيحفي لا يرضى منه إلا ببذل الوجود إفناء الناسوتية في لاهوتية، وهذا مقام أخص الخواص، وقال للعوام: أن يسألكموها ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد:37] ببذل الوجود؛ لقصور همتكم في طلب المقصود ولجهلكم عن كمال المفقود.

ثم قال لأرباب الهمم العلية في طلب المواهب السنية: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا﴾ [محمد:38] في حقيقة الوجود الكلي لنيل المقصود الكلي، فمنكم من يتجلى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد:38] ببذل الوجود، ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:38]؛ لأنه بخل بوجود مجازي، فإنه حرم عن وجود حقيقي باقٍ، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ [محمد:38] لذاته بذاته، ومن غناه تمكنه من تنفيذ مراده، واستغناؤه عن سواه، ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد:38] إلى الله في الابتداء؛ ليخلقكم في الوسط ليربيكم في الانتهاء ليغنيكم عن أنانيتكم، ويبقيكم بهويته، والله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء

يحتاجون إليه من الأزل إلى الأبد[1].

وبقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:38]، يشير إلى أن الإنسان خلق ملولاً غير ثابت في طلب الحق تعالى، وإن من خواصهم: من يرغب في طلب الحق تعالى بالجد والاجتهاد من حسن استعداده الروحاني، ثم في أثناء السلوك بمجاهدة النفس ومخالفة هواها بظمأ النهار وسهر الليل تمل النفس من مكايدة الشيطان وطلب الرحمن، فيتولى عن الطلب بالخذلان وابتلي بالكفران؛ إذ لم يكن مستعانًا بجذبة العناية، فما أمكنه حسن الرعاية، فالله تعالى قادر على أن يستبدل به قومًا آخرين في الطلب صادقين، وعلى قدم العبودية ثابتين، وقد أدركتهم جذبات العناية موفقين للهداية، وهم أشد رغبة وأعز رهبة منكم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:38] في الإعراض بعد الإقبال، والإنكار بعد الإقرار، وترك الشكر والوفاء بأن يكونوا خيرًا منكم من جميع الأحوال؛ إظهارًا للقدرة على ما يشاء والحكمة فيما يشاء.

---

(1) قال القشيري : والله الغني لذاته بذاته ، ومن غنائه : تمكُّنه من تنفيذ مُراده، واستغناؤه عما سواه ، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم، ويُبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

سورة الفتح

مدنية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤﴾ [الفتح: 1 - 5].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[1] [الفتح:1]، يشير إلى فتح باب قلبه ﷺ إلى حضرة

---

(1) قال سيدي محمد البيطار في وارده على الآية بالفتح المدرار ما نصه: اعلم - رحمك الله - أن الجوهر الفرد الأصلي للعالم العقل المحمدي، وهو نور ذاتي مفاض إفاضة ذاتية من الحقيقة الكلية الجامعة للحق والخلق، إلا أن الحقيقة الكلية برزخ بين الوجود والعدم، وهي العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق ما فوقه هواء وما تحته هواء، المراد بالهواء الأول: حقيقة الحق، وبالهواء الثاني: الخلق، فالعماء حقيقة برزخية، ولا يخفى أن البرزخ إذا انتهى حكمه آل إلى أحد الطرفين مع عدم المنافاة لمقامه الأول العمائي، فتجلى الحق تعالى من اسمه الباطن تجليًا أحديًا من نفسه لنفسه في نفسه، فانفتح من غيب ذاته النور المحمدي، وهو جوهر العالم وحقيقته، فكان مرآة وجود الحق وهو العقل الأول الوجودي، ولولا هذا العقل لم يتقيّد تعالى باسم الوجود، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: من ذاتنا المطلقة التي لا تختص بالوجود ولا بالعدم، ولا تعلم لا من اسم ولا من صفة، وقد حجر الشرع المطهّر التفكير فيها؛ لأنها لا ترتبط بأمر، وتظهر بنقيض ذلك الأمر، فالعلم بالذات عبارة عن الجهل بها وأنها لا تعلم، ففتح الله من ذاته جوهر الوجود المحمدي لأجل وجود محمد ﷺ؛ لأنه تعالى هو المحب لأن يُعرف، ولا يعرف إلا بظهوره بصورة محبوبه؛ لأنه هو الجميل، فأحب نفسه فكانت نفسه عين الحقيقة المحمدية، فكان هذا الفتح لأجل المحبوب الجميل وهو يحب الجمال، فأحب أن يظهر جماله بمحمد وأن يعرف بأن الجوهر المحمدي عينه لا غيره، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: لأجلك حتى نريك نفسك عينا، وأنك المسمى بأسمائنا، فهذا الفتح من حقيقة اسمنا (الفتاح) يبين لك ذاتك، وأنك حقيقة حياتنا الذي منها كل شيء حيّ.

فالحقيقة المحمدية مستوى الرحمانية وعرشها، وبالرحمة كان الوجود فهو عين الرحمة، ولذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، فكان هذا الفتح مبينًا له حقيقة نفسه بأنه نور الوجود المقدّس الطيب الطاهر، كما قال ﷺ: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس»[1] فتبين من هذا أنه المسمى بالأسماء الحسنى؛ لأنه باطن الكنز المخفي، فقوله أي لأجل ظهور أحديتنا لك في نفسك، وأحديتنا تغفر ما تقدّم من ذنب الكثرة المتقدمة والمتأخرة الملهية عن تلك الأحدية، ولذا أخبره بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ

-

لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]، وليس ذنبه إلا الكون جميعه مع جميع ما يصدر منه، فالمقصود: ستر جميع ذلك بأحدية الذات الوجودية المطلقة؛ ليظهر تقديس تلك الحقيقة المحمدية بمحو كون شرك الأغيار، وتجلي وجود أحدية الغفار، فالذنب لتلك الحقيقة المحمدية حقيقي أصلي لا مجازي، بل نسبته الذنب الكوني لغير الجوهر المحمدي بطريق المجاز عند المحققين، ومع كون الحقيقة المحمدية جوهرًا وجوديًا ذاتيًا عينيًا فلا توجد إلا بالصور الكونية، فالصور الكونية هي ذنبه ﷺ المستور بحقيقة الأحدية، والعجب أن هذا الذنب لا عين له حقيقية، وإنما هو أمر وهمي يظهر أنه عيني من ظلمة الحجاب، ومع ذلك فلولا هذا العدم الوهمي ما ظهر الوجود، فالوجود لا مظهر له إلا العدم وبالعكس. فلذا فتح الله لمحمد ﷺ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:1]، ليغفر له، أي: لأجل أنه يبين هذا الفتح المبين له، مغفرة ما تقدَّم من صور حقيقته، وما تأخر بوجود حقيقته، وسُميت هذه الصورة الكونية ذنبًا باعتبار نسبة الوجود إليها؛ لأن ذلك من أعظم الذنوب .. فلمابدا هذا الفتح المبين لمحمد ﷺ أبان له أن الكون كله مغفور بحقيقته، وحقيقته مغفورة بوجود الله الغافر بوجوده كل أول وآخر وظاهر وباطن، فالكل هو وهذه هي مغفرة الذنب الكوني ما تقدّم منه وما تأخر، فلذلك قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:2]، فأتمَّ نعمته بتجلي ذاته وأسمائه وصفاته وشئونه ووجوهه واعتباراته، وهذا هو الصراط المستقيم الذي قال في حقه: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]، ولمَّا اقتضى إتمام النعمة عليه بما ذكرنا أن يكون مظهر الاسم الأعظم الجامع قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:3]، أي: بكونه إياك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:3]، إذ لا أعز من الله تعالى، وقد أحبَّه فكان سمعه وبصره كما في الحديث.

واعلم ـ رحمك الله ـ أن من فتح الله له فتحًا مبينًا وكشف له عن حقيقة نفسه لا يرى في الوجود غير نفسه، وأهل الفتح متفاوتون في هذا المشهد، وقد قال فيه ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» أي: أوتيت الكلم الجوامع، والكلم الجوامع هي أسماء الحق وأوصافه.

ألا ترى أن اسم الله الأول مثلاً يجمع كل أولية، واسمه الآخر يجمع كل آخرية، واسمه الباطن يجمع كل باطنية، واسمه الظاهر يجمع كل ظاهرية، فهذه هي جوامع الكلم التي أوتيها، ومعنى أوتيها أنه مدلولها ومعناها، فمن تحقق بهذا المعنى فتحًا وكشفًا كان ذنب الوجود كله ذنبه، وأعظم الذنوب دعوى الوجود مع الله تعالى، فمن فتح له وشاهد مقام واحديته فقد غفر له ذنب شهود كونيته وأثنينيته، ولذلك علل سبحانه الفتح المبين بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:2]، فبهذا الغفران انمحى من الوجود سواه وبهذه الحال سماه الله بالفؤاد فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:11]، لأن الفؤاد قلب القلب وسره وباطنه، وأشار لذلك ﷺ بقوله: «قلب القرآن يس» فالقرآن بلسان الإشارة وجود الله الجامع لكل شيء، فهو قلب كل شيء»، وقلب هذا القلب هو الفؤاد وهو ياسين ﷺ، ولما اقتضى الفتح المبين أن يغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر بأن يكون هو عين جميع من تقدم وتأخر، كما قال: «نحن الآخرون الأولون» بشَّره الله تعالى ببشارة مؤكدة لهذا المعنى بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1]، أي طاهر الذات يا مرجع الأسماء والصفات ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه:2]، أي: ما تجلينا عليك

بمقتضى واحديتنا ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ [طه:2]، يعني أن هذه الحقيقة لا يلحقها الشقاء الذاتي، وإنما الشقاء عارض نسبي.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4]؛ لأنه خلقنا منه كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:13]، أي: من ذاته، ولو كان المراد من فعله لاكتفى بقوله سخّر لكم، فأفاد بقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ إنه عين المسخر، كما أنه عين المسخر، فليس الشقاء إلا الحجاب، والحجاب عارض فداوى جلّ وعلا علة فمنهم شقي وسعيد بدواء آية طه، فكان الشقاء من هذه العلة هو العاقبة، ولاسيما وقد قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] فمن فهم هذا المعنى فقد فهم الفتح المبين وأدرك حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] فنزلت السكينة في قلبه فسكن إليها؛ لأنه يؤمن بأن محمدًا ﷺ حقيقته وعينه وذاته، وأي شيء نسكن إليه أعظم من ذلك، فمن أدرك هذا السر فقد شرب وسقي وطرب وقد دُعي لهذا المشرب سيدنا مصطفى البكري ـ قدّس الله سره ـ بقوله:

وادخـــل للحـــان خلـــيلي ومـــل نحـــــو الخـــــمار أبي الـــــسرج

ألا ترى من دخل هذه الحان وهو أبو تراب عليه السلام كيف شرب وطرب وعربد من سماع هاتيك الألحان، فقال: أنا العرش أنا الكرسي أنا القلم أنا اللوح أنا جنب الله الذي فرطتم فيه، فبهذه السكينة التي نزلت في قلبه من إفاضة قلب القلوب وفؤاد كل محب ومحبوب حصل له كما قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح:4]، فمن ازداد إيمانًا مع إيمانه الأول أيقن بأن جنود الأسماء والصفات ومظاهرها في الأرض والسماوات هي لله الذي سكن إليه، فكان هو المسكن وكان الله إلى وجودنا الذي نسكن إليه ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4] أي: بنا؛ إذ نحن مظاهره، وهو الظاهر بنا فثبتت جنود السماوات والأرض إلينا، ولذا قال: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح:5]، وهي اللطائف المحمدية المشتملة على الأسرار الربانية تجري من تحتها الأنهار التي هي العلوم الإلهية، وهي من تحت هذه اللطائف؛ لأن الأسماء في الرتبة هي تحت الذات؛ إذ العلم والسمع والبصر وأمثال ذلك في قبضة حياة الذات، والذات التي هي الجنات، وهي مظاهر الحق من تحتها تجري أنهار الأسماء والصفات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح:5] يعني أن الذات التي يدخلونها بالكشف والتحقق هي خالدة وهم فيها خالدون فلهم بذلك البقاء الدائم ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح:5]، فلا يسوءهم شيء بعد ما عرفوا فيهن الخلود بل يفوزون فوز الأبد كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ [الفتح:5] الذين هم عنده بالعندية الذاتية فوزًا عظيمًا، أي: به هذا الفوز العظيم، فإذا سرت بهذا المعنى في هذه السورة فأنت الطائر في الأفق الأعلى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:1] وهي صورته المحترمة إلى المسجد الأقصى، أي: باطن ذاته الذي هو أقصى عن أن تدركه الأبصار، وفي هذه السورة من البشارات واللطائف ما لا تدركه العقول، وقد

ربوبيته بتجلي صفات جماله وجلاله ،وفتح ما انغلق على جميع القلوب، وتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه؛ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾[1] [الفتح:2]؛ أي: ليستر لك بأنوار جلاله ما تقدم من ذنب وجودك من بدء خلق روحك، وهو أول شيء تعلقت به القدرة، كما قال: «أول ما خلق الله روحي»[2]، وفي رواية: «نوري»[3].

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]؛أي: من ذنب وجودك إلى الأبد، وذنب الوجود هو إلى الأبد، وذنب الوجود هو الشركة في الوجود وغفره ستره بنور الوحدة؛ لمحو آثار ظلمة الاثنينية، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:2]، وهي نور وحدانيته كما قال تعالى: ﴿ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾[الصف:8]؛ ولهذا سماه الله نورًا بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:15].

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]؛ أي: يهديك بجذبات ألطافه على صراط مستقيم عنايته إلى ذاته وصفاته، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[4] [الفتح:3]؛ أي: ينصرك ببذل وجودك المجازي في وجوده العزيز الحقيقي.

مهدنا لك الطريق إلى سلوك تلك المسالك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(1) قال المحقق البقلي: نبَّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرِّه، فعرف نفسه لما، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه. وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحًا بعد أن قوّاه لذلك وأكرمه به.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ [الفتح:4] من أنوار ولاية نبوته ﴿فِي قُلُوبِ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:4] بتوجه قلوبهم إلى الإيمان بنبوته؛ ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ [الفتح:4]؛ أي: إيمانًا بنبوته ﴿مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:4] بالله، والسكينة: ما يسكن إليه القلب من أنوار الإيمان والإيقان والعرفان بالدلائل والبرهان والعرفان بمشاهدة العيان، بل الاستغراق في بحر العين بلا أين ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح:4]؛ أي: كلها دالة على وحدانيته، وهي جنود الله بالنصرة لعباده بالظفر بمعرفته، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ [الفتح:4] بمن هو أهل النصرة للمعرفة ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح:4] فيما حكم في الأزل لهم.

﴿لِيُدْخِلَ الْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ﴾ [الفتح:5]؛ أي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح:1]؛ ليغفر لك الله وليدخل المؤمنين والمؤمنات بتبعيتك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح:5] بستر ذنوبهم وبحطها عنهم، ويزكيهم عن أخلاقهم الذميمة كما فعل بك، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ﴾ [الفتح:5]، لهم ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:5]؛ إذ فازوا بالنعيم المقيم وجوار الله العظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: 6 – 9].

﴿وَيُعَذِّبَ الْـمُنَافِقِينَ وَالْـمُنَافِقَاتِ وَالْـمُشْرِكِينَ وَالْـمُشْرِكَاتِ﴾ [الفتح:6] بذل الحجاب وسوء العقاب في الدارين، ﴿الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح:6] في ذاته وصفاته بالأهواء والبدع، وفي أفعاله وأحكامه بالظلم والبعث، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:6]؛ أي: عاقبه بالمساءة فيما اعتقده ﴿وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:6]؛ وغضبه: إرادته العقوبة لهم في الآخرة، وكون الشرك والنفاق في الدنيا، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ [الفتح:6]، بعدهم من فضله حق فيهم كلمته، وسبقت من الله بالشقاوة قسمة، كما قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:6].

﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح:7]، به يشير إلى ما أعد الله من عظائم فضله، وعجائب صنعه في سماوات القلوب وأرض النفوس، يمد بها أولياءه وينصرهم

بها على أنفسهم؛ ليفوزوا بكمال قربه، ويخذل به أعداءه ويهلكهم في أودية الأهوية؛ ليصبروا إلى كمال بعده، ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ [الفتح:7] بذل أعدائه، ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح:7] فيما يعز أولياءه.

ثم أخبر عن سر الرسالة إلى أهل الضلالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الفتح:8]، يشير إلى أنه لما كان أول مخلوق خلقه الله تعالى كان شاهدًا بوحدانية الحق تعالى وربوبيته، وشاهدًا بما أخرج من العدم إلى الوجود من الأرواح والنفوس والأجرام والأركان والأجسام والمعادن والنبات والحيوان والملك والجن والشيطان والإنسان، وكل ما دب فيه روح؛ لئلا يشذ عنه مما يمكن للمخلوق دركه من أسرار أفعاله، وعجائب صنعه، وغرائب قدره بحيث لا يشاركه فيه غيره؛ ولهذا قال ﷺ: «علمت ما كان وما سيكون»[1]؛ لأنه شاهد الكل وما غاب لحظة، وشاهد خلق آدم ﷺ ولأجله قال ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد، أو كنت مخلوقًا وعالمًا بأني نبي وحكم لي بالنبوة وآدم بين أن يخلق له روح ثم يخلق له جسد ولم يخلق بعد»[2].

واحد منهما شاهد: وأما ما جرى عليه في امتناع السجود لآدم من: الإكرام، والإخراج من الجنة بسبب المخالفة، وما تاب الله عليه... إلى آخر ما جرى عليه.

وشاهد: خلق إبليس، وما جرى عليه من: امتناع السجود لآدم، والطرد واللعن بعد طول عبادته ووفور علمه بمخالفة أمر واحد، فحصل له بكل حادثة جرت على الأنبياء والرسل والأمم فهوم وعلوم، فلما تحصل لروحه ما أمكنه حصوله من كمال العلم، والحال لكمال الربوبية الإلهية في عالم الأرواح، أراد أن يزداد نورًا على نور، وأن يحصل كمالاً على كمال إنزال روحه في قالبه على وجه المعروف، بعدما شرفه وفضله أقصى ما يمكن من الإكرام، ثم رباه بلبان العناية في حجر الهداية، إلى أن أرسله إلى الأحمر والأسود ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ [الفتح:8]، يبشر أمته أن لهم في متابعة الرتبة المحجوبة، التي هي مخصوصة به من بين سائر الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - ﴿وَنَذِيرًا﴾[3] [الفتح:8]

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (8/ 6).

(2) تقدم تخريجه.

(3) قال البقلي: أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم،

لهم؛ لئلا ينقطعوا عنا شيئًا من الدارين.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ [الفتح:9] إيمانًا حقيقيًا يوجب صدق الطلب ﴿وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح:9]، إيمانًا يوجب متابعته بالشرط، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح:9] وتعينوه بصدق الطلب في المتابعة؛ لتبلغوا مقام المحبوبية، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:9]؛ أي: تعظموه؛ فإن بالتعبد أن يصل العبد إلى الجنة، وبالتعظيم يصل إلى الله، وتعظيم النبي ﷺ وتوقيره بإتباع سنته في الظاهر والباطن، والعلم بأنه زبدة الوجودات وخلاصتها، وهو المحبوب الأزلي وما سواه تبع له.

وبقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:9]، يشير إلى استغراق جميع الأوقات بالعبودية على وصف تنزيه الحق تعالى وغناه عن العالمين، ويرى العبد كل خير وطاعة يصدر منه أنه نعمة من نعيم ربه أنعم به عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: 10 - 11].

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] [الفتح:10]، يشير إلى كمال فناء

ومبشرًا يبشرهم بالوصال ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا من مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمحبين، يبشرهم بالوصال إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لئلا يميلوا إلى غيره.

قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأمناء؛ فإنك الأمين حق أمين.

(1) قال الإمام الحسين- عليه السلام-: أسقط الوسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها، وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

قال القاسم النصر آبادي في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة.

وجوده ﷺ في الله وبقائه بالله، فوقع بهذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ﴾ [الفتح:10]؛ أي: عقد هذه البيعة مع الله، ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:10] بالحرمان من هذه السعادة العظمى، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ﴾ [الفتح:10]، فكذلك صرح بهذا أنه جرت البيعة والمعاهدة مع الله، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:10]، بأن يرزقه عند الثبات على المتابعة.

ثم أخبر عن قول أهل اللسان بما ليس لهم في الجنان بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ..﴾ [الفتح:11] الآية، يشير إلى أن القلوب الغافلة عن الله يقولون أهلها بألسنتهم ما ليس له حقيقة ولا شعور لقلوبهم على حقيقة ما يقولون، فإنهم يقولون بالمجاز ويرون به معنى آخر كقوله: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:11]، ويريدون به اعتذارًا لتخلفهم؛ ولقولهم شغلتنا حقيقة، وذلك أن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن ذكر الله والائتمار بأوامره، وعن متابعة النبي ﷺ المأمورون، ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ [الفتح:11] وهو التخلف، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح:11] وهو الإتباع، ﴿بَلْ كَانَ اللهُ﴾ [الفتح: 11] في الأزل ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الفتح:11] اليوم، ولماذا تعملون بالصدق أو بالرياء، ﴿خَبِيرًا﴾ [الفتح:11] لا يخفى عليه شيء من الأزل إلى الأبد.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: 12 - 15].

وبقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح:12]، يشير إلى أن كل من خلق أن يصيبه في الغزو قتلًا و جراحة أو ما يكره من المصائب، ثم يتخلف عن الغزو فإنه من الهالكين، وقد استولى الشيطان على قلبه فزين في قلبه الحياة الدنيا؛ ليؤثرها على الحياة

الأخروية، التي وعدت الشهداء الدرجات العلا في الجنة والقربات في جوار الحق تعالى.

وبقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح:13]، يشير إلى أن سعير النفوس ونوران شعلة صفاتها اعتدناها مستولية على قلوب من لم يؤمن بالله ورسوله، فمن أطفأ سعير نفسه وشعلة صفاتها بماء الذكر وترك الشهوات يؤمن قلبه وينجو من سعير نفسه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح:14]؛ أي: ملك سماوات القلوب وأرض النفوس، ﴿يَغْفِرُ﴾ [الفتح:14] نفس ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح:14]، ويزكيها عن الصفات الذميمة، ويجعلها مطمئنة قابلة لجذبة: ﴿ارْجِعِي﴾ [الفجر:28]، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح:14] باستيلاء صفات النفس عليها وبقلبه، كما لم يؤمن به أبدًا ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ [الفتح:14] القلب من يشاء، ﴿رَحِيمًا﴾ [الفتح:14] لنفس من يشاء، يؤتي ملك نفس من يشاء لقلبه، وينزع ملك قلب من يشاء ويؤتي لنفسه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ [الفتح:15]؛ أي: النفس المتمردة ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح:15]؛ أي: إذا انطلقت القلوب المجذوبة إلى حضرة الربوبية ﴿إِلَى مَغَانِمَ﴾ [الفتح:15] مواهب الحق تعالى إلى مغانم؛ ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾ [الفتح:15]؛ أي: في حقهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53]، ﴿قُلْ﴾ [الفتح:15]، يا قلب السليم للنفس المتمردة، ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح:15] في طلب الحق تعالى، ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ﴾ [الفتح:15] النفوس، ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ [الفتح:15] أيها القلوب، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الفتح:15]؛ يعني: النفوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح:15]، وهو المتاع الدنيا؛ يعني: لا يتجاوز ميمّة النفوس عن المتاع الدنيوي القليل.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴿١٩﴾ [الفتح: 16 - 19].

ثم أخبر عن قتال ناس أولي بأس بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:16]، يشير إلى أن النفوس المتخلفة عن الطاعات والعبادات من الفرائض والنوافل لو دعيت إلى الجهاد في سبيل الله، والجهاد الأكبر وهو جهاد النفس والشيطان والدنيا، ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾ بنهي النفس عن الهوى وترك الدنيا وزينتها، فإذا أجابوا أو أطاعوا فقد استوجبوا الأجر الحسن، وذلك قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ [الفتح:16]؛ أي: إن أعرضتم عن الجهاد كما أعرضتم عن الطاعات والعبادات، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:16]، يتألمون به في الدنيا والآخرة.

وبقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:17]، يشير إلى أن أصحاب الأعذار من أرباب الطلب، فمن عرض له مانع يعجزه عن السير بلا عزيمة منه، وهمته في الطلب ورغبته في السير وتوجهه إلى الحق باقٍ فلا جرح عليه فيما يعتريه، فيكون أجره على الله، وذلك قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الفتح:17]؛ يعني: بقدر الاستطاعة ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ [الفتح:17]؛ يعني: يعرض عن الله وينقض عهد الطلب، ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 17].

وبقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:18]، يشير إلى أن الله تعالى بفضله وكرمه رضي عنهم أولاً؛ ليكونوا مؤمنين، ويبايعونك ثانيًا، ولولا سبقت رضاه لم يؤمنوا ولم يبايعوك، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:18] من الضعف والعجز الإنساني؛ ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:18]، إذا نظر إلى قلوبهم بنظر الرضاء، ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:18] من مغانم الدنيا والآخرة، وذلك قوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:19]، أعزهم بالمغانم في الدنيا والآخرة حكيمًا في جميع أفعاله مع عباده.

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ

﴿...كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ [الفتح: 20 - 23].

ثم أخبر عن وعد المغانم ونيل الغنائم بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح:20]، يشير إلى ما وعد الله عباده من المغانم الكثيرة بقوله:﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، يأخذونها كل واحد بحسب مطرح نظره وعلو همته، فمن كانت همته الدنيا تعجل لكم هذه، ومن كانت همته الآخرة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح:20]؛ أي: أيدي دواعي شهوات النفس عنكم؛ لتكونوا من أهل الجنة لقوله:﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41]، ولو وكلكم إلى أنفسكم لاتبعتم الشهوات؛ وهي: دركات الجحيم إذ حفت النار بالشهوات، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ [الفتح:20] في ترك الدنيا وشهوات النفس ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:20]، يهتدون بهديكم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:20] إلى حضرة الربوبية.

وذلك قوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح:21]؛ أي: أنتم تقدرون سلوك طريق الجنة على قدمي الإيمان والعمل الصالح، ولا يقدرون على سلوك طريق الوصول إلى الحضرة، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ [الفتح:21] بتجلي صفات جماله وجلاله، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الفتح:21] من أنواع التجلي بحسب استعداد كل طالب له، ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح:21] بأن يتجلى له، وهي المغانم الكثيرة على الحقيقة.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفتح:22] من نفوسكم المتمردة ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ [الفتح:22]؛ لأني ناصركم على قتال نفوسكم، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ﴾ [الفتح:22] من دوني ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح:22] ينصرهم.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:23]؛ يعني: في التقدير الأزلي ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:23] إلى الأبد، فإن المنصور من نصره الله وإن المقهور من قهره الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ...

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾ [الفتح: 24 - 25].

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ [الفتح:24]؛ أي: أيدي النفوس بالاستيلاء ﴿عَنكُمْ﴾ [الفتح:24]؛ أي: عن قلوبكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:24]، وهي مكة الروح في بطنه كعبة القلب، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: أيدي قلوبكم، ﴿عَنْهُم﴾ عن النفوس من أن تهلكها بالمجاهدة والرياضة، ﴿مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:24]؛ لأن الحكمة في جهاد النفس تزكيتها، والظفر بها لإهلاكها، فإنها مطية الروح ومشقها، بها يبلغ كعبة الوصال؛ ولهذا قيل لبعضهم: إلى متى ينتهي طلب الطالبين؟ قال: إلى الظفر بنفوسهم ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح:24]؛ أي: بما تعلمون في طلبه بالصدق بصيرًا بأن يهديكم إلى الحضرة، ويكف أيدي النفوس عنكم؛ لئلا يقطع الطريق عليكم.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفتح:25]؛ أي: النفوس المتمردة، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح:25]، وهي كعبة القلب، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح:25]، وهو كل ما يتقرب به إلى الله من النفس والمال ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح:25]، ومحله الصدق والإخلاص يعني: من خاصة النفس أن تصد وجه الطالب عن الله، وبنشوب الخيرات والصدقات التي يتقرب بها إلى الله بالرياء والسمعة والعجب؛ لئلا يبلغ محل الإخلاص والقبول.

وبقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾ [الفتح: 25]، يشير إلى بعض صفات النفس أنها قابلة للفيض الإلهي لم تعرفوا أحوالها، أن تقهروها لو سلطناكم عليها؛ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ [الفتح:25]، بإفساد استعدادها لقبول الفيض الإلهي، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح:25] منكم بما يفوتكم من إعوازها؛ ﴿لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الفتح:25] بالوصول إلى حضرته، ﴿مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح:25] من عباده على مطية النفس المطمئنة المظفرة بها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، فحقيقة معنى الآية: لولا هذه المصالح في استيفاء النفس بعد اطمئنانها وتزكية صفاتها، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ [الفتح:25] تميزوا عند التزكية، ما منها صفة لا تصلح في استيفاء النفس بعد اطمئنانها إلا قلعها، كالكبر والشدة والحسد والحقد، ومنها

ما تصلح للتبديل: كالبخل بالسخاوة، والحرص بالقناعة، والغضب بالحلم، والجبانة بالشجاعة، والشهوة بالمحبة؛ ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ [الفتح:25] من النفوس المتمردة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:25] للهلاك.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 26 - 27].

ثم أخبر عن الحمية الجاهلية بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:26]، يشير إلى أن خاصية أهل الخذلان، فإنه تعالى إذا أخذل أحد وكله إلى نفسه، فنفسه الأمارة بالسوء تأمره بالفواحش والأخلاق الذميمة إلى أن يتعدى إلى قلبه، والقلب يتصف بصفات النفس، فالحمية الجاهلية هي: أنفة النفس تعدت إلى قلوب أهل الخذلان.

ثم أخبر عن أهل العناية بقوله: ﴿فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:26]، وهي نور نظر العناية إلى قلوب أهل العناية، ومن نتائج النظر ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح:26]، وهي كلمة لا إله إلا الله إلزام إكرام، ولطف بأن حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم حتى اتقوا بوحدانيته عما سواه، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:26] مع جميع الأمم؛ لأن النبي ﷺ كان خلاصة الموجودات وأصلها، وهو الحبيب الذي خلقت الموجودات بتبعيته، والكلمة هي صورة الجذبة التي توصل الحبيب بالحبيب والمحب بالمحبوب، فهي بالنبي أحب؛ لأنه هو الحبيب لتوسله إلى حبيبه، وأمته أحق بها من الأمم؛ لأنهم المحبون لتوصل المحب بالمحبوب، وهم أهلها لأن أهل هذه الكلمة من يفدي بذاته وصفاته من حقيقة الكلمة، فينتفي بنفيها عن ذاته وصفاته، ويبقى بإثباتها معها بلا أنانية، وما بلغ هذا المبلغ بالكمال إلا النبي ﷺ، فيقول: «أما أنا فلا أقول أنا

وأمتي»[1]؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110]، ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:26] في الأزل فينا وجود كل إنسان على ما هو أهله، فمنهم: أهل الدنيا، ومنهم: أهل الآخرة، ومنهم: أهل الله وخاصته.

وبقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[2] [الفتح:27]، امتحن المؤمن والمنافق بهذه الرؤيا؛ إذ لم يتعين وقت دخولهم فيه، فأخر الدخول تلك السنة، فهلك المنافقون بتكذيب النبي ﷺ فيما وعدهم بدخول المسجد الحرام، وازداد كفرهم ونفاقهم، وازداد إيمان المؤمنين بتصديق النبي ﷺ مع إيمانهم، وانتظروا صدق رؤياه فصدق الله ورسوله الرؤيا بالحق، فهلك من هلك عن بينة وحيي من حيي عن بينة ولذلك قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يعني: من تربية نفاق أهل النفاق وتقوية إيمان أهل الإيمان ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ من فتوح الظاهر والباطن.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ [الفتح:28] أي: بما يهدي إلى الله ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: دينًا كاملاً وغلا كل دين حق فأما الدين الكامل في الحقيقة فدين أُرسل به

(1) تقدم بنحوه.

(2) إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستثار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوحدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستثار بورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة.

سئل ابن عبد الله: ما هذا الاستثار من الله؟ قال: تأكيدًا في الافتقار إليه، وتأديبًا لعباده في كل حال ووقت تنبيهًا أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

محمد ﷺ وهو دعوته إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:47].

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح:28]، يشير إلى هذا المعنى أي: كان دعوة كل نبي إلى الجنة وبهذا يقدمون أممهم فأظهره بالدعوة إلى الله على الدين كله ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:28]، على حقيقة هذا المعنى؛ لأن العقول تحير عن إدراك هذا المعنى.

ثم خص النبي ﷺ والذين معه بالتدين بهذا الدين لنيل هذه الرتبة العظمى بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[1] [الفتح:29]، كفار النفوس في إفنائها أشد مما كانت الأمم عليها ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]، في التودد والتحاب في الله والتعاون في طلب الله، كما هو سنة مشايخ هذه الأمة خلفًا عن سلف في تسليك المريدين الذين يريدون وجهه ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:29]؛ أي: قصدهم في الطاعة والعبادة الوصول والوصال وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح:29]، سيمات المحبين ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:29]، فإنهم لا يسجدون لشيء من الدنيا والعقبى إلا الله مخلصين له الدين ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي: ضرب الله بهذا المعنى مثلهم في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: مثل طلاب الحق تعالى كمثل زرع أي: كنبات مثمرة أخرج فراخه ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ حتى استعد لحمل الثمرة ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ أي: أثمر ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: الطلاب ثمرة شجرة وجوده وهي قول بعضهم أنا الحق وقول بعضهم سبحاني ما

---

(1) اعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدوركم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية حوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

أعظم شأني ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ كفار النفوس لأن شجرتهم غير مثمرة معدة لنار جحيم القطيعة ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الفتح:29]، إيمان الطلب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الفتح:29] في السلوك والسير إلى الله ﴿مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [الفتح:29] وهي ستر أوصافهم بتجلي صفاته، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:29]، وهو يتجلى لهم بذاته وصفاته العظمى؛ فإن العظيم الحقيقي هو الله، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأن كل مؤمن ليس موعودًا بهذا الوعد إلا خواص أهل الجنة.

سورة الحجرات
مدنية وهي ثمان عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4)﴾ [الحجرات: 1 – 4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]، يشير إلى شهادة المنادي بالشرف: لا تقدموا أمر عمل المكلف قدم الإكرام بالشرف على إلزام الكلف؛ أي: لا تقدموا حكمكم برأيكم وعقلكم بين يدي الله ورسوله؛ أي: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله، ولا تعملوا في أمر الدين من ذات أنفسكم شيئًا، وقفوا حيثما وقفتم، وافعلوا ما به أمرتم؛ أي: اعملوا بالشرع لا بالطبع في طلب الحق، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع لا أرباب الابتداء والابتداع.

وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[1] [الحجرات: 2]، يشير إلى أنه من شرط المؤمن ألَّا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأي النبي ﷺ والشيخ، ويكون مستسلمًا لما فيه مصلحته، ويحفظ الأدب في خدمته وصحبته، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: 2]؛ أي: لا

---

(1) أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد، فخوفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم.

وقال ابن عجيبة: شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه صوته ﷺ، بل يكون كلامه عالياً لكلامكم ، وجهره باهراً لجهركم ، حتى تكون مزيّته عليكم لائحةً ، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (6/ 101).

تخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، ولا تنظروا إليه بالعين التي تنظرون إلى أمثالكم، وأنه بحسن خلقه يلاينكم، ولا تنبسطوا معه متجاسرين بما يعاشركم به من تخلقه، ولا تبدؤه بحديث حتى يفاتحكم، ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات:2] بسوء الأدب وترك الحرمة، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:2] لا تقفون عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ [الحجرات:3] وعند شيخه، وهم الذين تقع عليهم السكينة من هيبة حضرته وولايته، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:3]، انتزع عنها حب الشهوات وصفاتها عن دنس سوء الأخلاق وتحليها بمكارمها، حتى انسلخوا عن عادات البشرية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [الحجرات:3]، بأنوار صفات الحق تعالى، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:3] بتجلي صفة العظمة.

ثم أخبر عن سوء أدب بعض العرب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات:4]، يشير إلى أنهم إنما ينادونك؛ لأنهم من وراء الحجبات يرونك فلا يعرفون قدرك، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:4]؛ أي: مالهم به عقل يعرفون قدرك، ولو عرفوا قدرك لما تركوا حرمتك ولا التزموا هيبتك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾ [الحجرات: 5 – 8].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 5] من استعجالهم بالمنارات حتى أيقظوك وقت القيلولة من سوء أدبهم، فأما أصحاب رسول الله ﷺ الذين عرفوا قدره، فكانوا كما في الخبر «يقرعون بابه بالأظافير»[1].

وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات:6]، يشير إلى

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (14/ 56).

تسويلات النفس الفاسقة الأمارة بالسوء، ومجيئها كل ساعة بنبأ شهوات الدنيا؛ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:6] ربحها وخسرانها من قبل ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ [الحجرات:6]، من القلوب وصفاتها ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات:6]؛ فإن ما فيه شفاء النفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها، ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ [الحجرات:6] صباح القيامة، وأنتم ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:6]، وفيه أيضًا إشارة إلى ترك الاستماع إلى كلام الساعي والنمام والمغتاب للناس، والآية تدل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً، والفاسق الخارج من طريق الحق وصراط الطلب.

وبقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ [الحجرات:7]، يشير إلى رسول الإلهام الرباني ﷺ في أنفسكم يلهمكم فجور نفسكم وتقواها، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ [الحجرات:7]، أمر النفس الأمارة؛ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:7] لوقعتم في الهلاك، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ [الحجرات:7] بالإلهامات الربانية، ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:7] بقلم الكرم، ﴿وَكَرَّهَ﴾ [الحجرات:7] بنور نظر العناية ﴿إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ [الحجرات:7]، وهو ستر الحق والخروج إلى الباطل، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:7] هو الإعراض عن طلب الحق، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:7] إلى الحق بإرشاد الحق.

﴿فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:8]، منه وينعم به على من يشاء من عباده ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:8] بأحوال عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:8] فيما يفعل بهم.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: 9 - 11].

ثم أخبر عن أحوال أهل القتال بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[1] [الحجرات:9]، يشير إلى أن المؤمن لا يخرج بالفسق عن الإيمان؛ لأن إحدى الطائفتين لا محالة فاسق إذا اقتتلتا وسماهما مؤمنين.

ويشير أيضًا إلى: أن الإصلاح بين المسلمين إذا تفاسدوا من أعظم الطلبات، وأتم القربات.

ويشير أيضًا إلى: وجود نصرة المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات:9].

ويشير أيضًا إلى: أن النفس إذا أظلمت على القلب باستيفاء شهواتها واستعلائها في فسادها، يجب أن يقاتل حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة، فإن استجابت بالطاعة فيعفي عنها؛ لأنها هي المطية إلى باب الله، ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات:9] بين القلب والنفس؛ لئلا يظلم القلب على النفس، كما لا تظلم النفس على القلب؛ لأن لنفسك عليك حقًا، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:9]؛ أي: يؤدون إلى كل ذي حق حقه.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:10]، اعلم أن أخوة النسب إنما تثبت إذا كان منشأ النطف صلبًا واحدًا، فكذلك أخوة الدين منشأ نطفها صلب النبوة، وحقيقة نطفها نور الله فإصلاح ذات بينهم يرفع حجب أستار البشرية عن وجود القلوب؛ ليتصل النور بالنور من روزنة القلب؛ ليصيروا كنفس واحدة، كما قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة إذا اشتكى عضو واحد تداعى سائر الجسد بالحمى

---

(1) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينها؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

والسهر»[1]، فأما شرط الأخوة فمن حق الأخوة في الدين أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وسترك ما ستره، وألَّا يحوجه إلى الاستعانة بك والاستعانة تعيده، وتنصره ظالمًا ومظلومًا، فمنعك إياه عن الظلم فذلك نصرك إياه، وألا تقصر في تفقد أحواله؛ بحيث يشكل عليك موضع حاجته، فيحتاج إلى مسألتك، ومن حقه ألَّا تلجئه إلى الاعتذار بل تبسط عذره، فإن أشكل عليك وجهه عدت باللائمة على نفسك فى خفاء عذره، وتتوب عنه إذا أذنب وتعوده إذا مرض، وإذا أشار إليك بشيء فلا تطالبه بالدليل وإيراد الحجة، كما قالوا:

لا يَسألونَ أخاهُم حينَ يَندُبُهم ... في النائِباتِ عَلى ما قالَ بُرهانا

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو ... لأية حرب أم لأي مكانا

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الحجرات:10] في إخوتكم في الدين، بحفظ عهودهم ورعاية حقوقهم في المشهد والمغيب والحياة والممات، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:10]، كما ترحمون.

ثم أخبر عن قوم يسخرون بمن يسخرون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات:11]، يشير إلى أنه لا عبرة بظاهر الخلق، فلا ينظرون إلى أحد بنظر الازدراء والاستهانة والاستخفاف والاستحقار؛ ولأن في استحقار أخيك عجب نفسك مودع، كما نظر إبليس بنظر الحقارة إلى آدم عليه السلام، فأعجب بنفسه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12]، فلعن إلى الأبد لهذا المعنى فمن حقر أخاه المسلم، أو ظن أنه خير منه يكون إبليس وفيُّه، وفيه إشارة إلى أهل المحبة وأرباب السلوك، فإنهم مخصوصون بهذا الاسم، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]؛ يعني: لا ينظر المنتهى من أرباب الطلب بنظر الحقارة إلى المبتدئ والمتوسط، ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، فإن الأمور بخواتيمها؛ ولهذا قال: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[2]، وقال ﷺ: «ربَّ أشعث

---

(1) رواه بنحوه البخاري (5/ 2238، رقم 5665). وأخرجه أيضًا: أحمد (4/ 268، رقم 18381)، والطبراني في الشاميين (1/ 293، رقم 512)، والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 102، رقم 7609).

(2) ذكره حقي في تفسيره (9/ 279).

أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»[1]، وبالنساء يشير إلى عوام المسلمين؛ لأنه تعالى يعبره عن الخواص بالرجال لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: 37].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات: ١٢ - ١٣].

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: 12]، ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11] إلى هذا المعنى يشير.

ثم يقول: كان للملائكة شركة مع إبليس في قولهم لآدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ [البقرة: 30]، كان في نظرهم إليه بالحقارة إعجاب أنفسهم مودعًا، ولكن الملائكة لم يصروا على ذلك الإعجاب، وتابوا إلى الله ورجعوا مما قالوا، فعالجهم الله بإسجادهم لآدم ﷺ؛ لأن في السجود غاية الهوان والذلة للساجد، وغاية العظمة والعزة للمسجود، فلما كان في تحقير آدم هوانه وذله وعزة الملائكة وعظمتهم فأمرهم بالسجود؛ لأن العلاج بأضدادها فزال عنهم علة العجب، وقد أصر إبليس على قوله وفعله، ولم يتب فأهلكه الله بالطرد واللعنة، فكذلك حال من ينظر إلى أخيه المسلم بنظر الحقارة، ولا ينتهي عما نهاه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأن المؤمنين أنفسهم واحدة إن عملوا شرًا إلى أحد؛ فقد عملوا إلى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ....﴾ [الإسراء: 7] الآية.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: 11]؛ أي: بألقاب فيها شين لدينهم، ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11]؛ أي: اسم يخرجهم من الإيمان، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ [الحجرات: 11]؛ يعني: من مقالة إبليس وفعاله بأن ينظر إلى نفسه بالعجب وإلى غيره بالحقارة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، فيكونوا منخرطين في سلك

(1) أخرجه أحمد (5/ 407، رقم 23504).

اللعنة والطرد مع إبليس، كما قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:18].

ثم أخبر عن الاجتناب عن قومه من الظن بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات:12]، وتمامها ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:12].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات:13]، يشير إلى خلق القلوب إنما خلقت من: ذكر وهو الروح، وأنثى وهي النفس، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات:13]؛ أي: جعلناها صنفين: صنف منها شعوبًا وهي التي تميل إلى أمها، وهي النفس والغالب عليها صفات النفس، وصنف منها قبائل وهي التي تميل إلى أبيها، وهو الروح والغالب عليها صفات الروح؛ ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:13] أصحاب القلوب وأرباب النفوس، لا ليتكاثروا ويتنافسوا ويتشابهوا بالعقول والأخلاق الروحانية الطبيعية، فإنها ظلمانية لا يصلح شيء منها للتفاخر به ما لم يقرن به الإيمان والتقوى، فإن تنورت الأفعال والأخلاق والأحوال بنور الإيمان والتقوى، ولم تكن الأفعال منسوبة بالرياء، ولا الأخلاق مصحوبة بالأهواء، ولا الأحوال منسوبة إلى الإعجاب؛ فعند ذلك تصلح للتفاخر والمباهات بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]، وقال ﷺ: «الكرم التقوى»[1]، وأتقاهم من يكون أبعدهم من الأخلاق الإنسانية وأقربهم إلى الأخلاق الربانية والتقوى التحرز، والمتقي من يتحرز عن نفسه بربه، وهو الذي أكرم على الله من غيره.

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: 14 - 15].

وبقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:14]،

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (6/ 352) رقم 7922.

يشير إلى أن حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان بل هو نور يدخل القلب إذا شرح صدر العبد للإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وقال ﷺ في صفة ذلك النور: «إن النور إذا وقع في القلب انفسح له واتسع» قالوا: يا رسول الله هل لذلك النور من علامة يعرف بها؟ قال: «بلى التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، فهذا دليل على أن محل الإيمان القلب.

واعلم أن الإيمان حياة القلب ولهذا سمى الله تعالى من لا إيمان له بالميت بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:80]، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفوس.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحجرات:14] في الأوامر والنواهي، فقد ذبحتم النفوس بسيف الصدق، ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات:14] في ذبح النفوس ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [الحجرات:14]، لمن يهادن النفس في أثناء السلوك؛ لترعى في بعض مراتعها لئلا تزاحم القلب في طلب مقاصده، ﴿رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:14] به.

ثم أخبر عن المؤمن الحقيقي بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:15]؛ أي: شاهدوا الله بنور الله فآمنوا برسوله، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:15]، لم يشكوا فيما شاهدوا بنور الله؛ إذ لم تحجبهم أنفسهم وأموالهم عن نور الله؛ لأنهم خرجوا من حجب النفس والمال، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحجرات:15] ببذلها في طلب الله، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:15]، الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، فلما جعل الإيمان مشروطًا ببذل المال والنفس، فذكر بلفظ إنما وهي التحقيق يقتضي الطرد والعكس، فمن أفرد الإيمان عن الشرائط التي جعلها له فمردود عليه قوله.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٦ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

(1) رواه بنحوه الطبراني (8/ 314، رقم 8174)، والحاكم (4/ 347، رقم 7868)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 352، رقم 10551). وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (3/ 36، رقم 1323)، والديلمي (5/ 405، رقم 8565).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: 16 - 18].

وبقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات:16]، يشير إلى أن التوفيق في الأمور الدنيا وحقيقتها معتبر واجب وموكولة إلى الله؛ فالأسامي منه توجد والأحكام منه تطلب وأمره يتبع، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الحجرات:16] سماوات القلوب من استعدادها في العبودية، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجرات:16] أرض النفوس من تمردها عن العبودية، ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الحجرات:16] جبلت القلوب والنفوس عليه ﴿عَلِيم﴾ [الحجرات:16]؛ لأنه تعالى أودعه فيها عند تخمير طينة آدم بيده.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات:17]؛ أي: استسلم لك ظاهرهم، ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ [الحجرات:17]؛ أي: تسليم ظاهركم لي؛ لأنه ليس هذا من طبيعة نفوسكم المتمردة، ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:17]، إذا كتب في قلوبكم الإيمان؛ فانعكس نور الإيمان من مصباح قلوبكم إلى مشكاة نفوسكم، فتنورت واستضاءت بنور الإسلام، فإسلامكم في الظاهر من فرع الإيمان الذي أودعت في باطنكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:17] في دعوى الإيمان.

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الحجرات:18]؛ أي: ما غاب عن سموات القلوب وما حضرها، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الحجرات:18] ما غاب عن أرض النفوس وما حضرها، ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:18] في الظاهر أنه من نتائج ما أودعته في باطنهم، فمن لاحظ شيئًا من أعماله وأحواله، فإن رآها من نفسه كان شركًا، وإن رآها لنفسه كان مكرًا، وإن رآها من ربه لربه كان توحيدًا، وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه وجوده.

سورة ق

مكية خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: 1 - 7].

﴿ق﴾[1] [ق:1]، يشير إلى أن لكل سالك من السائرين إلى الله ﷻ إلى الله مقامات

---

(1) قال سيدي محمد البيطار: ـ رحمه الله ـ أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يُتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الأخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ -

ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلمّا قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؟ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامكم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشخص معين يسمي محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أفلا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلابد أن تجري العادة كما كانت، أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد؛ لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سرى فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يُحْيي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل ﷺ فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحييهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق،

في القرب، لما بلغ كل سالك إلى مقامه المقدر له يشار إليه بقوله: قاف، أو قف مكانك ولا تجاوز حدك؛ وهي: جواب القسم لقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] [ق:1]، مجازه قف، فإن

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿بِأَيَّىٰمِ وَذَكِّرْهُم ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17،18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بوَادِي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن.

(1) الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث

هذا مقامك والقرآن المجيد فلا تجاوز عنه.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ [ق:2]، الذين حرموا عن رشاش النور يوم رش عليهم من نور ربهم، فإنهم كانوا ممن أخطأهم النور، ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]؛ وذلك لأنهم لم يكونوا من السالكين السائرين إلى الله، فيعجبون من مجيء المنذر لينذرهم يوم الرشاش، ولم يتعجب من مجيء المنذر من كان له شركة معه في إصابة الرشاش؛ لأنهم عرفوه بنور الرشاش، كما قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»[1]، فلما كان الكفار بمعزل من ذلك النور، فمن عمى قلوبهم ما رأوا الآخرة وما آمنوا بالبعث، وقالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق:3]، فبعث ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:3] عن العقول.

وبقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:4]، يشير إلى أن علمنا الأزلي محيط بما يجري من الأزل إلى الأبد، وبما ينقص من أجزاء كل إنسان بعد موته من الأركان

الربوبية، وحرف القاف كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرَّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرِّبهم مني حتى يشتاقوا إليَّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويقفوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب. [العرائس].

(1) تقدم تخريجه.

الأربعة، فجزء كل عنصر منه يرجع إلى كله بإذن الله، فإذا أراد الله أن يحيي شخصًا يأمر كل عنصر ليرد جزء أحد منه إلى شخص هو منه، ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:4]، يحفظ كل ذرة من ذرات الموجودات؛ لئلا يضيع إلى أن خاطبناه بردها إلى مكانها.

﴿بَلْ﴾ [ق:5] الكافرين الذين بمعزل عن نور الإيمان، ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق:5] من عمى قلوبهم، ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:5] من غلبات آفات الحس والوهم والخيال على عقولهم؛ فلا يهتدون إلى الحق، ولو لم نعم قلوبهم.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ [ق:6]، سماء قلوبهم ﴿فَوْقَهُمْ﴾ [ق:6]، فوق نفوسهم ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق:6] طبقات مختلفة، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق:6] بكواكب المعارف، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:6] بين أطباقها.

﴿وَالْأَرْضَ﴾ [ق:7] أرض النفوس، ﴿مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [ق:7] من أوصاف البشرية، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ [ق:7] من الذكور والإناث، ﴿بَهِيجٍ﴾ [ق:7] به أولو الألباب.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: 8 - 15]

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [ق:8]؛ أي: مبصرًا ومذكرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ [ق:8] لا يعبد إلا ربه، ﴿مُّنِيبٍ﴾[1] [ق:8] لا يرجع إلا إليه.

(1) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله: فيعتبر، ويعلم أن مَن قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمَزق، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (5/ 126).

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [ق:9] سماء الأرواح، ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق:9] ماء الفيض الإلهي؛ ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [ق:9] القلوب، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:9]؛ وهو: حب المحبة يحصد محبة ما سوى إليه من القلوب.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق:10] وهي شجرة التوحيد، ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق:10] من أنواع المعارف؛ ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق:11] الذين يبيتون عند ربهم يطعمهم ويسقيهم، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ [ق:11]؛ أي: بماء الفيض ﴿بَلْدَةً﴾ [ق:11]؛ أي: بلدة القلب ﴿مَيْتًا﴾ [ق:11] من نور الله، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا....﴾ [الأنعام:122] الآية، ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:11] من ظلمات الوجود إلى نور واجب الوجود؛ فافهم جدًا.

ثم أخبر عن المكذبين للأنبياء والمرسلين بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق:12]، ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق:13]، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:14]، يشير إلى أن عموم أهل كل زمان الغالب عليهم الهوى والطبيعة الحيوانية أهل الحس، نفوسهم المتمردة بعيدة عن الحق قريبة إلى الباطل، كلما جاء إليهم رسول كذبوه وعلى ما جاء به قاتلوه؛ فحق عليهم عذاب ربهم لما كفروا بأنعم الله، فما أعياه إهلاكهم.

ثم قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق:15]، أو اعتياض علينا فعل كل شيء حتى نعي بالبعث أو يشق علينا البعث؛ أي: ليس كذلك، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:15]، ومن كمال قدرتنا على قانون حكمتنا ووفق إرادتنا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)﴾ [ق: 16 - 23].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ﴾ [ق:16] قبل خلقه، مثل بعد خلقه ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:16] من شهوات بطلب استيفائها، وتصنع مع الخلق، أو سوء خلق، أو

اعتقاد فاسد، وغير ذلك من أوصاف النفس، يوسوس بذلك ليشوش عليه قلبه ووقته، وكيف لا يعلم وكل ذلك مما خلقناه فيه وقدرنا له فعله؟! ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16]، أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، يشير به إلى أنه تعالى أقرب إلى العبد من نفس العبد إلى العبد، فكما أنه كل وقت يطلب نفسه يجدها؛ لأنها قريبة منه، فكذلك كل وقت طلب الله وجده؛ لأنه قريب منه، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:186]، وقال: «ألا من طلبني وجدني»[1].

وبقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْـمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:17]، يشير إلى أن من لم يعرف قدر قربي إليه، ويكون بعيدًا مني بخصاله الذميمة وأفعاله الردية، ولم يرضَ بأني أكون رقيبه.

وأوكل عليه رقيبين ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18]، يكتب بقلم حركاته ومداد لدنيته على صحيفة قلبه، فإن كانت حركاته شرعية ملكية ونيته خالصة ربانية؛ فتجيء كتابته نورانية روحانية، وإن كانت حركاته طبيعية حيوانية ونيته هوائية شهوانية؛ فتجيء كتابته ظلمانية نفسانية، فمن هاهنا تبيض وجوه وتسود وجوه.

وفيه أيضًا إشارة إلى كمال عنايته في حق عباده؛ إذ جعل على كل واحد رقيبين من الملائكة المقربين؛ ليحفظوه بالليل والنهار إذا كان ماشياً فواحد بين يديه وواحد خلفه، ويقال: هما اثنان بالليل لكل أحد واثنان بالنهار، ويقال: بل الذي يكتب الخيرات كل يوم آخر، والذي يكتب الشر والذلة كل يوم هو الذي كان بالأمس؛ لتكثر شهود الطاعة غدًا ويقل شهود المعصية، وبقاء الذي يكتب المعصية كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران؛ لئلا يعلم في مساوئك إلا القليل منهم، فيكون علم المعاصي متفرقًا فيهم.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْـمَوْتِ بِالْـحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:19]، إذا أشرقت النفس على الخروج من الدنيا، فأحوالهم تختلف؛ فمنهم: من يزداد في ذلك الوقت خوفه ولا تتبين إلا عند ذهاب الروح حاله، ومنهم: من يكاشف قبل خروجه، فيسكن روعه ويحفظ عليه قلبه، ويتم له حضوره وتميزه؛ فيسلم الروح على مهل من غير استكراه

(1) تقدم تخريجه.

وعبوس، ومنهم: وفي معناه يقول بعضهم:

أنـا إن مـت فالهـوى حـشو قلبـي وبـداء الهـوى يمـوت الكـرام

ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق:20]، لكل نفس أوعدها الله بحسب سيرها من أول الفطرة إلى يوم البعث، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:21]؛ أي: الذي ساقها من مبدأ الوجود أما سوقًا باللطف وأما سوقًا بالبيت قوله: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي ولا أبالي»[1] شهيد من شواهد الحق؛

---

(1) قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ﴾ أي: عن ذاتك، وهو الصورة، وبكشف هذا الغطاء تدرك حقيقة الغطاء، وإنه عين الذات؛ إذ لا غطاء للذات إلا عين الذات، جلّت الذات أن يسترها شيء غيرها، فسبحان الذي ما أبطنه إلا ظهوره، وما ظهر إلا الصورة، فالصورة عين الباطن المستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء:45] أي: الصورة المحمدية التي هي عين غيب الحقيقة ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:45].

فالحجاب المستور عين الصورة المحمدية؛ إذ هي حقيقة الحق ولا يعرفونه، فليس هذا الحجاب ساترًا بل هو مستور عنهم، فالحجاب عين المحجوب، فهو مستور مع أنه مكشوف، فما حجبه إلا كشفه فعلمنا أن الغطاء ليس إلا الجهل، لا أنه من قبيل القشر على اللب أو من قبيل الساتر على المستور، بل أن المستور بنفسه هو الساتر، فهذا الكشف كشف معنوي لا حسي، وإنما هو كشف الجهل بالعلم، والجهل ظلمة معنوية، والعلم نور معنوي أيضًا، فمن كشف له غطاء ذاته فأبصر ذاته وأدركها أدرك أنها جميع ما يراه في آخرته، فكان بصره حديدًا، أي: قويًا؛ لأن بصره حينئذ هو الله تعالى، فالبصر عين المبصر، كما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وإذا كان الحق بصره فهو القوي؛ إذ لا أقوى منه جلّ وعلا.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بأن محمدًا ﷺ هو الاسم الأخر لله من جهة صورته، كما أنه الاسم الأول لله من جهة حقيقته ومعناه، فجعل الله بينه وبينهم حجابًا مستورًا، والحجاب المستور هو الرسول محمد ﷺ بعينه، فهو مكشوف لهم مع أنه مستور عنهم بلا ستر، فهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي صورته الكريمة مع أنها هي الحق الناطق بالقرآن، وأن الكلام الظاهر من تلك الصورة هو كلام الله بعينه، وقد أعلمهم الله بحقيقة الأمر لو علموا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10]، وقد أخبرهم الله أن الكلام الظاهر منه هو كلام الله بعينه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:6] أي: حتى يسمع كلام الله من صورة الله، فيعلمون أن الله هو الظاهر المتكلم بكلام نفسه في صورة تسمى محمدًا ﷺ وهي آخرة الله تعالى؛ لأنها محل اسمه (الآخر) المنطوي فيه الأول، فالحجاب المستور الذي جعله الله بينه وبينهم حين يقرأ عليهم القرآن هو محمد ﷺ بعينه، فهو حجاب

-

ليجري عليها من الأحكام الأزلية.

ويقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] [ق:22].

الله وليس حجاب الله إلا هو؛ لأنه الأول الآخر الظاهر الباطن، فقدم الظاهر على الباطن ليكون هذا الظاهر هو الموصوف بالبطون، فإذن لا بطون، فالحجاب المستور عين المحجوب وعين الساتر، فلا حجاب ولا محجوب ولا ساتر ولا مستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام:25]، الضمير في قوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ راجع للحجاب المستور، فلو فقهوه لعلموا أن الداعي - وهو الحق تعالى - ما دعاهم إليه إلا بنفسه بلا واسطة، فإذن لا رسالة بل الأمر أصالة، فما كان رسوله إليهم إلا عينه لا سواه، فمن لم يؤمن بآية المبايعة صراحة على ظاهرها بدون تأويل وحيادة عن اللفظ الظاهر فليس عندنا من الذين يؤمنون بالآخرة ولو سميناه مسلمًا؛ إذ ليس كل مسلم بمؤمن حق الإيمان، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]. فالإيمان متعلقه القلب، والإسلام متعلقه اللسان، وكذلك نقول: طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها بلا واسطة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80]، ولا يقال: يلزم من ذلك التشبيه والتجسيم؛ لأننا نقول: ليس عندنا مشبه ومشبه به، ولا حجاب جسمي، فإن الحجاب الجسمي إنما هو من الوهم فقط بسبب تقيد البصر بالأوهام.

ألا ترى أن بصر أهل الله لا تحجبه الجدران، ولا بعد البلدان، بل الكون كله مكشوف لهم كأنه ذرة في كفهم، حتى قال بعضهم: لو دبّت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم أعلم بها لقلت إني مخدوع، ومن تحقق بحقيقة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:35].

فقد انفك عن قيد الجسمانية، وتحقق بالحقائق الروحانية، ثم يترقى إلى المعاني القدسية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فيكون الكثيف عنده عين اللطيف، بل يرى الوجود كله عينًا واحدة، فيتحقق أن الأمر الواحد يظهر بعدة صور، كالقبر مثلاً فإنه عند البعض حفرة تراب، وعند الشقي حفرة نار، وعند السعيد روضة من رياض الجنة، وقد صح في الحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي رواية: «ما بين قبري ومنبري» وقد صح أيضًا: «منبري على حوضي» مع أنه عندنا على الأرض، وبالجملة فمن كُشف غطاؤه خرق له حجاب الزمان، وبعث ودخل الجنان، ومن لم يكشف غطاؤه فهو محبوس في قفص التراب، مشغول بمشاهدة العذاب.

أقول: من كشف عنه الغطاء علم يقينًا أن الذات المحمدية - عليها صلوات الله وسلامه - أحق وأولى باسم الله الجامع من اسم محمد أو أحمد أو محمود؛ لأن التسمية لها بالاسم الله تسمية إلهية قرآنية لم يشبها ولم يخالطها كون من الأكوان، فهي منزلة في القرآن من الكريم المنان، وذلك محقق عند أهل الإيمان.

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمه الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة

الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يُتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الآخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، لظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلمّا قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من

صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلابد أن تجري العادة كما كانت، أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد؛ لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخَلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سرى فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يُحْيِي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل ﷺ فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحييهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم

يشير إلى أن الإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة، فالغالب عليه في البداية الشهادة وهي العالم الحسي، فيرى بالحواس الظاهرة عالم المحسوس مع اختلاف أجناسه، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب، فمن الناس: من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته؛ فيجعل بصره حديدًا، يبصر رشده ويحذر شره لهم المؤمنون من أهل السعادة.

ومنهم: من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته يوم القيامة، يوم ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ...﴾ [الأنعام:158] الآية، وهم الكفار من أهل الشقاوة ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ [ق:23] وهو سائقه، ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:23]، معد لك في الأزل.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)﴾ [ق: 24 - 31].

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق:24] يا سائق ويا شهيد، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:24]، كل من طبع على الكفر والعناد، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق:25]؛ إذ طبع على الشر، ﴿مُعْتَدٍ﴾ [ق:

وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:18،17]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنْبَاتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بوَادِي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن. [كشف الواردات الإلهية].

25] في الظلم، ﴿مُّرِيبٍ﴾ [ق:25] في الدين، ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [ق:26] من الهوى والدنيا، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق:26]، وهو طلب الدنيا بالحرص والغفلة.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ [ق:27] وهو الروح العلوي، فإنه قرين نفسي السفلية: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾[ق:27]، فإنه ليس إلا طغاء وإلا غواء من شأني، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:27]؛ أي: طبعت النفس على الضلالة، كما قال: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53].

﴿قَالَ﴾ [ق:28] الله تعالى: ﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:28]، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29]؛ إذ قلت: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»(1)، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:29]، بأن أرسل أهل الجنة إلى النار أو

(1) اعلم - رحمك الله - أن الخوف من مقامات الرجال قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه» وفي الحديث أيضًا: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ولخرجتم إلى الصُّعُدات تلدمون صدوركم»" والصُّعدات بضم الصاد والعين مفرد، وصعيد يطلق على التراب، وعلى وجه الأرض، وعلى الطريق، وعلى القبر، والمراد هنا: لخرجتم إلى الطرق أو إلى المقابر تلدِمون صدوركم بكسر الدال، أي تلطمون صدوركم، واعلم أن الخوف على قسمين: خوف العباد وهو من نار جهنم، وخوف العارفين وهو خوف الإجلال .. ومن هذا المعنى خوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكمل الأولياء، وهذا الخوف لا يمنعهم أن ينفعوا عباد الله، وأن يُمدُّوهم بالنفحات الإلهية والأدعية والنصائح الشرعية، وأما أرباب العبادة فقد غلب الخوف عليهم بحيث لو قلت لأحدهم: المدد يا سيدي، يقول: النجس لا يطهر غيره، وليس هذا بخوف العارفين.

واعلم أن مقام الرب انفراده بالتصرف في ملكه كيف شاء؛ لأن الرب هو السيد، ولا تصرف للعبد مع سيده، ولذا قالوا: السيد من لا عبد له، ولهذا السر قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» لأنهم عبيد خلص، ومقام العبودية هو الدين الخالص، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:3]، وفي هذا المقام قيل للسيد الأعظم ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:128]، فخوف العوام من الذنوب لأنها لا تليق بمقام الرب، بل اللائق هو الطاعة، فلو قلت للعابد: هل أكرمك الله بكرامة؟ يقول: نعم أكرمني بكونه لم يخسف بي الأرض مثلاً أو لم يُنزل عليّ صاعقة تحرقني، وأما مقام الرب عند العارفين فالتوحيد الذي لم يشاركه فيه أحد، فخوف العارف أن يغفل عن التوحيد.. حتى أن المتمكن في مقام العبودية هو الذي يشهد أن الحق هو القائم بوظائف العبودية فيه، ويثبت له اسم العبد كما يثبت له اسم الرب، وهذا مشهد محمد ﷺ في قوله: «إنما أنا عبد» فالقائل فيه: إنما أنا عبد هو القائل: «أنا سيد ولد آدم» ولما كان هذا المشهد بعيدًا من العموم قال: «لا تقولوا سيدًا إنما السيد الله» وأما هو ﷺ فالقول منه هو قول الله بنفسه، فمن خاف مقام ربه رد عبوديته إليه فلا يرى نفسه

-

أرسل أهل النار إلى الجنة؛ لأنه ظلم والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

وبقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:30]، يشير إلى جهنم نفس الإنسان، وحرصها على الدنيا وشهواتها كلما ألقى نوع منها، ويقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ من أنواع الشهوات، فلا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

قائمًا بأمر من الأمور الجارية فيه أو الجارية منه، وهذا معنى قول من قال: الأوامر الإلهية والنواهي والقيام بالوظائف المشروعة في حق العارف بالله تشريف لا تكليف، يعني أن العارف يشهد أن القائم بهذه الوظائف كلها هو، فقد شرَّف الله العارف حيث أشهده حقيقة الأمر من أنه تعالى هو القائم بما فيه.

كما قال ابن عطاء الله ﷺ: إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك؛ أي تجلى فيك بالقيام بالأمور المشروعة؛ لأن له تعالى مرتبة التقييد كما أن له مرتبة الإطلاق، ولذا أمر ﷺ أن يعلمنا بذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:154]، فكل صورة في الوجود وكل ما يبدوا من تلك الصورة لله تعالى، ولذلك من خاف مقام الرب نهى النفس عن الهوى، والمراد بالهوى: الدعوى، فمن نهى نفسه عن الهوى ينبغي أن يشهد أنه تعالى هو الذي ينهي نفسه عن الهوى في مظهرية نفسه، فيراه أنه هو الناهي والمنهي والآمر والمأمور، واسم الرب واقع عليه كما أن اسم العبد راجع إليه.

ألا ترى قوله ﷺ لما سُئل ما الدين؟ فقال: «النصيحة لله» فهو القابل للنصح في مظهر العبد.

ألا ترى قول الله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:112]، وفي قراءة: ﴿قَالَ رَبُّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ فأدخل الحق نفسه في التكليف المشروع ولذلك أخبر تعالى بقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]، فأضاف الخوف لمن أضاف له الرب فله جنتان: جنة التقييد الصورية، وجنة الإطلاق الذاتية، فتلك الجنتان ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن:48]، من الأسماء الإلهية فلجنَّة الإطلاق أفنان وهي أسماء التنزيه، ولجنَّة التقييد أفنان وهي أسماء التشبيه، فمن خاف مقام ربه فجزاءه مقام ربه ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف:75]، فلما نهى نفسه عن الهوى كشف عن حقيقة نفسه، ومن هو الناهي ومن هو المنهي، وحينئذ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:41]، والجنة نفسه فهي مأوى الحق؛ لأنه سمعها وبصرها، فهو عين أعضائها، فذات الرب المعبَّر عنها بضمير «كنت سمعه» في الحديث هي أعضاء العبد بعينها وإن شئت قلت بأن المراد بالجنة وجود الحق وذاته فهي المأوى للصور المشهودة وهذا معنى قولهم: إن الحق ذات كل شيء، والمحدثات أسمائه، والاسم بالنسبة إلى الله تعالى عين المسمى، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فلا مأوى لنا سواه، ولم يأوي إليه إلا إياه، وهذا مقام الفردانية، فمن تحقق به فهو فرد الوجود، فالعالم حرف جاء لمعنى وليس الحرف إلا الصورة، وليس المعنى إلا هو، فأدر حمياك منك إليك تر كل شيء دائرًا عليك، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:39]، فافهم، فالخمرة والكأس عين الخمار، والساقي والنديم عين شارب العقار. [كشف الواردات الإلهية].

وفيه إشارة أخرى، وهي: أن الحرص الإنساني قشر محبة الله تعالى، بل هو عين المحبة، إذا كان متوجهًا إلى الدنيا وشهواتها يسمى الحرص، وإذا كان متوجهًا إلى الله تعالى وقرباته يسمى محبة؛ فاعلم أن ما زاد في الحرص نقص من المحبة، وما نقص من الحرص زاد في المحبة، وإذا اشتعلت نار المحبة فلا يسكن نائرتها بما يلقى فيها من محبوبات الدنيا والآخرة، بل يكون من حطبها ويزيد في اشتعالها، حتى: «يضع رب العزة فيها قدمه فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، فتقول: قط.. قط»[1].

ثم أخبر عن حال المؤمنين المتقين بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق:31]، يشير إلى جنة قلوب خواص المتقين أنها أزلفت وقربت لهم في الدنيا، بل هم في الدنيا بالأجساد وهم في الآخرة بالقلوب.

ويقال: إن الجنة تقرب من المتقين، كما أن النار تجر بالسلاسل إلى المحشر المجرمين.

ويقال: بل يقرب الجنة بأن يسهل على المتقين مسيرهم إليها، ويراد بهم الخواص من المتقين، ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم: يحشرون إلى الجنة مشاة، وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:71]، وهم عوام المؤمنين، وقوم: يحشرون إلى الجنة ﴿رُكْبَانًا﴾ [البقرة:239] على طاعاتهم المصورة لهم بصورة حيوان، فهؤلاء هم الخواص، وأما خاص الخاص فهم: الذين قال لهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تقرب الجنة منهم، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:31]؛ أي: الجنة غير بعيد عنهم، وهم البعداء عن الجنة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 32 - 38].

ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق:32]؛ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى مقعد صدق، ولو

---

(1) رواه الدارقطني في الصفات (1/ 15 رقم 9)، والعقيلي (1/ 110 ترجمة 129 أيوب بن خوط).

كانت الإشارة إلى الجنة لقال: هذه.

وفي الحقيقة أن موعود المتقين الموصوفين ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق:32]، هو الراجع إلى الله في جميع أحواله لا إلى ما سواه، حافظًا لأنفاسه مع الله لا يصرفها إلا في طلب الله، وما يؤكد هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

وأيضًا يدل عليه قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:33]؛ أي: بنور الغيب يشاهد شواهد الحق، فتخشى من خشيته، منه ما قال: لجباريته بل قال: لرحمانيته، والخشية من الرحمن خشية الفراق؛ ولهذا قال: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:33] إلى ربه معرض عما سواه، مقبل عليه بكلية ﴿ادْخُلُوهَا﴾ [ق:34]، يعني الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ [ق:34]؛ أي: بسلامة القلب منها، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:34] لم يسكن إليها، بل يعبر عنها.

وبقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:35]، يشير إلى أن من يريدنا، ويعبر عن نعيم الجنة للوصول إلينا فيصل إلينا، ولدينا يجدنا لمزيد ما يشاءون أهل الجنة منها، وهذا كما قال: «من كان لي كنت له ومن كنت له كان له ما كان لي»[1]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:20].

ثم أخبر عن تهديد أهل الوعيد بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:36]، يشير إلى إهلاك النفوس المتمردة في القرون الماضية؛ إظهارًا لكمال القدرة والحكمة البالغة؛ لتتأدب به النفوس القابلة للخير، وتتعظ به القلوب السليمة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق:37]؛ أي: قلب سليم من تعلقات الكونين، فالقلوب أربعة: قلب قاس وهو قلب الكافر، وقلب مقفول وهو قلب المنافق، وقلب مطمئن وهو قلب المؤمن، وقلب سليم وهو قلب المحبين المحبوبين، الذي هو مرآة صفات جمال الله وجلاله، كما قال: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما يسعني

(1) تقدم تخريجه.

قلب عبدي المؤمن»[1].

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2][ق:37]؛ يعني: من لم يكن له قلب بهذه الصفة يكون له سمع يسمع بالله وهو حاضر مع الله، فيعبر عما يشير إليه الله في إظهار اللطف أو القهر.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾[ق:38]؛ أي: سموات الأرواح ﴿وَالأَرْضَ﴾ [ق:38]؛ أي: أرض الأشباح، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ق:38] من النفوس والقلوب في الأسرار وسر الأسرار ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[ق:38]؛ أي: في ستة أنواع من المخلوقات، وهي محصورة فيما ذكرناه من الأرواح والأشباح والنفوس والقلوب والأسرار وسر الأسرار، فلا مخلوق إلا وهو داخل في جملتها؛ فافهم جدًا.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:38]؛ لأنها خلقت بإشارة أمر: ﴿كن﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:50]، فأنى يمسه اللغوب، وأنه صمد لا يحدث في ذاته حادث.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال الورتجبي: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السرّ، والقلب عبارةٌ عن نقطة دائرة الفطرة القدمية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، ووراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، أليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي سرمدٌ، وبحري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغولٌ بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقرابة، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا لهيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرَّ عيوننا بأنوار الغيوب.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 39 - 45].

وبقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [ق:39]، يشير إلى تربية النفوس بالصبر على ما يقول الجاهلون، من كل نوع من المكروهات وتزكيتها عن الصفات المذمومات، بملازمة الذكر والتسبيحات والتحميدات ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾[ق:39]؛ يعني: من أول النهار، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:39]؛ يعني: آخر النهار، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ [ق:40]؛ أي: من جميع الليل بقدر الوسع والطاقة، ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:40]؛ يعني: بعد الصلاة.

ويقوله: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق:41]، يشير إلى مراقبة القلوب بعد انقضاء أوقات الذكر؛ لاستماع نداء الهواتف الغيبية والإلهامات الربانية والإشارات الإلهية ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:41].

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ [ق:42]، وهو قلب النفوس ﴿الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ [ق:42]، من جناب الحق بتجلي صفاته، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:42] عن ظلمات البشرية إلى نور الروحانية والربانية.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ [ق:43] القلوب الميتة، ﴿وَنُمِيتُ﴾ [ق:43] النفوس المحبة، ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق:43] لمن ماتت نفسه وحيي قلبه، وذلك ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ﴾ [ق:44]؛ أي: أرض الوجود ﴿عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ [ق:44] بجذبة الحق تعالى، ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:44]، بإفناء وجودكم وإبقائكم بوجودنا.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:45]، هذا خطاب لمع القلب؛

يعني: ما أنت على النفس وصفاتها بمسلط، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ [ق:45]؛ أي: بدقائق معانيه وحقائق أسراره ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:45]؛ يعني: بعض النفوس القابلة لتذكر القرآن ووعيده، فإنه ليس من نفس قابلة له[1].

(1) انظر: تفسير القشيري (7/ 304)، والبحر المديد (7/ 53).

سورة الذاريات
مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)﴾ [الذاريات: 1 - 15].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾[1] [الذاريات:1]، يشير إلى الرياح [السحابية] بحمل أنين المشتاقين المتعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة، ثم تأتي بنسيم نفحات الحق إلى مشام أسرار أهل المحبة، فيجدون راحة من غلبات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وَإِنّي لَأَستَهدي الرِياحَ سَلامَكُم ... إِذا أَقبَلَت مِن نَحوِكُم بِهُبوبِ

وَأَسأَلُها حَملَ السَلامِ إِلَيكُمُ ... فَإِن هِيَ يَوماً بَلَّغَت فَأَجيبي

بقوله: ﴿فَالْحَامِلاتِ وَقْراً﴾ [الذاريات:2]، يشير إلى سحاب ألطاف الربوبية بحمل أمطار مراحم الألوهية، فيمطر على قلوب الصديقين.

وبقوله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ [الذاريات:3]، يشير إلى سفن وجود المحبين المحبوبين شراعها مرفوعة إلى مهب رياح العناية؛ فتجري بها في بحر التوحيد على أيسر حال.

وبقوله: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات:4]، يشير إلى من ينزل من الملائكة المقربين؛ لتفقد أهل الوصلة وللقيام بأنواع من الأمور لأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم هل عندهم خبر من فراقهم ووصالهم، ويقولون:

بربكما يا صاحبي قفا ليا ... أسائلكم عن حالكم فسألانيا

---

(1) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين وعمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:5]، أيها الطالبون الصادقون في خطاب: «ألا من طلبني وجدني»[1] ﴿لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:5]، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ [الذاريات:6]؛ أي: حقيقة الدين ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:6] في جدر قلوب المجاهدين فينا وأسرار المجتهدين لنا، أن الله تعالى وعد المطيعين بالجنة، والتائبين بالمحبة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، والطالبين بالوجدان.

ثم جدد القسم فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:7]، أشار إلى سماء القلب ذات الطرائق إلى الله ﷻ، ﴿إِنَّكُمْ﴾ [الذاريات:8] أيها الطالبون الصادقون ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات:8] في الطلب؛ فمنكم من يطلب منا ما قلنا من الدرجات في جنان النعيم، ومنكم من يطلب منا ما عندنا من كمالات القربات، ومنكم من يطلب منا بالدنيا من العلوم والمعارف، ومنكم من يطلبنا بجميع صفاتنا، فمن استقام على الطريقة وثبت ملازمًا في طلبه لبلغ كل قاصد مقصده.

وبقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:9]، يشير إلى أن في قطاع الطريق على أرباب الطلب للكثرة، فمن يصرفه طلبه قاطع من القطاع من النفس والهوى والدنيا وزينتها وشهواتها وجاهها ونعيمها فَصُرِفَ؛ فقد حرم عن متمناه وأهلكه هواه، كما قيل نعوذ بالله من الحور بعد الكور، وينادي عليه منادي العزة: وكم مثلها فارقتها وهي تصفر.

وبقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[الذاريات:10-11]، يشير إلى مدعي هذا الحدث الكذابين الذين هم في غمرة الحسبان والغرور لاهون، ومن استبطاء حصول المرام ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات:12]؟ وهم في ضلالة ظلمة ليل الدنيا يستعجلون في استصباح نهار الدين، فأجابتهم عزة الجبروت عن تنق الكبرياء والعظموت، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [الذاريات:13]؛ أي : على نار الشهوات ﴿يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:13]؛ أي: بعذاب البعد والقطيعة يعذبون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: عذاب فتنتكم التي قطعت عليكم طريق الطلب، ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾ [الذاريات:14] تملون عن الطلب، ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾[الذاريات:14]

(1) تقدم تخريجه.

الظفر بالمقصود.

ثم أخبر عن المتقين التائبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات:15]، يشير إلى أنهم في جنات قلوبهم، وعيون الحكمة في عاجلهم، بل في جنات الوصل وفي أجلهم في جنات الفضل، فغدًا نجاة ودرجات واليوم مناجاة وقربات.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: 16 - 23].

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:16] اليوم بقلوب فارغة من الله من أصناف ألطافه، وغدًا يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرغد، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ [الذاريات:16]؛ أي: قبل أن كانوا في الوجود وكانوا في العدم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات:16]، وإحسانهم أنهم كانوا محبين الله بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] وهم بعد في العدم.

ولما حصلوا في الوجود ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:17]؛ أي: كانوا قليلاً، وكانوا لا ينامون بالليل كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، وكقوله ﷺ: «نوم العالم عبادة»[1]، فمن يكون في العبادة نائمًا؟

﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:18]؛ أي: يستغفرون عن رؤية عبادات يعلمونها في سهرهم إلى الأسحار بمنزلة العاصين، يستغفرون استصغارًا لقدرهم واستحقارًا لفعلهم، والليل إما للأحباب في أنس المناجاة وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم؛ لفرط أسف أو لشدة لهف، وإما للاشتياق أو للفراق، كما قال:

وأكم ليلة فيك لا صباح لها	أفنيتها قابضًا على كبدي
قد غضت العين بالدموع وقد	وضعت خدي على بنان يدي

(1) ذكره العراقي في أحاديث الإحياء (3/ 211).

وإما لكمال أنس وطيب روح، كما قالوا:

سقى الله عيشًا نضيرًا مضى زمان الهوى في الصبا والمجون

لياليه تحكي انسداد اللحاظ للعين عند ارتداد الجفون

وبقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:19]، يشير إلى ما آتاهم الله من فضله من المقامات والكمالات، أنه فيها حق للطالبين الصادقين إذا قصدوهم من أطراف العالم في طلبها إذ عرفوا قدرها، والمحروم من لم يعرف قدر تلك المقامات والكمالات، فاقصدوهم في طلبها فلهم في ذمة هؤلاء الكرام حق التفقد والنصح، «فإن الدين النصيحة»[1]؛ فإنهم بمنزلة الطبيب، والمحروم بمنزلة المريض، فعلى الطبيب أن يأتي إلى المريض، ويرى نبضه ويعرف علته ويعرفه خطرها، ويأمره بالاحتماء عن كل ما يضره، ويعالجه بأدوية تنفعه إلى أن يزول مرضه وتظهر صحته.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:20]، منها أنها تحمل كل شيء، فكذلك الموقن العارف يحمل كل حمل من كل أحد، ومن استثقل حملاً وتبرم برؤية أحد؛ ساقه الله إليه فلغيبته عن الحقيقة ومطالعته الخلق بعين التفرقة، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة، ومنها أنه يلقى عليها كل قذارة وقمامة فتنبت كل زهر ونور وورد، كذلك العارف يتشرف ما يسقي من الجفاء، ولا يترشح إلا بكل خلق على شيمة زكية، ومنها أن ما كان منها سبخًا يترك ولا يعمر؛ لأنه لا يتحمل العمارة كذلك من الإيمان له بهذه الطريقة يهمل؛ فإن مقابلته بهذه القصة كإلقاء البذر في الأرض السبخة.

(1) حديث تميم الداري: رواه أحمد (4/ 102 ، رقم 16982)، ومسلم (1/ 74 ، رقم 55)، وأبو داود (4/ 286 ، رقم 4944)، والنسائي (7/ 156 ، رقم 4197) ، وأبو عوانة (1/ 44 ، رقم 101)، وابن خزيمة في السياسة كما في إتحاف المهرة للحافظ (3/ 8 ، رقم 2456)، وابن حبان (10/ 435 ، رقم 4574)، والبغوي في الجعديات (1/ 392 ، رقم 2681) وابن قانع (1/ 109)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 323، رقم 5265)، وأبو نعيم في المعرفة (1/ 449 ، رقم 1291). والطبراني (2/ 54 ، رقم 1267)، وابن عساكر (11/ 54).

حديث أبي هريرة : أخرجه الترمذي (4/ 324 رقم 1926) وقال : حسن صحيح. والنسائي (7/ 157 رقم 4199) ، والدارقطني في الأفراد كما أطرافه لابن طاهر (5/ 346 ، رقم 5699)، وأحمد (2/ 297 ، رقم 7941) ، والطبراني في الأوسط (4/ 122 ، رقم 3769).

وبقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، يشير إلى أن نفس الإنسان مرآة جميع صفات الحق تعالى؛ ولهذا قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]، فلا يعرف أحد نفسه إلا بعد كمالها، وكمالها في أن تصير مرآة تامة مصقولة قابلة لتجلي صفات الحق لها؛ فيعرف نفسه بالمرآتية ويعرف ربه بالتجلي فيها، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53].

وبقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:22]، يشير إلى سماء الأرواح، كما ينزل ما هو سبب رزق الأبدان من سماء الصورة كذلك ينزل ما هو سبب رزق القلوب وحياتها من سماء الأرواح من الطوالع واللوامع والشواهد والتجليات الروحانية والتجليات الربانية، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] [الذاريات:22]، «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[3].

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:23]؛ أي: فكما قولكم أن الله خالق السماء والأرض حق؛ كذلك القول فإنه الرازق حق ووعده حق لكم، ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]؛ يعني: كما أنطقكم الله فينطقون بقدرته بلا شك حق من الله أن يرزقكم ما وعدكم، وإنما اختص التمثل بالنطق؛ لأنه مخصوص بالإنسان وهو أخص صفاته.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: 24 - 30].

ثم أخبر عن ضيف المكرمين غيره للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإنا نرزقكم، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السماء رِزْقُكُمْ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (2/ 67).

(3) تقدم تخريجه.

إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:24]، يشير إلى إبراهيم الروح وضيفه المكرمين تجليات صفات الجمال والجلال؛ ﴿فَرَاغَ﴾ [الذاريات:26]؛ أي: إبراهيم الروح ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ [الذاريات:26]؛ أي: إلى أوصاف بشريته، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:26]؛ أي: بالصفة البهيمية مشوبة بنار التجلي؛ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات:27] تقربًا إلى الله يبذلها، ﴿قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:27]، طلب الفناء من هذه الصفة بالكلية فما أفنوها، وما كان القصد فناؤها بالكلية؛ إنما كان القصد إزالة قوتها وشوكتها المضرة للروح.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ [الذاريات:28]؛ أي من سطوات التجلي ﴿خِيفَةً﴾ [الذاريات: 28] على نفسه، ﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ﴾[الذاريات:28]؛ أي: إنا ما أرسلنا إلا لإصلاح ذلك وإهلاك أعدائك، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ﴾[الذاريات:28] وهو إسحاق قلبه ﴿عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:28] بالعلم اللدني يولد له بعد هلاك أعدائه، وهم النفس وصفاتها.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ [الذاريات:29] وهي الروح الطبيعي ﴿فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾[الذاريات:29]؛ تعجبًا من أن يلد عجوزًا مثلها غلامًا مثل القلب الحقيقي، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:29] لم تلد قط كيف تلد الآن مثله، ﴿قَالُوا﴾ [الذاريات:30] التجليات بلسان الحال: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات:30]، إنه عليه هين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الذاريات:30] يحكم بمثل هذا المقتضي حكمته، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:30] بفعل أمثاله.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)﴾ [الذاريات: 31- 40].

﴿قَالَ﴾ [الذاريات:31]؛ يعني إبراهيم الروح: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات:31]؛ يعني: التجليات ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات:32] وهم النفس وصفاتها الذميمة؛ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [الذاريات:33-34]، هلاك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات:34]، وهي الأذكار والأوراد

والمجاهدات والرياضات والمعاملات المهلكة للنفس وأوصافها؛ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:35] سالمين من الهلاك، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ [الذاريات:36]؛ أي: في مدينة الشخص الإنساني ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:36]؛ أي: القلب السليم وأوصافه الحميدة، ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ [الذاريات:37] من تزكية النفس وتهذيب أخلاقها، عبرة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:37]، بوعيد قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:9-10].

ثم أخبر عن عذاب أهل العقاب بقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات:38]، يشير إلى موسى القلب إذ أرسله إلى فرعون النفس بسلطان وهو عصا لا إله إلا الله مبين إعجازها بأن يتلقف ما تؤفكون من سحر تمويهات سحرة فرعون النفس، ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات:39]؛ أي: أعرض رؤية الإعجاز والإيمان به بجميع صفاته، ﴿وَقَالَ﴾ [الذاريات:39] فرعون النفس لموسى القلب: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾[الذاريات:39-40]؛ يعني: فرعون النفس وصفاتها، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الذاريات:40]؛ أي: يم الدنيا ليهلكوا فيها، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الذاريات:40]؛ أي: مستحق اللوم إنما هو فرعون النفس؛ لأنها هي الأمارة بالسوء والصفات تبع لها.

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) ﴾ [الذاريات: 41 - 48].

وبقوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات:41] إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ [الذاريات: 47]، يشير إلى النفس وصفاتها وأسباب هلاكها من غضب ربها[1].

وبقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات:47]، يشير إلى سماء القلوب؛ إذ بناها بحكمة بالغة قابلة للفيض الإلهي، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:47]؛ يعني: القلوب

(1) من الآية 41 إلى 47 لم يتعرض لهم المصنف.

لقبول الفيض، كما قال: «وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»[1]؛ يعني: إذا وسعته هذا القبول ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ [الذاريات:48]؛ أي: أرض النفوس فرشناها لسماء القلوب؛ ليمطر عليها مطر الحكمة من سماء القلوب؛ فتنبت منها أشجار العبودية التي تثمر أثمار مواهب الربوبية، ثم أثنى على نفسه تعالى عزة لكمال صنيعه فقال: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات:48].

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٩ - ٥٤].

وبقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:49]، يشير إلى أنه تعالى خلق لكل شيء من عالم الملك وهو عالم الأجسام زوجًا بيد القدرة الإلهية، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، بهذا الطريق للوصول والوصال.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:49] أنكم بهذا الطريق جئتم من الحضرة ويد القدرة إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الملك فبهذا الطريق ترجعون إلى الله، وهو قوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:50]؛ أي: يا أيها الذين فررتم من الله بتعلقات الكونين ففروا إليه بقطع التعلقات عما سواه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ [الذاريات:50]، بهذا القطع ﴿مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:50] بالبراهين القاطعة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ﴾ [الذاريات:51] في المعرفة بوحدانية ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الذاريات:51] من النفس والهوى والدنيا والآخرة، فتعبدوها بالميل إليها والرغبة بها، فإن التوحيد في الإعراض عنها وقطع تعلقاتها والفرار إلى الله منها؛ لأن من صح قرآن إلى الله صح قرآن مع الله وهذا إكمال فإنه التوحيد، لا يغفر أن يشرك به.

ثم أخبر عن عادة ساداتهم في الكفر بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

(1) تقدم تخريجه.

مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:52]، يشير إلى أرباب النفوس المتمردة من الأولين والآخرين، مركوزة في جبلتهم طبيعة الشيطانية من التمرد والإباء والاستكبار، فما أتاهم رسول من الأنبياء في الظاهر، ومن الإلهامات الربانية في الباطن إلا أنكروا عليه، وقالوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ [الذاريات:52] يريد أن يسحرنا، ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:52] لا عبرة بقوله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات:53]، كأن بعضهم بالتمرد والإنكار والجحود؛ لأنهم خلقوا على طبيعة واحدة،، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53] بأنهم وجدوا أسباب الطغيان، وهي: السعة والتنعم والبطر والغنى.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات:54]، فإنك لا تهدي من أحببت منهم، ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:54]، في العجز عن هدايتهم؛ لأنك تبلغ وليس إليك من الهداية شيء.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات: 55- 60].

﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذاريات:55]، فإن حرفتك أن تكون مذكرًا، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:21]، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، الذين منَّ الله عليهم أن هداهم للإيمان، فذكر العاصين منهم عقوبتي؛ ليرجعوا عن مخالفة أمري، وذكر المطيعين جزيل نوالي؛ ليزدادوا طاعةً وعبادةً لي، وذكر المحبين ما شاهدوا من أنوار جمالي وجلالي في الغيب وغيب الغيب؛ ليزيدوا في بذل الوجود وطلب المفقود.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]؛ لأن ذرة معرفتي مودعة في صدق عبوديتي، وإن معرفتي تنقسم قسمين: معرفة صفات جمالي ومعرفة صفات جلالي، ولكل واحدة منهما مظهر، والعبودية مشتملة على المظهرين بالانقياد لها والتمرد عنها، فمن انقاد لها بالتسليم والرضاء كما أمر به، فهو مظهر صفات جمالي ولطفي، ومن تمرد عنها بالإباء والاستكبار، فهو مظهر صفات جلالي وقهري، فحقيقة قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]؛ أي: خلقت المقبولين منهم؛ ليعبدوا

الله فيكونوا مظهر صفات لطفه، وخلقت المردودين منهم؛ ليعبدوا الهوى فيكونوا مظهر صفات قهره، هذا المعنى الذي أردت من خلقهم ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: 57] يحصلونه بكسبهم ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ [الذاريات:57] منهم ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: 57]؛ يعني: ما خلقتهم لمصلحة من مصالح الدنيا يختص بها؛ وإنما خلقتهم مختصين بأن يكونوا مظاهر صفات لطفي وقهري ومظهرهما.

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:58] بجميع الخلائق، ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1] [الذاريات:58] في خلق الأرزاق والمرزوقين، ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الذاريات:59]، من أهل القلوب على قلوبهم، بأن جعلوها ملوثة بحب الدنيا بعد أن كانت معدن محبة الله مع ﴿ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات:59] من أرباب النفوس بجميع صفاتها؛ لأن القلب إن صَلَحَ صَلُحَ به سائر الجسد، وإذا فَسَدَ فَسَدَ به سائر الجسد ﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:59] في إفساد القلب ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الذاريات:60] بنعمة ربهم في إفساد القلب، ﴿مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:60] بإفساد سائر صفات الجسد.

(1) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسُهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (6/ 156).

سورة الطور

مكية وهي سبع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)﴾ [الطور: 1 - 16].

﴿وَالطُّور وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:1-2]، يشير إلى طور النفس الذي كلم الله عليه موسى القلب؛ لشرف استماع كلام الحق عليه صار محل القسم، فأقسم الله به وبكتاب كتبه الله تعالى ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور:3]؛ أي: في قلوب منسوبة إلى الرقة يدل عليه قوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[المجادلة:22].

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:4]، وهو سر قلوب العارفين معمور بأسرار الحق تعالى، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور:5]، وهو الروح المرفوع درجاته إلى الحضرة، وهو سقف بيت الغلبة.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:6]؛ أي: بحر قلب سُجر بنار المحبة ما قسم لعزة هذه الأشياء، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:7]؛ أي: العذاب لأهل العذاب واقع بالنقد؛ لأن أشد العذاب ذل الحجاب كان من دعاء سري السقطي: اللهم مهما عذبتني فلا تعذبني بذل الحجاب والحجاب واقع؛ فإن أعظم الحجاب حجاب النفس ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:8] من قبل العبد؛ بل دافع حجاب النفس وهو رحمة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53].

وبقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ [الطور:9]، يشير إلى سماء القلب ومورة توجهه للحق تعالى بصدق الطلب، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ [الطور:10] جبال النفس ﴿سَيْراً﴾ [الطور:10] إلى عالم القلب، ومنه إلى عالم الأرواح، ومنه بجذبة: ﴿ارْجِعِي﴾ [الفجر: 28] إلى حضرة الربوبية، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ [الطور:11] حين ظفر الطالب بالمطلوب،

ووصل المحب إلى المحبوب، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:11] بهذا الحديث، من ينزل الحسرات الموقدة التي قطعت على الأفئدة من فوات هذه السعادة العظمى، والحرمان عن ما وعدناكم من عذاب خوضكم في الدنيا، ولعبكم بها من الغفلة ونيران الحسرات [والزفرات] ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ [الطور:12] الدنيا وشهواتها وزخارفها ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الطور:12].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[الطور:13] دعاء لا خلاص منها ولا رجوع، يناديهم عزة الحق تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ [الطور:14-15]؛ يعني الذي ﴿أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:15] حقائق هذه المعاني.

﴿اصْلَوْهَا﴾ [الطور:16] أدخلوها لتذوقوا عذابها، ﴿فَاصْبِرُوا﴾ [الطور:16] في هذا البلاء ﴿أَوْ لاَ تَصْبِرُوا﴾ حين لا ينفعهم الصبر؛ إذ لم تصبروا حين ينفعكم الصبر، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:16] أجزعتم أم صبرتم؛ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:16] في الدنيا من الخير والشر الذي تعملون في الآخرة من الصبر والخضوع والخشوع والتضرع والدعاء، فإنه لا ينفع شيء منها، والحاصل أن يقال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:108].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور: 17 - 23].

ثم أخبر عن التقى وأرباب هذه الدرجات العلا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور:17]، يشير إلى أنهم في جنات القرب ونعيم المشاهدة في العاجل والآجل؛ إذ اتقوا بالله سواه.

﴿فَاكِهِينَ﴾ [الطور:18]، متعجبين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور:18] من أصناف ألطافه، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور:18] جحيم نفوسهم وعذابها وشهواتها.

﴿كُلُوا﴾ [الطور:19] من طعام المشاهدات، ﴿وَاشْرَبُوا﴾ [الطور:19]، من شراب المكاشفات، ﴿هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:19] من أنواع المجاهدات ورعاية آداب الرياضات، فإن المجاهدات تورث المشاهدات:

فاشرب على وجهها كغرتها مُدامةً في الكؤوس كالشررِ

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور:20]، سرر الدرجات والقربات المفيضة في العبودية، ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:20]، من إنكار الحقائق الغيبية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الطور:21] بهذا الحديث في طلب الحق تعالى من القلب والروح، ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطور:21] من النفس وصفاتها ﴿بِإِيمَانٍ﴾ [الطور:21] بهذا الحديث ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:21]، وإن لم يكونوا مستعدين لنيل هذه الكمالات من الوصول والوصال بالاستقلال، ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ [الطور:21]؛ أي: ما ينقص من جزاء عمل القلب والروح ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور:21]، بسبب إلحاق النفس وصفاتها بهم في المقام.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ [الطور:21-22]؛ يعني: القلب والروح ﴿بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور:22]؛ يعني: بما هو من مشارب النفس الحيوانية؛ تقويةً للروحانية وإمدادًا للسير في الصفات الربانية.

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ [الطور:23]؛ يعني: يتعاطون القلب والروح والنفس وصفاتها، ﴿فِيهَا﴾ [الطور:23]؛ أي: في مقامات السير ﴿كَأْساً﴾ [الطور:23] من مشارب الروح والقلب للنفس، وكأسًا من مشارب النفس للروح والقلب، ﴿لاَّ لَغْوٌ﴾ [الطور:23] من أوصاف البشرية ﴿فِيهَا﴾[الطور:23] في الكاسات؛ لينزله إلى مقام النفس ﴿وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:23] من أوصاف الروحانية؛ لعده بطبع الروحانية في الروحانية.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور: 24 - 31].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور:24] من واردات الحق تعالى، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:24]، لا كدورة فيهم من نقوش الدارين، والقوم عن الدار وعمن في الدارين مختطفون باستيلاء ما يستغرقهم من تتابع الكاسات في بحر الحياة.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ [الطور:25]؛ يعني: القلب والروح ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الطور:25]؛ يعني: على النفس ﴿يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ [الطور:25-26]؛ أي: قبل السير والسلوك ﴿فِي أَهْلِنَا﴾ [الطور:26]؛ أي: في عالم الإنسانية ﴿مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:26]، خائفين من سموم صفات البهيمية والسبعية والشيطانية والشهوات الدنياوية؛ فإنها مهب سموم قهر الحق تعالى، ﴿فَمَنَّ اللهُ﴾ [الطور:27] تعالى ﴿عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:27] سموم قهره، ولولا فضله ما تخلصنا منه بجهدنا وسعينا، بل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ [الطور:28]، ونتضرع إليه بتوفيقه في طلب النجاة وتحصيل الدرجات، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ [الطور:28] لمن يدعوه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الطور:28] لمن ينيب إليه.

ثم أخبر عن التذكير لدفع التقصير بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:29-30]، يشير إلى أن طبيعة الإنسان متنفرة في حقيقة الدين، مجبولة على حب الدنيا وزينتها وشهواتها، والجوهر الروحاني الذي جبل على فطرة الإسلام في الإنسان موزع بالقوة كالجوهر في المعدن، فلا نستخرج إلى الفعل إلا بجهد جهيد، وسعي تام على قانون الشريعة، ومتابعة النبي ﷺ وإرشاده، وبعده بإرشاد ورثة علمه وهم العلماء الربانيون الراسخون في العلم من المشايخ المسلكين، وفي زمان كل واحد منهم.

والخلق مع دعوى إسلامهم ينكرون على سواهم في الأغلب، ويستعدون ترك الدنيا والعزلة والانقطاع عن الخلق، والتبتل إلى الله، وطلب الحق تعالى إلا من كتب الله في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وهو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة في بذر، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:54]، وإلا من خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، وإن كانوا يصلُّون ويصومون، ويزعمون أنهم مسلمون ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه.

وفي قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ إشارة أيضًا إلى أن التذكير على النبي والشيخ واجب في كل حال والعظة للخلق؛ ليحيى من حيي عن بينة وهلك من هلك عن بينة، ومن طبيعة الإنسان أن ينسب أهل التحقيق من الإنسان والمشايخ إلى الكهانة والجنون والسحر والشعر.

وبقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:31]، يشير إلى النصير في الأمور ودعوة الخلق، والتوكل على الله فيما يجري على عباده والتسليم لأحكامه في المقبولين والمردودين.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: 32 - 43].

وبقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَٰذَا....﴾ [الطور:32]، إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور:43]، يشير إلى سفه أحلامهم، وركاكة عقولهم، وخسة نفوسهم، وقصر نظرهم، وغلبة حسهم، واستغراقهم في الغفلة إلى غاية.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 44 - 49].

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا﴾ [الطور:44] من غباوتهم وسفههم إنه ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:44]؛ يعني: أنهم وإن رأوا كل آية لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر:14]، حتى شاهدوا باليقين ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجرات:15]، وليس هذا عيانًا ولا مشاهدة ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:45]؛ أي: فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي

يتجلى لهم الحق، فيصعقون عن أنانيتهم كما صعق موسى إذ تجلى ربه للجبل ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [الطور:46]؛ لأنه من صفات النفس، وقد ماتت النفس عن صفاتها بصعقة التجلي، ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور:46]، بشيء من الأوصاف البشرية.

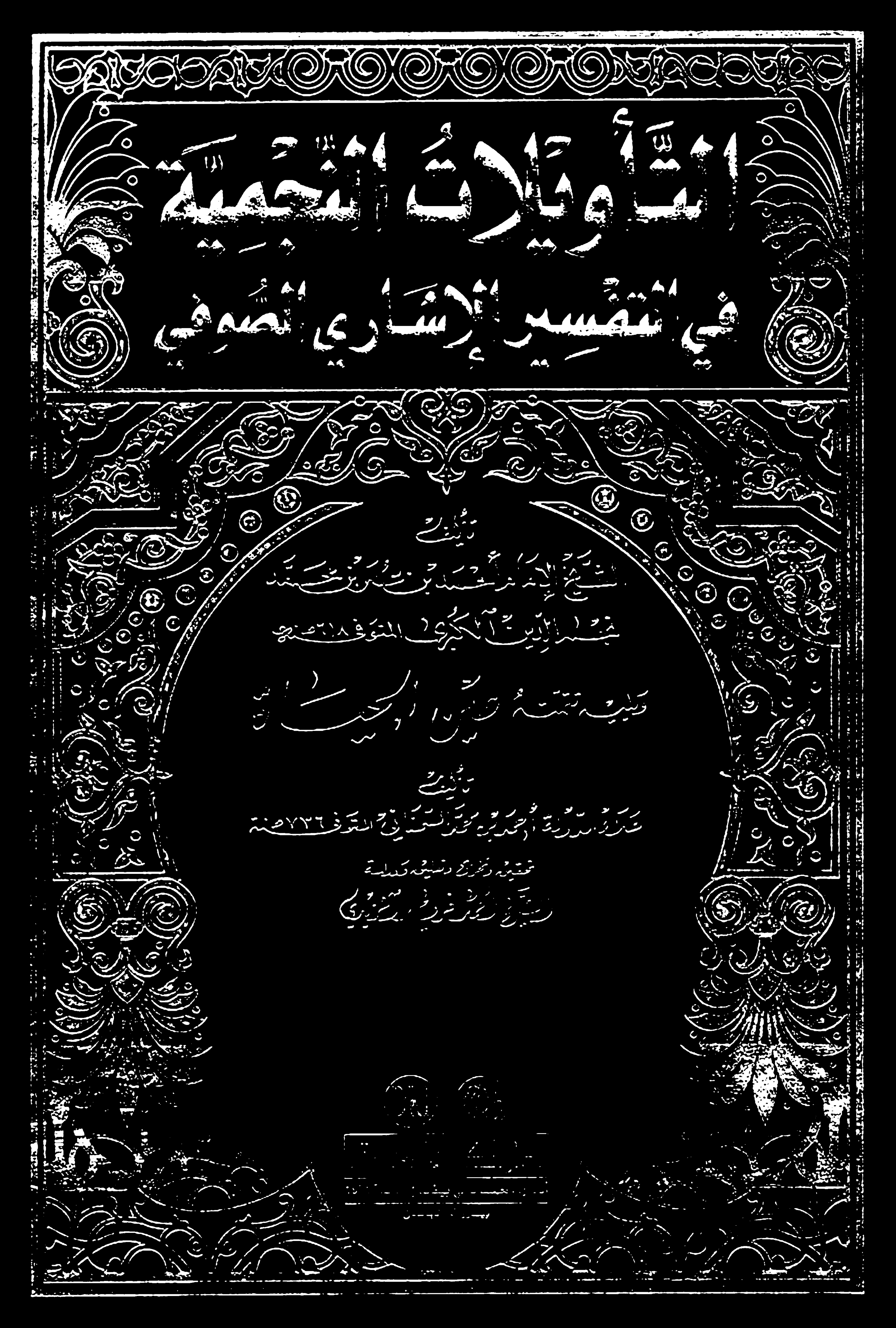
﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الطور:47] أنفسهم بإفساد الاستعداد الأصلي في قابلية الفيض الإلهي، ﴿عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾[الطور:47]؛ أي: من صفات القهر دون صفات اللطف، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الطور:47]، اللطف من القهر ولا القهر من اللطف.

ثم أخبر عن الصبر أنه دافع للقهر بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: 48]؛ أي: فاصبر لما حكم به لك في الأزل؛ فإنه لا يتغير حكمنا الأزلي إن صبرت وإن لم تصبر، ولكن إن صبرت على قضائه؛ فقد جزيت ثواب الصابرين بغير حساب.

وفيه إشارة أخرى فاصبر لحكم ربك، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:48] نعينك على الصبر لأحكامنا الأزلية، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:127]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:48-49]، به يشير إلى مداومته على الذكر وملازمته بالليل والنهار.

فهرس المحتويات




التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨هـ
وتليه تتمة عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي

عين الحياة

وهو تتمة التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى سنة ٧٣٦هـ

تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء السادس

المحتوى:

تتمة التأويلات النجمية

سورة الفاتحة وسورة الطور

ومن أول سورة النجم - إلى آخر سورة الناس



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamed Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH
Followed by: 'AYN AL-HAYĀT

Classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Najmuddīn al-Kubrā and 'Alā'uddawlah al-Simnānī
Editor : Ahmad Farīd al-Mizyadī
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 2464 (6 volumes)
Size : 17*24
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

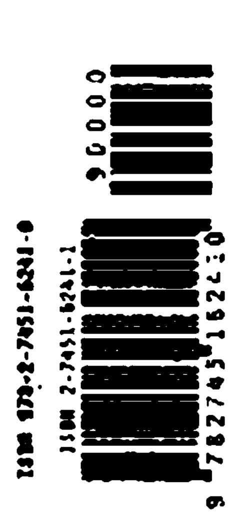
الكتاب : التأويلات النجمية
ويليه تتمة : عين الحياة

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : نجم الدين الكبرى وعلاء الدولة السمناني
المحقق : أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
قياس الصفحات: 17*24
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى



Aramoun, al-Qubbah, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel: +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon, Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +961 5 804 810/11/12
فاكس: +961 5 804813
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت 1107 2290


ISBN 978-2-7451-6241-0

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ العالم القطب، مظهر الحق، سلطان المحققين، سر الله في الأرضين، مستنبط المعاني المودع في الآيات، مستخرج الأسرار المبهمة على البريات، سيد الواصلين، سند السالكين، ركن الحق والدنيا والدين، ناصر الإسلام والمسلمين، أبو المكارم: أحمد بن محمد بن البيابانكي، المعروف بـ: «علاء الدولة السمناني»، دام ظله ومد عمره، الصنف الأول في الاصطلاحات، التي لا بد للمستفيد المرشد من معرفتها واستحضارها؛ لأن تصنيف هذا الكتاب المستطاب هو الواضع الأول المبلغ، وجميع إصاغته وتربيته من العلم الحقيقي بلا واسطة، لولا أنه يشرحه لما يمكن لأحد بعده حل مشكلات اصطلاحاته، وليبقى هذا الكتاب غير منتفع به، وأعوذ بالله من علم لا ينتفع به.

والنبي ﷺ يقول: «ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث»[1]، أحدها: علم ينتفع به بعده، وأسأل الله التوفيق لإبقاء علمي ينتفع به بعدي في الدين، مما يزيد لأرباب اليقين بها وعدوا وعد الحق المبين، وعلى آله في كلامه المحكم، الذي هو الحبل المتين المنزل على حبيبه الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين، لهم بإحسان إلى يوم الدين، والموفق إلى عليين.

وها أنا أتبين الاصطلاحات المخصوصة ببطن القرآن في هذا الصنف من هذا الأصل، وأشتغل بعد الفراغ من صنفي هذا الأصل في الفن الثاني من الأصل الرابع، بكتب القدسيات الواردة في حل مشكلات جميع ما أودع في الأصول الأربعة المختصة بهذا الكتاب - إن شاء الله الملك الفتاح الوهاب - على سبيل الإيمان موجزًا.

اعلم يا طالب المناسبة بين الآفاق والأنفس في المخاطبات القدسية مع اللطائف الأنسية، أن اللطيفة القالبية التي خمرها الله بيدي اللطف والقهر بعد التنزل من بطنان

---

(1) أخرجه البخاري (2/ 670، رقم 1795)، ومسلم (2/ 807، رقم 1151)، والنسائي (4/ 164، رقم 2217)، وابن حبان (8/ 205).

العماء إلى الحضرة الأحدية، وتنزل النقطة الأحدية إلى الحضرة الواحدية، واستواء الحقيقة الواحدية على عرش العشر في أربع مراتب من المراتب اللاهوتية الأُحادية، والجبروتية العشراتية، والملكوتية المأتية، والناسوتية الآلافية عشرًا عشرًا، في صباح حاجز بين ظلمة الليل الخلقي ونور النهار الأمري، كما ذكرتها في «الموارد الشوارد» وهي آدم وجودك، ولا تكمل اللطيفة القالبية إلا بعد تكميل اللطائف العشر السلالية وأخواتها كما بيناه في مواضع كثيرة.

واللطيفة النفسية المسلطة عليها أنواع البلاء في دار الابتلاء هي نوح وجودك، واللطيفة القلبية المرباة في طلبها ذرة ذرية حامل صدف وجودها درة اللطيفة الأنانية هي إبراهيم وجودك، واللطيفة السرية المخصوصة بالمناجاة هي موسى وجودك، واللطيفة الروحية المشرفة بخلقة الخلافة هي داود وجودك، واللطيفة الخفية المؤيدة بروح القدس هي عيسى وجودك المبشر لاسم لطائفك، وهي القوى المختصة لكل لطيفة من اللطائف المستودعة في وجودك، بمقدم اللطيفة الخفية وظهور آياتها الجليلة، الجاذبة جميع الحقائق، المستكنة في المفردات العلوية والسفلية، المستجمعة في اللطيفة القالبية ومركباتها الخلقية والأمرية، المستودعة في اللطائف النفسانية والقلبية والسرية والروحية والخفية إلى الحق الواحد الحقيقي، وهو محمد وجودك الحامل صدف وجوده درة اللطيفة الأنانية الكاملة، أصالة المربي في صلب اللطيفة القلبية، التي دعت وسألت من الله تعالى أن يجعل لها لسان صدق في الآخرين.

ولأجل هذا السر أمر الله تعالى حبيبه باتباع أبيه إبراهيم بقوله: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النحل:123]، وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:68]، و﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً﴾ [آل عمران:67]، غالطًا في اللطيفة السرية والخفية مزلزلاً في مغلطها، ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾ [آل عمران:67]، متوجهًا إلى فاطر السماوات والأرض، متجاوزًا عن المغاليط المختصة بالغيب المخصوص باللطيفة القلبية، وهي: شمُّ نسيم الحق من وجود كل موجود بالذرة المودعة في صلبه، الحامل صدق لطيفة حقيقة ذرة اليتيمة المحمدية، فكلما سمعت في الكتاب ما يخاطب به آدم، فاسمعه بلطيفة قالبيتك، واستعمل لطيفة قالبيتك فيما أمر به

ونهي عنه.

واعتبر بما ضرب مثلاً له، وتيقن أن بطن هذا الخطاب يتعلق بك في الأنفس، كما كان ظهره يتعلق بآدم في الآفاق؛ ليمكن لك الاستفادة من كلام الحق، وتكون ممن يقرأه عصا طريًا؛ لئلا يغويك الشيطان المغوي، ويخرجك من الجنة المخصوصة بلطيفة قالبيتك وينزع عنك لباس التقوى.

وكلما سمعت آيات فيها المخاطب نوع؛ فاسمعها بلفظه بلطيفة نفسيتك، وإذ حق الخطاب لئلا يُبتلى بالبحر المسجور نبيِّن أن الشهوة والغضب، ولا تفرق أمم قواك في غمرات الأماني الكاذبة.

وكلما سمعت الآيات المنزلة في حق إبراهيم عليه السلام؛ فاسمعها بلطيفة قلبيتك المستحقة بخلعة الخلة، وتشمر لأداء حق ما خاطبك الخليل الجليل؛ لئلا يقع الخلل في الخلة، ولا ينزع خلعة الخلة بالالتفات إلى ما سوى الخليل الجليل عن وجود الخليل المستدل بالدليل الحسي والعقلي، حتى يكون دليلك خليلك.

وكلما سمعت المكالمات الموسوية ومناجاتها، وما يتعلق بأحوال موسى الناطق به التنزيل؛ فاسمعها بلطيفتك السرية، واشتغل بأداء حق ما في ظن الخطاب؛ لئلا يضل السامري أمم قواك بعجل الهوى.

وكلما سمعت الخطاب المخصوصة بداودة الامتحانات الصادرة عن حضرة صفة الودودية، فاسمعها بلطيفتك الروحية التي عملها صفة لبوس الواردات الودودية في كسوة العبادة؛ لتحصن أمم قواك قواها على سيوف الظنون الكاذبة، ورماح الأوهام الفاسدة، وسهام الشكوك الطارئة عليها الخارجة عن مشي الشبه المخصوصة بالشيطان، وأذعن لجميع ما في ضمن الخطاب؛ لئلا يوحشك عن ربك الودود أنسك الحاصل من الاشتغال بأمر القالب الفاعل فعل الروح الفاعل به.

وكلما سمعت ما فيه من أحوال عيسى والخطاب العتابي، الذي خاطبه ربه في كلامه بقوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:116]، وكان مخصوصًا بأن يغلظ أمم قواه الغير المزكاة؛ لأنهم نظروا بعين غير مكتحلة بنور الإيمان الخفي، أن قابليته أم القالب وفاعلية الرب بلا واسطة الروح الصوري الشهادي، وظهور

اللطيفة الخفية؛ فأثبتوا له الأبوة والأمومة والبنونة، وقالوا: ﴿ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة:73]، وقالوا: بالاتحاد خلاف الأمم الماضية غير الأمم المخصوصة باللطيفة السرية؛ لأنهم ظنوا بعزير أنه ابن الله، وهذا غلط مخصوص بالواصل الغير الكامل إلى عيني السر والخفى؛ لنزاهتهما عن الكدورات القالبية، وخصوصيتهما بتجلي الروح السري والقدسي، فاسمعه بلطيفتك الخفية وتشمر لإخراج الغرور بظهور النور القدسي في عقلك.

وقد قال في مقام الاعتذار لحسن الأدب الذي كنت قلته فقد علمته، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:116]؛ لأن غيب الخفى مع كونه محيطًا بالقبوب الخمسة: الروحية، والسرية، والقلبية، والنفسية، والقالبية، محاط غيب الغيوب وهو غيب اللطيفة الخفية.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ [المائدة:118] بما قالوا لجهلهم بما قالوا، ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة:118] بكشف غطاء سبل الجهل عن بصر بصيرتهم؛ ليتوبوا مما ظنوا ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:118]؛ يعني: أنت غالب على أمرك تقدر أن تغفر لهم مجانًا، ولكن لا يمكن أن يصدر عنك شيء خالٍ عن الحكمة؛ لأن القدرة لا تنبعث إلا بالحكمة، فإذا أراد الله ظهور ما في علم القديم، المقرون بالحكمة يظهر بقدرته، النافذة في أوانه بأمر الإرادة، الصادرة عن حضرة العلم متيقنًا محكمًا.

وكلما سمعت ما فيه خطاب مع حبيبه، والإشارات لأنه هو مخصوص بها؛ فاسمعه بلطيفتك الحقية المخصوصة بالفيض الوجودي الفائض من نهاية حضرة النقطة الواحدية، نيابةً عن حضرة النقطة الذاتية بعد امتزاج الحقوق بعضها ببعض في اللطائف كلها، المستجمعة في بنية بناها الحق ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، وهو آخر التراكيب وخواتم المواليد؛ ليكمل البدن المكسب، الذي هو: جنين مشيمة البدن المجعول الفاني، ومشيمة جنين القلب الحقيقي الذي كان الكافر بمعزل عنه، وهو صدق ذرة اللطيفة الأنانية المستحق للمرآتية، الملقى في يم الناسوت.

ويلغ أمتك على حد الأمانة ما خاطبك حبيبك، الذي هو ربك في الكلام المجيد الحميد، ولا تكن فظًا غليظًا بأمم قواك، وكن بهم رءوفًا رحيمًا، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه، واقرأه [تلاوة] غير مستعجل في البيان؛ لأن بيانه علينا ﴿فَإِذَا

﴿قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:18]، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:19]، ولا تحرص على هداهم؛ لأنك ﴿لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56].

وتيقن بأن الشقي شقي الأزل والسعيد سعيد لم يزل، ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52] في القوة الحقوقية، المزكاة عن الحظوظ المخصوصة باللطيفة الحقية، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:52]؛ لأنهم يتبعونك لحبي إياك، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:52] على الحقوق المخصوصة، وامتثل إشاراته النافذة في الشر والغلظة، على أصحاب الحظوظ المكدرة، الذين هم أعداء أرباب الحقوق والدين والرحمة، على أرباب الحقوق المطهرة عن الحظوظ، الذين هم أولياء الحق.

وأمر أمم قواك المزكاة، الذين هم ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة:143] خير الأمم، ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:143] كلهم، وأنت عليهم شهيدًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتيقن بأن كل لطيفة من اللطائف السبعة أمة من القوى المخصوصة بها، فكل قوى معتدلة ثابتة على حال اعتدالها فهي الأمة المؤمنة، وكل قوى منحرفة ثابتة على الانحراف فهي الأمة الكافرة، متلونة غير ثابتة على الاعتدال والانحراف؛ فهي الأمة المنافقة، والأمة القريبة الشبيهة في الاعتدال بحقيقة اللطيفة، فهي نبي من الأنبياء والذين كانوا بعد آدم عليه السلام في الآفاق، وهداية الناس إلى دين أبيهم آدم، حتى وصلت نوبة النبوة إلى نوح عليه السلام فأسس أساسًا، وأوضح شريعة قريبة من استعداد أهل زمانه في الفروع فوحي الله تعالى بيِّن من الأول، فكل نبي كان بعده دعا الناس بشريعته إلى الحق إلى أن وصلت نوبة النبوة إلى إبراهيم عليه السلام، فكذلك كان الأنبياء بعده داعين أممهم شريعة إلى الحق إلى أن وصلت نوبة النبوة إلى داود عليه السلام، وخُصَّ بالزبور فدعا عموم الناس بما في التوراة، وخواصهم بما في الزبور.

وكذلك استن الأنبياء بعده سنته في دعوتهم الناس إلى الحق، حتى وصلت نوبة النبوة إلى عيسى، المبشر بقدوم أحمد - خاتم الأنبياء بعد سنته، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين صلاة الله وسلامه عليه - فنسخت شريعته الشرائع، وختمت عليه النبوة، وصار

علم أمته، كأنبياء بني إسرائيل دعوا الناس على وفق شريعة الزهد الحنيفية السمحة السهلة إلى الصراط المستقيم، ويدعوهم خلفاؤهم بعدهم قرنًا بعد قرن إلى آخر الزمان وانقراض العالم؛ لأن دينه الفطري في الكمال كبنية الإنسان الذي هو خاتم المواليد، ولا يمكن أن يزيد عليها أو ينقص منها شيئًا، ولو تزيد أو تنقص لتشوهت الخلقة وتنشأ الصورة وتختل البنية؛ لأن الله تعالى جمع جميع الكمالات فيه، وجعل بوجود نقطته الظاهرة دائرة النبوة متصلة، وأدار دائرة الولاية بنقطته الباطنة الثابتة في المركز عند إدارة دائرة النبوة بعد اتصالها؛ ولأجل هذا قال محمد ﷺ لعلي: «يا علي إن الله قال لي: يا محمد بعثت علينا مع الأنبياء باطنًا ومعك ظاهرًا»، وصرح هذا المعنى في قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، ولكن لا نبي بعدي»[1]؛ ليعلموا أن باب النبوة قد ختم وباب الولاية قد فتح.

وإشارة بعث علي مع الأنبياء باطنًا إلى سر الولاية الذي ظهر بعد محمد ﷺ؛ ليكون علم أمته الذين هم الأولياء، داعين الناس في سوادية دائرة الولاية وبياضيها إلى الحق، واللطيفة الخفية أفق الحق المبين لا يمكن التجاوز عنه؛ لأنا بينا أن ليس الممكن أن يصير الممكن واجبًا، فكل واحد يعرف لطيفته الخفية، ويصل بالسلوك والسير والطيران والجذبة إليها، وتطهير قوى لطائفه عن الحظوظ المكدرة بالباطل النسبي، وتحليها بالحقوق الصرفة؛ فهو محمد حقًا، وإلا فلا يغرنك قولك: أشهد أن محمدًا رسول الله، بأنك محمدي.

وعليك بالتيقن بأنك وصلت إلى لطيفة تكون فيها، وتتنعم بالنعيم المخصوص به الأمم من القوى المزكاة المختصة بها، وإن كنت اليوم سالكًا طريق المصطفى على وفق دينه محشورًا تحت لوائه، وإن كنت ما وفقت اليوم لتطهير قواك من الحظوظ؛ لتعذب بعذاب مخصوص بالقوى الغير مزكاة المختصة بتلك اللطيفة، ولا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد

---

(1) حديث البراء وزيد: أخرجه الطبراني (5/ 203، رقم 5095). وحديث سعد بن أبي وقاص: أخرجه الطيالسي (ص 28، رقم 205)، وأحمد (1/ 179، رقم 1547)، والبخاري (3/ 1359 رقم 3503)، ومسلم (4/ 1870، رقم 2404)، والترمذي (5/ 641، رقم 3731) وقال: حسن. وابن ماجه (1/ 42، رقم 115). وحديث أم سلمة: أخرجه الطبراني (23/ 377، رقم 892)، وأبو يعلى (12/ 310، رقم 6883).

السلوك ومشاهدته من حيث العيان وما سمعه من هذا البيان، والله المستعان وعليه التكلان.

وإياك وإلقاء الشيطان بأن هذه الحكايات طامات؛ لئلا تضل وتشقى، وتيقن بأن من ينكر تفسير القرآن في عالم الآفاق الناسوتي؛ فهو ملحد باطني عينه، ومن ينكر تفسير بطن القرآن في عالم الأنفس الملكوتي بعد إقراره بالظهر؛ فهو جاحد مشبهي بليد، ومن يجمع بين الظاهر والباطن وهو مسلم سني سعيد، ومن يعرف حد القرآن في عالم الجبروت فهو مؤمن عارف رشيد، ومن يطلع على مطلع القرآن في عالم اللاهوت؛ فهو محسن كامل شهيد على الأمم مطلع على الغيوب حميد مجيد، وتفسير ظهر القرآن يتعلق بالخلافة، وتفسير بطنه يتعلق بالولاية، وتفسير حده يتعلق بالولاية، وتفسير مطلعه يتعلق بالمحبوبية، التي أشار الحبيب المطلق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ إليها في زمن إخباره عن ربه أنه تعالى قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا..» إلى آخر الحديث[1].

ولا تغلبنك الظنون الفاسدة الكاذبة بأن صاحب اللطيفة القالبية ينبغي أن يكون عاريًا عن حقائق اللطائف الأخرية؛ لئلا يغلط.

واعلم أن حقائق اللطائف محققة في وجود كل صاحب لطيفة إما غالبية، أو مغلوبة، وإما معتدلة؛ فصاحب اللطيفة القالبية المرباة بفيض الكرسي القريب إلى عرش النفس غالبًا، وفيض العرش مغلوبًا بلا واسطة النيران العلوية بعد تكميل البدن، المجعول المستودع فيها اللطائف العشر المرباة بفيض النيران العلوية السماوية، وسفلية العنصرية متجمع لحقائق اللطائف المتسعة.

ولكن حقيقة اللطائف القالبية فيه عالية والأصالة في اللطيفة الغالبية، التي بها يمتاز نوع الإنسان من جنس الحيوان، فظهر في مشية بدنه المجعول جنين البدن المكسَّب الباقي، بعد خراب البدن المجعول الفاني لصاحبها والتبعية لغيره، وكذا صاحب اللطيفة النفسية المرباة بفيض جوهر النفس المسمى بالعرش غالبًا، والعقل مغلوبًا بلا واسطة الكرسي،

(1) تقدم تخريجه.

وبها يمتاز الإنسان المدني بالطبع من الآفاقي بالأصالة فيها والتبعية لغيره، وعلى هذا القياس تكون الأصالة في اللطيفة القلبية المرباة بفيض لوح العقل غالبًا، والمداد النوري مغلوبًا لصاحبها والتبعية لغيره، وبها يمتاز المسلم من الكافر.

وفي اللطيفة السرية المرباة بفيض المداد النوري المحمدي غالبًا، والدواة الروحية الأحمدية مغلوبًا بلا واسطة لوح العقل أيضًا، لصاحبها الأصالة ولغيره التبعية، وبها يمتاز المؤمن الكامل من المسلم الغير الكامل.

وفي اللطيفة الروحية المرباة بفيض الدواة الروحية الأحمدية غالبًا، والعلم الخفي مغلوبًا بلا واسطة المراد النوري، الأصالة لصاحبها والتبعية لغيره، وبها يمتاز المؤمن المكمل من المؤمن الغير المكمل.

وفي اللطيفة الخفية المرباة بفيض العلم الخفي غالبًا، والنقطة الواحدية مغلوبًا بلا واسطة الدواة الروحية، وبها يمتاز النبي المستغني عن أن يكون محتاجًا في التكميل إلى غيره من الولي المفتقر في التكميل إلى غيره، الأصالة لصاحبها والتبعية لغيره.

وفي اللطيفة الحقية المرباة بفيض نقطة الواحدية غالبًا، والنقطة الأحدية مغلوبًا بلا واسطة العلم الخفي، الأصالة لصاحبها والتبعية لغيره، وبها يمتاز الخاتم الذي لا ينقطع فيض تكميله أبد الآباد؛ لإقامته قرابة المسماة بالدرة اليتيمية المرباة في صدق اللطيفة مجازاة الوجه، ويسمى الدرة اليتيمية باللطيفة الأنانية الكاملة، القابلة لفيض الوجود من النقطة الواحدية نيابةً من النقطة الذاتية، والحياة الطيبة من وسطها خلافة من النقطة الأحدية، والنور من بدايتها أصالة غير غالبة ولا مغلوبة.

وبهذه الدرة اليتيمية المسماة بلطيفة الأنانية الكاملة استحق أن يكون صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة يوم الموعود؛ فإذا أفهمت هذه الأسرار الغريبة تيقن بأن للقرآن بطنًا، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن، كما نقل عن النبي ﷺ، وها أنا أشير في آية واحدة إلى بطونه السبعة بتوفيق الله تعالى وإلهامه وإذنه؛ ليتمتع المطالع الموصوف مما وصفه من قبل بالبواقي من الآيات قياسًا عليها، وهي قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:43].

فمعنى الآية في البطن الأول المخصوص باللطيفة القالبية: ينبغي أن يفهم السالك الواصل إلى غيب اللطيفة القالبية، المسمى بغيب الجن من هذه الآية أن الله تعالى ينادي قوى اللطيفة القالبية المؤمنة بفناء الدنيا وبقاء الآخرة، لا يقربوا حضرة ربهم وهم سكارى من خمر محبة الدنيا، حتى يعلموا ما يقولون في مناجاتهم، ولا يغلبنهم خاطر البيع والشراء، والطواف في الأسواق، وعمارة العقار والضياع، ومعاشقة الأزواج والأولاد وقت المناجاة.

ولا جنبًا من مساس حقيقة لطيفتهم القالبية محبة الدنيا الرعناء الغرارة، إلا عابري سبيل في مسجد البدن المجعول، الذي لا بد للسالك في المساس عند أخذ الحظ الذي يقوم به الحق، الذي كان قيام اللطيفة القالبية به، ومن العبور في مسجد البدن المجعول للاغتسال حتى يغتسلوا بماء الذكر الرسمي.

ومعنى الآية في البطن الثاني المخصوص باللطيفة النفسية: ينبغي أن يفهم السالك الواصل إلى غيب النفس أن الله ينادي قوى اللطيفة النفسية المؤمنة بما قال في كتابه الكريم، ونهى النفس عن الهوى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:41]، وبما قال في آية أخرى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] ألّا يقربوا حضرة الرحيم، وهم سكارى من خمر الهوى، حتى يعلموا ما يقولون في مناجاتهم، ولا يغلبنهم للهوى الميال إلى مخالفة المولى وقت المناجاة.

ولا جُنُبًا من مساس حقيقة لطيفتهم النفسية الصورية المهوية الهوائية، إلا عابري سبيل في مسجد الصدر المبني في غيب النفس للاغتسال، حتى يغتسلوا بماء الذكر التعليمي.

ومعنى الآية في البطن الثالث المخصوص باللطيفة القلبية: ينبغي أن يفهم السائر، الواصل إلى غيب القلب أن الله تعالى ينادي قوى اللطيفة القلبية المؤمنة بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام:165]، ألّا يقربوا حضرة الرحمن وهم سكارى من خمر محبة الحور العين، حتى يعلموا ما يقولون في مناجاتهم ألّا يقربوا حضرة، ولا يغلبنهم التفات خاطرهم الحور وقت الحضور.

ولا جنبًا من مساس حقيقة لطيفتهم القلبية الصور الحورية الخالدة الناعمة

الظاهرة، إلا عابري سبيل في مسجد القلب للاغتسال، حتى تغتسلوا بماء الذكر التلقيني.

ومعناها في البطن الرابع المخصوص باللطيفة السرية: ينبغي أن يفهم السائر الواصل إلى غيب السر أن الله تعالى ينادي قوى اللطيفة السرية المؤمنة بحسن المكاشفات وزيادة المشاهدات، كما نطق القرآن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] ألّا يقربوا حضرة الله وهم سكارى من خمر المكاشفات السرية، حتى يعلموا ما يقولون في مناجاتهم، ولا يغلبنهم المكاشفات الطارئة عليهم وقت التوجه.

ولا جنبًا من مساس حقيقة لطيفتهم السرية الصورية والنورانية وقت التجلي الصوري، إلا عابري سبيل من مسجد السر للاغتسال، حتى يغتسلوا بماء الذكر المثبت عند الجمهور المنزه عن الاحتياج بنفي الشريك.

ومعناها في البطن الخامس المخصوص باللطيفة الروحية: ينبغي أن يفهم الطائر الواصل إلى غيب الروح، أن الله تعالى ينادي قوى اللطيفة الروحية المؤمنة بما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:17]؛ أي: لا يقربوا حضرة النقطة الواحدية وهم سكارى من خمر ما قرت به عينه، وهو قرة العين المشار إليها في الحديث المشهور: «حتى يعلموا ما يقولون في الصلاة»[1] السدرية السرية، والمناجاة الروحية، ولا يغلبنهم زيغ البصر بالالتفات إلى قرة العين، وطغيان القدم بالإقدام، والإقبال عليها وقت التداني.

ولا جنبًا من مساس حقيقة لطيفتهم الروحية الصور الشهودية وقت التجلي النوري، إلا عابري سبيل في مسجد الروح للاغتسال، حتى يغتسلوا بماء الذكر الهوى بعد الخروج عن روزنة هاء الله.

ومعناها في البطن السادس المخصوص باللطيفة الخفية: ينبغي أن يفهم الطائر الواصل إلى السواد الأعظم في الغيب الخفي، أن الله ينادي قوى لطيفتهم الخفية المؤمنة بما أخبر النبي الأمي الصادق ﷺ عن الله في قوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت

(1) أخرجه عبد بن حميد (ص 56، رقم 82)، والترمذي (5/ 238، رقم 3026)، وأبو داود (3/ 325، رقم 3671)، والحاكم (4/ 159، رقم 7222)، والضياء (2/ 187، رقم 566).

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1]، ألّا يقربوا حضرة النقطة الأحدية وهم سكارى، ومن خمر مشاهدة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقت التجلي المعنوي خير التللي، حتى يعلموا ما يقولون في مقام قوسين أو أدنى، ولا يغلبنهم خطر أن القرب حال الثناء على الحق.

ولا جنبًا من مساس حقيقة لطيفة خفيتهم الصور القدسية، إلا عابري سبيل في المسجد الخفي للاغتسال، حتى يغتسلوا بماء الذكر القدسي المنزه عن الحرف والصوت المقدس عن الفكر الأنسي.

ومعناها في البطن السابع المخصوص باللطيفة الخفية: ينبغي أن يفهم المجذوب الواصل إلى غيب الحق المحيط بالغيوب، أن الله ينادي قوى لطيفتهم الخفية المؤمنة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:4] ألّا يقربوا حضرة النقطة الذاتية، وهم سكارى من خمر المعية وقت التجلي الذوقي، حتى يعلموا بما يقولون في وقت لا يسعه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا تغلبنهم المعية.. المعية.

ولا جنبًا عند مساس حقيقة لطيفتهم الحقية الرزق الصرف، إلا عابري سبيل في بيت الله الحرام وحوله على من كان معه، ثم في الحظ للاغتسال، حتى يغتسلوا بماء الذكر الأعظم المنور نور نوره بنور النقطة الذاتية المنور لألف الأزل والأبد، ويصح عنهم التوجه في الصلاة الحقيقة إلى قبلة وجه الوحدة في الكثرة، ويؤمنوا في غلط الاتحاد والحلول، ويؤمنوا بما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران:97]، وبقوله: ﴿وَلله الْمَشْرِقُ وَالْـمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ [البقرة:115].

وتيقن بأن القرآن سبعين بطنًا، كما نقل عن النبي ﷺ، وأشير إلى ما يمكن لك تصديقه؛ فاعلم أن اللطائف العشر السلالية وإخوتها ثابتة في كل لطيفة من اللطائف السبع المذكورة، ولكل لطيفة من العشر من القرآن حكم خاص وفهم خاص، فتكون سبعين بطنًا لكل آية من الآيات، بل سبعمائة إذا أيقنت بأن لكل لطيفة سلالية وإخوانها عشر حواس ظاهرة وباطنة إما بالقوة وإما بالفعل، فلكل عشر فهوم مما يتعلق بالبطن

(1) تقدم تخريجه.

فيكون له سبعمائة، والتي قد فتحت باب الاستنباط لأهل الوهب؛ فعليك يا طالب الوصل لماء هذه الغيوب، ليستحق للفيوض المختصة باللطائف السبع أن يظهر ظاهرك بمياه الأحكام الجارية في سواقي الآيات النازلة من حضرة الرب، وترك السكرات الصورية الشهادية؛ لتصلح للمناجاة.

ومن لم يطهر ظاهره بظهر القرآن لا يمكن له اغتراف المياه المطهرة من ينابيع البطون البتة، فالواجب على المسلم الشهادة في الإيمان بالغيب **أولاً**: ثم الاشتغال بالذكر التقليدي.

ثانيًا، حتى يتبدل الذكر التقليدي المأخوذ من أبيه وأستاذه وأهل بلده عادة بالذكر الحميد، الذي يحمد به عواقب صاحبه، ويدخل في غيب اللطيفة القالبية، ويلين جلده البشري ثالثًا؛ ليعلمه شيخه الذكر الكريم رابعًا، ويوصله بالتدريج إلى اللطيفة الخفية، ويجعله عارفًا بالاسم الأعظم ذاكرًا به مستحقًا للإذن بأحوال على الحضرة العظمى، مستجمعًا للخلافة والولاية والوراثة، وما اجتمعت الخلافة المخصوصة بظاهر النبوة، والولاية المختصة بباطن النبوة والوراثة المضمرة في حقيقة النبوة على حد الكمال في أحد، كاجتماعها في علي ﷺ وهو الإمام في المراتب الثلاثة، ومع هذا الغلبة نور ولايته ووراثته صار نور الخلافة معمورًا فيه، ونسيان الولاية معمورًا بسعيه، وسلطان الوراثة منظورًا برائيه.

واجتمعت أيضًا في أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لكن نور الخلافة والوراثة غالبًا فيهما على نور ولايتهما.

وفي عثمان ﷺ قد اجتمعت وكان نور خلافته أغلب من نور الولاية والوراثة، وكان صاحب هذين النورين على طفيلية الشيخين.

وعلي ﷺ كان صاحب نور الخلافة مستخلفًا عن الملك العلي الولي، وصاحب نور الوراثة - وراثة عن النبي ﷺ - وصاحب أنوار الخلافة نيابة عن الشيخين.

وعمر ﷺ كان صاحب نور الخلافة مستخلفًا عن الصديق الأكبر، وصاحب نور الوراثة من على الأنوار، وصاحب نور الولاية مستفيضًا عن السراج الأقمر والشفيع في المحشر.

وأبو بكر كان صاحب الأنوار الثلاثة مستخلفًا عن حضرة الرسالة، بالاستحقاق

الحاصل في المرتبة الصديقية، وقد صبَّها النبي ﷺ في صدره كما أشار إليه في الحديث المشهور بقوله ﷺ: «ما صبَّ الله في صدري شيئًا إلا وقد صببته في صدر أبي بكر»(1).

ويمكن اجتماعها في ولد من أولاد السيدة فاطمة ﵂ بعدما نطق به الحديث: «ليكون دينًا مهديًا في آخر الزمان»(2)، وليس من العجب اجتماعها في أحد من الناس بعدهم، ولكن الاعتدال فيها لا يمكن إلا للنبي الأمي الذي ختمت النبوة به، وانتظار خروج المهدي، وخاتم الولاية في الكسالة والبطالة ودناءة الهمة؛ فعليكم يا صعاليك المسالك بالاستقامة في الشريعة، والثبات في الطريقين، والتوجه الكلي إلى قبلة توحيد الطلب في الحقيقة؛ ليظهر فيكم القوة الهادية المهدية، وتدفع قوة الدجالية المودعة فيكم عند ظهورها ودعواها الإلهية، وهي قوة من قوى اللطيفة القالبية الغير مستخلصة عن الباطل، تظهر عند رقة حجاب قالبها.

والقوة الهادية المهدية قوة من قوى اللطيفة الخفية المستخلصة عن الحظوظ، تظهر عند وصول ذوق الذكر الأعظم إلى قلب الذاكر السالك، ويهديه إلى الصراط المستقيم، ويدفع عنه كيد الشيطان الرجيم والدجال الذميم، ولا يفيد لأحد يوم القيامة انتظار خروج المهدي وعيسى وخاتم الولاية، وغيرهم ممن ينتظره ضعفاء العقول إلا العمل الصالح الذي هو أثر التوفيق، وكيف يقيدوا النبي الصدوق ﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار لن أغني عنك من الله شيئًا»(3)، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [الجاثية:19]، فاجتهد اليوم في دار الكسب؛ لتعمل عملاً صالحًا قبل مضي زمانه، واشتغل بالرهان لئلا تخسر رأس مالك، وترجع إلى دارك صفر اليدين ﴿مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ [الإسراء:29].

فإذا تيقنت بما بينه؛ فاعلم أن القرآن المجيد الذي يقرأه الآفاقيون المكتوب على

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (2/ 419).

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه مسلم (1/ 192 ، رقم 204)، والنسائي (6/ 248 ، رقم 3644)، وأحمد (2/ 519 ، رقم 10736)، وإسحاق بن راهويه (1/ 261 ، رقم 228)، وأبو عوانة (1/ 88 ، رقم 268).

اللوح المحفوظ مظهرًا للقرآن الكريم الذي هو مخزون في كتاب مكنون، ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:79]، الذين طهرهم بالمياه المذكورة المخصوصة باللطائف السبع من أم الكدورات الحظوظية، الحاصلة لهم في عالم الكون والفناء، والقرآن الكريم مظهر للقرآن العظيم المخزون في أم الكتاب.

ومن فسر ظهر القرآن برأيه من غير السماع من مفسر، كان إسناده متصلاً بالصحابة ﷺ يكفر لجهله بأكثر أحكامه وأسباب نزوله وأمثاله.

ومن فسر بطن القرآن برأيه من غير إلهام سري أو روحي أو خفي، يكفر بجميع الإشارات الواردات عن حضرة الربوبية على دقائق القوى واللطائف الملكوتية.

ومن فسر ضد القرآن برأيه عن الإذن الصادر عن كعبة الإلوهية، يكفر بما دق دقائق الصفات الجبروتية.

ومن فسر مطلع القرآن برأيه قبل إذنه بالدخول في الحضرة العظمى، وبحصول الطامة الكبرى والاطلاع على كنه اللطيفة الخفية المربية اللطيفة الأنانية، يكفر بحقائق القرآن، فكما أن سلامة حسن السمع الظاهر الناسوتي شرط للمستمع؛ ليمكن له استماع ظهر القرآن، وتلقي تفسيره الظاهر من استناده الشهادي، فكذلك صحة السمع القلبي شرط للملهم في استماع بطن القرآن، وتلقي تفسير بطنه من استناده الغيبي، ومن لم يكن حاسة سمع قلبه الملكوتي سليمة هو الأصم الذي صرح بهم نص الكتاب؛ حيث قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171].

وعلى هذا القياس صحة سمع الجبروتي؛ لاستماع حد القرآن وتلقي تفسيره من الحق بلا واسطة اللطيفة السرية والروحية والخفية، شرط وصحة سمع اللاهوتي أيضًا، شرط لاستماع مطلع القرآن وتلقي تفسيره من الحق بلا واسطة اللطيفة الخفية، ومرض حاسة سمع الظهر يحدث لعارضه تألم بتجاويف دماغه، ومادة غريبة تنزل في زاوية صماخه، وتتراكم المواد الفاسدة على دريجة سمعه، حتى شد تلك الشدة باب السمع، وتعزل صاحبه على الاستماع، وتجعله محرومًا عن الفوائد المخصوص بالسمع.

ودواؤه بعد الاحتمال المعين بإرشاد الطبيب الحاذق تنقية باطنه عن المواد الفاسدة؛ لئلا ترتفع البخورات الغريبة إلى قبة الدماغ، ثم تزكية الدماغ عن البخارات المتصاعدة، ثم

لقوة الدماغ المزكي عن الأبخرة؛ ليصح ويمكن له الاستماع، ومرض حاسة سمع الباطن الملكوتي يحدث من استماع الأباطيل، ونزول مادة محبة الدنيا فيه.

ودواؤه احتماؤه عن الدنيا وصحبة أبنائه، واستماع مزخرفات أقاويلهم بإخراج مادة محبتها من القلب مسهل الذكر التعليمي، ومرض حاسة السمع الجبروتي يحدث من وجدان اللذة عن محبة الحور العين والرضوان، وتسبيح الملائكة المقربين الطائفين حول عرش الرحمن.

ودواؤه احتماؤه عن الالتفات إلى غير الله، وأخرج مادة محبة من سواه عن سويداء، بأطراف الذكر التلقيني، ومرض حاسة السمع اللاهوتي يحدث من شعوره بسماعه الحقائق ووجدان الذوق الذوقي منها.

ودواؤه احتماؤه أولاً عن رؤية وجوده، وإخراج مادة الذوق والوجدان ومحبة الوجود عن دماغ حبة قلبه بأياريج الذكر الأعظم المسمى بأيارج الفقراء، وهو أنفع من أيارج الفقراء؛ ليصح ويسمع صاحب السمع الحقيقي اللاهوتي عن الحق بالحق للحق حقائق أسرار الحق، فالمفسر الظاهري يغني النفوس بالتفاسير الثلاثة؛ ليكون من الذين يؤمنون بالغيب، والمفسر الحقيقي المطلع على بطن القرآن وحده، ومطلعه ينبغي أن يتحلى ظاهره بأحكام تفسير ظهر القرآن، ويجتهد في العمل بما علم؛ ليورثه الله علم ما لم يعلم، ويشرفه بالعلوم اللدنية الوهبية الغيبية، ويجعله عالمًا ربانيًا وارث علوم الأنبياء والمرسلين.

وشرط الإخلاص؛ لأن «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1]، والإخلاص في العمل أشد من العمل وأشق على النفس من جميع المجاهدات البدنية، وينبغي لصاحب العمل وطالب الإخلاص المداومة على العمل؛ ليفتح عليه باب الإخلاص يومًا من الأيام، وقد قيل: من قرع بابًا ولجَّ وَلَجَ، ومن طلب وجدَّ وَجَدَ، ونقل عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأعمال أدومها وإن قل»[2]، وإن لم يفتح في الدنيا فعليه أن يضع رأسه على عتبة الإخلاص بالمداومة على صوالح الأعمال، حتى يموت

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه البخاري (5/ 2373، رقم 6100)، ومسلم (1/ 541، رقم783)، وأحمد (6/ 165، رقم 25356)، والبيهقي (2/ 485 ، رقم 4342).

وعتبة المداومة على الأعمال المسنونة؛ ليفتح الله عليه باب الإخلاص حين كشف الغطاء، ويدخله في دار الرضوان، ويمنحه الحنان المنان بالعطاء الجزيل أمنًا عن المكر والاستدراج، سارحًا في رياض الجنة راضيًا مرضيًا، وهو صاحب العمل الدائم الواضع رأسه على عتبة الإخلاص عند الرحمن.

يا أيها المطالع سلم تسلم، ويا أيها المسلم آمن تؤمن، ويا أيها المؤمن أخلص تخلص، والإخلاص مثل الدهن، والإيمان مثل اللب، والإسلام مثل القشر؛ فإن لم يكن القشر لم يكن اللب إلى كمال يحصل منه الدهن، فتربية القشر في بنان الشهادة بماء الشريعة على وفق قانون الدهقان الشهادي واجبة، وعصر اللب بعد تجرده عن القشر الخارجي والداخلي في ركان الطريقة على وفق رأي الشيخ - الذي هو العقار - الغيبي واجب؛ ليحصل منه الدهن المطلوب من اللب والقشر، وصب الدهن في قنديل الحقيقة بأمر الفراش الحقيقي في حضرة السلطان واجب؛ ليظهر سر تهيئة القشر بأمر الدهقان وتجرد اللب عن القشر الخارجي والداخلي وعصره بأمر الشيخ العقاد وصبه في القنديل بأمر الفراش عند اشتعال النار المباركة المضيئة بيته الخاص عند مطالعة البطلان كتاب جامع الحساب، وثناؤه على نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64]، ويجد الكتاب ذوق ثناء المطالع ويلتذ به أبد الإبادة.